

العدد الثالث ـ السنة الحادية عشرة ـ شوال 1387 ـ يناير 1968
دعوة الحق
مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
خاص
بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم
تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية
ثمن العدد درهم واحد

العدد الثالث
السنة الحادية عشرة
شوال 1387
يناير 1968
ثمن العدد
درهم واحد

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ــ قسم التحرير ــ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ــ المغرب . الهاتف 10 ــ 308

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ــ 485 ــ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ــ قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« **دعوة الحق** » ــ قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط
تليفون 308.10 ــ 327.03 ــ الرباط

كلمة العدد

أمة انبثقت من كتاب

اما « الكتاب » فهو القرآن ..

واما الامة فهي الامة الاسلامية ..

وقد عاشت هذه الامة قبل البعثة المحمدية في وثنية خرقاء ، وخرافة مضللة ، وجهالة عمياء ، فالعالم ، اذ ذاك ، كان متلبدا بسحب كثيفة من القلق والاضطراب ! والحيرة والفوضى ! وكان اعتماد الناس على وسائل الشر اكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ..

وكانت الحاجة تدعو الى بعث جديد ، ووعي رشيد ، وحياة ونشور ، فانبعثت موجة هادئة من النور الهادي في خضم ذاك الزمان المضطرب فايقظ امة كانت سادرة في غلوائها ، تائهة في بيدائها ، وبعث قبائل جامحة عاشت ردحا من الوقت في بحر لجي من ظلام الشرك يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، فافتر فم الزمان عن ابتسامة عذبة اشرقت لها ارجاء الكون المغمور بالظلام والفوضى ، وملأته بانوار الحق والقوة والجمال ...

ولم يكن ذاك النور الهادي الا رسول الهداية الذي جاء لاصلاح اوضاع العالم المشرك ، وبيده « كتاب » مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، تندى له القلوب اليابسة ، وتستيقظ لروعته النفوس الوانية ، ففتح الاعين العمي ، والآذان الصم ، والقلوب الغلف ، ثم دفع بالامة العربية وبابنائها وشبابها الى رابية المجد ، وقدسية الشرف ، وآفاق المعرفة .

في البداية حارت عقولهم في هذا « الكتاب » وطاشت افئدتهم لبلاغته ، وتدلهت دونه احلامهم ، وهم الفصحاء اللسن الذين عرفوا بشموخ العرنين ، واباءة الضيم ، فحاربوه واستنفذوا ما عندهم من قوة في اخفاء ظهوره ، واطفاء نوره ، فما قدروا ، وابلسوا ، فما نسبـــوا !! .

وأتم الله نوره ، ولو كره الكافرون ..

واخيرا ، انصاعوا لامره ، ونزلوا على حكمه ، وعاشوا مع هذا ((الكتاب)) المبين في موسم الخير ، ومواكب النور ، ومنابع الهدى ، ومحافل الايمان ، لانه حمل اليهم رسالة الله ، وجعلهم خلفاء وملوكا ، وآتاهم من القوة والباس وسعة السلطان ما لم يوت احدا من العالمين ...

خاضوا بايمانهم الصادق أعنف المعارك ، واشدها قسوة وضراوة ، فانتصروا . وواجهوا — ونورهم يسعى بين أيديهم — زحوف الجاهلية الجاحـدة ، فقهروهـا ، وارجعوها ناكصة على الاعقاب ، موالية الادبار ذلك بانهم تمسكوا بما لم يضلوا بعده، فهدوا الى الطيب من القول ، وهدوا الى صراط مستقيم .

شيدوا للحضارة الانسانية الزاهرة صرحا متينا ، واقاموا العالم العاثر من كبوته، وايقظوه من سباته وغفوته ، لان ((كتابهم)) الخالد كون منهم أمتن رابطة روحية تجمع بين الامم والافراد ، والاشتات والاضداد ..

كانت اعمالهم يغمرها جمال التقوى ، ويسودها الاخلاص والاحسان والايمان ونكران الذات ، ويجملها حب التضحية والفداء .. ((فكتابهم)) حبب اليهم الايمان ، وزينه في قلوبهم ، وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان .

حضهم هذا ((الكتاب)) على النظر في خلق السماوات والارض ، وحثهم على التأمل في ملكوت الله ، وما خلق الله من شيء ، ونبههم الى ما في انفسهم ليبصروا ، وشجعهم على اعمال الفكر ، واستعمال العقل لفتح مغاليق الكون ، فلم تكن أمـة الاسلام في تفتحها مهملة لعقولها ، ولا مقصرة في تفكيرها ، تعيش في جمود مطلق ، وخمود مميت ، غير آخذة باسباب البحث والخلق والابداع ، بل كان لها من مكامن القوى ، ومذخور الطاقات ما جعلها امة ملتزمة تنشيء حياة جديدة على اس من الخلق والدين ، وتبني صرح الحضارة الانسانية ، وتحمل مشكاة التقدم والحضـــارة والعمـــران ..

هذه المعاني السامية الحافلة بالحركة والالتزام هي التي ضمنت لتلك الامـة الاسلامية الوسطى حياة مستمرة دائمة التدفق والعطاء ، وحبتها منابع ثرة يستريح اليها الحران واللاغب ، ويطمئن الى ظلها الوارف المطارد والشارد .

واليوم ، وفي حاضر العالم الاسلامي ، هل من يقظة واعية تعيد لهذه الامـة الاسلامية المخدرة مجدها الناهض ، وبطولتها الموروثة ، وعزها التليد ؟

وهل من شروق جديد لفجر هذه الشعوب الاسلامية التي تخلت ، في تخـاذل وتناكر وتدابر ، عن رسالتها المثلى ، فاستولت عليها المطامع السود ، والاهـواء الاثيمة ، فاصبحت مع العالم المتقدم الزاحف ، كنون الجمع حين تضاف ؟!

وما موقف العالم الاسلامي اليوم ازاء الحضارات الحديثة ؟ وما مدى مساهمته ومواكبته للتقدم العلمي والتطور التقني والقوة الحربية الرهيبة ؟

ان « كتاب » المسلمين الخالد الذي هو أثبت من الجبال رسوخا ، واقوى من الشمس ثباتا ودواما ، يدعونا ــ جميعا ــ الى اتخاذ كل الاسباب للتطور ، ومسايرة الركب العام ، لانه « كتاب » الاسلام العام الخالد الذي يدعو الى المحبة والعدل والسلام ، ويؤاخي بين مختلف الاجناس والثقافات والالوان ، وان له اليوم ، ولله الحمد ، في رقعة العالم الاسلامي التي تمتد من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي ، وفرة من مصادر الثروة الطبيعية ، ووفرة بشرية متزايدة تجعل قوته العددية يخشى باسها ، وتنذر اعداءها وخصومها ومن في قلوبهم مرض بشر مستطير .

وظروفهم اليوم اشبه ما تكون بظروف الامس بكل ملابساتها ، فقد نزل الروح الامين ، في البلد الامين ، على الرسول الامين « بالكتاب » المبين ، وهو صلوات الله عليه في العصيب من الزمن ، وفي حالة الحزن والاسى ، وفي حالة الحرب والسلم ، والنعماء واللأواء ، والشدة والرخاء ، فكانت آياته المبصرة افضل عدة للصبر ونصرة الحق ، وخير حافز للنضال والجهاد .

ان المسلمين في الحالة الحاضرة مدعوون لاقامة وحدة متماسكة الوشائج ، وثيقة العرى ، مستمدة من كتابهم الذي الف ، في الماضي ، بين قلوبهم ، فاصبحوا بنعمته اخوانا ، وقد كانوا من قبل على شفا جرف هار .

ان « كتابا » اسهم في خلق مجتمع فاضل ، وانبثقت منه أمة ، اسست حضارة راقية ، لخليق بان يعيد لهذه الامة مجدها الضائع ، وعزها المفقود ، ما ان تمسكت « بالكتاب »

دعوة الحق

الدرس الديني الجامع الذي القاه صاحب الجلالة بالضريح الحسيني

كم من رجل لو أقسم على الله لأبره

نص المحاضرة الدينية الجامعة التي القاها سيد البلاد صاحب الجلالة امير المؤمنين مولانا الحسن الثاني نصره الله وايده في شهر رمضان المعظم امام علماء الاسلام في المشرق والمغرب الذين حضروا الدروس الدينية الرمضانية التي عقدت بالضريح الحسني، مساء يوم السبت 14 رمضان المعظم 1387 (16 دجنبر 1967).

وقد تناول حفظه الله في درسه القيم شرح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه « كم من رجل لو اقسم على الله لابره ».

قال صاحب الجلالة امير المؤمنين نصره الله وايده :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول الصادق الامين.

اما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الامور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا، رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث، فاطر السماوات والارض انت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين.

ايها السادة

ايها العلماء الافاضل

جرت العادة في نهاية دروس رمضان ان اتطفل على مائدتكم وما هو من اختصاصاتكم، فنحن لسنا من الفقهاء ولا من المحدثين ولا من المفسرين المتخصصين، فسلفا نرجو منكم التسامح، كما اننا نطلب من الله سبحانه وتعالى ان يعيننا على تفسير هذا الحديث وشرحه وتطبيقه تفسيرا وشرحا وتطبيقا يزيدنا ايمانا وتعلقا بملة أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

التذكير من مهام الراعي

وقد تذكرت بهذه المناسبة مثلا عربيا عاما اصوغه في قالب فصيح وهو يقول : (لا تتخل عن عادات، يسبب لك تركها معادة)، اذن فما علينا الا ان نحافظ على هذه العادة، ونسهم معكم بنصيبنا لا كمفسر ولا كمحدث ولا كعالم ولا كاستاذ، ولكن كراع عليه مسؤوليات الراعي، ومسؤوليات الراعي — كما تعلمون — هي مسؤوليات جسام ومتعددة في انواعها وازمنتها وامكنتها، ولما كانت هذه الرعاية تصادف شهر رمضان الذي هو شهر الصيام والامساك عن كل معصية، وشهر الانابة الى الله تعالى — صارت رعايتنا — اعتبارا للزمان وللمكان في شكل تقديم بعض النظريات من شانها ان تعزز جانب الدين في قلوبنا وتثبت عليه اقدامنا.

كم من رجل لو اقسم على الله لابره

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(كم من رجل لو اقسم على الله لابره)



صاحب الجلالة يلقي درسه الجامع امام حشد من السفراء
والوزراء والعلماء .....

انني وجدت هذا الحديث لطيفا فى مبناه ، عظيما فى معناه ، وجدته بابا مفتوحا وافقا فسيحا لا حد له ولا نهاية امام كل عبد مسلم ، وقبل ان اشرح هـذا الحديث واطبقه على ديننا وعلى دنيانا وعلى المسلمين اجمعين ، اود بطريقة موضوعية — ان لم اقل بطريقة حديثة — ان اظهر فضل هذه الديانة ، ديانة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، على سائر الديانات الاخرى ، حتى يمكننا اذ ذاك ان نقيس اعمالنا ومعاملاتنا بالديانة الاسلامية ، وحتى يمكننا ان نبشر انفسنا ويبشر بعضنا بعضا انه من الممكن ان يكون منا فى كل زمن وفى كل وطن ذلك الرجل الذي اذا اقسم على الله ابره .

الاسلام مسك ختام الرسالات السماوية

انني اطلعت فى صحيح الامام مسلم على حديث لا احفظ نصه يشبه فيه النبي صلى الله عليه وسلم الديانات والرسل ، يقول فيه عليه السلام ما معناه : مثل الديانات والرسل كمثل بيت اقيم ولم تبق فيه الا لبنة : وانا لبنة ذلك البيت : اللبنة العليا ، بيت القصيد ، واسطة العقد ، الخاتمة ، مسك ختام الرسالات والنبوءات ، فاذا نحن طبقنا هذا الحديث على تطور الانسانية وعلى تطور الديانات وجدنا ان الديانات السماوية وبالاخص التي نعرف عنها والتي ما زلنا نقرا عنها هي رسالات ثلاث : رسالة موسى عليه السلام وما تبعها ، ورسالة عيسى عليه السلام وما تبعها ، ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

الاديان من حيث الزمان والمدلول والرسول...

واذا اردنا ان ندخل فى هذا الشرح بالتمحيص وجب علينا ان ننظر الى هذه الديانات من وجوه ثلاثة :

1) زمانها
2) مدلولها
3) الرجل الذي دعا اليها .

اما عن الزمان فقد قيل — وانا مقتنع بذلك — فى هذا المجلس ، وفى الكتب وفى مجالس اخرى ، ان لكل مرسل بديانة معجزات تناسب زمانه ، فمعجزة موسى كانت من جنس السحر لكثرة السحرة فى عهده ، ومعجزة عيسى عليه السلام كانت من جنس الطب لانتشار الطب فى زمانه ، فقد ابرا الاكمه والابرص واحيى الموتى باذن الله ، ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم هي القرآن المعجز ، فقد خلق صلى الله عليه وسلم أميا فجاء بهذا القرآن الذي ليس له مثيل ، والذي تحدى فصحاء العرب وبلغاءهم — وما اكثرهم فى زمانه — ان ياتوا بسورة من مثله فعجزوا .

انا اقدر هذه الاقوال كلها ، الا انني اعتقد انه من المستحسن ان ازيد بعض التفسيرات فى هذا الباب :

كلنا يعلم ان موسى ازداد فى مصر ايام الفراعنة، وان الفراعنة كانوا على علم عميق ، وبالاخص الرهبان الذين كانوا يحيطون بهم ويفتونهم فى أمرهم ، والذين كانوا يسيرون حقيقة سياسة الدولة ، لم يكونوا على علم عميق بالسحر فقط ، بل كانوا بالاضافة الى ذلك على علم بجميع الرياضيات التي كانت معروفة اذ ذاك، فلم تكن اذن العصا التى اوحى الله الى موسى ان يلقيها الا معجزة مناسبة .

كان موسى يعرف خواص الزئبق ، وانه اذا القى فى الحرارة أو وضع تحت الشمس أخذ يطول ويطول فيتحرك بالعصا ، فكانت معجزة موسى عليه السلام على حد فهم اهل زمانه .

ولا ننس ان البشرية كانت اذ ذاك فى جهالة جهلاء فكانت تاخذها الخشية وتفر اذا امطرت عليها السماء بالضفادع ، لانها لم تكن اذ ذاك تعرف ان هذا شيء ممكن وعادي ، لان الضفادع تبيض فى الاودية والانهار، وحينما تمتص الشمس بخار الماء تاخذ معه ذلك البيض الذي يكون صغيرا جدا فينمو فى السحاب ، واذا به ينزل يوما ما فى صورة ضفادع ، شيء وقع ، اظهره الله فى ذلك الوقت على يد موسى ليمكنه بذلك ان ينقذ الفكر البشري مما كان مخيما عليه من الجهل وعدم معرفة هذه الاسرار .

ومما هو معروف فى بلاد الشرق وأرض الكنانة — ان السماء تمطر بعض المرات ماء أحمر ، لان الرياح لما تاتي تاخذ الماء والبخار ومعه شيء من الطين الاحمر فيتكون الماء عند التقاء السحاب فينزل الماء كانه دم ، وكان من معجزة موسى عليه السلام انه طلب من الله ان تمطر السماء ماء أحمر حتى يزد جريه فرعون وقوم فرعون ، لا السحرة ، ونحن نعلم اليوم علم اليقين ان سيدنا موسى عليه السلام كان من تلاميذ الرهبان قبل ان ياتيه الوحي ، فقد قرا عليهم كثيرا ، واخذ عنهم كثيرا ، وبذلك تمكن من معرفة ما ينفع به شعب مصر ومن يحدق به من الشعوب الاخرى من الاشياء التي

تستلفت الانظار الى اهمية بعض الاحداث الكبيـــرة والظواهر الكونية العظيمة .

عيســى يحــرر الافــــراد

اما معجزة عيسى عليه السلام فاننا نقـرأ فى الانجيل ان الولاة — حينما يزور عيسى عليه السلام بعض المدن والقرى — لا يشتكون من معجزاته كاحياء الموتى وابراء المرضى بل يشتكون دائما من شيء واحد موجود فى تقاريرهم ، هو أن عيسى يحشد حوله دائما اقواما واقواما ، وكلما خطب فى الناس زاد عددهم وتمردوا فكريا ، وصاروا متمردين على الحكم القائم ، فمعجزته الحقيقية لم تكن منحصرة فى الطب ، بل كانت تحرير الافراد ، وكلنا يعلم أن البشرية لم تعرف قط العدد العديد والجموع الكثيرة من الاسارى والعبيدكما عرفتها ايام عيسى عليه السلام ، كانت روما مسيطرة اذ ذاك على العالم كله ، وكلما دخلت قرية افسدتهـا وجعلت أعزة أهلها اذلة واسترقت الجميع ، فجـاء عيسى عليه السلام بالمساواة بين القوي والضعيف ، جاء عيسى بنفي الاستعباد ، الانسان حر ، فحـرر الرجال ، وحرر الرقاب، وصار ينادي بالتحرروالحرية، الشيء الذي جمع عليه الآلاف والآلاف من البشر .

ويمكننا ان نقول فى موسى وعيسى ان موسى لم يكن له وطن ، وان عيسى كان لاجئا سياسيـا فى جميع الاقطار التي حل بها ، مسالة الوطن مهمة جدا ، الشيء الذي سيظهر ميزة اخرى تتعلق بالاسلام .

المعجـزة الخـالـدة ...

اما الديانة الاسلامية فاعجاز القرآن هو معجزتها الخالدة ، هو المعجزة التي تجعل من المستحيل أن يترجم القرآن بنصه وفصه ومعانيه وبلاغته الى لغات أخرى ، الا أن هناك معجزة أخرى تتمثل فى الاعجاز الذي نجده فى القرآن ، فلو اخذنا (الاميين بالتفسير المتعارف عليه لما كان فى امكاننا ان نثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل الى الناس كافة ، فلا ننس انه كان اذ ذاك الفرس ، والبزنطيـون ، وروـمـا ، وفيتاغورس ، واريسطو ، والشعـراء والفقهـاء ، والمهندسون ، والاطباء ، فكان الشرق مـا عـدا الجزيرة العربية — كله يقرا ويكتب فاذا نحن قلنا ان النبي صلى الله عليه وسلم ارسل للاميين الذيـن لا يعرفون الكتابة والقراءة ضيقنا نطاق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم .

فما هو التاويل اذن ؟

التأويل هو قول النبي صلى الله عليه وسلم (انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق)

فالامي ينقسم الى قسمين :

الامي من ناحية العقل والكتابة والقراءة ، والامي من ناحية عدم تطبيق تلك القراءة والكتابة فى سيرته وفى معاملاته وفى مبادلاته وفى بيعه وشرائه ، وفى زواجه وطلاقه ، فاذا نحن اطلقنا لفظة الامي فيمكن ان تكون بمعنى الجاهل الذي لا يقرا ولا يكتب ، ويمكن ان يكون الامي ايضا ذلك الرجل الذي يعرف القراءة والكتابة ولكنه لا يطبقها حسب الشريعة والاخلاق ، فعلى هذا التاويل يمكن تفسير قول الله تعالى (هو الذي بعث فى الاميين رسولا) بأن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم هي فى الحقيقة رسالة للناس كافة .

قصر الامية على جزيرة العرب أو قسم منها شيء معروف ، والدليل على أن طرفا من جزيرة العرب لم يكن أميا هو اليمن ، فقد ذكر الله سبأ فى القرآن وضرب بها المثل ، وان مدنية اليمن وحضارة اليمن وعلمـاء اليمن لم يكن ليضاهيهم احد فى زمانهم ، فالنقطة الاولى هي تمايز بعض الرسالات السماوية على بعضها مـن حيث الزمن ، وميزة رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم جاءت لتعليم البشر وتربيته ، فظهر لنا فضل رسالة سيدنا محمد عليه السلام من حيث الزمن .

هـــؤلاء الرســـل ...

من هو موسى ؟

ومن هو عيسى ؟

ومن هو محمد ؟

كيف كانت حياتهم ؟ وكيف كانت مشاعرهم ؟ ماذا عرفوا من الدنيا ؟ ومـاذا شهـدوا منهـا ؟ ومـاذا جربوا ؟ وماذا لم يكتسبوا من التجارب ؟

اما ما نعرف عن موسى فهو قليل ، فالتـوراة نفسها نرى فيها غموضا بين وقت ووقت ، بين الوقت الذي اخذه فرعون ورباه فى بيته ، وبين وقت النبـوءة والرسالة .

ولكن يمكننا ان نتتبعه فى وقت نبوته ، فنراه لا يعرف شيئا عن الحالة المدنية ، عن حالة الاسرة ، ولا عن الحالة التي يعرف فيها ضعف الرجل ، والتـي

يعرف فيها كيف يحل المشكلة الخلقية او العاطفية التي تعتري كل واحد من البشر ، وانما نجده يقول عند نهاية حياته ما قاله الشاعر فنسي موين وهو يدعو باسم موسى : (اللهم انك خلقتني قويا ووحيدا ، فتوفني اليك هادئا) ، ذلك لان الرسالة التي أعطاه الله اياها كانت رسالة زجر ، كانت رسالة قساوة ، كانت رسالة نذير لا رسالة بشير ، لانه كان في عراك دائم مع قومه ، كان يدعو عليهم بالسوء ، كان يقضي حياته كلها في تقويم اعوجاجهم .

ويمكننا ان نقول : ان رسالة موسى عليه السلام كانت رسالة سلبية ، لانها كانت تشتمل على النواهي ، ولم يظفر موسى يوما من الايام بسرور كالذي ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، ولم يرض عن رعيته ولا عن القوم الذين بعث فيهم ، فلنسمع الى موسى واله موسى يتكلمان ، في هذه النبذة التي وقفت شخصيا على ترجمتها من التوراة :

قال الله على لسان موسى :

(الى اي حين سيظل هذا الشعب يهزا بي ويسخر مني ؟ والى اي وقت سيبقى غير مؤمن بي رغم جميع النعم التي اسبغتها عليه ؟ انني سأسلط عليه الطاعون ، وسأجعل منك امة اقوى واعظم منهم) .

هكذا عاش موسى عليه السلام في عراك مستمر مع شعبه ، وفي مناجاة مستمرة مع ربه ، هذا ما اعتقد .

عيسى روح الله وكلمته

اما سيدنا عيسى عليه السلام فمن هو ؟ سيدنا عيسى روح الله وكلمته ، سيدنا عيسى لا نعرف عن صباه شيئا ، ولا يمكننا ان ننتبه الى حياته او الى تاريخه الا بعد ما نراه يلتقي مع جان باتيست ، ثم يشعر من نفسه انه مؤهل الى رسالة ، فيخلو بالجبل الاسابيع والاسابيع ، فيأتي الشيطان فيوسوس ، ويحاول ان يدحرجه وان يجعله في موطن الزلق فيابى سيدنا عيسى ، ومن ثم يخرج عليه السلام ليدعو الى رسالته .

الصورة المخالفة

اننا اذا امعنا النظر في رسالة عيسى عليه السلام لا نجد انه غير متمسكا من مناسك موسى ، بل زاد عليها الشيء القليل ، ولكن لم يغير من الديانة اليهودية ، لانه كان اولا يهوديا ، فبماذا جاء اذن ؟ انه لم يجيء بمعتقدات جديدة . فالله موجود ، وملائكته موجودون ، ولكن راى الله سبحانه وتعالى من الضروري ان يغير امام الناس شبح ذلك الاله المنتقم ، شبح ذلك الاله الذي لا يعمل الا والهلاك في يده . اراد الله سبحانه وتعالى ان يعطي للناس صورة مخالفة لما يظنونه في الله ، فجاء عيسى بانه رب الرحمة ورب المغفرة ورب التوبة ، ويمكنني ان اقول هذا ، لان الانجيل ليس ما كتبه او قراه عيسى فرواه عنه الناس مسترسلا متواصلا كما هو الشأن في القرآن — لو كان ذلك ما كان في امكاني ان اقول شيئا في هذا الباب — ولكن بما ان عيسى كان يتكلم بالعبرانية وبعده ترجم الانجيل الى اللاتينية والعربية والانجليزية والفرنسية يمكنني اذن ان اقول بان صفة ذلك الاله ربما غالى فيها سيدنا عيسى حتى قال : (اذا ضربك احد على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر) وحتى قال وهذا اعتقد اخطر : (انظروا الى الطير في السماء ، فهي لا تبذر ولا تجهد ولا تجمع الحب في البيادر والحقول ، وانما يطعمها ربكم الاعلا ، فهل لستم اجل منها قدرا وارفع منها شأنا ؟)

حبى النبي (ص) حياة شعبه

اما النبي صلى الله عليه وسلم فقد اراده الله ان يعيش حياة شعبه وحياة أمته ، نعم عذب (ص) وهزىء به كما هزىء بالرسل من قبله ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يدع قط على شعبه ، وحينما جاءه جبريل وهو في الطائف قال له : (اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون) ، بل اراد الله سبحانه وتعالى ان يظهر لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الحالات التي يمكننا ان نعيشها كلنا فرادى وجماعات ، فهو الذي اخرج من مكة واستعظم الامر واستكبره ، وحينما قال له ورقة ابن نوفل قبل ذلك سيخرجك قومك ، اجابه متعجبا : او مخرجي هم ؟ واستعظم الامر واستكبره ، وبكى صلى الله عليه وما زالت لواعج الحنين في صدره منذ فارق مكة وهو في المدينة الى أن اعتمر عمرة القضاء وحج حجة الوداع ، ومكث بمكة وتعرف عليها وطاف بالبيت وزار جميع المعاهد والاماكن التي كان يهواها ويحبها والتي تربى فيها .

الداء والدواء

اذن عرف عليه الصلاة والسلام مفارقة البلد والاقتراب ، عرف الحزن من فقد احد ابنائه وقال :

(العين تدمع ، والقلب يخشع ، ولا نقول الا ما يرضي الرب وانا على فراقك يا ابراهيم لمحزونون) .

فقد ولده ، الشيء الذي لم يقع للآخرين ، وكأن الله سبحانه وتعالى اراد أن يتوج هذا كله ، فجاءت قضية الافك ، فعرف صلى الله عليه وسلم ما للغيرة وما للشك في زوجته وفي حليلته من مصائب وآلام ولواعج وتكاليف على الفكر والجسد ، الى أن أتى الله سبحانه وتعالى بآيات البراءة التي طمأنته على عرضه وعلى عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهم جميعا .

هكذا نرى أن الرجل اي النبي صلى الله عليه وسلم من حيث هو عاش عيشتنا ، وتقلب في آلامنا وعرف جميع الانواع منها . عرف منها الجوع ، عرف منها الغربة ، والنفي ، عرف منها فقد الولد ، عرف منها القذف في عرضه ، عرف منها الشك ، عرف منها الارتياب ، عرف منها كل شيء وما ذلك الا ليربيه الله سبحانه وتعالى تربية كاملة ، لان المخلوق مخلوق وما نحن الا من لحم ودم ، وما قلبنا الا موطن للشك وللبقين والمحبة والكراهية ، فبذلك مكنه الله من ان يعرف الداء فيدلنا على الدواء ، والا لكانت ديانته ديانة نظرية ، ولكان نبيا نظريا ، ولكانت فردية ليس من ورائها شيء اذن كان صلى الله عليه وسلم موضوعيا من حيث الزمن ، ومن حيث المعجزات ، ومن حيث الرجال ، فكانت معجزته اكمل المعجزات واتمها واقول اصلحها .

وان نحن مثلنا الديانات بالعملة ، فالعملة الجارية، العملة القوية العملة التي يمكن ان يتعامل بها في كل مكان وزمان وهي الذهب ، هي النبي صلى الله عليه وسلم ، فرسالته من ذهب عملة قوية يتعامل بها عند جميع الاجناس ، وفي جميع الاماكن ، وفي جميع الازمنة .

قرأت عليكم في الاول بعض آيات لموسى وعيسى وسأرجع الى البعض منها بعد الشروع في تفسير الحديث .

الكم ... والكيف

الحديث في مبناه يعجبني جدا ، بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بلفظة « كم » ولم يذكر في هذا الحديث معنى الكيف ، فهذا استبشار عظيم ، (كم) ككم او الكثير منكم يمكن الله ان يبر قسمه ، ولكن لم يقل صلى الله عليه وسلم يشترط ان يكون فيك كذا وكذا حتى يبر الله قسمك .

فوجود (الكم) هنا دون أن يكون مقرونا بالكيف هو الذي يفتح لنا جميعا : لرجل الشارع ، للقوي ، وللضعيف ، وللمذنب ، وللطائع ، هذا الباب الذي يمكنه ان يناجي منه نفسه في ليله ونهاره ، في شغله وفي راحته ، قائلا : لعلي اكون من أولائك الذين اذا اقسموا على الله ابرهم ، ولكن مع ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر بعض الشروط لابد لنا نحن ان نذكر بعضها الذي هو من باب تحصيل الحاصل ، فالكلام جاء من فم النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالاسلام ، فمن الطبيعي ان هذا العبد في هذا المقام لا يكون الا مسلما ، امرنا بالايمان ، فمن الضروري ان نكون مؤمنين حتى ندخل في هذا القالب، أمرنا بالاحسان وهو الضمير المهني ، وسيأتي بتقريره بعد ، فلا بدلنا من الاحسان حتى لا نكون منافقين وندخل في اطار هذا الحديث أمرنا أن نكون مسلمين ، ان نشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وان نقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة ، ونحج البيت ، ونصوم رمضان ، امرنا أن نكون مؤمنين ، ان نؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه ، وبما جاء به الحديث الذي نزل على فم جبريل الذي رواه مسلم والبخاري وغيرهما من رواة الحديث .

ما هو الاحسان

وامرنا بالاحسان ، فما هو الاحسان ؟ هو قول النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله جبريل عليه السلام عن الاحسان : (ان تعبد الله كانك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك) ، معنى هذا ان الانسان في جميع اعماله ، وفي جميع حركاته وسكناته ، اذا هو تشخص وجود الروح الالهية والاعانة الالهية مطبقة عليه من فوقه ومن تحته ، من امامه ومن خلفه ، وعن شماله ويمينه ، أدى ما هو مناط به على أحسن الوجوه والدليل على هذا هو ان لا يكون كذلك يصير من زمرة المنافقين الذين جاء فيهم كتاب الله بالوعيد الشديد ، والذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : (آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف، واذا اؤتمن خان) وبعكس ذلك المؤمن ؟ انه هو الذي اذا حدث صدق ، واذا وعد وفى ، واذا اؤتمن ادى الامانة) .

انها ليست شروطا كثيرة : الشهادة ، اربعة اركان : الايمان بالله والرسل والملائكة واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره، وأن يكون فينا الاحسان حتى لا نكون من المنافقين ، وحتى نستحضر الله دائما

فى جميع ما تأتي وما نذر ، وحتى نكون متحلين بصفة الضمير المهني .

شمول الرسالة المحمدية

وقاعدة اخرى تركتها هي الاخرى نظرا لجسامتها: حديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المهاجر من هجر السيئات ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، وهذه الفقرة هي التي تهمني : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده .

أولا ــ نستبشر ، فالقرآن كما انه جاء للناس كافة جاء الحديث وسنة النبي صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، كان فى امكانه عليه السلام أن يقول المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، ولكنه قال : المسلم من سلم الناس اي جميعهم من لسانه ويده .

الله .. الله .. يا أهل القلم

وانا اقول (ويده) تدخل فيها الكتابة ، فالمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، وقلمه ، حيث ان القلم يخط فيكذب فيتقول فيتعرض الى آفاق اجتماعية او مصائب سياسية او الى فتن او الى المحصنات او للمس بالمقدسات، فالمسلم من سلم الناس من لسانه ويده التي يدخل فيها القلم الذي يكتب ، القلم ، فالله يا اهل القلم ، الله .. الله .. يا اهل الصحف ، اتقوا الله حتى تكونوا مسلمين ، وان كنا نعينكم فى بعض الاحيان على هذه التقوى ببعض من الرقابة ، ولكن هذا لا يكفي .

قواعــد تكميليــة

اذن هذه هي القواعد التي لابد منها . وهناك قواعد تكميلية ، لان الله سبحانه وتعالى لم يغفل فى كتابه عن شيء ، ولانه اذا اردنا ان نستخرج من كل آية ومن كل حديث ما يجب علينا ان نقوم به حتى نكون مبشرين بالجنة ، وحتى نظفر برضا الله وحتى نظفر بجوار النبي صلى الله عليه وسلم وحتى نظفر بالمغفرة، وحتى يتوب الله علينا ــ لوجدنا الشيء الكثير .

هذه بعض الاراء الموضوعية ، وهذه المسائل التي جئتكم بها كلها موضوعية ، وتدل على ان رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وافقت زمانها ومكانها ، وجاءت للناس كافة الذين يقولون بالسحر والذين لا يقولون به ، الذين يقولون بالطب والذين لا يقولون به، ان النبي صلى الله عليه وسلم كانت له مثل الاحساسات التي لامته ، فعرف الداء فاهتدى الى الدواء ، كل هذه المسائل عرفناها بكيفية مجملة ، لان مثل هذه الجوانب تقتضي بحثا دقيقا ومستطيلا .

لنرجع الى الكتب السماوية بما اننا ملزمون بالايمان بها ، على الاقل نعرف ما فيها ، جاء من التوراة ــ وهنا سترون عنصرا موضوعيا للفرق بين القرآن وغيره :

ثم خاطب الله موسى ، وهارون بهذه العبارات : « الى اي وقت سيظل هذا الجمع الخبيث يتهامس بي ويتقول علي ؟ انني سمعت الهمسات التي يتقول بنوا اسرائيل ويتقذفونني بها ، فقل لهم : انني سأجعل منهم بحق روحي التي هي كلمة الله شيئا مطابقا لصدى صراخكم فى آذاني ، فجثتكم جميعا ستهوى فى تلك الصحراء ، انتم الذين جرى احصاؤكم بتعداد من بلغ منكم العشرين فما فوق ، وتقولتم علي الاقاويل ، فانكم قطعا لن تدخلوا البلد الذي اقسمت باقراركم فيه ، ان جثتكم ستسقط فى الصحراء، وسيبقى ابناؤكم فيها رعاة طيلة اربعين سنة كاملة ليكفروا عن خطاياكم ولا ازيد)

الفرق اولا : جاء فى القرآن حينما اراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر جلاله للمؤمنين ويبث فيهم شيئا ما من الرعب والخوف قال لهم : « ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشر الصابرين » الى آخر الآية .

لنبلونكم من باب التجربة وليس من باب العقاب ، وزاد « من » التي هي للتبعيض حتى يأمن المؤمن والمسلم بانه اذا ابتلى بالخوف فهو لا يبتلى بالجوع ، واذا ابتلاه الله بالجوع فلا يبتليه بنقص فى الاموال ، هذا هو الفرق الاول .

اما الفرق الثاني فهو مهم جدا من باب المسؤولية المدنية ، فالله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز (ولا تزر وازرة وزر اخرى) .

وفيما قرأت عليكم من التوراة : (وتصبحوا هشيما) (ولقد قضيتم اربعين يوما تجوبون البلد) حتى قال (ان جثتكم) (وسيصبح ابناؤكم فيها رعاة طيلة اربعين سنة كاملة ليكفروا عن خطاياكم) وهذه مسالة موضوعية ، هذا قرآن وهذه توراة ، والفرق بين ذلك وتلك ظاهر لمن اراد ان يكون مسلما.

اما الانجيل فقد قال فيه عيسى عليه السلام فى خطبته على الجبل :

(لا تشغلوا انفسكم بهم السؤال ما استطعتم ، وماذا سنشقى ؟ وبماذا سيتيسر لنا الكساء ؟ ان عباد الاصنام هم الذين عن كل هذا يتساءلون ، الا ان اباكم الاعلا يعلم بانكم بحاجة الى الطعام والشراب والكساء بانه اذا ابتلى بالخوف فهو لا يبتلي بالجوع ، واذا ابتلاه فالتجئوا الى عدله ، وسيهبكم الله كل ذلك تفضـلا ، ولا ترهقوا انفسكم الاهتمام بالغد ، لان الغد سيعنى بما فيه ، ولكل يوم نصيبه من الفتنة ، ولكل يوم مـا يكفيه من العذاب ، ونحن نروي عن النبي صلى الله عيه وسلم انه يقول : اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كانك تموت غدا .

ثم قال عيسى والفرق بين : (انظروا الى الطير في السماء فهي لا تبذر ولا تحصد ولا تجمع الحب في البيادر والحقول ، وانما يطعمها ربكم الاعلا، فهل لستم اجل منها قدرا وارفع شأنا ؟) فيقول النبي صلى الله عليه وسلم (لو انكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير ، تغدو خماصا ، وتروح بطانا) فمعنى التوكل في هذا الباب هو العمل ، واخذ الاحتياط وفرض جميع ما يمكن ان يقع ، ومن بعد التوكل على الله ، فها هي شريعة الامل ، وها هي شريعة الخمول ، هـا هي شريعة الامل ، وها هي شريعة اليأس ، ها هو كلام الرحمة ، وها هو كلام الغلظة ، هنا ولنبلونكم بكذا وكذا رحمة وغلظة . وهنا ستظلون تجوبون الارض غلظة بلا رحمـة .

ثم انظروا الى الطير رحمة بلا فائدة ، وما جمع الرحمة والفائدة الا قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيـا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (وابتـغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك مـن الدنيا) ، هذا هو الخير كل الخير .

ففيما يظهر اعتقد في ضميري انه من الناحيـة التفسيرية والاجمالية انني اتيت على بعض الجوانب من هذا الحديث ، وما واكبه من تفسير اتيت بآيات بينـات وباحاديث نبوية واستدلالات من التوراة والانجيل مع اني لست صاحب هذه المهنة ولا متعاطيا لها ، وقـد اخترت هذا الحديث كما قلت لكم اولا لانه يفتح بـاب الرحمة ويفتح باب الامل ، ولانه يذكرنا بكتاب اللـه سبحانه وتعالى (ولئن شكرتم لازيدنكم) فلنا في يميننا وفي يسرانا حبل من الله سبحانه وتعالى وحبل مـن رسوله صلى الله عليه وسلم لنفتح الآفاق امامنـا ، ولنذلل العقبات ، وهذا ما وقع لي في هذا الشهر الكريم واردت ان اذكر هذا الحديث اليوم بمناسبة رمضان ، حيث ان هذا الشعب اقسم على الله فابره حينما قبل — منذ سنتين مضت — كل واحد منه ، كبيرهـم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، ان يتنازل عن الزائد في ثمن السكر ، وان يتحمل جماعات وافرادا بناء سـد وادي زيز الذي تم ولله الحمد مشروعه ، والـذي سنشرع في العمل فيه في اوائل شهر شوال ان شاء اللـه (1) .

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا

فاليك ايها الشعب الكريم ارفع هذه البشرى ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وهـو أصـدق القائلين ما معناه : (ان لله شعوبا لو اقسمت على الله لابرها) فاهنأ بهذا الحديث وبهذه البشرى، لانك اقسمت، وما معنى القسم ؟ اقسمت وعملت ، اقسمت واهتديت فلم اقل شعبي العزيز لانك تشبثت فرادى بجميع اطراف الديانة الاسلامية ، فلم اقل : انك صليت وانك زكيت، او انك كذلك صمت او انك كذلك تجنبت المحرمات ، او انك كذلك اطعت الطاعات واتيت بها ، ولكن اقول : ان هناك تكافؤا ، ان هناك توازنا ، فاذا عصى واحـد منا في ناحية احسن الاخر في تلك الناحية ، وهذه هي الشعوب والمؤمنون يشد بعضهم بعضا ، ما معنى يشد بعضهم بعضا ، يملأ المؤمن فراغ اخيه كلما وجد المؤمن فراغ اخيه من حسنة لم يأت بها فهو يعمر ذلك الفراغ حتى لا يبقى ذلك الجدار فيه ثغرات، وحتى يبقى جدارا مرصوصا لا ثغرة فيه ، فلنهنأ بهذا التكامل وهذا التكافؤ ولم تكن هذه هي البشرى الاولى ، ولا البشرى الوحيدة في بلادنا ، وفي تاريخنا القديم والحديث من ان اللـه سبحانه وتعالى انصت الى قسم الابرار منا فابرهم .

اخرجنا من ديارنا والراس مرفوع

وما استقلالنا ببعيد ، وما حالة منفى ابينا بعيدة، وما حالة الاحتلال والقهر والغلبة التي عشتها . انت هنا والتي عشناها نحن هناك ببعيدة ، فلقد اخرجنا من ديارنا ولكن أخرجنا منها والراس مرفوع ولله الحمد ، اخرجنا منها والقلب مليء بالايمان ، اخرجنا منها واليقين يخامرنا ليل نهار باننا سنرجع ، وما اقتبسنا ذلك كله

(1) بدأ العمل في بناء سد زيز في تمام الساعة الثانية عشرة من نهار الجمعة 12 شوال 1387 (12 يناير 1968) عندما ضغط جلالة الملك الحسن الثاني على زر فجر به شحنة من المتفجرات في فم غيور .

كلمة صاحب الجلالة

خلال استقباله للمشاركين في الموكب الديني برئاسة السيد علال الفاسي

جرت احتفالات دينية رائعة عظيمة فى جميع اقاليم المملكة فى ليلة القدر ، وعرفت جميع مدن المغرب مهرجانات كبرى بمناسبة الذكرى الاربعمائة بعد الالف لنزول القرآن الكريم .

وقد عملت السلطات المحلية على تحضير المهرجان القرآني الخالد فى جو حافل ، مليء بالخشوع حسب توجيهات مولانا امير المومنين .

وتوجه المومنون فى جميع مساجد المملكة بالدعاء الى الله ان يحفظ جلالة الملك ، ويطيل عمره ، ويوفقه فى مهامه الكبرى لخير الوطن والمواطنين .

وفى الرباط تميزت هذه الاحتفالات بالموكب الذي ترأسه الاستاذ السيد علال الفاسي ليلة القدر فقد تشكل موكب ديني كبير فى مسجد سيدي الغندور وقصد المشور العامر .

وكان يتقدم هذا الموكب اعضاء اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال برئاسة السيد علال الفاسي ، وتجمع هذا الموكب فى ساحة قبة النصر بالقصر الملكي محفوفا بأعضاء الكشفية الحسنية ، الذين كانوا يحملون المشاعل ، وتقدم السيد علال الفاسي والقى بين يدي جلالة العاهل الكريم كلمة التمس فيها من مولانا امير المؤمنين صالح الدعاء بهذه المناسبة المباركة وقال : « لقد جئنا نقدم لجلالتكم اطيب متمنياتنا ودعاءنا الصالح فى هذه الليلة المباركة بأن يحفظكم ويرعاكم للاسلام ، وهذه الليلة فى الحقيقة هي ليلة الاسلام الخالد الذي اورثنا كل فضل وكل خير ، وقد تفضلتم جلالتكم ، وقلتم فى هذه الليلة احسن ما يقال ، وكل ما نرجوه من جلالتكم هو الدعاء الصالح وان تبارك اعمالنا فى هذه السنة وان يجعلنا منسجمين دائما فى اعمالنا ، مع الملك والشعب » .

وقد رد صاحب الجلالة الملك المعظم على كلمة السيد علال الفاسي بهذه العبارات السامية :

« حينما طلب مني وزيرنا ورئيس حزب الاستقلال ان اقتبل الشبيبة الرياضية ووفدا عن الممثلين لهذه الحركة السياسية فى ليلة القدر تساءلت واستبشرت ، وذلك لانني كنت دائما احن الى لقاء جيلي لا على الصعيد الوطني فقط ، بل على الصعيد الديني ، ذلك الصعيد الذي يجب على كل فرد أن يستسقي منه مبادىء الفضيلة ومبادىء الخلق والسير والتحلي فى الحياة بصفات شتى منها صفات العبودية الخالصة وصفات المواطنة الصادقة ... وانني بهذه المناسبة ليطيب لي ان اجدد لكم تهانئي الخاصة على هذه البادرة وان أشجعكم على السير على هذا النهج وفى هذا السبيل الذي هو سبيل الله وطريق النجاح اذ عندما تشتد الازمات ويتغلب الدهر على بني الانسان لا نرى ملجا ولا قوة الا فى اعانة الله لعباده الصالحين ، وقد مرت علينا جميعا فترات عرفنا فيها قوة الله وعرفنا فيها اعانته لعباده الصالحين المخلصين وقد اعطتنا اجيالكم والاجيال التي تتبعكم وعلى رأس جيلكم والدنا المعظم طيب الله ثراه اعطتنا هذه الاجيال دروسا لن

الثانية فلا تحتاج الا الى علامة حتى يصبح الغني فقيرا وحتى يصبح الكل فقيرا .

دعـــــوات ...

اللهم ان كنت تعلم اننا حاولنا ابتغاء فضلك ومحبة في كتابك وتعلقا بسنتك ، وقياما بالواجب وان كنا متطفلين عن هذا كله فان كنت تعلم يا رب اننا فعلناه بحق وان هذا العمل ناتج عن نية صالحة فاغفر لنا اللهم سوء التفسير ، واغفر لنا اللهم سوء التفكير ، واغفر لنا اللهم ما لحنا في كلامك او في كلام رسولك ، وما قلنا معوجا وما لم نقله مصيبين ، اللهم ان كنت تعلم ان شعبك يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويشهد ان لا اله الا انت وان محمدا عبدك ورسولك اللهم فادم عليه نعمة التآخي ، اللهم ادم علينا نعمة التآخي ، اللهم كف ايدي المسلمين عن اخوانهم ، اللهم كف السنتهم واقلامهم عن المسلمين ، اللهم ابذر في قلوبنا الرافة والرحمة ولا تبذر في قلوبنا الشدة والغلظة ، اللهم انك تقول : (ولئن شكرتم لازيدنكم) واننى اشكرك اللهم ، ان كل يوم بعد يوم وآياتك تتوالى ، ونعمتك تنبسط على هذه البلاد وعلى هذه الارض بكيفية تجعلنا عاجزين عن الشكر ، فمنذ ثلاث سنوات مضت كنا يا رب قلقين فزعين من حالة بعض الشبان ، من حالة بعض الناس الذين وصل بهم الجهل لدينهم انهم ربما كانوا يتبجحون بأكل رمضان اللهم اننا نشكرك على كوننا سمعنا ان الجل منهم يصوم رمضان ، بل انهم في وقت معين في الليل يخرجون صفا صفا للذهاب الى المطعم الجامعي حتى يتناولوا سحورهم وحتى يصبحوا صائمين تائبين ، اللهم زدنا وزدهم وزدهم ، اللهم قوهم ، اللهم رسخ ايمانهم ، اللهم ثبت اقدامهم ، اللهم اجعلهم يؤمنون بدينك وبرسولك قلبا وعقلا ، اللهم اجعلهم يتشبثون بهذا الدين موضوعيا وعاطفيا ، لان العاطفة كما تعلم يا رب تخون احيانا والعقل لا يخون ابدا ، فثبت عاطفتهم بتعلقهم ، وثبت اقدامهم بان تجعل لهم هذا الدين سهلا سلسلا كما انزلته على رسولك صلى الله عليه وسلم وكما جاء به رسولك عليه الصلاة والسلام .

اللهم اننا بهذا الضريح ، وهذا الضريح هو ضريح عزيز علينا لاسباب شتى ، فدفين هذا الضريح هو سيدي محمد بن عبد الله سيفك وظلك ، كان سيفك في الجهاد ، وظلك في الحديث وسنة نبيك ، اللهم انك تعلم ان دفين هذا الضريح هو مولانا الحسن الاول الذي كان عرشه على ظهر فرسه ، والذي كان لا ينام مخافة ظلم او جور يقع على فرد او على جماعة او على بلاده ، ودفين هذا الضريح هو سيدنا محمد الخامس نور الله ضريحه ، وامطر عليه شآبيب رحمته اللهم انفعنا ببركتهم ، اللهم اجعل حياتهم وسلوكهم نبراسا لنا في حياتنا وسلوكنا ، وارحم اللهم والدنا واجزه عنا خير الجزاء واجعل الجنة مأواه ، اللهم انك تعلم انه كان لا يغضب الا اذا انتهكت حرماته فكن له ولا تكن عليه يوم القيامة ، ولا تغضب عليه وارض عنه يا الله يا ارحم الراحمين ، اللهم انه كان يحب كتابك فاحبه على قدر محبته لك ، اللهم ان ذكرك كان احلى شيء في فمه يقدمه على ذكر اولاده وعلى ذكر اجداده وآبائه ، اللهم اجعله من الصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ، اللهم انك تعلم انه كان ينصف الضعيف حتى يكون اماما عادلا فاظله اللهم تحت ظلك كامام عادل يوم لا ظل الا ظلك ، اللهم انك تعلم انه كان يضحي بكل ما في وسعه ليعيش الشعب ، اللهم اجعل هذا الشعب كما اراد ، وفوق ما كان يريد ، اللهم اجمع شمل العرب وعززهم بالمسلمين ، فاذا كانت النكبة الحربية وقد وقعت على العرب فالنكبة الدينية وقعت على المسلمين فلنطمئن اذن فلم نبق منذ اليوم سبعين مليونا من البشر ، بل اصبحنا نصف مليار من المدافعين عن دين الله وملة رسوله ، ومسجده الاقصى وعن ارضه المطهرة .

اللهم اعفنا ، وثبت اقدامنا ، وامنحنا التواضع الذي بواسطته ساخدم هذا البيت هذه الدار ، اللهم انك قلت في ابليس (ابى واستكبر) اللهم اني اعوذ بك من الاستكبار ، اللهم ان منصبي وسني وما أوتيت من القدرة كل هذا من شانه ان يطغى علي وان يجعلني اطغى ، اللهم فانزل في قلبي ذلك الميزان ، ذلك الفرقان الذي به يمكنني ان افرق بين الحق والباطل ، اللهم انزع من قلبي الاستكبار ، اللهم املاني بالتواضع ، اللهم املاني بالتواضع ، اللهم اجعل شعبنا وامتنا دائما ناعمة في ظلال الخير والنفع والاسلام والهدى والسنة النبوية ، اللهم كثر من عدد علمائنا ، اللهم عزز جانبهم ، اللهم افتح اذهانهم واجعل كل واحد منهم حاملا لجميع العلوم ، محيطا بجميع الفنون ، حتى يعلمو ويعلموا ، وحتى لا يضيق افقهم ، وحتى لا يحسبوا انهم غرباء في وطن غريب . فلم يكونوا غرباء ، ولن يكونوا غرباء .

علينا ان نقترب منهم وعليهم ان يوسعوا افكارهم وان يقتربوا منا ، ولنا اليقين بان خطوات كهاته سيطوي الله مسافتها لانها خطوات ترمي الى تعزيز كتاب الله وتعزيز سنة الله .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

الا من مرآة من مشعل كان ينعكس ضوءه على شعبنا اي على اسرته الكبرى ثم على اسرته الصغرى ، فركبنا الطائرة مؤمنين ، ونزلنا الارض الاجنبية مؤمنين، ورجعنا الى المغرب متواضعين حامدين الله شاكرين حتى يزيدنا من نعمته ومن فضله ، وهكذا تطلعت شعبي المزيز مراحل واشواطا ، ولعلي بك تقول : وكيف نقطع المحنة التي نجتازها كلنا شعبا مغربيا وشعوبا عربية واسلامية ؟ اقول فليسلم كل مسلم من يد المسلم ولسانه .

فليراقب الله كل مسؤول في عمله

هذا هو الشرط الاول ، ثم اقول : فليراقب الله كل مسؤول في عمله ، ولا يخط سياسة بكيفية جهارية ثم يهييء سياسة اخرى في السر ، فيكون الظاهر مخالفا للباطن .

كيف التخلص ؟ التخلص اننا نكون كاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما امره الله بالرجوع الى المدينة بعد ما آمنوا بانهم سيدخلون مكة، وقد كان هذا الموضوع هو الذي كنت اريد ان اطرقه في الحقيقة ، ولكن نظرا لتلابس المسائل السياسية ربما قد تخرج من فم عالم او مفسر ولا يمكن ان يتمشى معها الى النهاية لان السياسة ليست من شانه ، أما انا فمن شاني متى بدات اطرق الموضوع السياسي استنفذه ومؤتمر القمة على الابواب فكان من المحرج جدا ان اطرق هذا الموضوع ، لذا طلبت من فضيلة الشيخ ان ينوب عنا فيه جازاه الله خيرا ، فاذا نحن تحلينا بهذا كله وتحلينا بما وجب من الفضائل اقسمنا على الله فابرنا .

حديث الغار

وهذا حديث لطيف جدا حيث اننا نذكر العمل الاقتصادي ووادي زيز والتحرر الاقتصادي والتنمية الاقتصادية ، حديث لطيف جدا رغم ما فيه من خشوع ورغم ما فيه من جبروت ورحمة الله نستقصي منه هذا الطرف الاخير .

كلكم يعلم ما وقع لاصحاب الغار ، كانوا سائرين فاذا هم التجأوا الى غار فاذا صخرة تنزل من الجبل فتحبسهم فيه فيطلبون من الله النجاة فلا تتحرك الصخرة ، فياخذ كل واحد يذكر ويقدم بين يديه ما يعتبره شفاعة وما يعتبر ان من شانه ان يخفف عليهم ما هم فيه من الكرب .

وذكر الرجل الاول قضية البرور بوالديه ، المسألة واضحة البرور بالوالدين وصى به الله وجعل مكانة الوالدين بعد مكانة الله ، وجعل لهما مقاما رفيعا ، ولكن المسألة كيفما كانت هي مسألة سلالة ، الولد يحب اباه وامه ، والام والاب يحبان ولدهما ، نعم البرور شيء والمحبة شيء ، ولكن المنبع السلالي طبيعي .

وقال الثاني يا رب انك تعلم انني كانت عندي مناسبة لارتكاب عمل محرم مع ابنة عمي ولكني وقفت نفسي حتى لا آتي بتلك الفاحشة فاذا كنت تعلم انني فعلت هذا لوجهك ففرج عنا هذه الضائقة ، فحقيقة هذا الرجل انه تمكن من الفرصة ولم يرد استغلالها ؟ ولكن المسألة مسألة اخلاق وعفة ، فلذا فرج الله عنه.

اما الثالث فساقرا قصته كما ورد بها نص الحديث ، وبعد ذلك اعيده باللغة الدارجة ليمكن للجميع ان يستوعبه :

وقال الثالث يا الله ، انني استاجرت اجيرا بفرق ارز فلما قضى عمله قال اعطني حقي ، فعرضته عليه فرغب عنه ، فلم ازل ازرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيها ، فجاءني فقال اتق الله ، فقلت اذهب الى ذلك البقر وراعيها فخذه ، فقال اتق الله ولا تستهزىء بي ، فقلت انني لا استهزىء بك فخذه فاخذه، فان كنت تعلم يا رب اني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما بقي ، ففرج الله وفتح عليهم الباب .

معنى ذلك ان الله سبحانه وتعالى يريد ان يشغل المسلمون اليد العاملة ويريد الاشتراكية الاسلامية التي تغني الفقير ولا تفقر الغني .

فلو احتفظ ذلك الرجل بذلك القدر من الارز لما عصى ربه ، كان يؤدي له اجره اليومي، ولكن لي اليقين انه فعل ذلك وحده لما فرج الله عنه ذلك ان في هذا الحديث حكمتين : الحكمة الاولى : عدم الاستغلال بالمال الذي لا يروج ، وترويج المال ، واستخدام اليد العاملة ، واعطاء الاجور ، فحينما بذر وحصد لم يبذر ويحصد وحده ، وحينما بذر وحصد المرة الثانية لم يبذر ولم يحصد وحده ، وبذلك شجع اليد العاملة ، واخيرا كان الرجل فقيرا فاصبح غنيا ، تلك هي الاشتراكية التي اقول لكم دائما انها اشتراكية الاسلام واشتراكية المغرب ، اشتراكيتنا ترمي الى اغناء الفقير لا الى افقار الغني ، بالطبع الطريقة الاولى اصعب وامر من الطريقة الثانية ، فالطريقة الاولى يلزمها جهاد وكد وجهد عشرات السنين ، والاجيال من المواطنين ، اما



شارك الشعب مشاركة كبيرة وعظيمة في الاحتفال بليلة القدر وذكرى نزول القرآن .. الذي دعا الى اقامته صاحب الجلالة الملك المعظم
وهكذا تشكل موكب ديني كبير من مسجد سيدي القندور وقصد المشور السعيد حيث استقبله أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني
وفي الصورة الاستاذ علال الفاسي الذي تقدم الموكب الى جانب صاحب الجلالة أيده الله ونصره

ننساها الا وهي التشبث بالحق ان الحق يعلو ولايعلى عليه واي حق أحق من كتاب الله وسنة رسوله ودينه الحنيف .

فلهذا لا يسعني في هذا المجال الا ان اذكر حديثا لجدي عليه الصلاة والسلام حيث قال « من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة » فلكم الاجر ولكم اجر من تبعكم في هذه السنة وجعلنا أعواما وأعواما نلتقي في ليال مثل هذه الليالي المقدسة ليالي دينية مع جميع طبقات شعبنا واجياله وتوحد صفونا كلمة الله وتشد ازرنا واعتزازنا بمعز بيتنا وبوطننا وبعبقريتنا الخاصة ، والله أسال أن يعينكم جميعا على ما أنتم بصدده ، وأن يعيننا جميعا حتى تكون أعمالنا متكافئة متكاملة ، وحتى نقوم بهذا العبء الذي هو ملقى على عاتق كل واحد منا كمواطن اولا وكمسلم ثانيا .. وحتى يسدد خطانا جميعا ويهدينا سواء السبيل ويوحي الينا من الافكار والاعمال ما به نسعد امتنا وشعبنا وضميرنا فوق كل شيء والسلام عليكم ورحمة الله » .

الملك والشعب

يحتفلان احتفالاً عظيماً بليلة القدر وذكرى نزول القرآن

احتفل المغرب احتفالا عظيما ملكا وحكومة وشعبا بليلة القدر المباركة ، وذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم ، تخليدا لهذه الذكرى العظيمة ، وقد ترأس امير المؤمنين جلالة الحسن الثاني بهذه المناسبة حفلا دينيا بمسجد القصر الملكي العامر ، ادى فيه جلالته صلاة العشاء مع جماعة المومنين الذين أموا المسجد ، والذين كان في مقدمتهم اعضاء الحكومة يتقدمهم الوزير الاول واعضاء الديوان الملكي وضباط القيادة العامة للقوات المسلحة الملكية والسادة العلماء الاجلاء الذين وفدوا من مختلف الاقطار الاسلامية بدعوة من صاحب الجلالة امير المؤمنين المنصور بالله .

ولقد أدى جلالة الملك المعظم صلاة العشاء ثم صلاة التراويح وعاد بعدها جلالته الى القصر الملكي العامر .

واثر ذلك توجهت مختلف الشخصيات الى مسجد اهل فاس حيث اقيم الاحتفال الكبير تخليدا لذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم . فحوالي الساعة التاسعة وصل جلالة الملك المعظم الى المسجد ليترأس هذا الاحتفال العظيم وقد كان في استقبال جلالته وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية ، وبعد ان دخل صاحب الجلالة امير المؤمنين الى المسجد تلا الفقيه المقرىء السيد محمد الحياني آيات من الذكر الحكيم من سورة « حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين » .

ثم القى جلالة الملك المعظم خطابه السامي الموجه الى كافة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها والذي استمع اليه الشعب المغربي المسلم باذان صاغية آخذا منه العبرة والموعظة الحسنة .

وبعد خطاب جلالة الملك تلا الحاضرون في المسجد الثمن الاخير من القرآن الكريم قراءة جماعية ، وانتهى الحفل الديني الكبير بدعاء ختم القرآن الكريم والدعاء لمولانا الامام وللامة الاسلامية جمعاء القاه فضيلة الشيخ العلامة الاستاذ الرحالي الفاروقي .. ثم عاد صاحب الجلالة الملك المعظم أمير المؤمنين الى القصر الملكي العامر .

وهذا نص الخطاب الملكي السامي :

الحمد لله

والصلاة والسلام على رسول الله

ايها المسلمون

في مثل هذا الليلة المباركة السعيدة ، منذ اربعة عشر قرنا ، وصل الله الارض بالملأ الاعلى ، فتنزلت الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر ، وبدأ الحق سبحانه يوحي الى نبيه المصطفى المختار ، آيات قرآنه ، ومعجز بيانه ، مبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، فكان هذا الحدث العظيم ، الذي تحتفل به الشعوب المؤمنة بالاسلام ، المطمئنة بثلج اليقين ، المتمسكة بهدي الكتاب المبين ، احتفالا يصل الحاضر بالماضي ، ويؤكد الدلالة على رسوخ العقيدة ، ويصدق قوله تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » واذا كان احتفال المسلمين في مشارق الارض ومغاربها بهذه الذكرى ، يرمز الى بقاء هذه الصلة واستحكامها ، والى تمكن العقيدة الاسلامية من نفوس المسلمين الاوفياء لدينهم المخلصين للمبادىء السامية ، والقيم المثلى التي شرعها هذا الدين الحنيف ، والى خلود الذكر الحكيم ودوامه ابد الابدين ، فانه بالاضافة الى هذا كله برهان على ما للمسلمين كافة والمؤمنين اجمعين من ادراك لعظمة الحدث الذي فرق بين عهدين ، وفصل بين عصرين ، واقام بنيان الدنيا على اساس جديد ، وخلق من الامجاد ما هو مؤثل ومديد .



السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية يقدم العلماء المسلمين الى مقام
حضرة صاحب الجلالة بمناسبة ذكرى ليلة القدر



صاحب الجلالة يتحدث الى الوفد الايراني

الدوى الذي تجاوز حدود الجزيرة العربية

لقد نزل القرآن الكريم ، على النبي العظيم ، فاشرق النور مبددا الظلام ، وانتصر العلم على الجهل، وتبين الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، والعدل من البغي ، وكان للدعوة الاسلامية التي اطاحت بالاوضاع المدخولة ، وقومت الاعوجاج والزيغ ، واستاصلت الفساد ، وقوضت اركان الطغيان ، كان لها الدوى الذي تجاوز حدود الجزيرة العربية الى ما حولها ، والاثر البليغ الذي امتد الى اقطار واقطار ، وسرى في شعوب وشعوب ، فانتشر الاسلام وشاع ، ونبه شأن المسلمين ، وهبت ريحهم ، وطار صيتهم وذاع ، فلم يلبث وجه المعمور بما كان لهذه الدعوة السامية والرسالة الخالدة من مفعول ومضاعفات وتحولات ، ان تبدلت ملامحه ، وتجددت سيماه وتقاسيمه ، فبرزت الدنيا في ثوب غض قشيب ، واهاب ناضر عجيب ، ولم تمض الا اعوام معدودة على اتمام الدعوة والتبليغ ، وكمال الوحي والتنزيل ، حتى أعلى الله كلمة الاسلام والمسلمين ، وفتح فتحه المبين ، ومكن للمومنين في طول الارض وعرضها ، فخلفت الدولة الاسلامية الناشئة دولا كان لها قبل انتشار الاسلام شأن في الدنيا عظيم ، وجاه واسع ، وكلمة مسموعة ، وامر نافذ مطاع ، فامتدت بامتداد الدعوة المحمدية اسباب سلم اسلامية ، دعائمها امثل المبادىء، واسمى القيم ، وافضل المقاصد والاهداف ، وقامت على تعاليم الدين الحنيف أركان حضارة ، اضاءت بنورها ارجاء الشرق والغرب ، ووثبت بالانسانية الوثبة الميمونة نحو الرقي والازدهار في مختلف الميادين، وسائر المجالات ، لارتكازها على العدل والحرية والمساواة ولانقطاع المسلمين على اختلاف اجناسهم ، وتعدد انسابهم ، الى الاستيعاب والتفكير والابتكار والتصنيف ، والتاليف والتعليم والتلقين والتثقيف .

في ظلال القرآن

ومضى على الانسانية ردح من الدهر سارت طواله في ظلال القرآن ، وتحت راية الاسلام ، سيرا ثابتا موفقا، وخطت فيه خطوات رشيدة مسددة ، وافادت خلاله الفوائد الصالحة الجمة وكسبت في اثنائه المكاسب الجميلة الغزيرة ، بيد ان المسلمين اتى عليهم حين من الدهر ، تداعت في نفوسهم فضائل الايمان ، وتضاءلت في قلوبهم محاسن الاسلام ، وغابت عن اذهانهم وعقولهم تلك المبادي والقيم التي صلح بها اولهم ، فاخذ ذلك البنيان الشامخ الذي اقامته الاجيال الصالحة ، يتصدع شيئا فشيئا ، وينهار يوما بعد يوم ، وتفرقت كلمتهم بعد اجتماع ، وتبدد شملهم بعد ائتلاف واتحاد ، وتقاسمتهم الاهواء ، فانقسموا ، وغلبت عليهم الشهوات ، فغلبوا ، وتوانوا وتواكلوا ، ووهنوا وضعفوا واستكانوا ! ! .

ضعف بعد قوة

فخفت صوتهم ، وخبا نورهم ، وتقلص سلطانهم، وادبرت دولتهم ، وانحسر ما كان لهم من جاه ممدود ، ونفوذ محمود ، وانتقل ما كان لهم من شأن الى غيرهم، وغدا ما كان لهم من قول مسموع ، صادرا عن السنة من ناصبوهم العداء ، واخذوهم بالبأساء والضراء حتى اهانهم من كان زمنا طويلا غفلا بين الامم غير موسوم ، وخاملا غير ملحوظ ولا معلوم ، واصبحوا فريسة لاطماع الطامعين ، ولقمة سائغة للغزاة المتربصين ، وبقي امرهم على هذه الحال يعانون مرارة التفريط والتقصير ، ويكابدون زمنا آلام العار والشنار ، الى ان قيض الله للامة الاسلامية من استثار هممها ، ودلها على الصراط المستقيم واهاب بها الى سلوك النهج القويم ، ودعاها الى استقبال ما استدبرته من امر ، وبعث في نفوسها الامل ، واعاد اليها الثقة المفقودة ، وحرك في قلوبها الايمان بالحق الضائع ، وذكرها بالواجب المفروض فتحركت حيثما وجدت بقية من صلاح ، والفيت جذوة من عزم ، واستقر نصيب من حب في فك الاغلال ، وحظ من رغبة في التخلص من القيود والآصار ، فلم تلبث التضحيات المبذولة هنا وهناك ، والمساعي الحميدة في هذا القطر وذاك ، ان آتت ثمارها المنشودة ، واسفرت عن نتائجها المحتومة ، الا ان الاستعمار لم يلق عصا التسيار ، ولم يقنع من الغنيمة بالاياب ! فاخذ يتقنع كل يوم بقناع ، ويتلون كل آونة بلون ، ويكتسي حسب الظروف والاحوال كل حين بلباس ، وفات المسلمين الذين استرجعوا ما سلبوا من حق ، واستعادوا ما فقدوا من حرية ، ان يواجهوا هذه المعركة الجديدة بقلب واحد ، وايمان جامع ، واتحاد شامل ، وعزيمة ماضية ، لا سبيل الى تفتيها ، وقوة شكيمة لا مجال لتشتيتها ، فسلكوا الطريق الهين اليسير ، بدلا من سلوك النهج العسير ، ولم يحكموا عقولهم وبصائرهم ، ولم ينظروا في عواقب امورهم النظر البعيد على الرغم من محاولة ايجاد تآلف بينهم وتضامن ، واورث الخلاف بينهم الضغائن والاحقاد والاحن ، وخلف الحزازات ، واوغر الصدور .

ويــلات النكبــة

ثم كانت النكبة التي لم يكونوا لها متوقعين ، ولا لمصابها منتظرين ، فامتحنوا امتحانا غير يسير ، وانتهكت الحرمات المقدسة ، وحل بديارهم الشقاء والبلوى ، وضامهم من لا عهد له ولا ذمام ولا ضمير ؛ بعد ما اهدرت القيم المتواضع عليها ايما اهدار ، وداس المبادىء المتفق عليها كل متغطرس جبار ، وها هم العرب كافة ، والمسلمون قاطبة يعانون من ويلات هذه النكبة ما يذيب القلوب كمدا ويفتت الاكباد لوعة والما لا نصير لهم الا الله اللطيف بعباده ، ولا ظهير لهم الا ان يتمسكوا بالعقيدة المثلى ، والايمان الصادق ، ويأخذوا بالمبادىء ويتشبثوا بالقيم التي جعلت منهم خير امة اخرجت للناس ، « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الارض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا .** »

اذا خلصت النيات وسلمت الطوايا

فاذا آمن المسلمون ، واتقوا وعملوا الصالحات ، واجتنبوا ما نهوا عنه ، وخلصت نياتهم ، وسلمت طواياهم ، وصحت عزائمهم ، فان من يتق الله يجعل له من امره يسرا ، وان الله لا يخلف ما وعد به عباده العاملين للصالحات ، المؤمنين بما أوحى الى نبيه الامين من آيات بينات ، وسور محكمات ، فكلما اجتمعت كلمة المسلمين على التقوى ، وصفت قلوبهم ، واستهدفوا الخير والعمل الصالح ، كان الله من ورائهم ظهيرا ، ومعينا ونصيرا ، وبلغوا اسنى الدرجات ، واجمل المقاصد والغايات ، وكلما تفرقوا شيعا ،وذهبوا طرائق قددا ، وخذل بعضهم بعضا ، وتنكروا للمبادىء القويمة التي قام على دعائمها صرح نهضتهم المنيف ، وشامخ مجدهم التليد ، وجد العدو المتربص بهم الدوائر الى صفوفهم مدخلا ، والى قلوبهم سبيلا ، وألب بعضهم على بعض ، واحدث بينهم العداوة والبغضاء ، والشقاء والشحناء ، واضعف قواهم ، وفل غرب عزائمهم ، وصرفهم عن المقاصد والاغراض ، التي تستهوى النفوس الابية ، والعقول المتبصرة .

النقــد الــذاتــي

وتفاديا لا تساع الخرق ، ودرا للمكاره ، وحفظا للكيان ، وصونا للكرامة ، وامساكا للمقاليد والزمام ، وانتصارا على المحن والشدائد ، فان علينا ان نرجع الى انفسنا محاسبين ، ونتناول بالنقد والتمحيص ما نأتي من الامور وما نذر ، وما نبدىء فيه ونعيد ، حتى لا يصدر عنا من الاعمال والاقوال ما يشين سلوكنا وتصرفاتنا من النقائص والعيوب التي ينكرها الاسلام، ويدينها محكم التنزيل والفرقان ، فان من شأن هذه النقائص والعيوب ، ان تعرضنا لصروف الدهر وغيره، وفواجعه وازماته .

الطريق السوي

واننا لنستعيذ بالله في هذه الليلة المباركة التي هي سلام حتى مطلع الفجر ، وفي هذا الاحتفال بأعظم حدث واسماه ، واجله واسناه ، من كل نعمة يتلوها بطر ، ومن كل جاه محفوف بمكروه غير مقرون بتبصر وحسن نظر ، ولقد اوضح لنا الله في كتابه المبين ، الطريق السوي والنهج اللاحب ، وان هذا طراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . . . فاللهم اننا نعوذ بعزتك ــ ، لا اله الا انت ــ ان تضلنا ونسألك الهدي والتقى ، ونستهديك لارشد امرنا ونستجيرك من شر نفوسنا .

اللهم لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا انك انت العزيز الحكيم . اللهم ان عبادك الضارعين اليك المبتهلين الى كرمك وجودك وعظمتك وجلالك في هذه الليلة الغراء التي شرفتها وخلدتها وجعلتها خيرا من الف شهر ، يسألونك الصلاح والرشاد ، ويستوهبونك التوفيق والسداد ، والنصر ، والتمكين، والهداية في المهتدين ، غير ضالين ولا مضلين .

اللهم ان عبادك الذين امرتهم بالتوحيد يتوسلون اليك بسر قرآنك الكريم الذي يحتفلون اليوم في مشارق الارض ومغاربها بذكرى تنزيله ووحيه أن تنعم وانت خير من انعم وجاد بلم شعثهم وجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم والتأليف بين قلوبهم وتطهير سرائرهم وتمتين عرى الايمان في نفوسهم وكشف بلواهم ، واذهاب الحزن عنهم ، فانك اللهم الملجأ والملاذ ، والمفزع عند الملمات الشداد ، ربنا اجعلنا من الذين قلت فيهم وقولك الحق : « **ان الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ، الا تخافوا ، ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون** » .

تهنئة وفود العالم الإسلامي بعيد الفطر

تهنئة وفود العالم الاسلامي

هنأ مولانا امير المؤمنين بحلول عيد الفطر السعيد السادة رؤساء الوفود الاسلامية الذين حضروا من مختلف انحاء العالم الاسلامي بدعوة من جلالة الملك المعظم للمشاركة فى احتفالات المغرب بذكرى مرور 14 قرنا على نزول القرءان الكريم ، وقدمهم الى صاحب الجلالة الملك المعظم السيد الحاج احمد بركاش وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية .

كلمة رئيس وفد الاردن



وتقدم الاستاذ عبد الحميد السائح وزير الشؤون الدينية والاماكن المقدسة فى الاردن الشقيق ورئيس الوفد الاردني بتهنئة العاهل الكريم ، قال فيها:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين وعلى ءاله وصحبه اجمعين .

سيدي ومولاي امير المؤمنين فى هذه الديار ، صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ، ايده الله ونصره، باسم وفود العالم الاسلامي عربه وعجمه ، مشرقه ومغربه ، اتقدم بالشكر الجزيل الى جلالتكم ان اتحتم لنا هذه الفرصة السعيدة فى تلك المناسبة الكريمة هي مناسبة مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم ، هذه السنة الحميدة التي سننتموها جلالتكم تنبه العالم الاسلامي الى انه لا يمكن ان يعود اليه مجده ولا يمكن ان يعود اليه عزه وسيادته الا اذا أعاد للحياة نظام القرآن وتم تطبيقه فى كل نواحي حياته ، ادامكم الله سبحانه وتعالى نصيرا للقرآن واعزكم الله ظهيرا للاسلام والمسلمين ، وان العالم قد تفاءل خيرا بمبادرة جلالتكم ان اعلنتم دعوة مؤتمر القمة الى هذا البلد العزيز من اجل تلك القضية العالمية ، العزيزة هي قضية فلسطين ، قضية العرب والمسلمين ، وان المسلمين ليعلقون على جلالتكم وعلى اصحاب الجلالة والفخامة اخوالكم امالا كبيرة فى ان تعيدوا للمسلمين عزتهم باعادة القدس والمسجد الاقصى ومآثر الديار الاسلامية نصركم الله ، وشكرا جزيلا لجلالتكم » .

كلمة رئيس الوفد اللبناني



ثم القى الاستاذ نديم الجسر احد كبار علماء لبنان الشقيق كلمة بين يدي جلالة العاهل ، قال فيها:

« سيدي صاحب الجلالة ، ان مظهر العز العظيم الذي رأيناه في مواكب جلالتكم بمناسبة العيد ، هز أوتار قلوبنا وذكرنا بذلك المجد الاسلامي العظيم الذي كنا نتمتع به في أيام الخلافة الكبرى ، وان عنايتكم من جهة ثانية بخدمة القرآن كما خدمه والدكم العظيم ساكن الجنان محمدا الخامس رحمه الله كما خدمه آباؤكم واجدادكم من قبل من العائلة العلوية الكريمة التي لها في العلم وفي التفسير وفي الحديث مؤلفات لم يسبق ان رأينا مثلها الا في الصدر الاول من الاسلام وان ما قمتم به من جهة ثالثة من تقريب دعوة زعماء المسلمين والعرب الى مؤتمر القمة على مقربة من مؤتمر القرآن الذي أوجدتموه لهو خدمة عظيمة للاسلام لا ينساها لكم وسيسجلها التاريخ بأحرف من ذهب اسأل الله العظيم ان يحفظ هذا البيت النبوي العلوي الكريم وان يحفظ جلالتكم ويثبت عرشكم ويحفظ ولي عهدكم ويحفظ جميع العائلة العلوية الكريمة » .

كلمة السيد الشيخ عبد الله غوشة قاضي القضاة بالمملكة الاردنية الهاشمية

ثم تناول الكلمة بعده الشيخ عبد الله غوشة قاضي القضاة بالمملكة الاردنية الهاشمية :

وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد ، انها لمناسبة كريمة تلتقي هذه الوفود من مختلف الاقطار الاسلامية في رحابكم العامرة للاشتراك في الاحتفال بمرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن



الكريم ، وانه ليجدر بالمسلمين في مثل هذه المناسبة ان يتخذوا منها وسيلة للرجوع الى القرآن وتفهم معانيه وتدبر اسراره التي تكشف الايام على تعاقبها ما فيه من حكمة بالغة وخلق عظيم ، يا صاحب الجلالة ، يسرنا ان نتقدم لجلالتكم بالشكر الجزيل على دعوتكم الكريمة التي اتاحت لنا هذه الفرصة الثمينة ، ونرجو الله تعالى ان يعزكم بالاسلام وان يعز الاسلام بكم وأن يجعلكم معدن خير وبركة للعالم الاسلامي ، وان يوفقكم واخوانكم من ملوك المسلمين والعرب ورؤسائهم وامرائهم الى تحقيق ما نصبو اليه وتصبو اليه الامة الاسلامية من عز ومجد ورفعة ، ونسأل الله تعالى أن يعيد هذا اليوم على المسلمين ، وقد اشتدت شوكتهم وقوي بأسهم وعاد اليهم عزهم وسلطانهم ومقدساتهم وبلادهم التي روت تربتها بدماء الشهداء الابرار ، اسأل الله العظيم ان يحفظكم ويؤيدكم ، ويعزكم بالاسلام ويعز الاسلام بكم انه سميع مجيب والسلام عليكم .

جواب خطاب صاحب الجلالة على تهنئة علماء الاسلام

.. تفضل صاحب الجلالة الملك المعظم فالقى في وفود علماء المسلمين هذه الكلمة التوجيهية العظيمة:

الحمد لله ، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه .

حضرات العلماء ، اننا باسم شعبنا المغربي العربي المسلم ، نشكر لكم استجابتكم لدعوتنا لحضور احتفالنا بذكرى نزول القرآن ، وبالاخص بذكرى مرور 14 قرنا على نزوله على نبينا (صلعم) ، وقد رأينا في حلولكم بالمغرب جزرا للتاريخ ، فعادة كان المد التاريخي ، هو ان يزور المغاربة المشرق ، حيث كانوا يشدون الرحال الى حج بيت الله الحرام ، فيتزلون ضيوفا وطلبة واساتذة على اخوانهم بتونس ، بليبيا ، ببلاد الكنانة ، بالشام ، ببلاد العربية السعودية ، وبالعراق ، وكانوا حينما يعودون من سفرهم هذا يرجعون الى المغرب متحلين بحليتين: علمهم ، وطابعهم المغربي ، والقرائح الخصبة التي وجدوها عند اخوانهم في الشرق ، تلك القرائح التي امكنها من ان تتجنب بكل تواضع بعضا من العلماء ، كان لهم الصيت الذائع في الدين والفقه والتفسير والحديث .

ان احترامنا لمبادىء القرآن وتشبثنا بتعاليمه ليس بالشيء الغريب ، حيث ان ابانا محمدا الخامس رحمة الله عليه اول ما وضع في يدنا قلما ، وضعه لا لنخط الاحرف ، ولا لنرسم الرسوم ، رغم حداثة سننا ، انما وضعه لنا في يدنا لاول مرة لنكتب ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ولم ندخل المدرسة الابتدائية ولا الثانوية حتى قضينا في الكتاتيب القرءانية ما يزيد على اربع سنوات ، هذا الشيء هو الذي طبعنا به وجبلنا عليه ، وجبل عليه آباؤنا واجدادنا والاجيال التي سبقتنا في هذا البلد ، واننا لنأسف كل الاسف لما نراه من الاجيال الصاعدة ، من الاجيال التي هي الان الاجيال المسؤولة على دواليب الدولة في الادارة وفي السياسة ، لنأسف كل الاسف لجهلها للقرآن ، لا لنسيانها اياه ولكن لجهلها اياه حيث يرون في القرآن محض مجمع للعبادات وللنسك وللتعامل بين العبد وربه في النطاق الضيق ، ولو نفذوا بابصارهم وبصيرتهم ، ولو حللوه وحللوا سوره وتفاصيله ومجمله لوجدوا فيه فضيلة الفرد ، داخل بيته والسلوك المستحسن للجماعة مع مواطنيها ، والتعامل الصالح الخالص البناء للمجموعات البشرية كيفما كانت الوانها او لغاتها او القارات التي يسكنون بها .

جهادنا هو العمل على ان يصير كتاب الله عملة خلقية وانسانية وقانونية

واننا لنجد ونجتهد لا لنعيد لهذا الكتاب العزيز مجده والتعامل به ، فالله سبحانه وتعالى قد تكفل

بذلك ، فالله خير حافظ للقرآن ، وهو ارحم الراحمين، ولكن جهادنا واجتهادنا هو العمل اليومي على ان يصير كتاب الله عملة خلقية وانسانية ، وقانونية ، ليتعامل بها جميع بني الانسان مسلمين كانوا او عربا ، واملنا في الله سبحانه وتعالى ان يحقق رجاءنا واملنا حيث ان النبي (صلعم) قال : «ما اجتمعت امتي على ضلال» فأي هدي اهدى واحلى وافضل من هدي القرآن ، وايحق احقمن كتابالله، فاذن من باب اولى واحرى ان يجتمع المسلمون على كتاب الله ، نعم كما يقول المثل العربي : (لكل فرس كبوة ، ولكل سيف نبوة ») ولكن الله سبحانه وتعالى قد تعهد لنا ، وقد ترابط معنا نحن معشر المسلمين في كتاب الله العزيز حيث قال : « ان تنصروا الله ينصركم » ، ونصرة الله تختلف باختلاف الازمنة ، والاماكن ، والاجيال ، والملابسات ، والظروف السياسية ، فنصرة الله ليست اليوم هي نصرة الامس ، ليست الجهاد ، ليست هي نصرة الحرب ، ولا نصرة السيف ، ولكن هي نصرة الدين الاسلامي وبكتاب الله ، الا وهو الاشعاع الروحي ،ذلك الاشعاع الذي لا يقف في وجهه لا مصفحات ولا دبابات ولا طائرات ، ولكن من شانه ان يقهر كل عدو وكل قوة مادية او عسكرية كيفما كان نوعها وكيفما كانت كثرتها وشوكتها .

اننا لنرجو حضرات العلماء ان تعتبروا انكم قمتم بزيارة هذا البلد ، واخوانكم فيه ، لا استجابة ولا مجاملة ولكن قياما بالواجب حيث ان الله سبحانه وتعالى انعم عليكم بالعلم فأوجب عليكم تعليمه ونشره بين الناس ، وقمتم بواجبكم ، واديتم امانتكم وجعلتمونا نشعر نحن سكان المغرب الاقصى ان لنا في بقاع الارض كلها اخوانا واشقاء يشدون عضدنا ، ويؤازروننا ويساندوننا ، ويعطون للالفاظ والمعاني مقاييس موحدة او يعطونها اطارا واحدا الا وهي مقاييس الفضيلة الاسلامية ، واطار القرآن العزيز ، لهذا اود ان احملكم رسالة من شعبي ، ومني ، رسالة آمل ان تبلغوها الى اصحاب الجلالة ، واصحاب الفخامة ، الملوك والرؤساء، الذين هم آخذون بزمام امركم ، رسالة ود ، ورسالة صداقة ، ورسالة دعاء ، منا لهم ، ولشعوبهم، ولتذكروهم بما قلناه مرارا وتكرارا ، اننا قد جربنا عدة مسالك ، فمنها المسالك السياسية فلم تمكنا الى يومنا هذا ، لم تمكنا من اي حل بل لم تمكنا من الخروج من الورطة التي يتخبط فيها العالم الاسلامي ، وبالاخص الدول العربية منذ سنين ، وليست المأساة الفلسطينية ، وليس احتلال القدس ثالث الحرمين ، واولى القبلتين، الا نتيجة محتومة منطقية كانت منتظرة لما قامت به الدول العربية من تنافر ومن تخاصم ومن تنابز بالالقاب .

دعونا الى جمع كلمة المسلمين حتى ينتصر بهم العرب

لقد كنا صرحنا في يوم من الايام اننا علينا ان نجرب ، وان نستعمل كوسيلة لتوحيد الصفوف ، واتحاد الجهود وسيلة سماوية مقدسة ، الا وهي حبل الله المتين ، ذلك الحبل الذي يصل الارض بالسماء والذي يصل قلب كل مسلم بقلب كل المسلمين في العالم بأسره والبقاع الاسلامية ، وكنا دعونا الى جمع شمل المسلمين ، حتى ينتصر بهم العرب وحتى ينتفع منهم العرب الذين يقف ما يقرب من ثمانين مليون من العرب امام مشكلة فلسطين ، لا اننا اذا عززنا جانبنا بالمسلمين كافة بعبقرياتهم المختلفة بتعاملهم الدولي ، بصداقاتهم ، باخلاقهم ، بطاقاتهم ، اصبح بجانب العرب نصف مليار من سكان هذا المعمور ، لذا ودون ان يرمي نداؤنا هذا الى اي عمل سياسي وعسكري ، او ما يشابه حلفا او غير حلف ، او ما يدخل فيما يعتبر مناورة او عملية او ما أشبه ذلك ، نرى واجبا علينا لترضي ضميرنا فنؤكد لكم ما يخالج صدرنا من اماني غالية وامنيات قديمة ، الا وهي ان يجتمع المسلمون على صعيد واحد حتى يتصاقروا ، ويتناقشوا وحتى يضعوا لتعاملهم في المستقبل اطارا ودستورا .

تعاليم الاسلام تقضي بان يكون المسلم طموحا

هناك بعض الناس يقولون ليس في الامكان ابدع مما كان ، ولكن هذه فلسفة مخالفة تماما لتعاليم الاسلام ، فتعاليم الاسلام ترمي قبل كل شيء الى ان يكون المسلم طموحا تواقا في نطاق الحكمة وفي نطاق امكانياته وفي نطاق وضع مخطط ووضع برنامج من شانه ان يصل الى الاهداف بعد سنة او سنتين او ثلاث سنوات او عشر سنوات ، المهم هو ان نبدا ، بعمل ربما يظهر عملا سلبيا ولكن في الحقيقة هو عمل ايجابي ، الا وهو ان نستعمل المكنسة حتى نطهر ما بين العرب وما بين المسلمين والعرب وما بين شعوبنا وقبائلنا ، فاذا نحن قمنا بهذا العمل التطهيري تمكنا اذ ذاك من ان نقيم بناءنا على اسس قويمة راسخة ثابتة . ولا اريد ان تمر هذه الفرصة دون ان انوه بالخصوص بوجود كاتبة وعالمة ومفكرة

عزيزة لدى كل مسلم وعربي تمتع بقراءة ما لتعاليم الاسلام تلك التعاليم التي جعلت من المرأة شقيقة الرجل فى الاحكام ، وكلما كانت المرأة شقيقة الرجل فى الاحكام الا وكانت من باب التبعية، شقيقته فى الحقوق والواجبات ، فجزاك الله خيرا عن المرأة الاسلامية والمرأة العربية ، وجزاكم الله خيرا على ما قمتم به من دروس وعظ وارشاد وتوجيه ، وجمعنا الله فى القريب سبحانه وتعالى فى ظروف تكون اكثر ملائمة مع ما ننتظر من الله سبحانه وتعالى من ان يفرج كربتنا فيخفف احزاننا ، فاذا كان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، وهذا اظن انه برنامج وضعه الله بشروطه وبشروط صحته ، بشروط ظرفيته وبشروط كيفيته وكمه ، فعلينا اذن ان نغير ما بانفسنا حتى يغير الله ما هو محيط بنا من مكاره ، ومن سوء، ومن ضغائن ، ومؤامرات ، ومن الطبيعي ان تكون مخلقة وهدفا للاحقاد وللمؤامرات ، لاننا بكل اعتزاز وبكل فخر يمكننا ان نلقيها من اعلى الصوامع ان نلقي تلك الاية التي نفتخر بها ونعتز بها ، حيث ان الله سبحانه وتعالى جعلنا خير امة اخرجت للناس ، نامر بالمعروف وننهي عن المنكر ونومن بالله .

والترتيب ، اظن ، حقيقي هو ان نومن بالله فننهى عن المنكر ونامر بالمعروف .

حياكم الله وزادكم بسطة فى العلم وزاد من وسائلكم للعمل البناء مع شعوبكم وطلبتكم ومجتمعكم، وشكرا لكم مرة اخرى على زيارتكم هذه ، ونسال الله سبحانه وتعالى ان يسدد خطانا ، وان يلهمنا سواء السبيل ، وان يجعلنا ذلك البناء المرصوص الصحيح ، الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وباطل البناء هو التهدم والتصدع ، فيجعل الله بناءنا غير باطل ، غير متصدع ، غير مهدم ، واعطى لكل واحد منا على قدر نيته ، وعلى قدر اخلاصه ، وعلى قدر ضميره وملاءمة اقواله لضميره وملاءمة افعاله لسلوكه، وفلسفته ، وايمانه بالله ، والسلام عليكم ورحمة الله .



بلاغ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بمناسبة نزول القرآن

اصدرت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بلاغا جاء فيه :

بمناسبة ذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرءان الكريم التي ستحل بنا ليلة السابع والعشرين من هذا الشهر المبارك .

اصدر مولانا امير المؤمنين ادام الله نصره امره المطاع بان تحتفل الامة بهذه الذكرى المقدسة احتفالا جليلا يليق بقداسة « القرءان » معجزة الله الخالدة على مر العصور والازمان .

وتنفيذا للامر الشريف اسماه الله، استدعت وزارة عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية نخبة من كبار العلماء من الاقطار الاسلامية الشقيقة ومن انحاء المملكة لحضور المهرجان الديني العظيم الذي سيحييه سيدنا المعتز بالله في ليلة القدر المباركة بمسجد اهل فاس تمجيدا لهذه الذكرى الخالدة واحتفاء بكتاب الله عز وجل .

كما وجهت الوزارة تعليماتها الى سائر النظار بان يهيئوا المساجد ، ويجعلوها في حلة تتناسب وقداسة هذه الذكرى المباركة وينظموا بها دروسا في الموضوع .

وان وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية لتدعو المواطنين الكرام الى حضور هذه الاحتفالات الدينية ابتداء من صلاة الظهر ليوم 26 رمضان الى صلاة الفجر من يوم 27 منه لتلاوة القرءان الكريم الذي كان وسيبقى منبع الهداية والايمان لسائر المسلمين وتدبر معانيه والتضرع الى الله سبحانه بان يحفظ الاسلام بما حفظ به ذكره المبين ويمن على المسلمين بتحرير اولى القبلتين وثالث الحرمين وان يبقى امير المؤمنين جلالة مولانا الحسن الثاني الحارس الامين على مقدسات هذه الامة ذخرا للاسلام والمسلمين ويحفظه في سمو ولي عهده المحبوب الامير سيدي محمد وسائر افراد اسرته الكريمة .

قال الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » . صدق الله العظيم .

منشور وزارة التربية الوطنية بمناسبة ذكرى نزول القرآن

بمناسبة ذكرى نزول القرآن وجه وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة منشورا لقراءته الى كافة المعاهد في مختلف جهات المغرب . وطالب الاساتذة بالتعليق عليه وابراز مغازيه لتلاميذهم وطلبتهم .

ويتضمن المنشور شرح مغزى الاحتفال بذكرى نزول القرآن ، واهمية هذه الذكرى بالنسبة للعالم الاسلامي ، وابراز تعاليم القرآن الخالدة ، وأثرها على التطور الفكري والحضاري .

وقد اهاب السيد وزير التربية الوطنية بمديري المدارس والمعاهد وجميع رجال التعليم ان يحرصوا على الاهتمام بالمنشور المذكور ، وبتلاوته وشرحه بعد عيد الفطر نظرا لكون الذكرى لا تقتصر على ليلة القدر بل تعم السنة كلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها التلاميذ والطلبة

يحتفل المسلمون في جميع انحاء الارض طول هذه السنة بمرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم فقد نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بثلاث عشر سنة وفي سنتنا هذه يكون قد مر على نزول الوحي اربعة عشر قرنا بالحساب الهجري.

بدأ الوحي بنزول الآية الكريمة : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »

ومنذ نزول هذه الآية تتالى الوحي بالقرآن الى سيدنا محمد طوال مدة اقامته بمكة بعد ان هاجر الى المدينة حتى اكتملت سوره وآياته حينما نزلت الآية الكريمة « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وقد جمع الله في القرآن كل ما رضي به لامة الاسلام ، فكانت آياته المحكمات تنويرا للعقل والقلب بالعقيدة والايمان بالله ، وتنظيما للمجتمع بالشريعة والقانون ، وتقويما للخلق بالحكمة والموعظة الحق ، وتثبيتا لعقيدة الاسلام بالجدل والحجة والبرهان . فكان القرآن بذلك خلاصة الرسالة المحمدية التي اراد الله ان تكون آخر الرسالات يحملها الى البشر آخر النبيئين والرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك ايضا كان القرآن خلاصة الاديان السماوية جمع فيه الله تعالى كل ما اوحى به الى انبيائه من صادق تعاليمه ، وما استجد مما اوحى به الى نبيه الكريم محمد بن عبد الله .

وقد نزل القرآن بلغة العرب وهي لغة قابلة للبقاء بما توفرت عليه من ثروة وفصاحة وسلامة ودقة في التعبير وبراعة في الاداء ، وقوة تأثير وتراث تأدبي مكين ، فكانت بذلك لغة حية لم تقصر عن احتواء كل المعاني السامية التي تضمنها القرآن . واستطاع القرآن ان ينتقل اينما انتقل العرب والمسلمين فاتحين مبشرين ومنذرين . وقد بقي القرآن محفوظا باللغة العربية . وبقي كل ما تضمنه من هداية وتشريع وتنوير سليما لم يدخله تغيير ولا تحريف طوال القرون الاربعة عشر .

ان المسلمين اتعظوا بما حصل للديانات السابقة من تحريف وتزييف قام به اعداء الدين وانصاره على السواء . فحفظوا دينهم باحتفاظهم على قرآنهم ، وكان

الله في عونهم حينما قال : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وبمحافظة المسلمين على القرآن احتفظوا على اصول دينهم واحتفظوا على مصدر هذا الدين ؛ فليس لاحد أن يجادل في أصول الدين الاسلامي لان الكتاب الذي هو مصدر الدين ما زال قائما بين ظهرانينا بنصه نتلو آياته فنأخذ منه العقيدة والحكم والموعظة ونستمد منه ما يقوي ايماننا وينير امامنا طريق المستقبل وبقدر ما ساهمت اللغة العربية في نشر القرآن واذاعته وحفظه بين العرب والمستعربين عمل القرآن على حفظ اللغة العربية من الانهيار والضياع ، فبقيت بفضل القرآن سليمة قوية قادرة على التعبير عن شؤون الفكر والثقافة والعلم والحضارة . ولم يحدث لها — بفضل القرآن ما حدث للغات قديمة أخرى كانت لغات ديانات ، ولكنها ضاعت وبادت لانه لم يكن لها كتاب سماوي نزل بلفظها يحفظها من الضياع ويحميها من الاندثار .

ففضل القرآن اذن على الاسلام والعروبة فضل عظيم فلولا القرآن لظل الاسلام دينا تتقاذفه الاهواء والشهوات ولظل عرضة للتغيير والتبديل والتحريف ولكان سببا في تضارب المسلمين واختلافهم لان كل فئة منهم يمكن أن تدين بدين وتسميه الاسلام ، اما الآن فان الناس مهما اختلفوا في الجزئيات فانهم يستطيعون أن يرجعوا الى الاصول التي يجدونها في القرآن الكريم وبذلك حفظت أصول الاسلام عن الضياع واللبس والاختلاف كما صمدت في وجه التحديات الاجنبية التي طالما حاولت القضاء على الاسلام والمسلمين ولم يصدها عن ذلك الا وجود القرآن . أما فضل القرآن على اللغة العربية فهو حفظها من الضياع وبقاؤها حية متطورة في مختلف البلاد التي تعربت مهما يكن أصل سكانها . وفي وقتنا هذا ما نزال نجد اللغة العربية تستمد قوتها وتطورها وصمودها من القرآن نفسه . وقد غزت اللغة العربية بفضل القرآن — لغات حية أخرى لها تاريخ حافل في الادب والحضارة كاللغات الفارسية والتركية والاردية مثلا .

وللقرآن فضل كبير في نشأة الحضارة الاسلامية وتطورها ، فقد فتح آفاق المسلمين على العلم والعمل والاجتهاد والكد ، ولذلك كان المسلمون يحملون القرآن بيد ويعملون بيد حتى بنوا مجد الامة الاسلامية في ميادين العلم والحضارة لانهم لم يجدوا في القرآن ما يعارض نشاطهم وعملهم العلمي والحضاري والتقني .

ونحن حينما نحتفل بذكر نزول القرآن يجب أن نستعيد في اذهاننا كل الاصول والمبادىء العقيدية والتشريعية والخلقية والتوجيهية التي أتى بها القرآن، ولن يزيدنا ذلك الا تشبثا بالقرآن ومحافظة عليه ودراسة له وتلاوة لآياته لانه منهج لحضارة فكرية وعلمية نظرية وعملية أن تكون أساس نهضتنا الحضارية الجديدة . فالاحتفال لا ينبغي أن يكون للذكرى فقط ولكن للعمل كذلك .

وفقنا الله لنهتدي بهدي القرآن ولنعمل بتعاليمه ولنحفظه قولا وعملا فنحفظ بذلك كياننا وتراثنا كأمة لها تراث حضاري عظيم .



جلالة الملك

يقيم حفلة شاي كبرى على شرف العلم والعلماء

اقام صاحب الجلالة الملك المعظم مولانا الحسن الثاني مساء ثاني عيد الفطر حفلة شاي كبرى بقصر دار الضيافة اكراما للعلماء المسلمين الذين حضروا الى بلادنا بدعوة كريمة من جلالته للمشاركة في الاحتفال بمرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم .

وحضر هذا الاحتفال السيد ادريس المحمدي المدير العام للديوان الملكي ، والسيد احمد بلافريج الوزير الممثل الشخصي لصاحب الجلالة ، والنقيب السيد محمد المعمري وزير القصور الملكية ، واعضاء الحكومة يتقدمهم الوزير الاول الدكتور محمد بنهيمة وسفراء الدول الاسلامية وسفير الهند والاتحاد السوفياتي والجنرالات واعضاء الدواوين الملكية ورئيس المجلس الاعلى ووكيل الدولة العام به وعمداء الكليات والمعاهد وعامل الرباط وسلا وعدد من العلماء ، وقد قدم وفد الاتحاد السوفياتي هدية رمزية لصاحب الجلالة هي عبارة عن مجموعة من المصاحف الاثرية .

وخلال هذا الاحتفال تجاذب مولانا امير المؤمنين اطراف الحديث مع العلماء المسلمين الذين اغتنموا هذه الفرصة ليهنئوا جلالته على اطلاعه الواسع بشؤون الدين وحسن بيانه وطول باعه وعظيم تدبره وكبير اهتمامه بالثقافة الاسلامية الصحيحة ، كما عبروا عن اعجابهم بالخطابين اللذين القاهما جلالته سواء بمناسبة مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم او في صباح اليوم الثاني من ايام العيد حينما شرفهم حفظه الله باستقبالهم واكدوا لجلالته ان العبارات السامية التي فاه بها عاهل المغرب العظيم ستكون درسا للمسلمين ونبراسا لهم في معالجة امورهم .

وبهذه المناسبة انعم صاحب الجلالة على ستة عشر عالما من علماء المسلمين بوسام الكفاءة الفكرية من درجات مختلفة اثناء حفلة الشاي التي اقامها على شرفهم بقصر الرياض وهؤلاء العلماء :

الدكتورة عائشة عبد الرحمن من الج . ع . م . والشيخ عبد الحميد السائح من المملكة الاردنية الهاشمية ، والشيخ محمد ابو زهرة من الج . ع . م ، والشيخ الشاذلي بلقاضي من تونس ، والشيخ نديم الجسر من لبنان ، والشيخ مصطفى الزرقاء من الكويت ، والشيخ عبد الفتاح ابو غدة من المملكة السعودية ، والشيخ ضياء الدين خان من الاتحاد السوفياتي ، والشيخ عباس مهاجراني من ايران . والشيخ مصطفى التريكي من ليبيا ، والاستاذ محمد جمال الدين عبد الوهاب من الباكستان والشيخ حياة الله الانصاري من الهند . والشيخ مصطفى عبد القادر من السودان ، والشيخ ابراهيم موسى من التشاد . والشيخ الشريف مكي حيدر من السينغال ، والشيخ محمد ابراهيم من النيجير .

وبعد هذه الحفلة استقبل صاحب الجلالة بقصر الضيافة الشيخ عبد الفتاح ابو غدة من المملكة السعودية ، والشيخ مصطفى عبد القادر من السودان والشيخ مكي حيدر من دكار .

صاحب الجلالة يوشح صدر الكاتبة العربية الكبيرة عائشة عبد الرحمن
بوسام الكفاءة الفكرية



السيد نديم الجسر يتقبل وسام الكفاءة الفكرية من
صاحـب الجلالة نصره اللـه



صاحب الجلالة يوشح صدر العالم الاستاذ
السيد مصطفى احمد الزرقا

العلماء المسلمون يقومون بزيارة مكتبة القصر الملكي العامر

قام السادة العلماء المسلمون ضيوف صاحب الجلالة يوم ثالث شوال بزيارة مكتبة القصر الملكي العامر ، وكان في استقبالهم عند مدخل الخزانة الاستاذ عبد الوهاب بنمنصور مؤرخ المملكة المغربية ، والمكلف بمهمة في الديوان الملكي .

وقد القى الاستاذ السيد عبد الوهاب بنمنصور بهذه المناسبة كلمة عرف فيها باصل الخزانات العلمية الملكية بالمغرب منذ اقدم العصور ، شارحا الدور الذي لعبته في نشر العلم والثقافة بالمملكة المغربية والعالم الاسلامي ، كما اشار الى ما تحتوي عليه من ذخائر ونفائس نادرة ، ثم بين ان المكتبة الملكية هي ورشة عمل لان ترتيب كتبها وتنظيمها لم يتم بعد وان جلالة الملك المعظم قرر حفظه الله بناء خزانة عصرية مستوفية لجميع الشروط التي تعين الباحثين والمثقفين في جميع انحاء العالم الاسلامي على البحث والمعرفة، وابرز الاستاذ بن منصور الايادي البيضاء التي لملوك الدولة العلوية على الحركة الفكرية في المغرب .

وانشئت المطبعة الملكية التي رات النور منذ مائة وخمسة اعوام فمنذ عهد جلالة السلطان المقدس سيدي محمد بن عبد الرحمن نشر الملوك العلويون على نفقتهم الخاصة عشرات الكتب التي طرقت كل ابواب المعرفة سواء كانت دينا او ادبا او علما او فنا او تاريخا .

وبعدما انتهى مؤرخ المملكة من تقديم هذه البيانات اطلع السادة العلماء المسلمين على معرض المطبوعات والمكتبة التي اعجبوا بها ايما اعجاب وابدوا تقديرهم للمجهودات التي بذلها الملوك العلويون في هذا الباب والتي تضاعفت في عهد جلالة الملك الراحل محمد الخامس قدس الله روحه وخلفه جلالة الملك المعظم الحسن الثاني ايده الله ، ثم زار السادة العلماء قسم المخطوطات وقدمت لهم نماذج من كتبها التي يرجع تاريخ بعضها الى الف سنة ، وفي النهاية شكر السادة العلماء جلالة الملك المعظم على تفضله باطلاعهم على هذه الخزانة النفيسة وابدوا اهتمامهم بمحتوياتها واثر هذه الزيارة قام السادة العلماء بزيارة لضريح مولاي الحسن حيث ترحموا على روح فقيد العروبة والاسلام جلالة الملك الراحل محمد الخامس رحمه الله وسجلوا اسماءهم في الدفتر الذهبي .



السادة العلماء فى ضريح مولاي الحسن حيث ترحموا على روح الفقيد
مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه



العلماء المسلمون فى مكتبة القصـــر
الملكي العامر



العلماء المسلمون منهمكون فى البحث عن
كنوز ما تضمه الخزانة الملكية

كيف تم مهرجان القرآن لاختيار المجودين

عاش الشعب المغربي يوم الثلاثاء عاشر رمضان الموافق 12 دجنبر 1967 يوما خالدا مع مهرجان القرءان الكريم ، لقد استمع الى 28 مقرئا من مختلف انحاء المملكة ، تلا كل منهم ما تيسر من آيات كتاب الله بطريقته الخاصة ، وتجويده الخاص ، واسلوبه الخاص

ومر اليوم الخالد الذي صادف ذكرى مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرءان الكريم في جو من الخشوع والنورانية .

كيف تم تحضير هذا المهرجان الديني ؟ .

لقد قررت وزارتا الانباء والاوقاف والشؤون الاسلامية بمناسبة مرور اربعة عشر قرنا على نزول



بعض اعضاء لجنة التحكيم المتنقلة
اثناء امتحانها لاحد المرشحين من اقليمية طنجة المشار اليه بعلامة ×

القرءان الكريم ان تتميز الذكرى السابعة لوفاة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه باقامة مهرجان للقرءان الكريم،ووقع الاختيار لدراسة الموضوع وتقديم مشروع لتنظيم المهرجان ، وبالفعل اجتمت اللجنة ودرست الموضوع من جميع جوانبه الادارية والمالية والتقنية ورفعت مشروعا الى السيد الوزير الذي اتخذ في حقه الاجراءات اللازمة وامر بالتنفيذ ، وهكذا تم الاتصال فورا ببعض الوزارات التي يهمها الامر

ففيما يخص وزارة الاوقاف فقد عينت لجنة تحكيمية تتجول عبر اقاليم المملكة للاستماع الى كل من ترشحهم نظارات الاحباس والعمالات ورجال السلطات المحلية .

اما وزارة الداخلية فكان عليها — نظرا لضيق الوقت — ان تشعر المرشحين بتواريخ حلول اعضاء اللجنة بكل مركز من مراكز الامتحان وهي : مراكش والدار البيضاء ، وطنجة ، وفاس ، والرباط . وهكذا كانت كلما وصلت اللجنة الى تلك المراكز كانت تستمع الى مرشحي المنطقة والاقاليم المجاورة ، وقد استمعت اللجنة الى ثمانين مقرئا مباشرة ، كما استمعت الى اربعين مقرئا تكلفت عمالات الاقاليم النائية جدا بقراءاتهم .

وبعد هذه المرحلة الاولى اجتمت اللجنة التي اقترحتها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والتي تتركب من السادة : عبد الله الجراري، مولاي مصطفى



صـورة تذكارية لبعض القـراء صحبة بعض اعضاء اللجنـة التحكيمية

العلوي ، ومولاي الشريف بن علي ، وعبد الحميـد احساين ، وقر رأيهـا على استدعـاء ثلاثين مقرئـا للمشاركة في المهرجان النهائي .

ورات اللجنة ان الشيء الذي ينقص هذه النخبة هو تطبيق مبادىء التجويد ، فقد اقترحت ان تنظم دورة تدريبية قصيرة لصالح الثلاثيـن الناجحيـن في الجولة الاولى قبل التقدم للمباراة النهائية .

وقد اعتمدت اللجنة على ثلاثة عناصر اساسية هـــي :

اولا : توفير عنصر الصوت . ثانيـا : الالمـام بمبادىء التجويد وتطبيقها . ثالثا : طريقة الاداء .

ففيما يخص العنصر الاول : فالنخبة التي تقدمت امام الجمهور يوم عاشر رمضان المبارك كانـت زبدة لمجموعة من القراء الذين اختيروا من مختلف اقاليـم المملكة ، ذلك ان اللجنة بالاضافة الى مسئوليتها كهيئة ممتحنة كانت في نفس الوقت لجنة للتوعية والتوجيه.

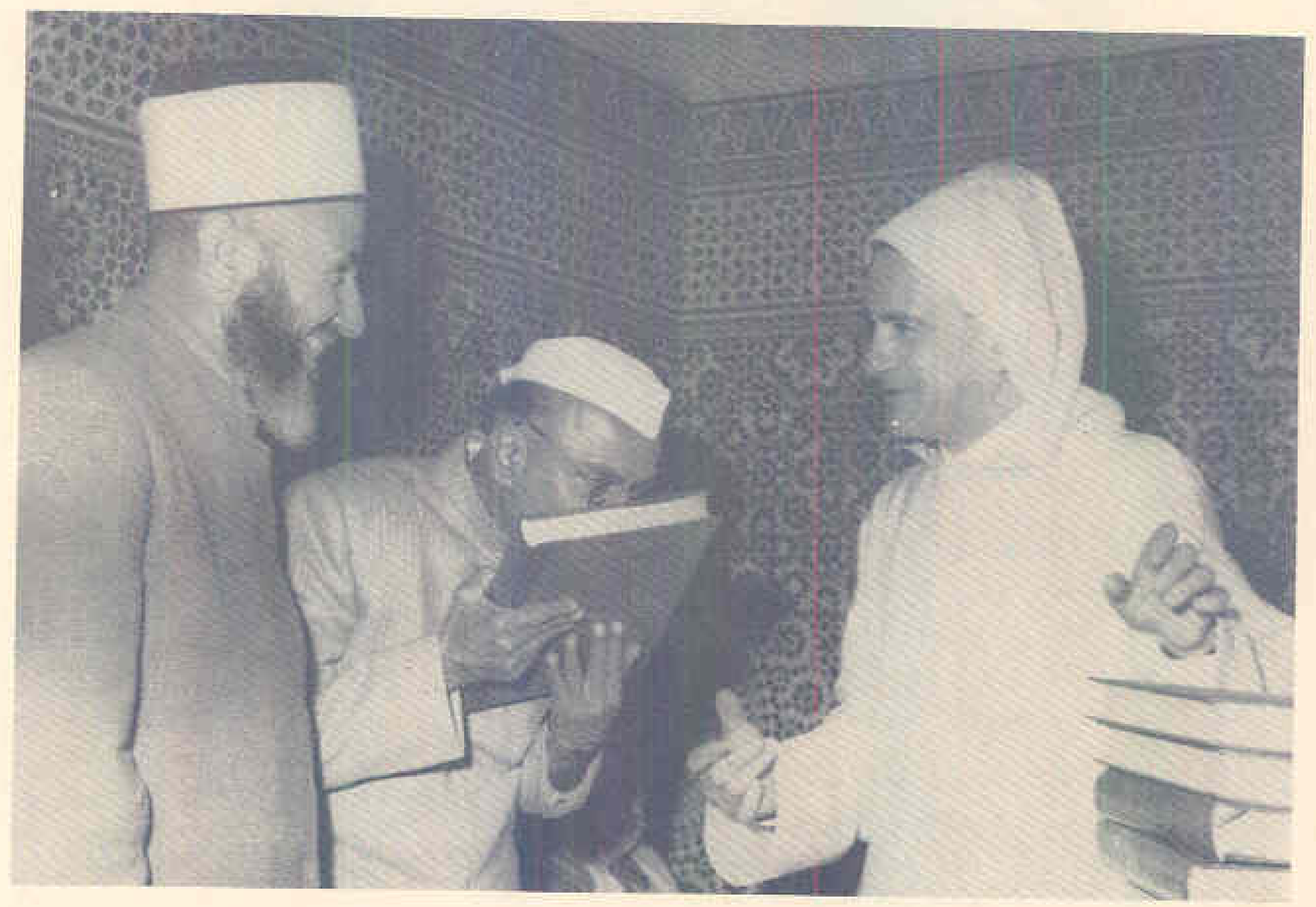
اما فيما يتعلق بالعنصر الثاني فقد كان اعضـاء اللجنة يعتبرونه بمثابة الشرط الاساسي في الحكم على المشارك عملا بقول رسول الله (ص) : (من لم يجـود القرءان آثم) ومن قبله عملا بقوله تعالى : (ورتـل القرءان ترتيلا) .

ومن اجل ذلك فرضت فترة تدريبية دامـت اسبوعا كاملا ، وكانت فرصة بالنسبة لهذه النخبـة حيث اتاحت لها التعـرف على جماعـة من اساتـذة التجويد الذين لقنوهم دروسا نظرية وتطبيقية حيث تم ذلك بدار الحديث الحسنية .

اما فيما يتعلق بطريقة الاداء فقد لوحـظ بـان بعض القراء كانوا يفضلون طريقة معينة عن غيرها او يخلطون بين اساليب الاداء ، كانوا ينتقلون مثلا في آية واحدة من نغمة الى أخرى دون ان تكون الاذن قـد استانسـت بعد لسماع النغمة الاولى والانسياق معها، زيادة على الخلط بين الطريقتين المغربية والشرقية عند بعض القراء ومع تفضيل اللجنة للطريقة المغربية الصرف بصفتها مظهرا من مظاهر حضارتنا وتقاليدنا من الوان فنوننا فقد اعطت اللجنة الحرية في اختيار الطريقة التي يرتضونها حتى لا يكون هناك ما يمكـن التعبير عنه او وضعه بالتحيز .

وقد مر الحفل في جو بهيج حيث حضره معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلاميـة الاستاذ الحاج احمد بركاش الذي سلم بنفســه الجوائز للفائزين . وقد توجـت اعمال هـذا المهرجـان الدينـي الاول بتأسيـس رابطة للقراء بالمغرب ، وعينـوا لها مكتبـا تأسيسيـــا .

حفلة شاي بمنزل السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية على شرف علماء العالم الاسلامي



السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية يقدم « مصحف الحسن الثاني » الى السيد الانصاري من الهند ، والسيد عبد الفتاح ابو غدة من المملكة السعودية

استقبل معالي وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية السيد الحاج احمد بركاش بمنزله مساء يوم العيد اعضاء الوفود الاسلامية التي حضرت الى المغرب بدعوة كريمة من مولانا صاحب الجلالة للاحتفال العظيم بذكرى نزول القرءان الكريم على سيدنا محمد عليه السلام .

وقد دار الحديث بين اعضاء الوفود الاسلامية ومستقبليهم من رجال الثقافة والعلم ورواد الحركة الفكرية بالمغرب في جو اسلامي خالص حول مغزى هذه الذكرى ، وابدوا اعجابهم واندهاشهم مما راوه من جلال الملك ، وابهة الاحتفال اثناء صلاة عيد الفطر المبارك مع مولانا صاحب الجلالة نصره الله وايده .

وقد وزع السيد الوزير على اعضاء الوفود نسخا من مصحف الحسن الثاني الذي قامت بانجازه وطبعه وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية .



السيد نديم الجسر يتحدث الى السيد الوزير وبجانبهما علماء الاسلام



علماء المسلمين يتصفحون « مصحف الحسن الثاني » الذي اهدي اليهم يوم عيد الفطر
ويظهر فى الصورة من اليمين السادة : ابو زهرة من ج.ع.م ، وعبد الحميد السائح من الاردن ،
والشاذلي بلقاضي من تونس



الوسائل العلمية لبعث اسلامي

للأستاذ الكبير علال الفاسي

انعقدت يوم السبت 28 رمضان المعظم في الساعة الحادية عشرة صباحا بكلية الآداب بالرباط ندوة حضرها كل ضيوف المغرب من العلماء المسلمين الذين حضروا الاحتفال الرائع الذي اقيم بمناسبة مرور اربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن الكريم .

وحضر هذه الندوة كل من معالي وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية السيد الحاج احمد بركاش ومعالي وزير التعليم الاستاذ السيد عبد الهادي بوطالب والاستاذ السيد محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس وجمع غفير من العلماء المغاربة ومثقفيه

واستهل هذه الندوة التي اقيمت تحت شعار « العودة الى القرآن » الاستاذ السيد محمد الفاسي بكلمة افتتاحية وبعده تناول الكلمة الاستاذ السيد عبد السلام الفاسي رئيس جامعة القرويين

ثم قدم الاستاذ الكبير السيد علال الفاسي عرضا قيما كان موضوع مناقشة خصبة ومنتجة وايجابية .

وقد اوضح الاستاذ علال الفاسي في عرضه وجود المسلمين في الوقت الحاضر امام عدة تيارات ، قوام بعضها ، العلم ، وقوام بعضها الحضارة ، ونحن لايمكن ان نبتعد عن العلم ولا عن الحضارة ، لان القرآن نفسه يحض على العلم . والتخلف الموجود في العالم الاسلامي تخلف طارىء ، ويمكن للمسلمين ان ياخذوا باسباب العلم وان يجتازوا عصر البخار الى عصر الذرة دون ان يبتعدوا عن القرآن الذي لايتنافى العمل به مع عصر العلم والحضارة وخلص من ذلك الى وضع السؤال المطروح للمناقشة وهو : « ما هي الوسائل العلمية التي تمكن المسلمين من العودة الى القرآن الكريم »

وقد اجاب كثيرون عن هذا السؤال ، فرأى الاستاذ السيد ناصر الكتاني ان العودة الى القرآن تكون بتصحيح المناهج المدرسية لتربية النشء على تلقين القرآن ومبادئه ، وفي التربية الخلقية ، ثم تحدثت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) حديثا مستفيضا عن مثالية القرآن التي لم يعد احد يعرفها وخاصة في الاجيال التي تعرضت للاستعمار الفكري ، الاستعمار الذي زيف تاريخ الاسلام حتى مضى المسلمون يلتمسون فكرهم فيما اتى به الغرب فياخذون مثلا حقوق الانسان وحقوق المراة من قوانين الامم المتحدة ، مع ان القرآن اتى بها منذ اربعة عشر قرنا . وتحدثت عن الاتجاه الذي سنه الرئيس علال في العودة الى الشريعة في كتابيه القيمين : دفاع عن الشريعة ومقاصد الشريعة . وقالت اننا لا نقيم حواجز بين الشباب والتيارات المعاصرة ، ولكنا يجب ان نضع امامهم مثالية القرآن ليفهموا انه حرر الانسان والفكر والعقيدة وحرر المراة فادركت حرية العلم والفضيلة والعفة . وتحدثت عن التجربة الذاتية في فهم القرآن فقالت انها فهمت من القرآن ان العقل هو مناط انسانية الانسان . وتحدثت بعد ذلك عن دور البيت والمدرسة والجامعة وعن المكتبة والمعلم والدرس في تقديم مثالية القرآن لشبابنا الذين لا نريد منهم ان ينقطعوا عن الثقافة الغربية ولكنا نريد ان نسلحهم بالمعرفة القرآنية . فشبابنا اليوم عقولهم مشدودة الى الغرب وقلوبهم مشدودة الى العقيدة وهم ممزقون بين شقي الرحا .

ثم تحدث الاستاذ السيد عبد الحميد السائح وزير الشؤون الاسلامية والاماكن المقدسة بالمملكة الهاشمية الاردنية فقال :

ان السبيل هو ان تتبنى دولة اسلامية الحكم بالقرآن وان تتعهد بتكوين مجتمع يضع الحلول الاسلامية المتطورة وتغيير المناهج والقوانين المعمول بها الى المناهج الاسلامية

وتحدث بعد ذلك الاستاذ ابو بكر القادري فلخص كلمته في ان رجال الفكر الاسلامي يجب ان يخرجوا بنقطة التقاء يقتنعون بها ويعملون على اقناع المسؤولين في العالم الاسلامي وركز رأيه على تغيير المناهج المدرسية ووسائل الاعلام التي يجب ان توجه توجيها اسلاميا ، وقال اننا يجب ان نبدا بانفسنا في تنفيذ مبادىء القرآن .

وقد تحدث بعد ذلك كثير من المشاركين فابدوا ارائهم في موضوع العودة الى القرآن منهم الدكتور عباس مهاجراني من ايران والاساتذة الاجلاء مصطفى عبد القادر من السودان ومصطفى التريكي من ليبيا والدكتور الحبابي ، والشاذلي بن القاضي من تونس وعبد الواحد العلوي وعبد الله غوشه قاضي القضاة بالمملكة الاردنية وابراهيم الكتاني والرحالي الفاروقي ومحمد الميدلاوي والشيخ مفتي ضياء الدين بابا خانوس من الاتحاد السوفييتي والشيخ نديم الجسر من لبنان وادريس الكتاني

وختم السيد وزير التربية الوطنية الندوة فشكر الرئيس علال الفاسي على كلمته المركزة القيمة التي تنشد هدفا ساميا وان هذا الاجتماع يمكن ان يكون بداية اجتماعات اخرى ، وهذا الاجتماع ليس ندوة انتكاسية ولا انكماشية وانما نريدها نهضة شاملة ...

وهذا نص العرض الذي القاه الاستاذ السيد علال الفاسي الذي كان منطلق النقاش بين العلماء المسلمين :

حضرات الاساتذة الكرام .

منذ اربعة عشر قرنا ، كان العرب فى جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، والبشرية كلها فى خضوع للملوك، وهيمنة لرجال الدين، تعبدها الخرافة، وتسيرها الاوهام ، وتقوم حضاراتها على عبادة غير الله ، حتى كان بعض الاحرار يجدون فى الجزيرة العربية ملجا يأوون اليه ومع ما هو عليه من التخلف ، لان فيه حرية لا مزاحم عليها ، حرية الاوابد فى الفلاة ، والطير فى السماء .

وكانت الارستوقراطية التجارية القرشية فى مكة تمثل القيادة الوحيدة للعرب ، واليد القوية فى تسييرهم وتوجيههم ، وطبعا فقد كان يهمها ان يبقى المجتمع العربي قائما على فاسد التقاليد وباطل الاعتقادات لانها تستفيد من حالة الشعب ، وتشعر بالاستعلاء ما دام فى غيبوبة بعيدا عن كل معارضة او اندفاع للتحرير .

وفى هذا الجو الخانق انبثق نور من السماء ، اضاءت له ارجاء الجزيرة وشع على البسيطة كلها ، وتزلزلت له اركان القصور فى الشام وفارس وبيزنطة ، وهوت به الاصنام العربية بما لها من طقوس ، وما وراءها من اوهام . وسرعان ما تبدلت الارض غير الارض والعرب غير العرب .

ذلك ان محمدا (ص) بعث للناس كافة ، وانزل عليه قرآن كريم ، فيه تذكير بالفطرة وتوجيه للعمل الصالح ، وبث لروح الايمان فى وعي ويقظة .

لقد هدى هذا القرآن للتي هي اقوم واصلح الله به القلوب والعقول ، وجمع به بين شتات القبائل ، ومختلف الآراء ، والانظار ، ووحد غايات الناس فى الحياة : « وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » .

وكانت النتيجة ان قامت فى البلاد العربية دولة اسلامية فذة ، لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، مدت سلطانها الى سائر هذه البقعة الافريقية الاسيوية والى جوانب من اوربا ، ولم يكن سلطانها قائما على السيف وحده ، ولا رسالتها معتمدة على غير ما فيها من دواعي القبول او قابلية استجابة ذوي الفطرة السليمة لها ، عاش العلم فى رحابها معززا مكرما ، والحرية فى البحث وفى التعبير عن الافكار العلمية مضمونة محمية فاصبح الناس فى هذه الارض اخوانا يتلقيون فى ارض الاسلام كيف شاؤوا ، لا تحصرهم حدود ، ولا تضيق بهم جنسية . قانونهم واحد هو شريعة الاسلام متعددة المذاهب متنوعة النزعات . وفلسفتهم هي الفكر الاسلامي المتفتح القابل لان ينظر ويدرس كل ما تصل اليه المعرفة او يهتدي اليه المفكرون من المشرق والمغرب . وسلوكهم هو ما يقتضيه الخلق الفرداني من اخاء ومحبة وتعاون على البر والتقوى .

ونظرة واحدة على هذه الحقب السعيدة من تاريخ المسلمين تعطي نتيجة حتمية هي ان هذه النهضة الثقافية الحضارية الفذة واكبت واعتمدت على عقيدة الاسلام ومبادىء القرآن . ومن الصعب اعتبار ان هذه المواكبة صدفة ، وان نجاح النهضة لم يكن بسبب ما اورثه الاسلام من عقيدة ومن دفع الى العمل ومن تفهيم للانسان معنى كونه خليفة الله فى ارضه .

على ان احدا من المسلمين او غيرهم لم يزعم ان ما حدث من تقدم فى هذه المنطقة بعد مجيء الاسلام كان صدفة او لم يكن من اثر الدين الجديد وما زرعه فى قلوب معتنقيه من روح العمل والبناء .

فالمسلمون اذن نهضوا وبنوا مجدهم باسم الاسلام وبفضل ما علمهم القرآن .

ولكن حالة هذه المنطقة لم تدم على ما اراده لها الدين ، وسرعان ما توقف سير المسلمين ، واضطربت احوالهم واشتغلوا ببعضهم ، ولم تمض حقبة يسيرة حتى كان غيرهم قد احتل المكان الذي لهم . وذلك بفضل تخليه عن بعض التقاليد التي عاقته زمنا . وبفضل اكتشاف البخار الذي خرج بالاقتصاد الاوربي من الطور العائلي الى الطور الآلي .

وقد تطور الامر الى ان اصبح الاقتصاديون الجدد يبحثون عن الاسواق المستهلكة والمواد الاولية ، واستطاعوا بما وضعوه من خطط وما اعدوه من قوة ، ان يهاجموا المنطقة الاسلامية ويحتلوها ويحاولون تسخيرها لخدمتهم ، والابقاء على حالة التخلف التي وقعت فيها حتى لا تنهض من كبوتها ولا ان تتحرر من اغلالها .

وزاد من قوة الغرب ان انضمت اليه قارةجديدة هاجر اليها من ابنائه من بنى فيها اكبر دولة حديثة وهي امريكا .

وبما ان التخلف الاقتصادي والاجتماعي عم هذه المنطقة التي واكبت دخول الاسلام لها بالامس لنهوضها وازدهارها ، فقد حاول الغرب ان يفهم المسلمين ان هذا التخلف نتيجة لايمان المسلمين بالاسلام وتمسكهم

به ، وانه لا سبيل الى انهاضهم من جديد الا اذا تخلوا عن دينهم ، واعتنقوا تعاليم الغرب كما هي . واثر ذلك عمليا في نفوس بعض قادة المسلمين الذين لم يعرفوا الاسلام ولا تاريخ المسلمين . مع ان التخلف في العالم الاسلامي حينما يبحث بدقة يظهر انه لم يواكب عهد التمسك بالدين واقتفاء تعاليم القرآن وانما واكب مرحلة وقف فيها النمو الديني في نفوس اجيال من المسلمين ، كما واكب تحول نظام الحكم الاسلامي المبني على الشورى والعدل والاحسان الى انظمة انشأتها سيطرة بعض الاذكياء على الشعوب وتسخيرها لمصلحتهم . وجاء التقدم التجاري في الغرب وما اعقبه من حملات استعمارية ، فلم يعط المسلمين فرصة التدبر في امرهم وتطوير احوالهم بكيفية طبيعية مترتبة على مدى وعيهم وادراكهم اللذين كانا في بداية البزوغ

ولقد جرب المسلمون للخروج مما هم فيه اليوم ، نظريات وافكارا مستمدة من الغرب شرقية وغربية فلم يفدهم ذلك شيئا كبيرا ، الامر الذي جعل ثلة صالحة من علمائهم وذوي الراي فيهم يقتنعون بان التخلف الاقتصادي والاجتماعي في بلاد المسلمين انما هو نتيجة التخلف الثقافي والديني ، وان ترك المسلمين الاخذ بتعاليم الاسلام التي تحث على الدرس والمعرفة وجعل الحكمة ضالة المومن يلتقطها انى وجدها هو الذي اورث المسلمين هذه الحالة التي هم عليها ، فهم قد جعلوا القرآن عضين ، حافظوا على بعض جوانبه الظاهرية واهملوا جوانبه المهمة التي لابد منها للبقاء في خط التقدم الذي اراده الاسلام لمعتنقيه .

وهؤلاء المفكرون يجدون في آيتين من كتاب الله ما يعطيهم الحجة لما يقولون : قال تعالى : (من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) . وقال : (ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

واذن فمهما تكن الاسباب التي يستخرجها الباحث الاجتماعي من نقط الضعف الموجودة في العالم الاسلامي فانها ترد الى اصل اصيل هو اهمال المسلمين لتعاليم الاسلام الذي يامرهم بالاخذ بوسائل العلم والعدل والقوة .

ان الفراغ الذي حدث في تطبيق الاسلام شريعة وخلقا على ما استجد من الاحداث التي تتعدد كل يوم، كون فجوة بين المسلمين وبين ما وصل اليه اجدادهم حينما كانوا لا يتركون مجالا للفراغ ، ويعملون دائما بمقتضى تعاليم دينهم ، وهذه الفجوة الفكرية الدينية، لم يقع ان امتلأت بما امتلأت به افكار الغرب اثناء انبعاثه لان الصدفة لم تجعل المسلمين يكتشفون البخار ، ولا يمكن ان تمتلىء بنفس تلك الافكار او بما تطورت اليه بمقتضى تطور الاقتصاد والتقنية واكتشاف الكهرباء او الذرة ، لان المسألة ليست مسألة تبني الافكار بقدر ما هي مسايرة تطور العلم والتقنية ، والانصهار في معمعتها .

ولكن التفوق في هذه الميادين متوقف على باعث فكري ومذهبي ، لا شك في ذلك ، وذلك ما يستوجب من المسلمين تجديد الرباط المتين بينهم وبين تلك التعاليم التي سقطوا منذ تخلوا عنها حتى يتمكنوا من العبور على تلك الفجوة الى ما قبل الوقوف،ثم العبور منه بما له من محرك قوي الى عهد الذرة ، دون حاجة الى المرور بمراحل البخار والكهرباء .

فالمسألة اذن هي العودة الى الاخذ بتعاليم القرآن والاهتداء بهديه ، لانه وحده الذي يعرفنا ما ذا يجب ان ناخذ وما ذا يجب ان نذر .

والمسألة المترتبة على ذلك هي :

ما هي الوسائل العلمية التي تمكن المسلمين من اقامة بعث اسلامي يجعلهم يستانفون في جو قرآني السير في خط التقدم الحقيقي ليواكبوا ركب الحضارة ويخلصوا الى الطليعة حيث أراد الله منهم أن يكونوا .

ذلك هو الموضوع الذي يخرج من تحقيق المناط الذي حاولت ان اقوم به ، وذلك ما ادع لحضرات الاساتذة الاجلة ان يعالجوه عسى ان نخرج من الحوار حوله بفكرة ان نحن اخذنا بها وعملنا لها دخلنا صراط الله الواضح البين .

وشكرا .

الرباط – علال الفاسي



ان ذكرى اي حادث تقتضي اولا وبالذات التعرض لتاريخ ذلك الحادث ، وتحديد زمن وقوعه ليطابق وقت الذكرى الحادث المذكور ، لا من حيث الظروف الزمنية التي وقع فيها فحسب ، بل ومن حيث الاحوال والملابسات التي صحبته وارتبطت به ، فان أية ذكرى انما يراد بها التأمل والاعتبار ، ولابد من توفير الاسباب المادية والمعنوية التي تعين على تحقيق هذا الغرض المتوخى من الذكرى .

1) ونزول القرآن الكريم على النبي (ص) هو باتفاق المسلمين كان منجما اي مفرقا بحسب الوقائع التي تقتضي نزول ما ينزل منه ، اما جوابا عن سؤال وجه اليه (ص) او حكما في قضية عرضت عليه ، او ردا على زعم من مزاعم المشركين في مسائل الاعتقاد والبعث والجزاء ، او نقضا لمطعن من مطاعن اليهود والنصارى في الرسالة المحمدية والدين الاسلامي ، او بيانا عاما للناس جميعا في الدعوة الى الله ، وحقائق الايمان ، واصول التشريع ، واحوال المعاد ، مما اضطلع الرسول الاكرم بتبليغه الى الخلق مدة الرسالة لهدايتهم الى الدين القويم .

وهذا الامر قد أفصح به القرآن في معرض الرد على الكفار الذين انتقدوا عدم نزوله مرة واحدة « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك (1) » اي انزلناه كذلك منجما لتثبيت فؤادك بالوحي المتتابع الذي تتجدد به صلتك بالسماء، ويستمر امدادها لك بالعون ، فيطمئن المؤمنون الى عناية الله بك ، ورعايته لك ، ويرتدع الكفار عن تكذيبك ومحاجتك ، لان ذلك تصديقك وتزكية دعواك للرسالة ، بله تسهيل الامر عليك وعلى المؤمنين بعدم الزامهم بالتكاليف الشاقة دفعة واحدة .

2) وقد نشأ عن نزول القرآن بهذه الصفة ، علوم ومباحث واسعة تسمى علوم القرآن لابد للمفسر ان يلم بها ، والا عميت عليه الانباء في معرفة معاني الآي الكريمة واسرار التنزيل .

فمنها العلم باسباب النزول ، وذلك ان القرآن منه ما نزل ابتداء ، بيانا للناس ومنه ما نزل بسبب ما جوابا عن سؤال او حكما في قضية مثلا على ما مر آنفا فيحتاج المفسر لمعرفة هذا السبب ، وقد عنى به العلماء شديد العناية وافردوه بالتآليف العديدة .

ومنها معرفة المكي والمدني اي ما نزل منه قبل الهجرة والنبي (ص) مقيم بمكة وما نزل بعدها والنبي مقيم بالمدينة ، ويحتاج اليه لمعرفة المتقدم من المتأخر وتترتب على ذلك احكام ، فضلا عن التفرقة بين طبيعة الدعوة في الفترتين ، ولا تقل عناية العلماء بهذا البحث عن سابقه .

ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ، فان بعض الاحكام التي تقررت في اول الاسلام انما كانت موقتة للتدرج في التشريع ثم نسخت بعد ذلك ، ويجب العلم بها لما تتضمنه من حكم كالتيسير على الامة ، ولما ان الجهل بذلك ربما يؤدي الى الوقوع في المحظور ، فقد روى عن علي (ض) انه قال لقاض اتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال لا . قال هلكت واهلكت (2) .

1) سورة الفرقان ، الآية 32 .
2) الاتقان للسيوطي 2 ص 20 .

وقد اهتمت الامة بهذا الفرع من علوم القرآن اشد الاهتمام ، وخصته كتب الاصول بدراسات قيمة ، واما الذين الفوا فيه على انفراد فهم خلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين .

وهكذا نرى عمليا أن القرآن نزل مفرقا ، وفي أوقات متباعدة ، وان تاريخه هو تاريخ الرسالة ، ومدته هي مدتها او قريبا من ذلك ، وانه لا يصح أن يقال ان القرآن اي المصحف نزل في تاريخ كذا لتاريخ معين لا يمتد من تاريخ البعثة الى ما قبل وفاة النبي (ص) بقليل .

3) نعم هناك مبدأ النزول اي اول يوم نزل فيه شيء من القرآن ، وهذا هو الذي يعطينا تاريخ الذكرى ، لانه يعتبر كيوم الولادة الذي يحتفل به سنويا كثير من الناس .

ولقد صرح القرآن بأن نزوله كان في رمضان ، وفي ليلة القدر منه على الخصوص كما قال تعالى (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن) (2) وقال (انا انزلناه في ليلة القدر) (3) .

واكد ذلك بالنسبة الى الليلة المذكورة قوله في الآية الاخرى (انا انزلناه في ليلة مباركة) (4) .

واذن فقد تحدد نزول القرآن بشهر معين ، وليلة مسماة منه ، ولكن بقي تحديد السنة التي منها هذا الشهر ، وان لم يتوقف عليها غرض الذكرى ، الا في عدد ما مر عليها من السنين .

ومن السهل ان نقول انها السنة الاولى للبعثة، ضرورة أن النزول كان مقرونا بذه (5) .

وبعثة النبي (ص) كانت في القول المشهور الذي يأخذ به الجمهور ، بعد مرور اربعين سنة على ميلاده الشريف . وبما ان ميلاده كان في ربيع الاول من عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، على القول المعتمد، وذلك يوافق 20 غشت سنة 570 م فان رمضان الذي انزل عليه فيه كان سنة احدى واربعين من ميلاده ، وهي توافق سنة 610 م .

فيكون قد مر على نزول القرآن الآن بالتاريخ الهجري اربع عشرة مائة سنة بزيادة ثلاث عشرة سنة على عامنا هذا الذي هو عام 1387 وذلك بالنظر لكون مدة الرسالة ثلاثا وعشرين سنة ، ثلاث عشرة بمكة قبل الهجرة ، وعشرا بالمدينة بعدها . وهو قول الجمهور الذي عليه المعول (6) .

وبالنظر لقول انس انه (ص) مكث بمكة بعد الرسالة عشر سنين ، وبالمدينة عشر سنين ، يكون قد مر على هذه الذكرى ثلاث عشرة مائة وسبع وسبعون سنة فقط . ولكنه قول انفرد به أنس (7) ، وقال العلماء انه مبني على الغاء السنوات الثلاث التي فتر فيها الوحي .

وثم قول ثالث بأنه (ص) مكث بمكة خمس عشرة سنة بعد البعثة (8) ، فيكون الآن قد مر على نزول القرآن عامان اثنان واربعة عشر قرنا ، وتمام ضبط هذا التاريخ يحملنا على تعيين يوم النزول ايضا من رمضان فلا يبقى مشاعا بين ايام الشهر كله . وقد اشتهر انه كان يوم الاثنين لسبع عشرة خلت منه ، رواه ابن سعد (9) واخذ به غير واحد وهو يخالف ما صرحت به الآية الكريمة من نزوله في ليلة القدر ، الا اننا نعلم ان هذه الليلة قد اختلف فيها هي الاخرى، ومن جملة الاقوال فيها انها متنقلة بين ليالي رمضان ، فيحتمل أن تكون في ذلك العام صادفت اليوم المذكور، وهو يوافق 6 غشت 610 م لكن الصحيح والذي عليه المعول أن ليلة القدر هي ليلة سبع وعشرين ، لما في البخاري من قوله (ص) التمسوها في العشر الاواخر (10) ، ولما في مسلم من أن ابي بن كعب قبل له

1) سورة العلق الآية 1 .
2) سورة البقرة الآية 185 .
3) سورة القدر الآية 1 .
4) سورة الدخان الآية 2 .
5) انظر الزرقاني على المواهب ج . ل ص 207 .
6) المصدر السابق ج . ل ص 208
7) طبقات ابن سعد ج . ل ص 190 .
8) البرهان للزركشي ج ل ص 232 .
9) الطبقات ج ل ص 192 .
10) البخاري ج . ل . ص 252 .

ان اخاك ابن مسعود يقول من يقم الحول يصب ليلة القدر فقال رحمه الله اراد ان لا يتكل الناس اما انه قد علم انها في رمضان وانها في العشر الاواخر ، وانها ليلة سبع وعشرين ثم حلف لا يستثني انها ليلة سبع وعشرين بالعلامة التي اخبرهم بها النبي (ص) (1) وحينئذ فموافقتها هو يوم 16 من غشت السنة .

4) هذا تاريخ نزول القرآن بمعنى مبدأ نزوله ، ماخوذا من القرآن نفسه ، وهو احد المعنيين اللذين حمل العلماء عليهما الآيات الواردة في ذلك .

والمعنى الثاني ان نزوله كان جملة واحدة الى السماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما في مدة الرسالة التي تتراوح بين عشرين سنة وخمس وعشرين سنة على الخلاف فيها . وهو قول اكثر المفسرين ، وتؤيده الرواية الصحيحة عن ابن عباس قال انزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة .. اخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال صحيح على شرط الشيخين ، واخرجه النسائي بلفظ فصل القرآن من الذكر ، فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي (ص) قال البدر الزركشي واسناده صحيح ، (2) .

ومعلوم ان هذا لا يقال من قبل الراي فحكمه الرفع الى النبي (ص) .

وهذا النزول الغيبي ان كان ما يحمل على القول به هو ابقاء الآيات الواردة في نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة ، فانه لا يعارض نزوله الحسي في التاريخ المذكور اي ابتداء نزوله على النبي (ص) مفرقا ، بل ان الرواية نفسها تشير الى ذلك وتبين المراد به فهما اذن نزولان ، غيبي وحسي ، وتاريخهما واحد .

ويتساءل العلامة الزركشي عن السر في هذا النزول ، ويجيب عن ذلك بقوله : « فان قيل ما السر في انزاله جملة الى السماء ؟ قيل فيه تفخيم لامره وامر من نزل عليه وذلك باعلان سكان السماوات السبع ان هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لاشرف الامم، قربناه اليهم لننزله عليهم » (3) .

على اننا يمكن ان نقول في حكمة ذلك انه لاطلاع الملائكة وجميع المؤمنين بالغيب على احاطة علم الله تعالى في الازل بواقع الاشياء كما تقع فيما لا يزال ، خلافا لمن نفى عمله بذلك من الفلاسفة والمعتزلة ، وقال انما يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، فهو برهان يطمئن اليه المؤمن ، ويتأيد بممارسة السيرة ودراسة القرآن .

5) وكان اول ما نزل هو قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) (4) كما تفيده السنة الصحيحة ، ففي البخاري عن عائشة قالت : اول ما بدىء به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الى اهله ويتزود لذلك، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاء ، الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ ، قال ما انا بقارىء ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ ، قلت ما انا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فاخذني فغطني الثالثة ثم ارسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده » الحديث (5) .

لكن جاء في صحيح مسلم عن جابر : اول ما نزل من القرآن سورة المدثر(6) ، وهذا محمول عند العلماء على

---

1) صحيح مسلم ج 2 ص 126 .
2) البرهان ج ل ص 229 .
3) المصدر السابق ج ل ص 230 و الجملة الاخيرة وردت فيه هكذا ولقد صرفناه اليهم لينزله عليهم ، وقد صححناه من الاتقان .
4) سورة العلق الآية (1) .
5) البخاري ج ل ص 3 ، وقوله فغطني اي ضمني الى صدره قصد الاستئناس وازالة الرعب ، وانتهت رواية البخاري الى قوله وربك الاكرم ، ولكن رواية مسلم تنتهي الى قوله ما لم يعلم .
6) ج ل ص 66 .

ما بعد فترة الوحي التي تلت النـــزول الاول ، (1) والروايات المختلفة الالفاظ للحديث عند البخاري وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك ، ونورده هنا رواية البخـاري لوضوحها واختصارها ، وهي عندهما معا من طريق ابن شهاب الزهري عن ابي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر أن النبي (ص) قال وهو يحدث عن فترة الوحي بينما انا أمشي ، اذ سمعت صوتا من السمـــاء ، فرفعت بصري فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني ، زاد مسلم فدثروني ، فانزل الله تعالى « يا ايها المدثر ، قم فانذر ، الى قوله والرجز فاهجر ، » فحمي الوحي وتتابع (2) .

فبان بهذا ان الاولية الحقيقية هي التي في حديث عائشة ، وان التي في حديث جابر انما هي اوليـــة اضافية ، لان الحديث عن فترة الوحي لا يكون الا بعد وحي سابق زيادة على أن مضمون الآيات المفتتح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا ، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يا ايها المدثر .

ومما ينبغي تسجيله بعد تحقيق تاريخ النزول واول ما نزل ، مما تضمنه حديث عائشة ، ان مكان النزول الاول هو غار حراء ، وبذلك نكون قد تعرفـنا الطرفين الزماني والمكاني لنزول القرآن الكريم اول مـا نزل .

والامر الرائع في اول القرآن نزولا هو هذا الخطاب الالهي السامي المتضمن لطلب القراءة من النبي (ص) ولفت نظره الى التفكير في خلق الانسان والاشـادة بالعلم ، مما يدل على ان خاصية الدعوة الاسلامية هي المعرفة ، ومن ثم قال كثير من علمائنـا انهـا اول الواجبات على المكلف ، وقال آخرون ان اول الواجبـات النظر الموصل الى المعرفة وناهيك بهذا ، على أن الحض على العلم والتنويه به وباهله مما طفح بـــه القرآن الكريم والسنة النبوية حتى أصبح معلوما من الدين بالضرورة .

واذا كان اول ما نزل هو قوله تعالى ، اقرأ باسم ربك ، كما ثبت لدينا بالدليل القاطع فان آخر ما نزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى (واتقوا يومـا ترجعون فيه الى الله) الآية (3) اخرجه النسائي وابن مردويه والطبري عن ابن عباس (4) ، وهذا يرشدنا الى أن ثمرة المعرفة هي التقوى التي تعني حسـن السلوك ومحاسبة النفس ، فالعلم في الاسلام ليس غاية في ذاته ، ولكنه وسيلة الى تزكية النفس ونفع العباد حتى يكون الانسان خليقا بهذا المنصب الرفيع الذي اهل له منذ وجود اول فرد منه ، وهو خلافةالله في ارضـه ، المقتضية لاعلاء منار شريعته الكفيلـــة بسعادة الدارين .

❋

6) والقرآن معجزة الاسلام الباقية على مر الزمن تقيم له الحجة على البشر ، وتؤيد دعوته بما تأيدت به الدعوات التي سبقته من الامور الخارقة للعادة . الا ان تلك الخوارق قد انقضت بانقضاء مدتهـــا ، والقرآن ما يزال ولن يزال قائما بالحجة ناهضا بالدليل الى ان يرث الارض ومن عليها ، وذلك لان الاسلام هو آخر الاديان ورسوله هو خاتم الرسل ، فلئن كانت رسالة السماء فيما مضى من الاحقاب تتأيد بمعجزات الرسل الذين كان بعضهم يأتي في اعقاب بعض معلما مرشدا ومشرعا مجددا ، لان الانسانية كانت ما تزال في طور النمو لم تبلغ رشدها العقلي بعد ، فانها بعد البعثة المحمدية قد دخلت في سن الاكتمال والنضج الفكري ، ولم تبق بحاجة الى من يحضنها ويرعاها ، ويشرح لها المعقول بالمحسوس والغائب بالحاضر ، ولكن عليها ان تستعمل فكرها وتجيل النظر في آيات الله وملكوته ، في خلقها ونفسها ، لتعرف الحق بالدليل العقلي القاطع ، وتصل الى اليقين بالحجة والبرهان الذي لا يقبل النقض . وهذا هو ما جاء به القرآن، ودعا اليه القرآن ، ففي كل عصر ، وفي كل جيل ، يقوم القرآن بالمهمة التي كانت تقوم بها المعجزة المحسوسة لتصديق الرسل ، ولكنه معجزة معقولة تخاطـــب الضمير والوجدان ، وتستثير الانسان لتحكيم عقله والاعتبار بما نصب الله عز وجل في الكون من آيات بينات ، وشواهد واضحات ، على وجوده والوهيته ووحدانيته وصدق رسوله فيما اخبر به عنه من احوال المعاد ، وما دعا اليه من عبادته والعمل بشريعتهالتي تحقق للخلق السعادة الابدية ، وتكفل للناس مـــا يصبون اليه من طمأنينة نفس وراحة بال .

---

1) البرهان للزركشي ج ل ص 206 .
2) صحيح البخاري ج ل ص 4 .
3) سورة البقرة الآية 281 .
4) الاتقان للسيوطي ج ل ص 27 .

فمن هنا كان القرآن معجزة الرسالة الخاتمة (أولا) لان البشرية بما حققت من تطور في ميدان العلم والمعرفة ، اصبحت تتطلب معجزة من قبيل ما تأخذ به من دلائل العقل وقضايا المنطق ، لا ما يستهوي الحس ويمتلك البصر فقط ، (وثانيا) لان استمرار الرسالة المحمدية بحكم ختميتها يقتضي استمرار معجزتها المؤيدة لها ، ولا يمكن أن تكون المعجزة المحسوسة مستمرة والا صارت أمرا عاديا ، فلم يكن بد من المعجزة العقلية الباقية ببقاء الدعوة ، وقد كانت هي القرآن .

وهذا المعنى هو ما عبر عنه الحديث الشريف المخرج في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله (ص) ما من الانبياء نبي الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي اوتيت وحيا أوحاه الله الي ، فارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة(1).

وقد زاد الحديث على اصل المعنى شيئا آخر ، وهو رجاؤه (ص) ان يكون اكثر الانبياء اتباعا يوم القيامة . ورجاء النبي محقق قطعا ، فأما بالنسبة الى الانبياء السابقين الذين انقضت دياناتهم ، فذلك مسلم ، لان المؤمنين بهم كانوا قلة كما نطقت به الآية الكريمة في حق نوح عليه السلام ، اذ يقول (وما آمن معه الا قليل) (2) . ولان تعاقب الانبياء الواحد تلو الآخر يجعل اتباع كل نبي بحكم قصر المدة التي بينه وبين الذي يليه عددا قليلا . وأما بالنسبة الى الاديان الباقية ، فاليهودية أمرها لا خفاء به ، والمسيحية وان كان التعداد الرسمي لاتباعها يفوق تعداد المسلمين ، الا ان واقعها ليس كذلك ، فان اكثر المسيحيين اليوم ملحدون ، هذا في البلاد غير الشيوعية ، وأما في هذه البلاد فمن الذي يقول ان سكانها مسيحيون ؟ وأما قبل اليوم فان المسيحيين كانوا قلة ، ولم يكثر سكان اوروبا الا بعد عصر النهضة وتقدم الطب والعناية بالمواليد وتدبير الصحة ، ولكن صحب ذلك انتشار الالحاد ، فلم يكن كل سكانها دائما من المتدينين .

بقيت الاديان الشرقية من بوذية وغيرها ، والقول فيها مثل القول في المسيحية فانها لم يكثر اتباعها الا في العصور المتأخرة ، وقد فشا فيهم الالحاد فشوا ظاهرا على انها في الحقيقة اديان متعددة وليس اتباعها ملة واحدة ، وان اعتبرهم التعداد الرسمي كذلك . وها هي ذي الصين الشيوعية تتبرأ من الدين وتنشر الالحاد كزميلتها روسيا ، بل انها لتتحمس للتبنية اكثر من قوم لينين .

وليس بخاف أن التعداد الرسمي لاتباع الاديان في العالم يصدر من جهات غير مألوفة على الحقيقة في هذا الصدد ، فبقطع النظر عما بيناه من عدم انطباق الخبر على الواقع في أمر المسيحية ، نجد أن عدد المسلمين يكون دائما اقل مما هو في الحقيقة ، لان تلك الجهات تتعمد ذلك قصد التهوين من شأن الاسلام والفت في عضد اتباعه ، والرفع من معنويات المسيحيين واظهارهم بمظهر التفوق في كل شيء حتى في عددهم ، والا فان آخر احصاء نشر في هذه السنة وهو يجعل عدد المسلمين اربعمائة مليون ، في حين يجعل المسيحيين ثمانمائة مليون ، هو مما يكذبه الواقع تكذيبا قاطعا ، فان عدد المسلمين في باكستان واندونيسيا والهند والصين وتركيا وايران والافغان والتركستان ، هو وحده اكثر من اربعمائة مليون . فأين بقية المسلمين في آسيا وهم العرب ، وفي افريقيا ومنهم عرب كالمصريين والافارقة الشماليين ، وغير عرب كأهل الاقطار الافريقية الاخرى ؟ وأين مسلموا اوروبا المنتشرون بكثرة في روسيا ويوغوسلافيا وبولونيا وفلندا والبانيا وغيرها من دول اوروبا ؟ وأين مسلمو الفلبين والامريكيتين ؟

على اننا تنزلنا باعتبار هذه الاديان المخالفة للاسلام اديانا حقيقية ، جريا على ما يقضي به العرف والقانون ، وأما اذا نظرنا اليها بنظر الاسلام وهو النظر الصحيح ، الذي يتوافق مع مراد الرسول (ص) في حديثه الآنف الذكر فانها اديان محرفة عن وضعها الالهي ، او اديان وثنية لا اعتداد بها في مفهوم الدين الحق ، ولن يكون لمعتنقيها صلة أو سبب يربطهم برسل الله عليهم الصلاة والسلام حتى يقال انهم سيكونون من اتباعهم يوم القيامة ، فان الرسل اول من يتبرأ منهم في ذلك الموقف الهائل على ما جاء في القرآن « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب (3) » وقال تعالى في آية اخرى خاصة بالمسيح عليه السلام (واذ قال الله يا عيسى

---

1) البخاري ج 4 ص 183 .
2) سورة هود الآية 40 .
3) سورة البقرة الآية 166 .

ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن أعبد الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد) (1) .

نخلص من هذا أن نبينا (ص) هو كما قال : اكثر الانبياء اتباعا يوم القيامة ، وذلك منسجم مع كون رسالته دائمة مستمرة ببقاء الزمن ، لانها خاتمة الرسالات ، ولذلك كانت معجزتها باقية دائمة وهي القرآن .

* * *

7) وذكرى نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان ، ذكرى عظيمة بل هي أعظم الذكريات على الاطلاق ، لان القرآن كتاب الله اي رسالته الخالدة الى البشر التي اخرجتهم من الظلمات الى النور ، واستنقذتهم من الضلال الى الهدى ، وضمنت لهم سعادة الدنيا والآخرة ان هم عملوا بها ولم يتخذوها وراءهم ظهريا .

كان الناس يهيمون في اودية الجهل بالله ، فمنهم من يجعل معه الها آخر ، ومنهم عبدة أصنام ومنهم من يقول انما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ، وما يهلكنا الا الدهر ، فجاء القرآن بالتوحيد مزيفا عقيدة الشرك ، ومسفها عقول الوثنيين ، ورد على الدهريين بما ابطل دعواهم والزمهم الحجة على وجود الله ، هاك مثلا قوله في الرد على النصارى الذين يزعمون الوهية المسيح وامه (ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وامه صديقة كانا يأكلان الطعام) (2) وقوله في الرد على عبدة الاصنام (أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعملون) (3) ، وقوله في الرد على الدهريين (قتل الانسان ما اكفره ، من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره) الآية (4) .

ثم عرف المومنين بالله عز وجل تعريفا يحصل معه الاطمئنان ، وتنتفي عنه الوساوس فدلهم على صفاته وافعاله ولم يشغلهم بماهيته وذاته ، علما بقصورهم عن ادراك حقيقته ، وكيف يحيط الفاني بالباقي ؟ (لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير) (5) .

ومع ان نعمة المعرفة به عز وجل هي اعظم النعم ، وهي التي تقطعت دونها أعناق الفلاسفة منذ القدم ، فان القرآن لم يكتف بهداية البشر الى هذه النعمة ، بل زاد فتفضل عليهم بالارشاد الى كيفية شكرها الواجب ، وذلك بأن دلهم على طريقة عبادته تعالى والتقرب اليه وطلب مرضاته ، وهي ايضا الطريق التي ضل فيها من لا يحصى عددا من الحكماء المتألهين (الم ، ذلك الكتاب لا ريب ، فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون ، أؤلئك على هدى من ربهم ، واولئك هم المفلحون) (6) .

وكان من اعظم مقاصد القرآن ان شرع للناس ما ينظمون به احوالهم المعاشية ويضبطون به أمور الحياة الدنيا من قوانين واحكام غبرت في وجه كل ما وضع من طرف البشر في هذا العدد لانها صانت مصالح الفرد والجماعة ، وحمت حقوق الناس جملة وتفصيلا، وكان رائدها تحقيق العدالة الاجتماعية والحرص على المساواة بين عباد الله ، فانها لم تقم للانسان ميزانا الا ميزان التقوى اي الاستقامة (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) (7) .

كما وضع القرآن دستور الاخلاق والسلوك الحسن ، والمعاملة الطيبة للناس (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء

1) سورة المائدة الآية 116 — 117 .
2) سورة المائدة الآية 75 .
3) سورة الصافات الآية 95 — 96 .
4) سورة عبس الآية 17 — 19 .
5) سورة الانعام الآية 103 .
6) سورة البقرة الآية 1 — 5 .
7) سورة الحجرات الآية 13 .

والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون ، وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) (1) .

وتاتي العقدة التي حارت عقول المفكرين فى حلها وهي ما بعد الموت او الحياة الآخرة فاذا بالقـــرآن يكشف عنها الستار ، ويعطي عنها بيانات مدهشة مصحوبة بالادلة والحجج الواضحة التي تجعل الغيب واقعا ، والمتخيل محسوسا ، وتوحي بالايمان العميق بالبعث والحساب والجزاء بما خلت منه حتى الكتب السماوية الموجودة بأيدي المؤمنين بها ، متذرعا بذلك الى ايجاد وازع ديني عند كل فرد فرد يحجزه عـن اقتراف الاثم وارتكاب العدوان لانه يعلم انه مسؤول عن كل ما قدم ، وانه لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم (يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هي دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو انثى وهـــو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيهـا بغيـــر حساب) (2) .

هكذا هدى القرآن البشر من الضلال ، وأنـار لهم سبيل الحياة الطيبة الراضية المرضية فى الدنيـا والآخرة فاي خبر عظيم هذا الذي انزل فى ليلة القدر من شهر رمضان ، واي ذكرى تعادل هذه الذكرى التي اتاحت للبشر ان يسعدوا سعادة لا شقاء بعدها أبدا .

ان شهر رمضان يشرف بوقوع هذا العطــاء الكريم فيه (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) (3) وان ليلة القدر التي فضل بها شهر رمضان غيره من الشهور ، ليثقل وزنها بهذه الكرامة التي خصت بها حتى لا توازيها ليلة من ليالي الدهر (انا انزلناه فى ليلة القدر ، وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر) (4) .

وليست هذه الذكرى مما يفي بحقها كلمة قصيرة مثل هذه ، ولكن استشعار عظمة المذكور الذي هو فى الحقيقة منزل القرآن ، والاستغراق فى سبحات جماله وجلاله ، والتعرض لنفحاته القدسية ، والحضور بالقلب والقالب ساعة الذكرى ، لا تستفاد من الكلمات قصيرة كانت أو طويلة ، وانما تستفاد من الايمان بالقرآن والعمل برسالة القرآن (ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين) (5) .

طنجة : عبد الله كنون

1) سورة النحل الآية 90 — 91 .
2) سورة غافر الآية 39 — 40 .
3) سورة البقرة الآية 185 .
4) سورة القدر الآية 1 — 5 .
5) سورة آل عمران الآية 53 .



صلاح الإنسانية في العمل بأحكام القرآن

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أدلى صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير الشيخ محمد ابو زهرة ، لمجلة « دعوة الحق » بالحديث التالي ، لمناسبة احتفالات المغرب بذكرى مرور 14 قرنا على نزول القرآن الكريم ، وقد كان فضيلته على راس الوفد المصري الذي لبى دعوة صاحب الجلالة ، للمشاركة في هذه المناسبة الدينية الجليلة: قال فضيلتـــــه :

« مضى بحلول شهر رمضان المبارك هذا العام ، اربعة عشر قرنا على نزول القرآن ، وانبثاق الدعوة الاسلامية ، وذلك لاننا في العام السابع والثمانين بعد ثلاثمائة والف ، وذلك التاريخ يبتدىء من عام هجـــرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .. والهجرة كانت بعد ابتداء نزول القرآن ، والبعث المحمدي بثلاث عشرة سنة .

وان هذه الذكرى ، احياؤها واجب على جماعة المسلمين ، في مشارق الارض ومغاربها ، لان احياءها احياء لانفسهم .. اذ انه يذكرهم باجتماعهم منذ عبـــر التاريخ ، في اربعة عشر قرنا .. كان الاسلام في اولها ، غض الاهاب ، خصب الجناب ، يغذي الانسانية كلها ، ويظلها بنوره ، ويمدها بفيض خيرها ..

واذا كان المسلمون قد تفرقوا دولا ودويـــلات ، واحزابا وطوائف .. كل حزب بما لديهم فرحون .. ومنهم من تناسى تلك الوحدة الجامعة ، والغاية الكريمـــة المؤلفة ، فان احياء هذه الذكرى في مؤتمرات جامعــة



الشعوب الاسلامية من مشرق الارض الى مغربها ، طريق معبد لاعادة الوحدة كما ابتدات ، وتذكيــــر المسلمين لما يجمعهم ، لينفوا ما يفرقهم .. ولذلك نقرر ونكرر القول في هذا ، ونعيده ، ان احياء المسلمين لهذه

الذكرى ، احياء لقلوبهم ، وتنبيه لما يجب عليهم ، وتذكير لهم بما يحيط بهم ، ومن يتربصون بهم الدوائر .. وليس لهؤلاء الاعداء غاية الا ان يأفل نجم الاسلام ، ويذهب من القلوب ، وتتفرق جموع المسلمين ، الى فرق ، لياكلوا كل واحدة منفردة عن اخواتها .. ثم يتوالى اخذهم للمسلمين من نواصيهم ، واحدة بعد الاخرى .

تلك امانيهم ، وهي اماني الشيطان .. ولكن علينا نحن المسلمين ، أن نتآزر وان نتضافر ، وان في احياء هذه الذكرى ، تضافرا في القول ، وتذكيرا بالوحدة ، وان وراء هذا القول العمل على جمع المسلمين في وحدة جامعة ، على اعلى ما يتصور من التوحيد الممكن.

هذه اشارة الى الثمرة التي يجتنيها المسلمون من احياء هذه الذكرى المباركة .

على ان هذه الذكرى فيها تنبيه الى ما اتى به القرآن ، واحكام الاسلام من خير للانسانية كلها .. ولكي نعرف ما اهداه القرآن ، والاسلام للانسانية ، يجب ان نرجع الى الوراء قليلا . لان القصر المشيد في ارض ، لا تعرف روعته الا اذا عرفت الارض التي بني عليها ... لقد كان العالم قبيل النبوة ، يموج في شر مستطير ، تتخطف الدول الضعفاء في الارض، فكل دولة تصاول الاخرى من غير باعث من فضيلة ، انما هي الاطماع التي تسيرها .. وضعفاء كل دولة ، ماكولون لاقويائها ، لا ضابط ينظم العلاقات بين الطبقات ، بل قويها ، ياكل ضعيفها .. ولا حاكم ينظم بين الدول ، بل كان العالم في مربع من الشر .. حتى صاح « محمد » صلى الله تعالى عليه وسلم ، بصوت رهيب عميق ، يقول : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » .. يردد بذلك آي القرآن الكريم .

ولم يكتف الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالنداء العميق يردد ، بل اخذ الطريق الى العمل ، وجعل من الضعفاء قوة .. جعلها تحمل الاقوياء على العدل ، ان لم يكن بالاختيار فبالاضطرار .. وتجاوبت اصداء اعماله في الارض كلها ، فبث فيها النور .. ومعاني العدل . واثار لهم سبيل العلم ، لان مطلعه كان العلم ، فاول نداء كان وجهه القرآن كان : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق .. اقرا وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ».. ذلك كان الاسلام فتحا جديدا في الانسانية ، انتفع به اولياؤه ، وقبس من احكامه اعداؤه ، وتغذى بالمعرفة من المسلمين اولياؤهم واعداؤهم على السواء .. فكان عصر النهضة في اوربا احدى الثمرات لاحتكاك الصليبيين بالمسلمين ، وكانت مساجد قرطبة ، ومدارسها تعج بابناء الفرنجة الذين تغذوا من لبان العلم الاسلامي ، ثم نكروا امر المسلمين ، وكان لهم منهم ابشع الجرائم الانسانية .

ان الاسلام كان ثورة على كل ظلم في الارض ، واحياء لحقوق المظلومين وحمايتها ، وانه لا يزال كتاب الله تعالى قائما كما انزله الله . يدعو الانسانية كلها الى ان تأوي في ظلاله الوارفة ... ويدعو المسلمين الا يهجروه فهو انسهم وفيه قوتهم ، وفي اتباعه عزتهم . ولا يزال النبي يأمرهم ويدعوهم اليه ، فهو يقول : « تركت فيكم ما ان اخذتهم به ، لن تضلوا ابدا كتاب الله وسنته » .. وعسى أن تكون في هذه الذكرى عودة اليه بعد طول ابتعاد ، وبعد أن ذاقوا ذل الاغتراب .. وهو يدعو الانسانية اليه ليزيلوا احقادهم ، ويطفئوا نيرانهم . فانهم ان عادوا اليه ، عادت القضب الى اجفانها ، وانقذت الخليقة من شرها ، والتقى ابناء آدم على محبة من الله ورضوانه ، ان خضعوا للقرآن واحكامه ، وعندئذ يحق لابن الارض ان يقول اني اقمت العدل فيها وهذا القرآن مفتوح يهدي للتي هي اقوم ، اللهم اهدنا ووفقنا للعمل بالقرآن ونشر لوائه بين العالمين . فلا صلاح للانسانية الا به ، فان تركوه يستمر الشر في غلوائه ، والله ارحم بعباده .

فاذا كانت هذه الذكرى ، فيها هذه المعاني فان احياءها جماعيا في حفل تاريخي جامع اعلان لحقائقها . ومن واجبنا أن نتقدم بالتقدير الذين عملوا على اقامة ذلك الحفل الجامع ، فنعلن تقديرنا لشعب المغرب الكريم ، ولمليكه التقي ابن التقي الذي استطاع أن يؤنس في هذا الحفل المبارك المسلمين بعضهم ببعض ، وان يؤنسهم بالقرآن ، كلام الله تعالى الذي هو حبله الممدود الى يوم القيامة .

المغرب الاقصى : محمد ابو زهرة



دعوة إلى التوحيد والتجديد والثقة بالنفس .

للأستاذ : الرحالي الفاروقي

يتراءى في آفاق العقول ، ويتغلغل في أعماق القلوب ، ان مدرسة القرآن الكريم نهضت بالمسلمين الاولين ، نظرا ، وعملا ، وأدبا ، فاضطلعوا بالمهام والمسؤوليات وادركوا معنى الحقوق والواجبات ، وتركوا من العظائم والآثام والصالحات — وحافظت على توازنهم وتماسكهم بتربيتهم على الايمان الصادق ، والعمل الناطق ، والسلوك القيم — ومن شأن الايمان بالله ان يثبت المزية الخلقية التي توضح جانب الانسانية اكثر ما توضحها مزية الناطقية .

هذه المدرسة نهضت بقلوبهم ، وحافظت على اخلاقهم ، وجعلت منهم رجالا وابطالا يدفعون العار ويحمون الجار « محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار » كما جعلتهم وسطا في عقائدهم وعباداتهم ومعاملتهم « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » اي بما يرضاه الله منكم وبما يراه الناس فيكم من سمو في الاخلاق ، ونهوض في الاعمال ، ووجود في الافاق ، اذ لا يشهد على الناس الا افضل الناس — والمدرسة هذه تمس الحاجة الى من يتبصر في حقائقها ، ويتحقق ببصائرها ليصل الى الغاية والهدف « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها » .

وانما كانت كذلك لانها تنطق عن الله ولا تنطق عن الهوى ، فهي منهج واضح للتربية والهداية ، ودستور قائم للحكم والعمل ، الا ان نظامها لا يقاس بنظام البشر — وشرعها لا يوزن بشرع البشر ، كما انها لا تقبل التبعيض في الايمان والتجزئة في العمل — فاما ان يوخذ وحيها كلاما لانه وحدة لا تتجزأ ، ودعوة لا تتفرق — وأما أن يترك وحيها كلاما فلا تتحرك الحياة بجادتها ، بل تتراءى في افق غير افقها ، وتتعثر في طريق غير طريقها — واما ان يؤخذ البعض ويترك البعض فلا ولا لان الحياة بذلك تعود حياة مقتضبة او حياة مغتصبة ، لا تسلم من التناقض والافات ، ولا تصحبها سعادة الحياة ، وسعادة الممات ، واسوأ من هذا ما اذا كانت الحياة تنسب الى نظامها ، ولكنها لا تكتسب من بابها ، فان ظاهرها وباطنها لا يلتقيان ، وان صاحبها وطالبها لا ينتصران ، « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب » « قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون . انهم يحسنون صنعا اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » .

وسر ذلك ان القرآن دين التجدد والتجديد ، لانه نشأ بعد ما قطعت البشرية اشواطا ومراحل في الحياة البدائية ، وفي الحياة النظامية ، فهو جامع ثمرات الكتب السماوية وختام الانظمة الشرائعية — تلك الانظمة التي اختلفت مناهجها ، وتعددت مناسكها ، كما قال جل وعلا « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » وهذا الاختلاف كان نتيجة — لمقابلة الطبائع والمصالح ، ومراعاة الحاجات

والمطامح — ودين الوحدة والتوحيد لانه ينشد الوحدة بين سائر القوى الموجودة في هذا الكون ، وليس بين الطبيعة البشرية فحسب . فلا حرج أن كان لا يقبل التفريق والتبعيض ولا بدع ان كان دين الوحدة والتوحيد — توحيد الله ، وتوحيد العبادة لله ، وتوحيد سائر الاديان في دين الله ، وتوحيد الرسل في التبشير بدين الله ؛ وفي اقامة ذلك الدين الواحد . « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » والتوحيد بين المادة والعبادة حتى ان النشاط العادي يعتبر عبادة من العبادات ، وما احسن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات — والتوحيد بين القيم الروحية والقيم المادية وبين عمل الدنيا وعمل الآخرة — والربط بين السماء والارض وما بينهما في حكم النظر والاستفادة « او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله منه شيء » « وفي انفسكم افلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون »

وعن هذه الوحدة الكبرى تصدر تشريعات الاسلام وتوجيهاته وتوصياته ، وحدوده وفرائضه ونظرياته . فالانسان والحياة والكون والوحدة متكاملة متضامنة ، بموجب صدورها عن ارادة واحدة مطلقة شاملة « انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون » وبمقتضى ذلك النظام الساري في مجموع الكائنات التي يكمل بعضها بعضا بحكم التعرف اليها والتعامل معها .

ومن ثم كانت العلوم الكونية التي يتعرف اليها الانسان تساعده على ازدهار حياته وتقوية وجوده ونفوذه . اذ كل ما يتعرف اليه الانسان في هذه الحياة يؤهله لاستحقاق الخلافة عن الله في ارضه ، ويوسع آفاق حياته . ويفجر طاقات افكاره . ومن ثم كان للعالم عناية بهذه الموسوعة الاسلامية الكبرى فدرسها دراسة دقيقة وعميقة حتى استفاد منها في سمو شخصيته ونمو نهضته ثم قدرها حق قدرها ومد يده الى ترجمتها وان كان قد ينقصها في بعض الاحيان ، اكتشاف المعاني عن طريق طبيعتها ، واعتبار السياق في فهم نصوصها .

ولقد مر على وجود هذه المدرسة اطوار واحداث وقرون واجيال وما تزال تستقبل الاجيال المتلاحقة بفلسفة حكمتها، ومنطق هدايتها وكمال موعظتها فتدعوا الى معرفة الله وتبين طريق المعرفة — ومناهج الحياة الصحيحة — وتدفع الى النظر في ملكوت السموات والارض — وتشرح صدرها للمناظرة والمحاككة حتى يظهر الحق وينكشف النور ، ويتهيأ جو الفطرة التي فطر الله الناس عليها — فالقرآن ترجمة عما في الكون من كمال وجمال وفوائد وخواص — وكلمة الله في الارض انزله ليعبر بلغته وبلاغته عن قوته ومعجزته ثم عن رحمة الله بهذا الانسان ، ثم عن اقامة الدليل على وجود الله من هذا الكون الذي اودعه الله ما شاء من الآيات والشواهد ، ثم عن الاتصال بالكون والتعرف عليه عن طريق الدراسة والرحلة والمادة والتجربة — وشهادة على أن خالق هذا الكون اكبر واعظم ، واجمل من هذا الكون كله ، ولذلك استحق خضوع الكون لسلطانه . فليس بين القرآن والعلم اي مسافة بل القرآن هو مصدر الاتصال بالكون وهو الدلالة على ما في هذا الكون كما يعلم ذلك علماء الكون .

وما احوج العالم الذي اصبح يئن ويضج تحت وطأة الحالة السيئة المؤلمة التي يواجهها في مختلف ارجاء الارض — الى تجربة نظام اسلامي وتطبيقه تطبيقا ساميا ، لانقاذ مصيره ومصيره من الوقوع في فوضى عامة لا قرار لها او في حرب منكرة لا بقاء معها، وذلك ما جعل بعض المفكرين ، يغيرون نظرهم في الانظمة السائدة ، ويعتقدون انها عاجزة عن معالجة المشاكل بعدل وسلام ، ويتهمونها باشعال نار الحرب وبخلق المشاكل ووضع العراقل امام الشعوب الزاحفة نحو التحرر المادي ، والتقدم الثقافي ، الشيء الذي ادى الى فتن داخلية ، وحروب دامية .

وما قضية فلسطين واطوارها الا مأساة الحياة الدنيا — وما قضية اليمن ، وقبرص وكشمير ، وغير ذلك الا مرآة تنعكس فيها هذه المشاكل الطويلة العريضة — وما التسارع الى التجارب النووية والتنافس في صنعها وبذل الاموال الطائلة في سبيلها الا شيء ينذر بالويل والثبور وشقاء المعمور .

والمنظمة العالمية التي تدين بميثاق حقوق الانسان ، وتقرير مصيره تتدحرج بين هذه المشاكل وتتخبط في أمواجها — فهي تتألم مرة بعوامل انسانية، وتتأثر أخرى بعناصر سياسية لا صلة لها بالحق والعدل — وهي في امتحان دائم مع ضميرها ومسؤولياتها .

ولعل الشيء الذي اخر هذه التجربة هو ما عليه المسلمون من التخلف الفكري والمادي — وما آل اليه

امرهم — من التحلل من عهود الاسلام ، والتحرر من دين الاخلاق — وذلك راجع فيما ، اعتقد — الى انهم ابتعدوا عما عندهم وحاولوا ان ياخذوا ما عند غيرهم ولكنهم لم يستطيعوا مضغه ولا هضمه فظلوا بدون طائل — والعادة ان الانسان لا يتمكن من الشيء فضل تمكن الا اذا زاوله بملكيته وطبيعته ، ولذلك بـرع المسلمون من قبل في علوم الفلك والطب والطبيعة عند ما نقلوا هذه العلوم الى لسانهم ولغتهم .

وبات من الواضح الآن ان المخرج والخلاص للمجتمع الاسلامي هو الرجوع الى الاخذ بتربيـة القرآن ونهضته وتعاليمه ، والى اصلاح المـدارس وتحسين برامجها ومناهجها وتكوين المعلمين والمشرفين عليها تكوينا يقوم على اساس التربية الاسلاميـة والسيرة النبوية حتى يتاتى للنشء ان يتربى في احضانها وان يصعد على سلمها — وينهض نهضة صالحة شاملة تكون ان شاء الله نبراسا يستضيء بها العالم ، والله الموفق .

مراكش : الرحالي الفاروقي

صرت منهم في عافيـة

كان عروة بن الزبير قضى شطر عمره بالمدينة ، ثم هاجه راي في سكنى العقيق فتجهز اليه ، واتخذ به قصرا ، فقيل له : لم تركت الناس وحديثهم ومناقلتهم قال : لاني رايت الناس قلوبهم لاهيـة ، ومجالسهـم لاغيـة ، والفاحشة فيهم فاشية ، فخفت عليهم الداهية ، فتجنبت عنهم ناحيـة ، وصرت منهم في عافية .



فى الندوة التي انعقدت يوم السبت 28 رمضان المعظم بكلية الآداب بالرباط ، بين مجموعة من المتخصصين فى الاسلاميات أتوا من مختلف العالم الاسلامي ، تقدم الاستاذ الجليل السيد علال الفاسي بعرض كان موضوع مناقشات الندوة .

وتتلخص الفكرة الاساسية التي راج حولها الحوار في :

« ما هي الوسائل العلمية لبعث اسلامي ؟ »

والصفحات التي تلي ، مجمل لتدخل اخينا الاستاذ محمد عزيز الحبابي .

مستقبلنـــــا

علينا ان نستخلص ، من تطور الفكر الاسلامي ، عناصر جديدة تتناسب ومواقف جديدة . ان العقائد الموجودة فى عالم يتغير باستمرار لا يمكن تصورها الا فى صيرورة .

فاذا كان من اللازم علينا ان نتكيف فى كل يوم مع ثقافتنا وفلسفات اخرى ، من اجل كل ما يتصل بحياتنا المادية ، واذا كان مصير كل منا يوجد مرتبطا بمصير شعب بكامله تتساكن فيه مختلف العقائد والجنسيات ؛ بله مصير قارة او قارات ، فكيف يتأتى الاستمرار على ايقاع بطيء فى نطاق الفكر والفكرولوجيات ؟

ان لكل عصر واقعه وحقائقه ، كما يقول القرآن: « لكل اجل كتاب » (13 ، 38) ولن يحقق الانسان ذاته ، بأصالة وصدق ، الا عند ما ينجح فى اتخاذ احسن المواقف ازاء هذه الاوضاع مع ما فيها من واقعية وشمول . **فالاسلام مطالب بان يواجه الحضارة الصناعية بفكر واقعي وبنظرات جديدة متعمقة حتى النهاية ، فى المشاكل الارضية** . ولن يؤخذ اصلاح المجددين المسلمين ، بكامل الاعتبار ، ولن يقتدي بهم الا بمقدار ما ينجحون فى توفيق المطلق والخلود مع نسبية الارض وتغيرها وتوفيق الايمان مع الاعمال اليومية . فعليهم ، اذن أن يعيدوا النظر من اجل وعي جديد . انها عملية تطهير روحي وسلوكي تفرض نفسها ازاء الواقع المعاش .

❊ ❊ ❊

كان المفكرون ينطلقون من الله لمعرفة العالم ، وقد آن الوقت لننطلق من العالم نحو الله ، مع الاخرين . وعوضا عن مشاهدة الله والزهد ، يجب ان

نكون شهداء على آثار خلقه تعالى : فلنخرج من انطواء الذات للعمل ، ولنصبر افرادا ذوي فعالية ، اي ليكون كل واحد منا انسانا بكل ابعاد الانسانية ، وان نقيم العمل من جديد . **فبالعمل ، وفي العمل ، يلتقي الانسان بالانسان ، وتنشأ علاقات مع الله** ، اذ العمل واسطة بين الناس ، وواسطة بين الانسانية والتعالي .

فما الحقيقة ؟

هل الحقيقة في عالم المثل ، ام في عالم العرف والعادات ؟

اذا اعتبرها المسلم كهدف يجب ان يحقق ويكتسب ، صار حاملا لحقيقة غير مجردة . فالعمل ، كقيمة محسوسة ، يرد الانسان الى نفسه ، ويدخله في التاريخ ، هكذا يصير المسلم شاهدا على وجود الحقيقة الانسانية والصدق والاصالة ، مما يستلزم حسن التدبير ، ومعرفة افضل السبل لاستعمال تعاليم القرآن والسنة . انها عملية مزدوجة: تشذيب وتطهير .

الحقيقة في اساسها ليست واحدة ، فهي عند المسلمين غيرها عند سواهم (على اختلاف صور الالحاد والحلولية ...) وان لم تكن الحقيقة سوى فترة من فترات صيرورة دیالكتيكية ، فهي ، مع ذلك، ليست ذاتية محضا ، او موضوع مشاهدة ، وليست توكلا او تعاليا مطلقا . ان حقيقة مجردة تجريدا صرفا، وغير مستندة على اي نطاق محسوس ، ودون صلة بالواقع الحي المعاصر ، لا يستحق ان يطلق عليها اسم حقيقة ، لانها بعيدة عن المعاملات ، (اي كل الفعاليات التي تكون القسط الاوفر من الفقه) . **فحقيقة الوحي شيء ، اما تبرير كل شيء بالوحي فشيء آخر .**

باستطاعتنا ان نبعد النظر في شرح كل آية او كل حديث ، دون ان نشك في الحقيقة الالهية والقيمة الجوهرية للقرآن ، او بعض ما جاء في السنة . فعلى من يريد شرح نص ديني ان يكون مفسرا ، وفي نفس الوقت فيلسوفا ، لان دور الفقيه اليوم ، كدور المحدث ، لم يعد منحصرا في الشرح فحسب ، فهو مطالب ايضا بالبحث عن التكييف المناسب . فبدلا من البحث الحرفي الجامد ، يجب ان يحصل تامل واع للنصوص ، وفحص دقيق للتاريخ الواقعي ، كما يعانيه الاسلام اليوم وكما تعانيه الاتجاهات الموازية له (1) . **هناك خاصية للوحي ، كما ان هناك خاصية للتامل في الوحي ، واتصال الخاصيتين وتفاعلهما هما اللذان اخصبا الفكر الاسلامي ، في عصوره المجيدة (مثل عصر المعتزلة ، وعصر ابن رشد) .**

لا يكون الوحي كشفا وهداية الا بقدر ما ينسجم ومستوانا حيث يتانسن بالحوار مع تاملنا وبحثنا على ان نتقدم وتتفتح ، وهذا لا يتاتى اذا انزلت التعاليم جاهزة ومكتملة ، بكيفية نهائية . فالشرط الضروري لتحقيق فعالية تستهدف اصلاحا حقيقيا هو قابلية الدين للتانس والتكيف المستديم . وكذلك الجهود التي لا تبذل الا لمواجهة حقائق الساعة ، من اجل الفاعلية فحسب ، لا يتمخض عنها الا تطور مصطنع . **فتضافر التوق الى الحقيقة مع التجند من اجل الفعالية هو الطريق المبعد الذي يؤدي الى تجديد اصيل.** هذا الطريق يقود الى معرفة دينية ، ولكنها معرفة تكافح من اجل سعادة مادية ، في هاته الدنيا : انها يحفز الاهتمام بالتكيف المستمر مع الواقع الحالي الذي يستنير ، بدوره ، من نور الحقيقة . وسيبقى التراث الاسلامي الاصلي السماد الذي يسمح للتقاليد المكتسبة بالازدهار والتفتح نحو المستقبل ، كلما انطلقنا من تعريف المسلم بانه « من سلم الناس من لسانه ويده » (حديث) .

بهذا ، سيسترجع الاسلام قدرة التوتر نحو شموليته البدئية ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، سيروي غليل ظما المسلمين الى المثل الاعلى المزدوج : اي الحصول على خيرات الدنيا وجزاء الاخرة معا (2) . انه بحث واقعي عن الحقيقة ، بغبطة وحماس . هكذا سينقذ عالم الغيبيات دون ان يكون عائقا عن تحقيق حاجيات الفكر ، والعلم ، والعمل .

اذا لم يحصل توافق تام بين العلم والمعتقدات الدينية ، فذلك لا ينتج عن اكتشافات علمية خاصة ، ما دام الاسلام لا يتناقض معها ، بل يتبناها ويستسيغها .

1) طبعا ، الامر لا يتعلق هنا بموضات وأذواق عابرة ، لحقبة معينة ...

2) هذا المثل الاعلى هو ما يلخصه الحديث : « اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » .

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ،

خلق الانسان من علق ،

اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ،

علم الانسان ما لم يعلم » .

هذه اولى الآيات التي انزلت على محمد وهو بغار حراء ، وفي « العلق » اشارة الى النشأة الاولى للكائن البشري ، ولفت نظر الى علم الاحياء (البيولوجيا والفيزولوجيا) . حقا ، قبل معرفة « فرائض الطهارة » « ومناسك الحج » ، مثلا ، يجب ان نتعرف على الانسان ، هذا الكائن الذي خلق « من علق » ثم اصبح احسن المخلوقات واعزها على الخالق . فالمسلم مدعو الى تعلم العلوم « الشرعية » والعلوم « الحكمية » ، لان الاسلام يتبنى كل المعارف ، الم يخلقه الله « الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ؟

فاذا قاومت الدين بعض الاكتشافات ، جاز الاعتراض بعدم اختصاص العلم للاجابة على الاسئلة التي يطرحها الدين . **العلم مبني على الملاحظة ، والتحليل ، والاستنتاج ، في حين أن الدين يعاني ، باطنيا : تجربة يحياها المؤمن مباشرة . فالخلاف يظهر عند ما نحاول مقابلة ما نلاحظه بما نعانيه .** وفي الواقع ، يوجد العلم ، لان ظواهر الاشياء والكائنات لا تختلط بماهيتها . فاستحالة هذا المزج : بين الظواهر والماهيات ، لتتيح لنا العلم ، كما تتيح لنا الميتافيزيقا والديانة . تلك ثلاثة ميادين للنشاط الفكري الانساني تتواجد ، من غير ان تتداخل .

* * *

لقد احل الاسلام « فكرة الامة » محل العصبية القبلية : فالامة معشر شمولي حيث اكرام الضيف ، وقول الحق ، وحماية الضعفاء واللاجئين ، كلها مبادىء اساسية . هذا هو اتجاه الشخصانية الاسلامية كما تحدده ، او على الاقل تلخصه ، الآية القرآنية الآتية :

« من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه :

من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض ،

فكانما قتل الناس جميعا ،

ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا » (32: 7) .

ونجد صدى هذه الآية يتردد في حديثين ، من جملة احاديث كثيرة ، يستخلصان مبادىء الاخلاقية الاسلامية ومفهوم الانسانية والانسان في الاسلام .

« لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« من فرج على مؤمن كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عليه كربة من كرب الاخرة » .

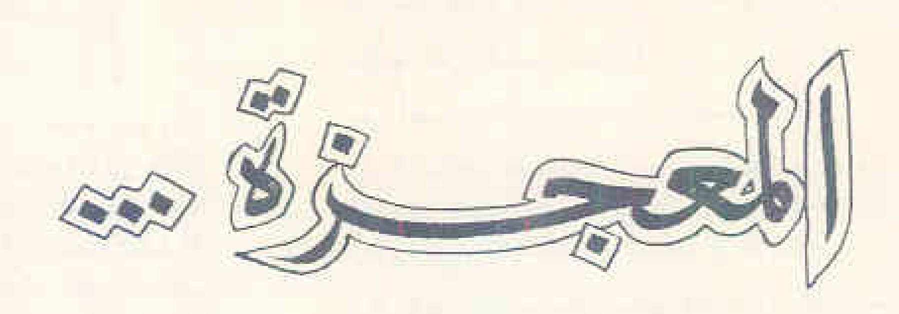
(و . . . .) « الله في عون العبد ، ما دام العبد في عون اخيه » .

ذلك شعار السلوك الامثل للمسلم في الحياة ، يفترض الحكمة الشهيرة : « اعن نفسك ، يعنك الله » .

* * *

يقول المثل : « لو انصف القاضي لاستراح الناس » ، ونظن انه من الممكن ان يقال : « لو انصف الناس لاستراح القاضي » . ومعنى « انصاف الناس » هو احترامهم للحقيقة وللواقع . وسينصف المسلمون عند ما يتناولون القرن العشرين ، فلا يحكمون على منجزاته الحضارية وعلى تياراته الفكرية الا بعد دراستها بجدية واتقان ، فتبقى استنتاجاتهم ملاصقة للواقع ، مقدسة للحقيقة ، اذذاك ستكون قد بنينا مستقبلا على اسس اخلاقية الاسلام يتبنى مكتسبات الحضارة المعاصرة .

الرباط : محمد عزيز الحبابي







« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان ، لا يأتون بمثلـه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . » سورة الاسراء

على مدى اربعة عشر قرنا من الزمان .

وكلما دار عام القمر دورته وهل هلال شهـر رمضـان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

وقف التاريخ خاشعا مبهورا يرنو الى ليلة القدر ويطوي اليها الآماد ، كي يستجلى سر المعجزة التي بدأ بها عصر جديد للانسان ..

قبل ان يبزغ نورها الاسنى ، كانت الظلمة قد اشتدت ونشـرت لفاعها الاسود على هذه الارض .

دولة الرومان ، معقل المسيحية ، تترنح تحت معاول الصراع المذهبي ، بعد ان انهكها الصـراع الحربي مـع الفـرس ، تنازعا على مناطق النفـوذ والسـلطان .

ودولة الفرس ، معقل المجوسية ، تصلى نارهـا المعبودة ، وقد سطع لهبها فى معابد المجوس واحتـدم اوارها فى المعارك الحربية .

والديانة الموسوية قد آل امرها الى عصابات من يهود ، صرفت كلمات الله عن مواضعها ، ونسيت رب موسى ، سبحانه وتعالى ، فعكفت على وثنها الذهبـي المعبود ، لا تخشع لرب سواه .

والوثنية تمارس سحرهـا العتيـد فى صميم الجزيرة العربية ، فتغشي ابصار العرب وبصائرهم ، وتعطل عقولهم وضمائرهم ، فهم على أوثانهم التـي خلقوها بايديهم ، عاكفون ..

❋ ❋ ❋

فى تلك الظلمة الغاشية ، كان حتما أن يبزغ نور فجـر جديـــد ..

فجر تطلعت اليه ارهاصات ملأت جزيرة العرب مبشـرة برسول آن مبعثه ..

تحدث بها الكهان من عرب والرهبان من نصارى والاحبار من يهود ، واتجهت روافدها مـن هنا ومـن هناك وهنالك ، فتركزت حول البيت العتيق : مثابـة حج العرب من قديم الزمان ، واقدم بيت عبد فيه الله على الارض .

ارهاصات ، ان يتهمها المحدثون ويحملوها على مخترعات السمار ومنحولات الرواة ، فالذي لا شـك فيه أن التاريخ ارهف سمعه لها ، ولمح فيها ــ على أي

❋) من مقدمة كتاب فن « الاعجاز البياني للقـرآن الكريم » يصدر قريبا بمشيئة الله تعالى .

وضع اراده لها متهموها ـ تذر تحول مرتقب ، وتعبيرا عن قلق جائح تجاه الاوضاع التي كانت تسود العالم كله فى القرن السادس الميلادي ، وتطلعا الى نور ينسخ ظلمات ليل طال . .

* * *

ثم لما بزغ النور فى ليلة القدر ، عجب الناس ان يكون المصطفى بشرا مثلهم ، ابن امراة من قريش تأكل القديد . .

واستغربوا ان ينزل عليه الوحي من السماء في تلك البقعة المنعزلة من غار حراء بظاهر مكة ، عاصمة الوثنية العربية ، وانه لبشر يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ، وتجوز عليه اعراض البشرية مثلما تجوز على كل البشر !

* * *

وعلى مدى تلك القرون الطوال ، ما يزال التاريخ كلما استرجع ذكرى تلك المعجزة ، خشع مبهورا يتعجب كيف تهيا لبشر امي أن يواجه الدنيا بدين جديد يحطم جبروت الوثنية ويتحدى عتو الارستقراطية ، ومعجزته الكبرى كتاب ، كلمته الاولى « اقرا » .

كتاب عربي مبين ، لم يأت بلفظ لا يعرفه العرب ، ولا اضاف حرفا لم يعهدوه فى حروف هجائهم . لكنه ما كاد يتلو كلمات منه ، حتى بدا تحول حاسم وخطير ، فى حياة العرب وحياة الانسانية جميعا !

ولقد فرض الكتاب اعجازه من اول المبعث ، فمنذ تلا المصطفى عليه الصلاة والسلام ما تلقى من كلمات ربه تعالى ، أدركت قريش ما لهذا القرآن من اعجاز لا يملك اي عربي ، يجد حس لغته وذوقه الاصيل ، الا التسليم بانه ليس في طاقة بشر . ومن هنا كان حرص طواغيت الوثنية على ان يحولوا بين العرب وبين سماع هذا القرآن ، فكانوا اذا اهل الموسم وآن وفود القبائل للحج ، ترصدوا لها عند مداخل مكة ، ليحذروا كل وافد من الاصغاء لما جاء به محمد من كلام لم يدروا بم يصفوه !

قالوا هو شعر ، وقالوا هو سحر ، وقالوا هو كهانة ! وقد عرفوا الشعر رجزه وقصيده ، والسحر وتمتمته ورقاه ، والكهانة وزمزمتها ، وما جهلوا ان القرآن ليس شيئا من هذا كله ، فكانت حيرتهم في امره ، اقرارا منهم بأن له من السلطان على العقول والافئدة ، ما لا يعرفون له شبيها الا فى اخذة السحر ونفوذ الكهانة واسر الشعر .

« فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين . »

* * *

والتاريخ لم يعهد قبل الاسلام ، ان يكون « كتاب » معجزة نبي من الانبياء الاولين ، ولعله اذ يتامل فى سر المعجزة ، يلحظ ان معجزات الانبياء كانت تساير تدرج البشرية فى مراحل تطورها من قديمها الاسطوري الى عصر الانسان : موسى عليه السلام تلقى رسالته وقد آن للبشرية ان تجاوز عصر السحر ، فكانت معجزته سحرا يغلب افانين السحرة فى زمنه ، ليؤمن القوم ان معجزته ليست فى طاقة البشر ، ويصدقوا بنبوته ، ومن ثم يتبعونه وهو يهديهم الى مرحلة جديدة ، لكن قومه سرعان ما نكصوا على اعقابهم ، وزيفوا كلمات رسالته واستبدلوا بعبادة الخالق ، عجلا من ذهب !

ومن بعده تلقى عيسى عليه السلام رسالته وقد آن للبشرية ان تنتقل من عصر عبادة الابطال البديل لعصر تعدد الآلهة . . وكانت البطولة حينذاك تقترن بالخوارق ، فجاءت معجزة المسيح الخارقة ، لكي يؤمن الناس بنبوته المؤيدة بما يجاوز مألوف الخوارق البطولية ، ومن ثم يتبعونه وهو يقودهم هاديا الى عصر التوحيد .

لكن معجزة المسيح الخارقة ، ما لبثت ان التبست على قومه ، فقال اكثرهم بألوهيته ، وهو الذي جاء لينسخ برسالته عصر الشرك وعبادة الابطال ويدعو الى عبادة الخالق وحده .

ومضت ستة قرون على مبعث المسيح ، أنهكت البشرية خلالها بالصراع المذهبي بين القائلين بلاهوتية المسيح والقائلين بناسوتيته ، وآن للعقيدة الدينية ان تتحرر من كل شائبة تمس التوحيد الذي هو جوهر الدين كله ، فاصطفى الله سبحانه محمد بن عبد الله خاتما للرسل والانبياء ، بشرا سويا يأكل الطعام ويمشي في الاسواق . .

حسما لاي جدل او شبهة فى بشريته ، واتقاء لتورط المسلمين فى اتخاذه مع الله الها ، وتنقية لجوهر الدين من كل رواسب عصور تعدد الآلهة وعبادة الابطال .

وكانت المعجزة الشاهدة على نبوة هذا البشر الرسول ، قرآنا عربيا مبينا يعيى العرب ان يأتوا بمثله، ليصدقوا بنبوته ويتبعوه وهو يقودهم هاديا على الطريق المستقيم الى عصر الانسان الذي لا يقر بعبودية لغير خالقه .

❊ ❊ ❊

واذ جاء الاسلام مصدقا لما بين يديه من رسالات الله ، ومنقيا لجوهر الدين الحق من كل شائبة ، اختتمت به الاديان ايذانا بأن الانسانية شارفت مرحلة رشدها وصارت اهلا لاحتمال امانة انسانيتها وتكاليف وجودها الحر ، مهتدية بهذا الكتاب المعجز الذي اعيا العرب أن يأتوا بسورة من مثله، وقد نزل بلغتهم وكانت فى عز اصالتها ونقائها ، لم تشبها عجمة ولم تختلط بغيرها من الالسن .

ولقد تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله فعجزوا . وجاءت آيات التحدي والمعاجزة فى العهد المكي الذي نزلت فيه سبع وثمانون سورة . وبعدها فى مستهل العهد المدني نزلت آية البقرة تحسم القضية بقوله تعالى :

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله أن كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي اعدت للكافرين . »

وآمن العرب ، ودخل الناس فى دين الله افواجا . ومات محمد صلى الله عليه وسلم كما يموت كل البشر « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

وانتهت قضية الاعجاز من مجال اثبات النبوة لبشر رسول ، لتظل مطروحة على الاجيال المتعاقبة ، التماسا لسر المعجزة ..

وبقى هذا القرآن ، كتاب الدين كله ، وآية التاريخ الكبرى ، والمنار الذي يهدي الانسانية في عروجها على مراقي تطورها ، وسعيها الدائب لتحقيق وجودها الامثل .

اي تكريم للبشرية ان يصطفى بشر منها نبيا رسولا ؟ !

واي مجد للبيان ، الذي هو خاصية الانسان ، ان يكون « الكتاب » آية نبوة ومعجزة رسول ؟ !

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرءان ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . صدق الله العظيم .

الرباط : الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطىء)

> « فما دامت قلوبنا فى صفاء ، وافئدتنا متجهة نحو التعاليم الالهية ، وما دمنا متعاضدين ومتضامنين فالله معنا ، وسيرشدنا ويساندنا » .
>
> **جلالة الحسن الثاني**



نقط البحث : فرض التعلم فى الاسلام ـ أمكنة التعليم القرآني ـ أولا المساجد ـ ثانيا الكتاتيب ـ ثالثا المدارس العلمية ـ نظم التعليم القرآني ـ مناهجه وطرقه ـ الطريقة التطبيقية ـ احترام المعلم ـ مكافاة التلاميذ ...

> **ان القرآن هو اصل التعليم الصحيح فى الاسلام فهو الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ..**
>
> **ابن خلدون**

من المعلوم ان الاسلام فرض على اتباعه طلب العلم ، وتعلم القراءة والكتابة وفرائض دينهم وضرورات حياتهم ومعاشهم ، اذ ان اول آية نزلت : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ـ تفرض ذلك كما فرضته آيات أخرى وأحاديث نبوية : ـ وقل رب زدني علما ـ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ـ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ـ اطلب العلم ولو بالصين ـ اطلب العلم من المهد الى اللحد ـ بل قيل ان لفظة العلم أكثر الالفاظ تكررا فى القرآن الكريم بعد لفظة الجلالة « الله » .

وهذه النصوص وان كانت تعمم فى معنى العلم الذي امرت المسلمين بطلبه والبحث عنه .. الا ان علماء الدين كثيرا ما صرفوه الى العلوم الدينية والى العلوم التي تعين عليها والى الادوات التي لا يحصل التعلم الا بها كعلوم اللغة والخط والحساب والفلك وما اليها من السير والاخبار والقصص .. لذلك عظم اقبال المسلمين على هذه العلوم فى مختلف العصور وقل اقبالهم على غيرها فى بعض العصور .. لهم فى ذلك منشآت تعليمية ومناهج وطرق تختلف باختلاف الاقطار والازمان ..

أمكنـــة التعليـــم القـــرآني :

اولا ـ المسجد ـ الجامـع :

اول ما عرف المسلمون الاولون التعلـم ـ او التعليم ـ عرفوه فى المسجد النبوي بالمدينة المنورة فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ ثـم فى المساجد التي تأسست وانتشرت مع الاسلام .. اذ كان الرسول (صلعم) يعلم اصحابه ، وهم يعلم بعضهم بعضا ، فى رحاب المسجد وفيهم الصغير والكبير .. ثـم انتشرت هذه الطريقة فى كل مكان ، فكل من أراد علما ، او أراد ان يبث علما ، فانه يقصد المسجد حيث يجد من ياخذ منه ، أو عنه ، ثم لم يلبث أن تصدر لذلك افـراد معروفون تفرغوا له وأصبحوا معلمين ، يتحلق الطلبة حولهم فى أوقات مخصوصة وبكيفيات معلومة (انظر كتاب المساجد الكبرى لاحمد عطية) .

فمن ثم كان المسجد هو النواة الاولى للتعليم القرآني في الاسلام ، بجانب اقامة الصلوات وانواع العبادات التي اسست لها ، وايضا بجانب الاعمال الاجتماعية الاخرى التي كان المسجد مركزا لها في مختلف البقاع الاسلامية كالقضاء وعقد الاجتماعات العامة واستقبال الوفود وبعث البعوث والاعلان عن الاوامر والقرارات السلطانية وغير ذلك مما له مساس بالحياة العامة وبالمجتمع (نفس المصدر) .

اشتهرت بذلك عدة مساجد في انحاء العالم الاسلامي ، وخاصة الدور الهام الذي لعبته في التعليم القرآني وما اليه — ولاشك ان في مقدمتها المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال ويحج اليها المسلمون .. ثم المسجد الاموي بدمشق والجامع الازهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس ، وجامع قرطبة ، ونجف الاشرف ، وزاوية جغبوب ، وغيرها شرقا وغربا .. وكان التعليم فيها حرا الى ابعد الحدود لا يتقيد بوقت ولا بسن ولا بمنهاج الا ما سنه المعلم لنفسه ولطلابه ، قلما يتدخل احد في توجيهه او تقييده ، الا اذا كانت هناك ضرورة تقضي بتدخل ذوي السلطان خوفا مما يثير الراي العام او يخل بالنظام القائم .. ظل الامر كذلك الى ان جاءت النهضة الحديثة فاصبحت تخضع لنظم التعليم الحديث ولكن بمقدار ..

ثانيا : الكتاب .. او المسيد

لما كان المسجد مكانا عاما يجتمع فيه الكبير والصغير للعبادة وللتعليم وللشؤون العامة ، كان من الاليق وادعى الى الاحترام ابعاد كل ما من شأنه ان يمس بحرمته وان يحدث فيه اللغط والضجيج ، لذلك اسرع المسلمون الاولون الى اتخاذ امكنة خاصة بجانب المسجد — او خارجه بعيدا عنه — يعلم فيها الصبيان على حدة بمعزل عن الكبار .. عرفت باسم الكتاب في الشرق وباسم المسيد في المغرب (وهو اختصار من المسجد او مشتق من كلمة السيادة كما ان الكتاب مشتق من التكتيب اي تعليم الكتابة) يعلم فيها الصبيان عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يروى : « جنبوا المساجد صبيانكم وسفهاءكم » وعللوا ذلك بان الصبيان لا يتحفظون مما لا يليق بحرمة المساجد (فجر الاسلام لاحمد أمين) .

فكان الكتاب الاسلامي اول مؤسسة تربوية خاصة بتعليم الاطفال في الاسلام ، نشأ بعد المسجد او مع المسجد ، وعم سائر البقاع الاسلامية ، وظل المكان الرئيسي لتعليم الصغار طوال القرون الاولى والاخيرة

واول كتاب عرف في التاريخ الاسلامي هو الذي كان بجانب مسجد الرسول بالمدينة ، اذ ثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرر بعض الاسرى العارفين للقراءة والكتابة مقابل ان يعلم الواحد منهم اثني عشر صبيا من ابناء المسلمين (نور اليقين للخضري وكذلك سيرة ابن هشام) كما روى ان ام سلمة ، احدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم — ارسلت الى معلم الكتاب ان يرسل اليها بعض الصبيان ليساعدوها في بعض شؤونها (كتاب التربية الاسلامية لاحمد شلبي) .

ثم ازداد عدد الكتاتيب القرآنية وانتشرت .. ولم يمر قرن من الزمان حتى بلغت من السعة والعناية درجة عالية اشبه ما تكون بمدارس نظامية ، مثل ما حدثوا عن كتاب المعلم ابي القاسم البلخي الذي كان يعلم به نحو ثلاثة آلاف تلميذ ، يتنقل بين اقسامها على دابة (المصدر الانف الذكر) وما زالت الكتاتيب تزداد حتى اصبح بكل قرية كتاب بل احيانا اكثر من كتاب ، ذكر الرحالة ابن حوقل في كتابه (المسالك والممالك) انه عد في مدينة بالبرمو بصقلية — يوم كانت مسلمة — ثلاثمائة كتاب ..

وكان هذا هو الشأن في بلاد المغرب ، حيث انه بمجرد ان تم الفتح الاسلامي لهذه البلاد رتب الولاة الفقهاء والقراء .. يعلمون النشء تعاليم الدين والقرآن الكريم .. مثلما فعله القائد موسى بن نصير الذي رتب الفقهاء والقراء واسس الكتاتيب والمساجد .. على ما قرره ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

وقد عد كثير من المؤخين المغاربة الكتاتيب التي تتوفر عليها المدن المغربية التي يؤرخونها مثل عدد الكتاتيب التي ذكر صاحب القرطاس ان مدينة فاس تتوفر عليها في وقته .. ومثل ما ذكره صاحب المعجب من ان مدينة مراكش كانت في عهده تزخر بالكتاتيب القرآنية وقال ان ابناء الخلفاء الموحدين كانت لهم كتاتيب خاصة داخل قصورهم وانه هو نفسه كان احد التلامذة مع اولاد المنصور ..

وكانت العادة المتبعة في حواضر المغرب وقراه ان اهل الحي هم القائمون على تأسيس الكتاتيب لاولادهم والساهرون على عمارتها وترتيب المعلمين بها .. واذا تراخوا في ذلك عدوا مقصرين ومهملين لشؤون دينهم ، وربما نالتهم السلطة بالعقاب والوعيد ، ومما يدل على ذلك تلك الاوامر السلطانية التي كانت تصدر من حين لآخر في هذا الشأن ترغيبا للناس

وترهيبا حتى لا يتراخوا في هذا الواجب الاجتماعي المقدس ، ففي كتاب الاستقصا للناصري أن السلطان المولى عبد الرحمن تقدم الى عماله بالاقاليم ان يلزموا كل مدشر بتأسيس كتاب قرآني ومسجد ديني والقيام بمؤونة الفقهاء الذين يقومون بالتعليم فيها ، وان يعتبر كل من قصر في ذلك مذنبا تجب معاقبته — بناء على ما تقرر عند الفقهاء من أن ذلك داخل في فروض الكفاية التي يتحتم على جماعة المسلمين القيام بها والا أثموا جميعا — فكان ذلك من جملة الاسباب التي ساعدت على انتشار الكتاتيب القرآنية في كل مكان يغدو اليه الصبيان ويروحون من دون عناء ولا كبير كلفة ، وهي تقوم بالدور الاول في تعليم الاطفال التعليم الاولي .

وكانت روح المساواة سائدة في الكتاتيب .. لا فرق بين أبناء الاغنياء . وابناء الفقراء في الاعم الغالب، لان نظام الطبقات قلما يلوح في النظم الاسلامية، وكذلك البنون والبنات ، فانهم احيانا يختلطون في الكتاتيب ولكن في الاعمار الصغيرة ، واما اذا تجاوزوا العشرة فانهم يفصلون ، كل على حدة ، البنات في جانب والذكور في جانب ، أو لكل من الجنسين كتاب خاص .. وقد أدركنا نحن ، بعض الكتاتيب الخاصة للبنات في بعض المدن المغربية وكانت تسمى « دار المعلمة » تعلم أعمال الابرة والقراءة .

كما كان بعض ذوي البيوتات الكبيرة كانوا يفضلون احضار المعلم الى بيوتهم لتلقين اولادهم — وخاصة البنات — القرآن وضرورات الدين ، خوفا من اضرار الاختلاط .. وكذا أرباب السلطان فانهم قلما يوجهون أولادهم الى الكتاتيب العامة ، بل يخصصون في قصورهم جناحا يقوم فيه المعلم بتأديب أولادهم (لذلك كان معلم اولاد الملوك يسمى بالمؤدب) وتهيئتهم للمهام الجسام التي تنتظرهم على منهج خاص يليق بهم ، وكانت وظيفة هذا « المؤدب » جذابة للغاية لا يصل اليها الا العلماء المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة في شؤون التعليم .

من ذلك ما ذكره ابن زيدان في كتابه النظم الادارية من أن القصور السلطانية بالمغرب لم تكن تخلو من استاذ خير نزيه لا شغل له الا تعليم بنات القصر القراءة والكتابة والضروري من علوم الدين ، وان كل شريفة تتعلم لابد لها من داية تراقبها داخل المكتب ، ولا يشاركهن في المكتب ذكر ولو كان شقيقهن ، واذا بلغت البنت العاشرة احتجبت ولم يبق لها سبيل للخروج الى المكتب ولا رؤية المؤدب ، ولم تكن توجد بنت ولدت داخل القصور — ولو كانت من الرقيق — لا تحسن الكتابة والقراءة الا نادرا ، وربما وجد في نساء القصر من تحفظ القرآن بالروايات كحفصة بنت السلطان المولى عبد الرحمن ، وكان في نساء القصر من تقوم بتعليم بنات القصر الكبيرات اللائي فاتهن التعلم زمن الصغر عند المؤدب الراتب كالاميرة خناثة الشهيرة التي كانت تعلم نساء القصر في عهد المولى اسماعيل ، واذا لم توجد اختير معلم ضرير ، استمر العمل على ذلك داخل القصر الى أن نفي محمد الخامس سنة 1953 حيث انه — رضوان الله عليه — كان انشأ معهدا داخل المشور بجوار قصره لتعليم ابنائه الذكور وابناء افراد حاشيته ، ومعهد آخر لتعليم بناته وبعض بنات شعبه ، ولما رجع من منفاه وأعلن الاستقلال اخذ الامراء والاميرات يتابعون دروسهم في المدارس العامة مع افراد الشعب . غير أن نية الملك الهمام الحسن الثاني حفظه الله متجهة الى الاحتفاظ بالتقليد القديم المناسب بمقام الامراء .

ثالثا : المدارس العلمية

كذلك تأسس بجانب المساجد لمكنة اخرى للتعليم القرآني وما اليه .. تعرف بالمدارس ، فاذا كان الباعث على تأسيس الكتاتيب هو ابعاد لغط الصبيان عن المساجد فان نفس السبب هو الباعث على تأسيس المدارس لكن بالنسبة الى ضجيج الكبار، اذ ان الاطفال عند ما يكبرون يغادرون الكتاتيب ويلتحقون بحلقات الدروس التي تعقد برحاب المساجد .. على نحو ما قاله الامام الشافعي عن نفسه : كنت يتيما في حجر أمي فدفعتني الى الكتاب ، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد .. وقال ابو بكر بن العربي عن اهل الاندلس : ان الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب واذا حذق ما قدر ما قدر له خرج الى المسجد (احكام القرآن لابن العربي) وكانت أصوات هذه الافواج المتواردة من الكتاتيب تتردد في جنبات المساجد مع اصوات المقرئين والعلماء المحاضرين ، في اوقات وأمكنة متقاربة ، فتحدث ضجيجا يتنافى مع وقار المسجد ، فاتضحت صعوبة احتمال المسجد لشؤون العبادة ولشؤون التعليم في آن واحد .. فأحدثت المدارس خارج المساجد، فانتقل اليها بعض العلماء مع طلابهم وخاصة الذين يهتمون بدراسات معينة على أسلوب مغاير ، مثل المواد التي تحتاج الى ادوات ، أو التي تعتمد على الحوار أو الانشاد . . بالاضافة الى ان اكثر المدارس تتوفر على اقسام داخلية لايواء الطلبة واحيانا لسكنى الاساتذة ، وغير ذلك من المرافق اللازمة لجموع الطلبة

الا ان تأسيس هذه المدارس قد تأخر نسبيا ، اذ انه لم يعرف في العالم الاسلامي الا في أواسط القرن الخامس الهجري ، حيث تأسست أول مدرسة من ذلك النوع ببغداد حوالى 457 هـ موافق 1065 م — على يد الوزير نظام الملك في الدولة السلجوقية ونسبت اليه وعرفت بالمدرسة النظامية وكانت غاية في الجمال والكمال ، وأسس هو نفسه مدارس اخرى في ارجاء مملكته .. وقيل أن ناحية نيسابور عرفت تأسيس المدارس قبل بغداد (انظر تاريخ الجامعات الاسلامية لغنيمة) .

واقتفى الملوك والامراء اثر نظام الملك لما رأوا من فائدة مدارسه ، فظهرت مدارس كثيرة على غرارها شرقا وغربا ولا سيما ببلاد الشام ومصر .. تنافس الامراء والاثرياء في عمارتها وتوقيف الاملاك عليها ، فقد ذكر المقريزي انه كان في القاهرة وحدها 63 مدرسة وذكر ابن جبير انه وجد ببغداد 30 مدرسة ..

وكذلك الملوك المغاربة فانهم اقتفوا اثر المشارقة سريعا في ذلك المضمار .. اذ أن يوسف بن تاشفين اسس في نفس القرن الخامس الهجري مدرسة الصابرين بفاس .. وبعده اسس الموحدون جملة مدارس نموذجية لتدريس العلوم الضرورية لتسيير شؤون الدولة ، كمدرسة تعليم فن الملاحة التي اسسها عبد المومن الموحدي بالرباط (مكان مدرسة الوداية الحالية) والمدرسة الادارية التي اسسها كذلك عبد المومن بالعاصمة مراكش لتخريج الموظفين ، وقد ذكر صاحب الحلل الموشية ان طلبة هذه المدرسة المنيفين على بضعة آلاف كلهم في عمر واحد كانهم ابناء ليلة واحدة ، وان عبد المومن استدعى بعض علماء الاندلس للاشراف عليها .. وكذلك المدرسة الملكية الخاصة بتعليم الامراء الموحدين .. ومدارس اخرى اسسها الموحدون في ارجاء مملكتهم الواسعة — لا نطيل بذكرها — (انظر كتاب العلوم والفنون في عهد الموحدين لمحمد المنوني) يضاف الى ذلك البيت المعروف عندهم ببيت الطلبة بالعاصمة الذي كان معهدا للبحث والمناظرة على ما ذكره المقري..

ولكن العصر المريني هو ازهى عصور تأسيس المدارس العلمية بالمغرب ، اذ ان اول سلاطينهم يعقوب ابن عبد الحق المريني بنى عدة مدارس في انحاء المملكة ووقف عليها الاوقاف واجرى على الطلبة والاساتذة المرتبات ، واقتفى أثره بنوه في ذلك ، فاستكثروا من بناء المدارس العلمية واجروا عليها الارزاق وعمروها بالكراسي العلمية والاوقاف .. ولا سيما ازاء جامع القرويين الذي أحاطوه بمجموعة من المدارس ما زالت ماثلة للعيان شاهدة بالفن المعماري الاندلسي الرائع ، وكذلك بمراكش والرباط وسلا ومكناس وغيرها ، يقول صاحب الاستقصا : وبالجملة فان آثار بني مرين الباقية تشهد بما كان لهم من فضل على تأسيس المدارس العلمية وعلى عمارتها ..

ويظهر ان ملوك بني الاحمر بغرناطة تشبهوا بالمرينيين في هذا السبيل ، بدليل المدرسة العربية المعروفة بغرناطة بطرازها المريني التي شيدها يوسف الاول من ملوك بني الاحمر ، قال عنها مؤرخ اسباني « تقليد للمدارس المرينية » وقال لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الاحاطة : ان الذي احدث المدرسة بغرناطة هو رضوان الحاجب من وزراء بني نصر ..

وتخطيط المدرسة في الاعم الغالب يسير وفق تخطيط المساجد بحيث تتوفر على أمكنة العبادة والطهارة ، وتزيد باستعدادها الكامل للدراسات المستمرة ولسكنى الطلبة المنقطعين لطلب العلم ولسكنى بعض الاساتذة ان اقتضى الحال ، مما صح معه ان تعد في نفس الوقت اقساما داخلية .. واغلبها يأتي من حيث الهندسة والزخرفة آية في الجمال تستهوي الانفس وتجذب الانظار وتحببها الى الطلبة واهل العلم ذلك في المدارس المرينية الماثلة للعيان ، كالمدرسة المصباحية التي بناها ابو الحسن المريني بفاس والمدرسة العنانية التي بناها ابنه ابو عنان ذات الساعة الاثرية العجيبة القائمة على ابوابها ..

وتلك صفحة زاهية مشرقة في تاريخ التعليم القرآني بالمغرب .. ووددت لو اتسع المقام لذكر مئات المدارس العلمية المبثوثة في قبائل المغرب شمالا وجنوبا التي يلتحق بها الاطفال بعد استظهار القرآن ..

نظم التعليم القرآني

فيما يخص التعليم الاولي بالكتاتيب القرآنية .. فان الباحث تواجهه صعوبات عند محاولة تحديد النظم الدراسية ومواد الدراسة في مختلف مراحل التعليم القرآني ، نظرا لتطاول العهود وتقادم الازمان ، ولامتداد الرقعة الاسلامية شرقا وغربا ، مما جعل التقارب جد عسير ، والتشابه فقط هو الممكن في هذا الصدد .

اما فيما يرجع لزمن التعلم فانه كان عند عموم المسلمين : من المهد الى اللحد — على حد التعبير

المأثور : اطلب العلم من المهد الى اللحد ــ اي ان المرء لا يتقيد بزمن فى تعليمه ، لا عند البدء ولا عند الختم ، فالمدار على الاستطاعة اولا واخيرا .. من هنا كــان صعبا تحديد السن التي كان يجب على الطفل فيها الالتحاق بالكتاب .. فكان كل أب يتصرف حسب ما يرى، قد يحمل ابنه على التعلم وهو دون الثالثة او فى الرابعة كما فى حالة الامين بن هرون الرشيد الذي اجلسوه للمؤدب وهو فى الرابعة أو يترك فى البيت يلهو ويلعب فى غفلة من ذويه الى أن يتجاوز السابعة الا ان الاعم الغالب فى كثير من الاقطار الاسلامية هو السنة الخامسة أو بعدها بقليل (كتاب مبادىء التربية الاسلامية لاسماء فهمي) .

على ان علماء التربية المسلمين انتقدوا هــذه الفوضى وبحثوا الامر من الناحية التربوية ، فهــذا العبدري من علماء التربية القدماء ينتقد فى كتابه (المدخل لعلوم الشريعة) الاباء الذين يرسلون ابناءهم الى الكتاتيب فى سن مبكرة ، قائلا ان السلف لم يكونوا يرسلون ابناءهم الى الكتاب الا فى السن السابعة التي يكلفون فيها بتعليم الصبي الصلاة والفضائل الخلقية ، وزاد يقول ان الاطفال لا ينتفعون بالتعلم فى سن مبكرة.. فحذر المعلمين من عناء تعليمهم ناصحا لهم بأن الآباء انما يرسلونهم اليهم للتخلص من متاعبهم فى البيت وليس الغرض تعليمهم ــ ولاشك ان هذا الراي يتفق مع البحوث التربوية الحديثة التي اثبتت ان التبكير فى تعليم الطفل يؤثر فى قواه العقلية ..

كذلك لم تكن هناك مدة محدودة ينتهي اليها الطفل فى الكتاب ، فقد يمكث فيه الى العشرين من عمره ، وقد يغادره قبل العشر ، فالمقياس هو نجابته واجتهاده فى تحصيل ما يلقنه ، مثل ما حكي عن الامام الشافعي انه دخل الكتاب فى سن مبكرة فاستظهر القرآن والاحاديث وهو دون العشر ، ثم غادره الى المسجد وهو ابن عشر (تاريخ التربية الاسلامية لاحمد شلبي) وكذلك ابن سينا فلقد انهى تعليم الكتاب وهو ابن عشر ــ ولوحظ انهم كانوا يتباهون بالتبكير فى التعليم وسرعة التحصيل والحفظ ، اغتناما لزمن الصغر ، والعقل طري مرن ، وتسابقا مع عامل الزمن وقبل حدوث العوائق .. حتى لا يفوتهم التعليم فى ابانه ، كما يقول المثل : التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر ، او كما قال الشاعر :

اراني انسى ما تعلمت فى الكبر
ولست بناس ما تعلمت فى الصغر

فكان هذا من الحوافز على التبكير واغتنام أيام الصغر .. غير أن ذلك مصحوب أيضا بارهاق الطفل .. فتاتي النتائج احيانا عكسية ، اذ يكثر نفور الاطفال من التعلم وتسوء حالتهم الصحية وينقطعون .. فاذا كانت الاقلية المكدودة تصل الى الهدف فان الاكثرية يعتريها ما يسبب لها البطء او الانقطاع ..

واما التوقيت اليومي فانه يبتدىء غالبا من الفجر او من الشروق وينتهي بغروب الشمس أو بعد صلاة العشاء ، لا يتخلل ذلك الا استراحة الزوال نحو ساعة ونصف .. والتوقيت الاسبوعي يبتدىء فى الغالب من ظهر يوم الجمعة وينتهي قبل ظهر يوم الخميس ، فلا تستغرق العطلة الاسبوعية الا نحو يوم .. ولا وجــود للعطلة السنوية ــ الصيفية ــ ولا لغيرها ــ باستثناء عطل الاعياد الثلاثة الدينية ــ نحو عشرة أيام فى كل عيد ، لذلك سميت بالعواشر فى الاصطلاح المغربي .. واذا جمعنا أيام العطل الاسبوعية والسنوية نجدها نحو شهرين ونصف طول السنة كلها ، وهي قــدر طفيف بالنسبة الى ما تتطلبه الاجسام الصغيرةوالعقول الطرية من اسباب النشاط والمرح ، اضف الى ذلك انعدام الاستراحة خلال ساعات الصباح وساعات المساء ، ايضا فان كثيرا من المعلمين يمنعون الاطفال من ممارسة انواع اللعب .. يرونها منافية لــلاداب وعائقا عن الحفظ والتحصيل .. ولاشك أن هذا راي خاطىء يصدم اصول التربية الصحيحة التي نادى بها علماء التربية فى كل عصر .. وحتى علماء التربيــة الاسلامية ادركوا هذه الحقيقة ونصحوا المعلميــن بالسماح للاطفال بالعاب ترويحية بعد انقضاء ساعات الدرس ، فهذا المربي الفيلسوف الغزالي يقول فى كتابه الاحياء : ان منع الصبي من اللعب وارهاقه بالتعلــم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش » وكذلك العبدري فانه يحبذ بشدة ضرورة الالعــاب والترويح عن الطفل .. ولكن مثل هذه النصائح قلمــا تسمع وتتبع ، وانما تعيش فى بطون الكتب .

وايضا شدة العقاب .. فان كثيرا من معلمــي الكتاتيب القرآنية معروفون بالفظاظة وجفاء الطبع ، قلما يعرفون من وسائل التعليم الا الترهيب والتهديد، والزجر والقهر الى ابعد الحدود ، فترى الطفل بين أيديهم يرتعد ، ولا يدري متى ينزل عليه العقاب ، لانه لادنى سبب ، والعقوبة هي الضرب وقلما يستعمل غيره ، فهو يشتد على الاطفال المهملين لواجباتهم وعلى المعاندين .. ويخف على الآخرين ، وبالحرى لا ينجو منه احد ــ والعصا او المجلدة هي اداة الضرب علــى

اطراف الاصابع او اسفل القدمين بعد شد الوثاق بآلة « الفلقة » المعروفة .

ولقد تعرض علماء التربية المسلمون لهذا النوع من العقاب القاسي — المنفر — فاستنكروه واعتبروه منافيا لاصول التربية — استنكره ابن سينا والغزالي والعبدري وابن خلدون ، وغيرهم ، ذاهبين الى ان اللين انفع وسائل التاديب ، وانه اذا لم يكن من العقاب بد فليكن بالطريقة التي وصى بها هرون الرشيد مؤدب ولده الامين حيث قال له « لا تدع ساعة تمر به دون ان يغتنم فائدة ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان اباهما فعليك بالشدة» وقد قالوا ان الشدة هذه هي التانيب او المنع من اللعب .. وقال ابن خلدون « ان من كانت تربيته بالعسف والقهر ذهب نشاطه وذل وصار حملا على غيره وانطبع على الكذب والخبث وفسدت معاني الانسانية فيه » .. والغزالي ينصح المعلمين بان يصلحوا عيوب الاطفال احيانا بالتغاضي عنها والتغافل حتى لا يفضح الطفل امام زملائه لاول مرة ، واذا عاد ينبغي أن يعاتب سرا ويخطر ، واذا احسن ولو مرة يكرم ويمدح بين الناس .. الى ان قال : ان المعلم كالطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل اكثرهم (احياء علوم الدين) وبذلك كانت التربية الاسلامية تتمشى — ولو نظريا — مع روح التربية الصحيحة فيما يرجع لترغيب التلاميذ وترهيبهم .

منهج التعليم القرآني .. وطرقه

يتضح من استعراض تطورات هذا النوع من التعليم عبر الاجيال والقرون ان الهدف الاسمى منه هو التكوين الديني الخلقي بجانب ما امكن من المعارف التي تمت اليه .. حسب ما يتراءى من المناهج المخططة أو المتعارف عليها — على الاصح — الراجعة الى التعليم الاولي القرآني — فنبادر الى القول بانه ليس هناك برنامج متفق عليه فى أطراف العالم الاسلامي .. باستثناء شيئين اثنين فان معظم الاقطار لا تكاد تختلف حولهما ، وهما تعليم القراءة والكتابة وتلقين ما تيسر من القرآن .. فهذا القدر يمكن أن يقال انه مشترك بين سائر الكتاتيب القرآنية فى العالم الاسلامي ، ومنه يتبين علة تسميته بالتعليم القرآني ، لان الصبي لابد معه أن يحفظ ما تيسر من القرآن ، امتثالا لقوله تعالى: فاقرءوا ما تيسر من القرآن .. اوضح ذلك ابن خلدون فى فصل عقده فى مقدمته تحت العنوان : «تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية فى طرقه » قال فيه ان تعليم القرآن شعار الدين درج عليه المسلمون فى جميع الامصار ليسبق الى القلوب ويؤدي الى رسوخ الايمان — وقال الدكتور احمد شلبي فى كتابه المذكور — تاريخ التربية الاسلامية — ان منهاج الكتاب مبني على القرآن مما جعل وجوده متوقفا على وجود حفظة القرآن الكريم فى الاوساط الاسلامية .

ومع ذلك .. فان كثيرا من الكتاتيب القرآنية ، وبالاخص فى العهود الاولى ثم فى عهد النهضة الحالية — لا تكتفي بتعليم القراءة والكتابة وبتلقين الآيات الكريمة .. بل تضيف الى ذلك مواد اخرى .. حسب ما قرره أحمد شلبي .. من ان القرآن هو نقطة الارتكاز فى الدراسة الاولية وان مواد اخرى تتبعه ، تكثر وتقل حسب مقدرة المعلمين وهمة الآباء ..

وتستخلص من الوصايا التي كان بعض الآباء يوجهونها مع اولادهم الى المعلمين انهم كانوا يرغبون فى ان يتعلموا الحساب مع الكتابة ، فهذا ابن التوام يقول للمعلم « علمه الحساب قبل الكتاب (الكتابة) فان الحساب اكسب من الكتاب » وانهم كانوا يرغبون فى ان يروا الاشعار الفصيحة لانها تنمي فيهم ملكة اللغة وتكسبهم الطباع العربية الاصيلة من فصاحة ومروءة وكرم وعزة النفس ، قال هشام بن عبد الملك لمؤدب ولده « أول ما اوصيك به ان تأخذه بكتاب الله ثم روه من الشعر احسنه » كما يوصونهم بان يرووهم من كلام الرسول ومن الخطب العربية ومن الاخبار والمغازي ، قال عمرو بن عتبة لمؤدب اولاده « علمهم كتاب الله ، وروهم من الحديث اشرفه ومن الشعر اعفه ، وعلمهم سنن الحكماء والخطب والمغازي » كما كانوا يوصونهم بتقويم الاخلاق وغرس الفضائل والاخذ بالقدوة الحسنة وكان مما قاله عمرو بن عتبة للمعلم «ليكن اول اصلاحك لولدك اصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت » وقال هشام بن عبد الملك « ان ابن ابني هذا هو جلدة ما بين عيني ، وقد وليتك تاديبه فعليك بتقوى الله ، واد الامانة » ومن النصائح المشهورة قول عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده « علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، واحملهم على الاخلاق الجميلة، وروهم الشعر ينجدوا ويشجعوا وجالس بهم اشراف الناس واهل العلم ، وجنبهم السفلة والخدم ، ومرهم فليستاكوا عرضا ، وليمصوا الماء مصا ولا يعبوه عبا ، واضربهم على الكذب ، وجنبهم شتم الاعراض ، واحملهم على صلة الرحم ، واعلم ان الادب أولى بالغلام من النسب »

واما علماء التربية المسلمون فانهم بدورهم يرون التنويع في المنهج القرآني ؛ فان القابسي — من علماء التربية — يوصي بضرورة تعليم القرآن والصلاة والحساب والشعر والنحو والعربية — ويرى ابن سينا البدء بحروف الهجاء والقرآن ثم الشعر ثم مكارم الاخلاق ، وكذلك ابن مسكوية يوصي بمبادىء الحساب وقواعد اللغة — وكان ابن سينا يرى ايضا ان يكون مع الصبي في المكتب صبية حسنة آدابهم مرضية اخلاقهم؛ لان الصبي عن الصبي القن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس — لان التقليد من اقوى واسرع العوامل في التربية وخصوصا في مرحلة الطفولة .. وقد عقد ابن عبد ربه فصلا في الموضوع من كتابه العقد الفريد ، وعنه نقلنا العبارات الآنفة الذكر .

فصح لنا مما استعرضناه ان المنهج القرآني لم يكن يخرج عن المواد الآتية : الكتابة والقراءة ، الخط ، القرآن الكريم ، الحديث الشريف ، اركان الايمان ، قواعد الاسلام ، الحلال والحرام ، الاخلاق الحميدة، الحساب ، الشعر ، اللغة ، الاخبار والقصص والمغازي — .

واذا تعلق الامر بتربية اولاد الخلفاء والامراء والقواد اضيفت مواد اخرى تقتضيها المهام التيتنتظرهم كالفروسية ، والرماية ، والسباحة ، والخطابة ، والملاحم ، وآداب المجالسة والمخالطة .. ليكتسبوا التجارب ويتدربوا على تحمل المسؤوليات .. من ذلك ما كتب به عمر بن الخطاب الى عمال الامصار « علموا اولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » — ومن احسن المناهج التربوية التي كانت تصلح لتربية الامراء ما وصى به هرون الرشيد مؤدب ولده الامين « ان امير المومنينقد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك امير المومنين ، اقرئه القرآن ، وعرفه الاخبار ، وروه الاشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام ، وامنعه من الضحك الا في وقته ، وخذه بتعظيم بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه .. الخ » .

الطريقة التطبيقية :

واما الطريقة التطبيقية التي كانوا يسلكونها في تلقين تلك المواد فهي ايضا تختلف وتتباين .. فبعضهم يميل الى الاخذ بطريقة التدرج فيها شيئا فشيئا ، يلقن منها على التلميذ ما هو اوفق لسنه واقرب الى طبعه ويؤخر ما هو ادعى الى الجهد والى الطاقة العقلية اذ ان نظام الانتقال من فصل الى فصل .. او من قسم الى قسم ، غير معهود في النظام الاسلامي العتيق .. وانما كان كل تلميذ يتدرج بمفرده او مع بعض اقرانه حسب اجتهاد كل واحد وتوجيه المعلم او الاب .. فهذه طريقة التدرج التي بينها ابن خلدون في مقدمته بقوله : اعلم أن تلقين العلوم انما يكون مفيدا اذا كان على التدرج شيئا فشيئا وقليلا قليلا ، يلقى الى المتعلم اولا مسائل كل باب وتشرح له على سبيل الاجمال ، ثم يرجع اليها ثانيا فيرفع فيها تلك الرتبة ويستوفي الشرح والبيان ، ثم يعود اليها ثالثا فلا يترك عويصا ولا مغلقا الى ان يستولى على ملكته .. وكذلك الغزالي فانه ينصح بان يؤجل الطالب عويص المسائل الى أن يتقدم في العلوم ثم يختار علما يتبحر فيه ، اي يتخصص

على أن كثيرا من المعلمين لم يكونوا يراعون هذا التدرج — ولو جزئيا — بل كانوا يلقون على المتعلم بادىء ذي بدء المسائل العويصة ، يطلبونه بحلها وفهمها وهو غير قادر ، حاسبين انهم بذلك يأخذونه بالحزم وسرعة المران ، في حين انهم يلقون الحب في ارض غير مهياة فتضيع جهودهم ويخسر متعلموهم ، لذلك عاب عليهم ابن خلدون بقوله : انهم يخلطون على المتعلم بما يلقونه من غايات الفنون قبل مبادئها ، فان قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجيا فالمتعلم يكون أول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الاقل ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج الى أن تتم ملكته في التحصيل — ثم يقرر ابن خلدون ان القرآن هو اصل التعليم الصحيح في الاسلام فهو الذييبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ..

وفصل ابن خلدون طريقة كل قطر في ذلك : بان مذهب أهل المغرب هو الاقتصار على تعليم القرآن ، فلا يدرس الولد معه شيئا من الحديث او الفقه او الشعر أو الادب .. يتركون ذلك الى أن يحذق القرآن او ينقطع دونه .. واما اهل الاندلس فيبداون بتعليم القرآن ولا يقتصرون عليه ، بل يخلطونه برواية الشعر والترسل — يعني النثر الفني — ودراسة قواعد اللغة وتجويد الخط وكتابة الانشاء ، وفي تونس وما اليها يخلطون تعليم القرآن بالحديث وقوانين العلوم ، الا ان عنايتهم بالقرآن والخط اكثر .. يشبههم في ذلك اهل المشرق غير ان هؤلاء يفردون الخط بمعلم خاص ، يتعلمونه كما يتعلمون سائر الصنائع .. ومثل هذا سجله ابن بطوطة في رحلته اذ قال : ومعلم الخط عند المشارقة غير معلم القرآن ، معلم الخط لا يعلم غيره.

وهناك رواية تشير الى ان بعض المشارقة ربما اخروا تلقين القرآن الى ان يحذق التلميذ الخط والحساب والعربية .. وهي ما كتبه أبو بكر بن العربي فى احكام القرآن : « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة وهي ان الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب فيتعلم الخط والحساب والعربية ، فاذا حذق ذلك خرج الى المقرىء فيلقنه القرآن سماعا ، او فى مصحف ، فيحفظ منه كل ربع حزب أو نصفه أو حزبا » — ويزيد ابن جبير هذه النقطة وضوحا بقوله « وتعلم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين (سماعا) تنزيها لكتاب الله عن ابتدال الصبيان له بالاثبات والمحو فى الالواح ..

وذلك انه بالبلاد المغربية والاندلسية شاعت عادة تعلم الكتابة والقراءة فى الالواح الخشبية التي تمحى ثم تكتب من جديد ، وكذلك كتابة حصة القرآن على اللوحة فاذا حفظت محيت بالماء ، ثم تكتب حصة أخرى وهكذا ، فرأى المشارقة أن محو القرآن بتلك الطريقة مناف لحرمة القرآن .

وما زالت طريقة الالواح هذه (بصلصالها وصماغها واقلامها القصبية) هي المتبعة فى كتاتيب المغرب ، وان اصبح بعض المعلمين يعوضونها بالمصاحف ، الا ان الاكثر يفضل الالواح على المصاحف لان حرمة المصاحف اعظم واشد ، زيادة على ان استعمال اللوح ادعى الى سرعة الحفظ والى التدرب على الكتابة وتجويد الخط ..

والقرآن مقرون دائما بالحفظ والاستظهار ، لا يكتفي معه بالفهم والسرد ، بل ان حفظه هو الاهم .. ولاسيما بالنسبة للصغير الذي ينطبع على قلبه ولسانه سريعا ، ولا ينساه مدى الحياة ما دام يكرره ويعاوده.. ومن ثمة كان الحفظ من اهم شروط التعلم عند المسلمين الاولين الذين عرفوا بغزارة الحفظ وقوة الذاكرة ، حتى انهم كانوا يعيبون الاتكال على الاوراق قال شاعرهم :

استودع العلم قرطاسا فضيعه
وبئس مستودع العلم القراطيس

وقال آخر :

ليس بعلم ما حوى القمطر
ما العلم الا ما حواه الصدر

احترام المعلم :

ومما يتصل بطرق التعليم القرآني وبآدابه ان المعلم كان يتمتع باحترام زائد فى الاوساط الاسلامية .. وبصفة خاصة عند تلامذته الذين كانوا يبجلونه اعظم تبجيل .. ولكي تكون تعاليمه افيد وتربيته اوقع فى النفوس كان يتحتم عليه ان يبدأ بنفسه ، ويصلح عيوبها ويقوم اعوجاجها ، والا كان تأثيره فى الاطفال عكسيا ، يروم اصلاحهم فيفسدهم ، قال ابن المقفع فى كتابه الادب الصغير « على من نصب نفسه معلما ان يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها فى السيرة والرأي واللفظ ، ليكون تعليمه بسيرته ابلغ من تعليمه بلسانه » .. وفى مثل هذا المعلم قال شوقي بيته السائر :

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم ان يكون رسولا
ارأيت اشرف او اجل من الذي
يبني وينشىء انفسا وعقولا

فاذا توفر هذا الشرط فى المعلم كان حريا ان يؤثر فى تلامذته تأثيرا روحيا ونفسيا يسمو به ويهم الى مرتبة الابوة الروحية ، لذلك شاع فى الاوساط الاسلامية اعتبار المعلم المثالي ابا روحيا ، على الاطفال ان يطيعوه ويجلوه كآبائهم سواء بسواء ، بل ان بعضهم يقول ان الاب الروحي احق بالطاعة والامتثال — كما أن على المعلم ان يعطف على تلامذته كأولاده من صلبه او اكثر ، وان يكون تعليمه وتربيته اياهم خالصة لوجه الله الكريم لا يبغي من ورائه جزاء ولا شكورا..

لذلك عالج علماء التربية المسلمون قبول الاجر عن التعليم ، هل هو جائز ام لا ، اجاز ذلك الغزالي فى تعليم المواد غير الدينية ، ومنعه اكثر العلماء اطلاقا ، لكونه واجبا اجتماعيا ، ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما يروى : اعطوهم ولا تؤاجروهم فتحرجوهم .. ورخصوا فقط قبول الهدايا والصلات التي يتطوع بها الآباء عند العطلة الاسبوعية أو بمناسبة الاعياد وحفلات الختم .. ولا تدخل تحت شرط (مفتاح السعادة لزادة) لذلك كان اكثر المعلمين فى الصدر الاول يكسبون قوتهم من الطرق الاخرى ولا ينقطعون للتعليم الا نادرا.. وذكر حاجي خليفة فى كتابه كشف الظنون ان بعض الامراء لما احدثوا مدارس نظامية وفرضوا الاجور للمعلمين ، انكر ذلك بعض العلماء واقاموا ماتما وقالوا « كان ارباب الهمم يشتغلون بالعلم لشرفه ، ثم تشوف اليه الاخساء واصبح حرفة » .

على ان هذا تشدد فى الدين ، حملت عليه الغيرة وخوف تسرب الماديات اليه .. وقد افتى بخلافه كثير من الفقهاء ، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : احق ما اخذتم عليه الاجر كتاب الله .. اذ ان تبول

الاجر في هذا الشأن لا يتعارض بالضرورة مع مرضاة الله ولا مع الاخلاص في اداء الواجب الديني — الاجتماعي — فالمعلم مهما سمت نفسه وبلغ الزهد في اعراض الدنيا ، فلابد له من مكسب يفي بحاجاته وضرورات أهله .. فكلما كان له اجر ثابت معلوم كان اصون له واشرف من الخروج الى السوق والبحث عن اسباب الرزق .. ويزداد شرفا اذا كان هذا الاجر يأتيه من مؤسسات عمومية كبيت المال (خزينة الدولة) والاوقاف .. لذلك كثرت الاوقاف في الاسلام على أمكنة التعليم سواء الكتاتيب والمساجد والمدارس ، يوزع ريعها على المعلمين والمتعلمين والقائمين عليها .. واذا قصرت ولم تكف اخذت بقية النفقات من بيت المال (الحضارة الاسلامية لمتز) ومن امثلة ذلك ما حكاه ابن بطوطة في رحلته من أن ملك ايذج بالشرق كان يقسم خراج بلاده اثلاثا ويجعل الثلث في نفقة التعليم ..

واجمالا .. فان من مميزات المعلم القرآني انه كان سامي المهنة عالي المكانة .. الى درجة تقديس الاطفال وافراد العائلة اياه .. يروون في حقه الحديث المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم « من علمك حرفا من القرآن فهو سيدك وسيد اولادك وتلامذتك الى يوم القيامة » .. ولما قال شوقي بيته المشهور الاتف الذكر لم يبق احد في المشرق والمغرب الا وحفظه لانه عبرعن شعورهم نحو المعلم اصدق تعبير .. وجاء في كتاب بيان العلم وفضله لابن عبد البر ان هرون الرشيد سال جلساءه يوما : من هو اكرم الناس خدما .. فقالوا : أنت ، وهب الله لك خير الخدم من عرب وعجم ، فقال: لا ، اكرم الناس خدما الكسائي ، يخدمه ابناي الامين والمامون ، فقد أشرفت عليهما بالامس ، وقد خرج الكسائي من المكتب ، فتسابقا الى نعليه ، كل منهما يريد أن يقدمهما اليه .. فهذا اكرم الناس خدما .. وفي نفس الكتاب حكاية اخرى تدل على مدى تقديس اهل الاندلس للمعلم ، وهي انه لما توفي أبو سائب معلم بقرطبة اغلقت الاسواق يوم موته وكسر نعشه تبركا بأعواده ، وكان تلامذته زهاء أربعمائة فكسروا الواحهم واقلامهم ومحابرهم حزنا عليه ، واقاموا على ذلك عاما كاملا .. ومما يدل على ما كان من عظيم احترام المعلم عند المغاربة ما جاء في مجلة افريقيا التي كانت تصدر بطنجة بقلم الاب بوحنا تحت عنوان « العادات المتأصلة بالمغرب » ما نصه : « اعرف شخصا مسيحيا من عرب لبنان قضى في تعليم اولاد السلطان عبد الحفيظ نحو ثلاث سنين ، كان يعلمهم خلالها اللغات الاجنبية ، وفي يوم من الايام أصبح بالعمامة والسلهام ، وتصنع أن يكون شخصا محترما ، فلما سألته عن السبب قال : ان المسلمين يقدسون المعلم ، يتبركون بسبحته ، ويتمسحون بسلهامه ، فأردت أن انعم بهذا التقديس قال الاب : فعذرته ، وقلت له : يا للعجب جئت لتعلمهم شيئا فاذا بهم علموك أشياء » .

مكافاة التلاميذ :

وعلى اي حال فان التعليم القرآني كان ميسورا- لا يحتاج الى عظيم كلفة ، بل هو مجاني محض ، لا يكلف العائلة كبير عناء ، بل ان بعض الكتاتيب كانت تكفل ابناء الفقراء والايتام وتقوم بنفقاتهم ، على ما ذكره الجهر شتاني في كتابه الوزراء من أن يحيى بن خالد البرمكي اسس كتاتيب لابناء الايتام ووقف عليها ما يكفي لحاجتهم ..

وكان كذلك نجباء التلاميذ يشجعون بالمكافآت والجوائز المادية والادبية ، ذكر احمد شلبي أن المكافآت والجوائز المالية كانت منتشرة جدا .. فكثيرا ما كان مؤسسوا الكتاتيب والمدارس يجعلون لمكافأة التلاميذ حصيلة في أوقافهم .. فكانت توزع على من حفظ كذا .. او ختم كذا .. او احسن علم كذا .. حسب شرط المحبس — كما كانت توزع من حين لآخر جوائز سنية سلطانية على نجباء الطلبة والتلاميذ .. او من أرباب الخير والاحسان .

كما أن العائلة كانت تكرم ولدها النجيب تشجيعا له وتنويها .. وتقيم حفلة عمومية يحضرها استاذه وزملاؤه واصدقاء العائلة كلما وصل الى درجة معلومة في التحصيل ، كختم القرآن ، أو تخريج ، أو عودة .. من ذلك ما شاع في بعض الاوساط كمظهرلتكريم النجباء أن يركب المحتفل به على حصان وهو يرتديابهى الحلل ويحيط به اخوانه واقرانه ، ويسير الموكب في الازقة وسط التهاليل والزغاريد ، وتنثر عليه الازهار .. واحيانا الدراهم .. جاء في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني أن علي بن جلبة لما حذق بعض ما يحذقه الصبيان حمل على دابة ونثر عليه اللوز ..

ومن ذلك ايضا الحفلة المعروفة في بعض الاوساط المغربية « بالختمة » وفي فاس تسمى « حبيبنا » لانهم ينشدون فيها قصيدة : حبيبنا ، حبيبنا ، مولاي محمد .. وهي حفلة تقام للطفل عند ختم القرآن- — كله او بعضه — وطريقتها اقامة حفل كبير في دار الطفل يدعى اليه المعلم والتلاميذ والاصدقاء واهل

الخير ، وتقدم لهم الاطعمة والمشروبات تحت انغـام الموسيقى وزغاريد النساء ، والولد فى وسط الدار فى افخر ثيابه وحوله التلاميذ وبين يديه لوحته مزخرفة بالوان زاهية يتلقى الهدايا والتهاني .. وفى النهاية يقدم الاب للمعلم هدية ثمينة ويحرر التلاميذ مدة تختلـف حسب مركزه الاجتماعي ، وربما اركبوا الطفل على فرس وطافوا به فى الشوارع لزيارة بعض الاضرحة وحوله الطبول والمزامير ..

وذكر ابن زيدان فى كتاب نظم الدولة .. أن هذه العادة تتبع ايضا فى كتاتيب القصور السلطانية بالمغرب قائلا : ان الولد اذا ختم القرآن انعم السلطان على الفقيه بصلة جزيلة ، ورفع الولد لوحته على منصـة وسط القصر ، وياتي جميع من بالقصر بالهدايا الثمينة يضعونها على اللوح نقودا وثيابا ، ويقدم الجميع للفقيه وتنصب موائد الكسكس فى الكتاب وقوارير الزهـر والورد ومحابر الطيب ، يحضر ذلك جميع الطلبـة واصحاب الفقيه وبعض الامراء والحاشية .. كما أن الاطعمة توزع على أضرحة الصالحين وعلـى السجون ..

وقال ابن زيدان — وهو من الامراء — انه هـو نفسه لما ختم القرآن فى صغره ذهب بلوحه الـى السلطان مولاي الحسن الاول يطلب منه الختمة — على العادة — قائلا « وكان لوحي مكتوبا بخط المعلم » فانكر ذلك السلطان وقال « هذا غش لا ينبغي ، لماذا لا تكتبون الواحكم بايديكم ، فسالوم الفقيه » . قال : ونفذ لي ما ادفعه للفقيه ..

وهذا تقليد نبيل ، وكم له من مثيل ، فى هـذه الديار ، وفى سائر الاقطار ، حيال التعليم القرآني الذي نرجو أن يعود اليه مجده الغابر بفضل عناية أميـر المؤمنين مولانا الحسن الثاني ناصر الملة والدين وباعث الامجاد ، وملحق الاحفاد بالاجداد ..

الرباط — رضا الله ابراهيم الالفي

> « ففي اطار ديننا الاسلامي السمح سنصوغ كل عمل وكل اصلاح ، لان المكاسب الدنيوية ليست غاية فى حد ذاتها ، لانها مكاسب محـدودة أمـا المكاسب الروحية فليست لها حدود لانها هي الوجود » .
>
> **جلالة الحسن الثاني**



المراكز الدينية الإسلامية بالاتحاد السوفياتي

للمفتي ضياء الدين خان ايشان باباخان
رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى



ولد الاستاذ السيد مفتي ضياء الدين خان ابن المرحوم المفتي ايشان بابا خان بطشقند سنة 1908 ، وتربى تربية اسلامية على يد والده الذي كان من العلماء الافذاذ ، كما تلقى بعض المبادىء الاولية في العلوم على جده المرحوم الذي كان من كبار المدرسين والمشائخ في الطريقة النقشبندية .

ويرجع نسبه الى سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه

ترعرع السيد مفتي ضياء الدين رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى في بيت علم ودين ، حيث حفظ القرآن الكريم ، وله من العمر ثلاث عشرة سنة ، ثم درس علوم الآلة بطشقند في مدرسة براق خان لدى مدرس عالم بالنحو والصرف والفقه ، وقد انتقل اليوم طلبة هذه المدرسة الى بخارى بعد ان صارت نظارة دينية للمسلمين بآسيا الوسطى ، كما درس علوم الحديث لدى استاذ من بلاد الشام كان قد اجازه شيخ الاسلام محمد بن ابي شعيب الدكالي المغربي بمكة المكرمة ...

وقد انتخب الاستاذ مفتي ضياء الدين خان قاضيا لجمهورية اوزبيكستان سنة 1943 ، وفي هذه السنة سافر الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج عن طريق القاهرة التي اقام بها اكثر من شهرين تلقى خلالها دروسا مع طلبة الازهر في التفسير وفنون الحديث والعلوم الانسانية

واثناء اقامته بالمدينة المنورة اجازه الاستاذ الحافظ حسن شاعر ، وقال له :

« انت ولدي ، وتلميذي بطشقند ، بارك الله فيك »

وقد انتخب سنة 1948 نائبا عن والده الراحل الذي كان متضلعا في مختلف العلوم بالعربية والتركية والفارسية

وقد رجونا من فضيلة الاستاذ السيد ضياء الدين اثناء اقامته بالمغرب بمناسبة الاحتفال بالذكرى الرابعة عشرة لنزول القرآن ان يمد مجلتنا بمعلومات عن الاسلام والمسلمين بآسيا الوسطى فتفضل سيادته بهذا الحديث القيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي ، لولا ان هدانا الله .

اما بعد ،

« ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين » . ويسرني جدا ، وزميلي ، ان نشارك في الاحتفال بذكرى نزول القرءان الكريم ، في المغرب ، مع من وفد اليه من شتى اقطار العالم العربي والاسلامي بدعوة موجهة الينا من امير المومنين، الداعي الى الله ، جلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله ورعاه مع اسرته الكريمة ، واشكر الله سبحانه وتعالى على ان من علي وجعلني من الملبين لدعوة صاحب الجلالة المعظم .

وقد أسعدتني هذه المؤتمرات والمناظرات من ضمن هذه الذكرى الجليلة الفريدة في بابها في هذا العصر المرير بانظار الاعداء للقرءان والدين الاسلامي؛ وكان الاخذ بالدين كالقابض على الجمر كما ورد في الحديث ، فضلا عن حمايته والذب عنه رغم هذه التصادمات الداخلية والخارجية .

وانني اردت ان اوضح حياة المسلمين بالاتحاد السوفياتي عموما ، وحياة المسلمين بآسيا الوسطى خصوصا ، بمناسبة حضوري لاحياء ذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرءان الكريم في الرباط عاصمة المغرب المزدهر .

ففي الاتحاد السوفياتي ست جمهوريات ؛ والمقاطعات التي يسكن فيها المسلمون هي جمهورية اوزبيكستان ، وقازاغيشان ، تافيكستان ، قيرغيرستان وتركمانيستان واذربيجان .

والمقاطعات التي تضم اكثر المواطنين المسلمين هي الشارسنان وباشقرية وداغيقال ، كما ان هناك مناطق اسلامية تضم خلبطا من المسلمين وغير المسلمين ، والمقاطعات التي تؤلف المسلمين فيها اغلبية السكان هي القرم وشمال القوقاز وشركس وانبكوش، ويوجد هناك من المساجد الكبيرة والمساجد الصغيرة كما يعيش فى الاتحاد السوفياتي عدد لا بأس به من العرب والاكراد فى شتى البلاد ...

وفى هذه الجمهوريات والمقاطعات والمناطق مراكز دينية مستقلة ومنفصلة عن الحكومة، يعني انها لا تتدخل فى شؤونها الداخلية ولا تمونها بنقود ، بل بتبرعات المسلمين الذين تعودوا منذ زمن بعيد اخراج الصدقات، الفريضة والنافلة ، للعلماء والائمة بعد تأميم الاوقاف من قبل الحكومة السوفياتية ، واصدرت توصيات وارشادات عن هذه المراكز الدينية لجميع المسلمين ، هناك تقديم المساعدات لاحياء الدين الاسلامي واقامة شعائره فى ارجاء الاتحاد السوفياتي فى صناديق المساجد التي تتبع مركزا من المراكز الدينية كما هو معروف للوفود الكرام الذين شاهدوا بام اعينهم حين زيارتهم بدعوة من بعض هذه المراكز الدينية او بدعوة من الحكومة السوفياتية .

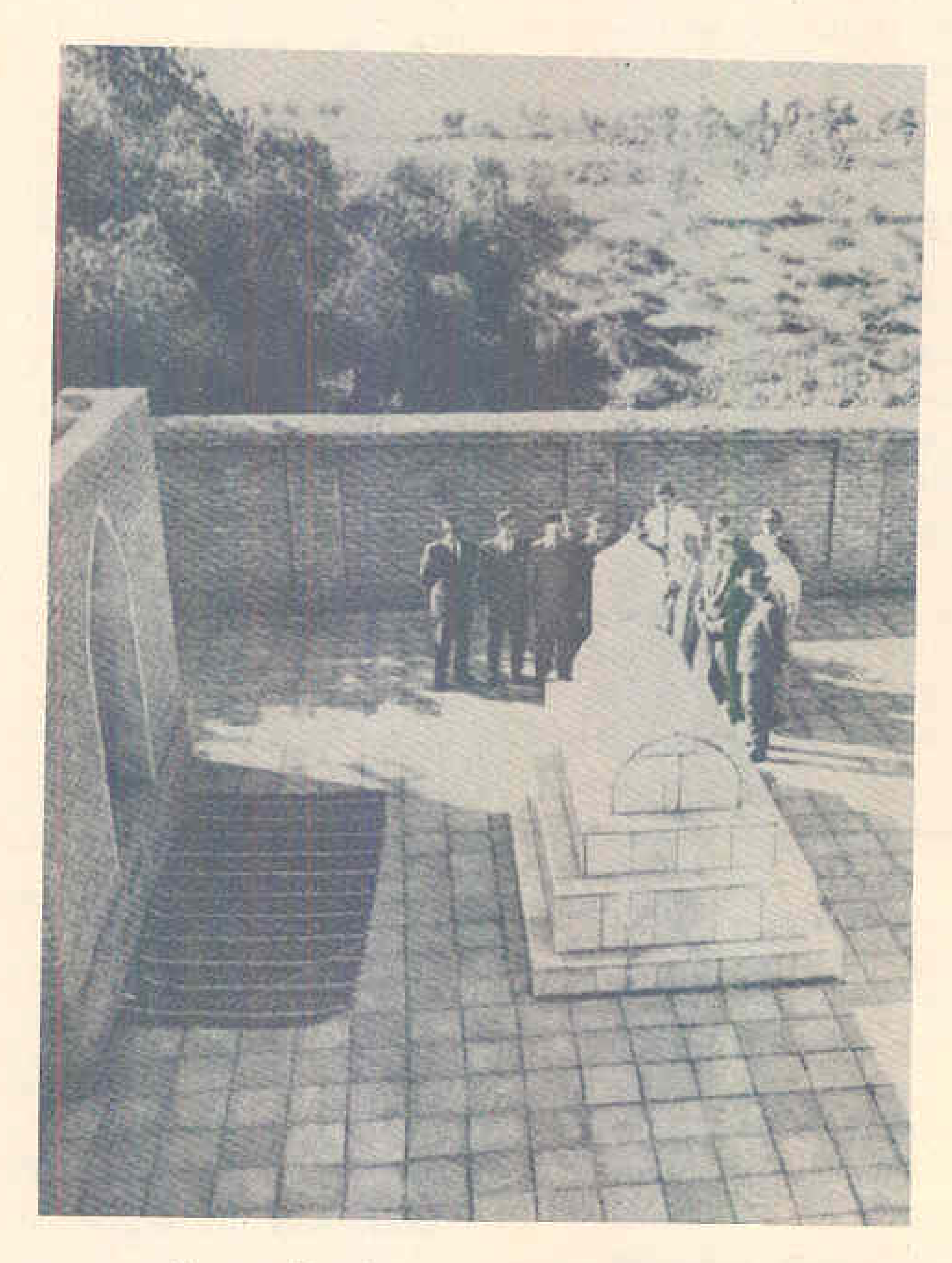
وفيما يلي تقسيم المراكز الدينية الاسلامية :

المركز الديني الاسلامي الاول والقديم ، هو مركز النظارة الدينية للمسلمين فى بلاد سيبريا والقسم الاوربي وما يتبعه من انشاريه والباشقسريه ومن يقطن فى المدائن الاوربية فى موسكو ولينغراد وكوركي ولينوبيا واسطانيا وغيرها من البلاد فى القسم الاوربي ، وهذا المركز الديني الاسلامي فى عاصمة باشقيريه فى بلدة اوقاز رئيس المركز الملقب بمعنى شاكر جلال الدين ابي شيخ الاسلام .

والمركز الثاني للدين الاسلامي هو بآسيا الوسطى، هناك خمس جمهوريات اوزبيكستان وتافيكستان وقازاغستان وقرغرستان وتوركمانستان المسمى النظارة الدينية للمسلمين بآسيا الوسطى او ما وراء النهر اوتركيستان باسم هذه الثلاث تضم خمس جمهوريات المذكورة انفا ، والمركز الديني الاسلامي فى عاصمة اوزبيكستان طشقند معناها بالعربية مدينة الاحجار لاجل جريان انهارها المشهورة جيحون وسيعون وفرجيف وكاكيطاووس الاحجار من الجبال المحيطة بها واسمها القديم فاح باللغة المغولية ، وبدلها العرب لما فتحوا هذه البلاد سنة خمس وخمسين من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة تحت قيادة سعيد بن عثمان رضى الله عنه والتصحيح باسم شاشن ، وهؤلاء العلماء القدامى الذين خرجوا منها ينسبون بالشاش مثله الامام الكبير محمد بن اسماعيل القفال الشاش صاحب محاسن الشريعة وولده ابو القاسم الشاش صاحب التهذيب ونظام الدين الشاش صاحب اصول الشاش وابو الهيثم كليا بن سعيد الشاش صاحب المسند فى مجلدين ، والمشهور بمحدث ما وراء النهر ، ومن اولياء الله المشهورين عبيد الله خواجة اضرار الطاشكندي من خلفاء بهاء الدين السمرقندي وخواج زين الدين الشاش ابي شهاب الدين السهرودي وشيخ خواوند ظهور الطاشكندي ابي شيخ عمر الفاغستاني قرية من قرى طاشكند ، وقد انجبت كثيرا من العلماء واللغويين مثل صاحب صحاح الجوهري الشاكني ، وهذه ايضا قرية من قرى طاشقند والحافظ محمد كوهه كي هي قرية من قرى طاشقند ... وجمهورية اوزبيكستان تضم كثيرا من البلاد الاسلامية التاريخية ، مثلا سمرقند ونجارا وفرغانة وترمذ ونسف وخوارزم وفيها قبوه ومرغتان وغيرها من البلاد المعلومة المثبتة فى التاريخ بآثرها وعلمائها وصناعتها وزراعتها وفواكهها وجلودها وقطنها وحريرها ؛ والقاطنون فيها تسعون فى المائة مسلمون متمسكون بالديانة الاسلامية على مذهب الحنفي اسما ، والعاملون بالكتاب والسنة رسميا بدستور المركز الديني الموقع فى انتخاب قادتها ، وابو العبد اشرف عليها .

والمركز الثالث الادارة الروحانية للمسلمين فيما وراء القوقاز بآذربيجان ، وفى المناطق فى جورجيا وارمينية،والمذهب الشائع فى هذا المركز شيعي جعفري، وفى البلاد التابعة لها كثير من السنيين ، وللشيعة شيخ الاسلام ، ولاهل السنة مفتي الاسلام ، والادارة الروحانية فى عاصمة اذربيجان هذه باكو .

والمركز الرابع الادارة الدينية الاسلامية للمسلمين فى مقاطعات داغستان وانكوش وجيعن وقرم تتار واستين وقياردي وغيرها من المناطق الصغيرة الاخرى التابعة لهذه الادارة الاسلامية ، ومركزها فى مقاطعات داغستان فى بلدة نيحورخان شورا الذي خرج منها الشيخ عبد القادر شامل المجاهد الكبير .



ضريح الامام محمد بن اسماعيل البخاري خارج سمرقند

واما حياة المسلمين بآسيا الوسطى : ففيها النظارة الدينية الاسلامية التي اشرف عليها حالا ، ولله الامر من قبل ومن بعد ، فلله الحمد ، فهم فيها من التمسك بالدين ، ومن ممارسة شعائرهم في البلاد والقرى بلا تدخل ولا خلل من الحكومة الحالية ، وفيها من المساجد ما يزدحم معه المسلمون اكثر من خمسة آلاف او ستة الاف في طشقند وسمرقند وبخارا وفرغانة ، ويقيمون صلاة الجمعة والعيدين بعشرات الالاف من المسلمين والمسلمات والشباب ، ويؤذن المؤذن بالمنارات القديمة البناء ، ويؤدي المسلمون المراسم الدينية ، والحفلات في الختان ، وعقد النكاح ، وعقيقة الموالد خصوصا ، ويعتنون في الميلاد النبوي بالمساجد والبيوت تبركا بقراءة مولد البرنجي الجعفري ؛ وعقد النكاح يعقد من قبل امام الحي بعد تسجيل العروسة والعريس في سجل الحكومة ، ويصدق صداقهن على قدر الخطيب او والده ، بل المغالاة في المهور شائعة في اكثر بلاد ما وراء النهر .

وفي كل البلاد عدة مساجد جامعة لاقامة الجمعة والعيدين ، واما المساجد الصغرى فكثيرة في خارج البلدة المركزية وقراها ، والاحكام الشخصية تشرف عليها دار الافتاء او نائب المفتي في البلاد الشاسعة . وبناء المساجد وتجديدها وترميمها من قبل المسلمين يتم بعد ما يشرف عليها المفتي او نائبه لصلاحية المكان ، واخذ الاتفاق من المسلمين القاطنين او البعيدين من المكان ، وائمة المساجد على قدر وسعهم وغيرتهم يرشدون المسلمين بالمواعظ الحسنة في كل المحافل والمساجد .

واما وظائف النظارة الدينية الاسلامية للمسلمين بآسيا الوسطى التي اشرف عليها فهي تخدم مصالح المسلمين وما ذكر من المراسم الدينية والاحكام الشخصية ، ولديها من الموظفين ما يبلغ عددهم اكثر من ستمائة موظف ديني من النواب والقضاة والمفتشين والائمة الكبار والمتصدين في المساجد للترميم والنظافة ، ورواتبهم تعد كلها من قبل النظارة الدينية على قدر وظائفهم .

ولديها ايضا قسم للعلاقات بالمنظمة الاسلامية العربية والاسلامية للمسلمين بالاتحاد السوفياتي وادارة هيئة التحرير .

وتشرف ايضا على المدرسة الدينية في بلدة بخارا وترسل بعثة من الحريصين منها الى الجوامع الاسلامية في الخارج ، وترسل كل عام من الحجاج عددا لا باس به الى الحج ، وترسل بعثات من الائمة والقراء واهل الصلاح من المسلمين للتجول في البلاد العربية والاسلامية ، وتدعو من البلاد العربية والاسلامية وفودا للتعارف مع اخواتهم المسلمين في الاتحاد السوفياتي والاتصال بهم عن كثب .

ولديها من النشرات : القرءان الكريم ، والاثار الاسلامية ، والتقويم الهجري ، والفتاوي ، ورسائل في سرد البدع ، والخرافات الدخيلة على الدين الاسلامي.

ولديها في المكتبة الجامعة اكثر من خمس وعشرين الف مجلد ، من كتب التفسير ، والحديث والتواريخ، والفقه ، والاديات العربية والفارسية والتركية ، والسير ، والشريعة ، وطبقات العلماء في الحديث ، والفقه والادب ، وكثير من اللغات العربية والفارسية والتركية المحلية ، ولها صندوق في بنك الدولة، لا حق لاحد ان ياخذ شيئا منه الا بعد توقيع العبد المفتي للمسلمين بآسيا الوسطى وقازاغستان ، ولها ميزانية كل سنة تعين من قبل المفتي والنواب والمرشدين لهذه النظارة الدينية للمسلمين بآسيا الوسطى وقازاغستان .

وانا سعيد جدا بان اكتب الى المجلة الغراء ، دعوة الحق ، جملا كثيرة ولكن الاحسن ، ما قل ودل ، واني اعتقد انه ينشر من لدن النظارة الدينية للمسلمين بآسيا الوسطى وقازاغستان مجلة دينية عن قريب وتتيسر المبادلة من النشرات بين ادارة « دعوة الحق» وادارة التحرير لدى النظارة الدينية بطشقند ، فيلتف حولها ما يقر به العيون، ويثلج به الصدور ان شاء الله. داعيا من المولى الكريم جل عزه ، ان يكلل خدمات دعوة الحق بالنجاح والقائمين على اعمالها بالصحة والعافية من كل شر وبلاء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ضيفكم المخلص رئيس المسلمين بآسيا الوسطى وقازاغستان ، المفتي ، ضياء الدين خان ايشان بابا خان



اولية المصحف الشريف بالمغرب – ملوك ورؤساء ينتسخون المصحف أو يسهرون على كتابته – مغاربة خطاطون مصحفيون – انشاء خزائن للمصاحف – وقف الهبطي – بضعة مصاحف نموذجية.

من الطبيعي ان تكون عناية المغرب بالمصحف الشريف ، اولى مظاهر استقرار الاسلام بهذه البلاد ، وقد كان في دعاء الامام الفاتح : ادريس الثاني بعد بناء مدينة فاس : « اللهم انك تعلم اني ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ، ولا سمعة ولا مكابرة ، وانما اردت ببنائها ان تعبد بها **ويتلى بها كتابك** (1) ... » ، ويظهر ان من اوائل المصاحف التي عرفت بالمغرب : **« مصحف عقبة بن نافع الفهري »** ، الفاتح الاول لهذه البلاد ، وقد استمر متداولا بالمغرب الى ان صار للسعديين ، حيث ورد ذكره ايام ابي العباس احمد المنصور ، بمناسبة اخذ البيعة لولي عهده محمد الشيخ الملقب بالمامون ، ثم جاء ذكره ايام السلطان العلوي المولى عبد الله بن السلطان المولى اسماعيل ، لما بعث به هدية – ضمن مجموعة من المصاحف الكريمة – الى الحرم النبوي الشريف ، وفي هذا يقول الزياني في « البستان » في سياق حوادث عام 1155 هـ :

« ولما سافر الركب النبوي وجه معه السلطان المولى عبد الله ثلاثة وعشرين مصحفا – بين كبير وصغير – كلها محلاة بالذهب ، منبتة بالدر والياقوت، ومن جملتها « المصحف الكبير العقباني » ، الذي كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثماني ، وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري ، نسخه بالقيروان من المصحف العثماني ، فوقع هذا المصحف بيد الاشراف الزيدانيين يتداولونه بينهم (2) ، الى ان بلغ الى السلطان المولى عبد الله المذكور ، فغربه من المغرب الى المشرق، ورجع الدر الى صدفه ، والابريز الى معدنه .

1) « روض القرطاس » ط . ف ، 1305 هـ – ص 29 ، و « زهرة الاس » ط المطبعة الملكية بالرباط – ص 26 .

2) عبارة « الاستقصا » في ترجمة السلطان المولى عبد الله : « وبقي متداولا بين اهل المغرب الى ان وقع بيد الاشراف السعديين » – ط . دار الكتاب ، ج 7 ص 159 .

قال الشيخ المنساوي : وقد وقفت عليه حين امر السلطان المولى عبد الله بتوجيهه الى الحجرة النبوية ، وظهر لي ان تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر ، لبعد ما بينهما (3) » .

وقد اشتهر ايام الموحدين واواسط دولة المرينيين « المصحف العثماني » ، الذي يقال : انه احد المصاحف التي بعث بها الخليفة الثالث ، عثمان بن عفان — رضوان الله عليه — الى الامصار ، وكان بجامع قرطبة من الاندلس ، ثم نقله الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي الى مدينة مراكش عام 552 هـ / 1158م ، حيث استمر عند الموحدين موضوع تجلة واحترام ، الى ان صار اواخر ايامهم لبني عبد الواد بتلمسان ، ثم استخلصه منهم ابو الحسن المريني (4) .

ووهم الناصري (5) ، فذكر انه غرق في نكبة الاسطول المريني عام 750 هـ / 1349 م ، والواقع انه بقي على قيد الوجود الى اواخر ايام ابي عنان وبعدها ، حسب شهادة شاهد عيان ، وهو ابو اسحاق النميري (6) ، الذي يذكر عن موكب لابي عنان عام 758 هـ / 1357 م : انه تقدم بين يديه قبتان : الاولى فيها مصحف الخليفة عثمان بن عفان ، الذي هو اعظم ذخائر المغرب ، واشرف ما استقر بقصره المعجب المغرب ، ويوخذ من « المسند الصحيح الحسن » (7) : ان وجود هذه الذخيرة استمر حتى ايام ابي فارس عبد العزيز المريني الاول 767 — 774 هـ / 1366 — 1372 م ، فقد اكد هذا المصدر : « ان المصحف العثماني » استمر بقاؤه في دار ابي الحسن المريني وعلى ملك اولاده وفي خزائنهم ، يجرون فيه على المعتاد » ، ومعلوم ان ابن مرزوق كان يشتغل بتاليف المسند الصحيح الحسن ايام ابي فارس المذكور (8) ، ثم ها هو ابن خلدون يؤكد استمرار هذا

---

(3) « الاستقصا » في دولة الموحدين — ج 2 ص 130 ، هذا ويوجد بمعهد احياء المخطوطات العربية بالقاهرة فيلم لمصحف شريف بخط مغربي ، كتبه خديج بن معاوية بن سلمة الانصاري سنة 47 هـ بمدينة القيروان ، برسم الامير عقبة بن نافع الفهري « فهرس المخطوطات المصورة » ج 1 ص 1 — 2 ، فان كان هذا هو مصور المصحف المغربي الذي تحدث عنه فستظهر — جليا — حقيقة ملاحظة المنساوي ، ويتبين انه يعني ان تاريخ كتابته (47 هـ) سابق على تاريخ بناء القيروان الواقع عام 50 هـ حسب الاستقصا ج 1 ص 77 .

(4) ان الحديث عن هذا المصحف العثماني يتناول وصفه وتحقيق خطه ونسبته لعثمان ، ثم التحسينات التي افرغها عليه الموحدون ، ووصف هيئة بروزه في مواكبهم، وما قيل فيه من الاشعار ، مع ما طرا عليه من التنقلات ، وهيئة بروزه في المواكب المرينية ، وهذا ما يتطلب دراسة مطولة ، وساقوم بها — باذن الله سبحانه — مهما سنحت الفرصة ، غير انه من المرغوب فيه ان نذكر هنا طائفة من المصادر التي تحدثت عن هذا المصحف ، وهي :

1 — « تاريخ المن بالامامة » ، لابن صاحب الصلاة ، تحقيق الاستاذ الفاضل عبد الهادي التازي ، نشر دار الاندلس ، لبنان — ص 439 — 440 و 445 .

2 — « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » للمراكشي ، مطبعة السعادة بمصر — ص 166 .

3 — « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي ، ج 1 ، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط ، رقم 269 ، ص 77 — 85 ، و « ج » 5 ، خ ، ع ، د 2647 ، لوحة 552 وما بعدها ، مع الاحالة هنا على تراجم اخرى .

4 — « البيان المغرب » لابن غازي ، نشر معهد مولاي الحسن بتطوان ، ج 3 ص 471 — 472 .

5 — « فيض العباب » للنميري ، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط رقم 3267 — ص 85 .

« المسند الصحيح الحسن » لابن مرزوق ، خ ع ، ق 111 ، الباب 52 ، الفصل 2 .

7 — « العبر لابن خلدون » ، مطبعة بولاق بالقاهرة ، 1284 هـ ، ج 7 ص 82 — 83 .

8 — « نظم الدرر والعقيان ، في بيان شرف بني زيان » لمحمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي ، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط ، رقم 5210 ، ج 1 ورقة 51 .

9 — « نفح الطيب » للمقري ، المطبعة الميرية 1279 هـ ، ج 1 ص 287 — 293 .

10 — « الاستقصا » للناصري ط ، دار الكتاب ، ج 2 ص 126 — 129 .

(5) الاستقصا ج 2 ص 129 .

(6) « فيض العباب » ، المخطوط الآنف الذكر — ص 85 .

(7) الباب 52 ، الفصل الثاني .

(8) هذا يوجد في مواضع من الفصل السابع من الباب 55 .



خاتمة العشر الثاني من ربعة المرتضى الموحدي
خ . ع ، ج 658



خاتمة العشر التاسع من ربعة المرتضى الموحدي
مجلة هسبريس ، سنة 1954 م ، 3 – 4



صفحة من ربعة ابي زيان : الجزء الاول
خ . ع ، د 1330



صفحة من ربعة ابي زيان : الجزء الاول
خ . ع ، د 1330

الاثر الى زمن تاليف العبر، ويقول في صدد الحديث عنه: «وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين (8)»، وقد كان هذا المؤرخ اخر من تحدث عن بقاء هذا المصحف العثماني، وبعده ينقطع الخبر عنه بالمرة.

* * *

ومن الجدير بالذكر ان يكون عدد من ملوك المغرب وبعض رؤسائه يقتطعون من اوقات اعمالهم فترات، يشتغلون فيها بنسخ المصحف الشريف، او يتولون الاشراف على كتابته، وهكذا عرفت مصاحف مغربية من هذا الطراز، وكثرت في الفترة المرينية بصفة خاصة.

فهناك مصحف يقال انه بخط محمد المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، وقد كان دون المصحف العثماني في الحجم (9)، ومحلى بالفضة المموهة بالذهب، وكان يتقدم مصحف عثمان في المواكب الموحدية (10)، ويعتبر — الآن — ضائعا.

وياتي — بعد هذا — الربعة (11) التي خطها — بيمينه — ابو حفص عمر المرتضى، من اواخر الخلفاء الموحدين، وسنتحدث عنها بعد.

وفي العصر المريني ازدهرت هذه الظاهرة، فكان ابو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني اشرف على كتابة ربعة قرءانية رائقة الصنعة، وبعث بها هدية للمسجد الحرام بمكة المكرمة، صحبة ركب الحجاج المغربي عام 703 هـ \ 1304 م. (12)

وجلا في هذا الميدان ابو الحسن المريني، حيث نسخ بخط يده اربع ربعات قرءانية، وشرع في الخامسة فلم يتمها، ثم كتب بعضا منها — على التوالي — كل من ولديه ابيْ عنان وابي فارس الاول، وقد تحدث عن هذا في «المسند الصحيح» في باب على حدة (13)، وسنقتطف من فصلين منه في هذا الصدد، فقد جاء في الفصل السادس:

«كان داب امامنا رضي الله عنه: «ابي الحسن المريني» العكوف على نسخ كتاب الله، في الزمن الذي يخلو له من النظر فيما طوقه... وكان قد اكد عنده هذا العمل ما منحه الله تعلى من اجادة الخط المصحفي، وكان قد اخذه من كاتب وقته، المنفرد بتجويد هذا الخط في عصره: «التجلي»، وكان قد بلغ فيه الغاية، فتعلم منه اصوله حتى صار خطه يختلط بخطه، رحمة الله عليهما...

وجاء في الفصل السابع: كان — رضي الله عنه — قد كتب الربعة التي حبسها بشالة ابتداء، ولما ورد عليه كتاب صاحب مصر — حسبما قدمناه، وعزم على ان يبعث ام ولد ابيه حين توفيت والدته رضي الله عنهما، وكانت هذه بمنزلتها عنده — كتب هذه الربعة المدنية، برسم ان يوجهها الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم ذكر ما وجه برسم شراء الربع، برسم سدنتها والقراءة فيها، فلما اكملها في شهر ربيع الاول من ستة اربعين «يعني بعد سبعمائة»، جمع الفقهاء لقراءتها وتفقد ما تعذر من ضبطها، — وذلك حين تعين الركب المتوجه صحبتها — في القبة الكائنة بروض القائد هلال بضفة وادي سطفسيف شرقي تلمسان المحروسة، وكان تمام ذلك يوم الجمعة قبل الصلاة...

ولما حضرت ليلة المولد ضمن شعراء الحضرة هذا المعنى في قصائدهم المولديات، وكان مما استحسن

---

8) مكرر — العبر ج 7 ص 83.

9) في الذيل والتكملة ج 1، المخطوط السابق الذكر — ص 83: ان طول المصحف العثماني دون الشبر.

10) تاريخ المن بالامامة ص 439، وفي المعجب — ص 166 — انه كان يسير خلف المصحف العثماني، وهو المناسب.

11) في شرح دلائل الخيرات لابي حامد محمد العربي الفاسي: «ان المراد بالربعة صندوق مربع الشكل من خشب، مغشى بالجلد، ذو صفائح وحلق، يقسم داخله بيوتا بعدد اجزاء المصحف، يجعل في كل بيت منه جزء من المصحف، واطلاقها على المصحف مجاز»، وقد شا عاستعمال هذا الاطلاق الاخير في المصحف المكتوب في اجزاء والموضوع في ربعة، وسنجاريه في هذه الدراسة، ونخص اسم المصحف بالمكتوب جميعه في سفر واحد.

12) انظر عن هذه الربعة: محمد المنوني، «علاقات المغرب بالشرق في العصر المريني الول» — مجلة «دعوة الحق»، العدد الخامس، السنة الثامنة، ص 62 — 63.

13) الباب 55.

في ذلك قول الاستاذ الشهير ، ابي الحجاج يوسف الطرطوسي ، وعلق بحفظي من كلمته بيتان ، وهما :

يا مصحفا ما راى الراءون في زمن
شبها له مصحفا من نسخ سلطان
فضيلة مثلها في الدهر ما عرفت
من عهد عثمان الا لابن عثمان

ووجهت الربعة المذكورة ـ صحبة من تقدم ذكره في فصله ـ الى المدينة شرفها الله تعلى ... وهي ـ الان ـ مستقرة بالحرم الشريف النبوي ، أدام الله بركة الانتفاع بها ، واعان خدام المقام العلي المولوي العزيزي (14) ـ ايده الله ـ على التنبيه على تفقدها ، والازدياد من التحبيس عليها ، وعلى المكية والقدسية ، فبالانتفاع بالتحبيس عليها تدوم العناية بها .

وقد رايت بمكة ـ شرفها الله ـ المصحف الذي بعثه عمهم المولى ابو يعقوب بخط ابن حسنين ، وكان وجهه محلى بالذهب المنظوم بالجواهر النفيسة ، فانتزع ما عليه ، وبقي في « قبة الشراب » (15) يقرؤ فيه احتسابا ، وقد قرات فيه في اعوام ...

ثم نسخ « ابو الحسن » الربعة الكريمة التي توجه بها الفقيه ابو الفضل محمد بن عبد الله بن ابي مدين العثماني ، سنة اثنين واربعين وسبعمائة (16) ، واصحبها هدية حافلة ، وصلات لاهل الحرمين ، واشترى ما حبس عليها ، وحبس بفاس ربعا خاصا بها ، واسند النظر فيه لمن عينه كذلك ، وهو الان على ما هو عليه ، وهذه الربعة احوج لان يحبس على قراءتها، فان التي بالمدينة استقر على القراء فيها حبس بظاهرها، واولى ما صرفت اليه العناية اشتراء املاك بالشام او بالقاهرة برسم التحبيس عليها ، اجراها الله في صحف اعمال مولانا ابي فارس، وضاعف ثواب ذلك له .

ثم نسخ ـ رضي الله عنه ـ الربعة الكريمة التي توجه بها ابو المجد بن ابي عبد الله بن ابي مدين ، وعثمان بن يحيى بن جرار ، واصحبها ـ رضي الله عنه ـ كذلك هدية كبيرة ، وصلات للمجاورين جمة ، للمسجد الاقصى ، واستقرت به ، وذلك سنة خمس واربعين ، وحبس عليها كذلك .

ثم شرع في نسخة برسم الخليل ، فوصلنا الى تونس ـ حاطها الله تعلى ـ حين قدمنا صحبته ، ولم يبق منها الا عدة اوراق وبقية تذهيب وضبط ، وتقدمت بها من باجة الى تونس ، وشرعت في جمع المقرين لها وتقدم معي ابو القاسم بن ابي طلاق ، فجمعنا الناس لتكملة الضبط ، وكان احمد الرياحي المعروف بابن الزمال قد خرج بالركب ، وكنت تعينت لصاحبتها ، فلما طال فيها العمل وضاق الوقت لتوجه الركب ، واستقر مولانا ـ رضي الله عنه ـ بتونس ، وقعت المفاوضة في ذلك ، فاشار ـ حينئذ ـ بعض من سمح الله له ورحمه ، بتاخير توجهها في الوقت حتى تتعين هدية من تونس ويستعد لذلك بركب يناسب ، وتعلل بضيق الوقت عن توفية الغرض ، ولم يزل يبذل في ذلك جهده حتى وقع العزم على ذلك ... فبقيت بتونس الى ان استخلص منها المولى ابو عنان ما استخلص ، وتمم ما تمم ، وتعرفت الان ان اشتغال مولانا المؤيد ابي فارس بتكميلها (17) » .

هذا كلام ابن مرزوق عن هذه الربعات المرينية الموقوفة على المساجد الثلاثة المعظمة وعلى شالة ، وعددها خمسة باعتبار ربعة يوسف المريني في العد ، فاذا اضيف لها ربعة مقام الخليل ـ التي لم تكمل ـ يصير المجموع ستة ، ولا يعرف منها اليوم سوى ربعة المسجد الاقصى (18) ، حسبما نذكره بعد ، كما سنتحدث عن مصحف خزانة ابي العباس احمد المنصور السعدي ، والمصحف المكتوب برسم الامير العلوي المولى علي حفيد السلطان المولى اسماعيل .

* * *

وقد وازى هذه العناية الملكية بكتابة القرءان الكريم ، اهتمام شعبي تمثل في نبوغ خطاطين مصحفيين ، ونذكر منهم على سبيل المثال :

---

14) يقصد السلطان المريني عبد العزيز الاول .

15) يذكر ابن بطوطة ان قبة الشراب تلي قبة زمزم ، وبابها الى جهة الشمال ، وبها اختزان المصاحف الشريفة والكتب التي للحرم الشريف ـ « تحفةالنظار » ، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر عام 1377 هـ ـ ج 1 ص 84 .

16) هذ الربعة بعث بها ابو الحسن للحرم المكي المعظم .

17) لعل تكميل هذه الربعة هو الذي عناه ابن الخطيب لما ذكر عن ابي فارس هذا اشتغاله بانتساخ القرءان الكريم ، حسب « رقم الحلل وشرحها » ، ط ، تونس ـ ص 86 و 107 .

18) لايزال هناك احتمال بوجود هذه الربعات الضائعة او بعضها بالاستانة ، حيث صار اليها عدد من مخطوطات الحرمين الشريفين .

1 ـ محمد بن حريـــز المعـــروف بابن تاخميسيت الفاسي المتوفى عام 608 هـ / 1212 م ، كان لـه خط حسـن ، يكتب به المصاحف القرءانيـــة ، ويهديهـــا ـ احتسابا ـ لمن يراه اهلا لها (19) .

2 ـ احمد بن حسن ، وهو الذي كتب وزخـرف ربعـة يوسف المريني الانفة الذكـــر (20) .

3 ـ خطـــاط محسن يسميـــه ابن مـــرزوق « بالنجلي » ، وقد قرانا عنه ـ ءانفـا في « المسنـــد الصحيح الحسن » ـ انه كان منفردا بتجويد الخـط المصحفي في عصره ، وعنه تعلمه السلطان ابو الحسن المرينـــي .

4 ـ محمد بن ابي القاسم القندوسي الفاســـي ، المتوفى عام 1278 هـ / 1861 م ، قال في ترجمته مـن سلوة الانفاس (21) : « وكان له خط حسـن جيد ، كتب به عدة من الدلائل ، واخبرت انه كتب مصحفـــا في اثني عشر مجلدا قل ان يوجد نظيره في الدنيـــا » ، وسنتحدث ـ بعد ـ عن هذا المصحف الذي يمتـــاز بفخامـــة الخـــط .

5 ـ محمد بن الحاج محمد الريفي التمسماني ، الصويري الاستيطان ، المتوفى بطنجة عام 1313 هـ / 95 ـ 1896 م ، كان ـ على عكس سابقـــه ـ يكتب المصاحف وغيرها بخط دقيق على ورق رقيق ، فينجز منتسخاته في حجم صغير جدا ، يسعه داخـل اليد ، وكان له خط حسـن (22) .

6 ـ ومن الجدير بالذكر ان المراة المغربية ساهمت ـ بدورها ـ في كتابة المصحف المغربـــي ، ومن ذلك سيدة فاسية هي : الشريفة فاطمة بنت علي بن محمد المنالي الزبادي ، اخت الشيـــخ عبد المجيد الزبـــادي الشـهير ، والمتوفاة في عام 1142 هـ / 1730 م ، فقـد كتبت بخطها من القـــرءان الكريم ، ما يربـــو عـــن 35 مصحفـــا (23) .

7 ـ ويوجد بالمكتبة الملكية بالرباط ـ تحت رقـم 4225 ـ : مصحف شريف خطته انامل سيدة بدوية ، تسمي نفسها عائشة بنت الحاج مبارك الشلح التكي ، وخطها بدوي واضح متوسط مشكول ملون ، وقد جاء في هامش ءاخر المصحف بمداد مغاير : عـام 1237 ، وهو اشارة لتاريخ الانتســاخ ، حيث انه يوجد ـ ايضا ـ منتسخان اثنان بخط نفس الناسخة ، ويحمل اولهمـا تاريخ صبيحة الجمعة 22 جمدى 1 عـــام 1237 هـ ، نفس المكتبة رقم 4087 ، كما يحمل ثانيهما تاريخ يوم الاحد «22» ذي القعدة عام 1245 هـ ، المكتبة المذكورة، رقم 5061 ، وهي تسمي نفسها في هـذا المخطـــوط الاخير هكـــذا : عائشة بنت مبارك بن احمد نجـــل الحسن الشيخ ، التكي الفشي الحسنوي .

* * *

وهـــذه مظاهر اخرى لهذه العنايـــة بالمصحف الشريـــف :

1 ـ فقد اهتم المغاربة بوقف المصاحف وانشـاء بعض الخزائن برسمها ، واول ما عرف من هذا ربعات قرءانية كانت موضوعة في مستودع بجامع القرويين بني ايام الخطيب بـــه ابي محمد يشكـــر بن موسى الجراوي ، المتوفى عام 598 هـ / 1202 م (24) ، ولما بنى عمر المرتضى الموحدي جامـــع السقاية بمراكش : « جامع علي بن يوسف » . كان به خزانة للمصاحـــف الموقوفة ، وهي عبارة عن بيت قبلي الجامع متصـــل بالمحـــراب (25) ، ثم انشا ابو عنـــان المريني خزانـــة المصاحف بجامع القرويين بفاس ، يسرة المستقبـــل للمحراب ، وقد اورد ذكـــرها في « جنـــى زهـــرة الآس » (26) في الفقرة التاليـــة :

---

19) محمد المنوني : « العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين » ـ ص 273 .

20) انظر : محمد المنوني : « علاقات المغرب بالشرق في العصر المريني الاول » مجلة دعوة الحق ، العـــدد الخامس ، السنة الثامنة ـ ص 62 .

21) ج 3 ص 40 ـ 41 .

22) « زهـــر الآس في بيوتات فاس » خ ، ع ، كـ 1281 ـ ج 1 ص 369 .

23) هذا ينقله البعض عن كناشة للشيخ عبد المجيد الزبادي المذكور .

24) « روض القرطاس » ص 43 و 47 .

25) هذا يوخذ من وقفية مكتوبة على الجزء الرابع من ربعة المرتضى الموحدي المحفوظ بمتحف الأوداية بالرباط ، انظـــر عـــن نصهـــا :
Deverdun et Mhammed Ben Abdeslem Ghiati : « Deux Tahbis Almohades » milieu du XIIIᵉ S. J.C. - Hespéris, année 1954, 3ᵉ-4ᵉ trimestres - p.p. 411 à 423.

26) ص 76 .

« واما خزانة المصاحف التي جعلها مولانا المتوكل ابو عنان – رحمه الله – في قبلة صدر هذا الجامع ، فانه صنعها لما سهله على الناس من تلاوة القرءان ، في الوقت المتخير من الازمان ، بأن اعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية ، الجميلة السنية ، واباحها لمن اراد القراءة فيها ، بعد ان كتب على كل جزء منها بخط يده بتوقيفها مدى الاعوام ، والليالي والايام ، وعين لها من ينفرد باخراجها من هذه الخزانة وابرازها ، وردها لصيانتها في موضعها واحرازها ، وذلك عند الفراغ من حاجات الناس اليها ، فلا يبدل ذلك ولا يغير الى أن يرث الله الارض ومن عليها ، واجرى له جراية ، واوسعه كرامة ورعاية ، وتم عملها في شهر شوال ، سنة خمسين وسبعمائة » .

ولا تزال – حتى الآن – وقفية ابي عنان تتوج هذ الخزانة في الصيغة التالية :

« الحمد لله وحده ، امر بعمل هذه الخزانة السعيدة مولانا امير المومنين ، المتوكل على رب العالمين ، عبد الله فارس ، ايد الله امره ، واعز نصره ، بتاريخ شهر شوال ، سنة خمسين وسبعمائة ، رزقنا الله خيرها (27) » .

فهذه اربع مراكز لوقف المصاحف ، وسواها فقد كان يوجد بشالة مصاحف محبسة على مشاهد الملوك المرينيين بها (28) ، وقد ساهمت المراة المرينية في هذا المشروع ، حيث يوجد بمكتبة القرويين بفاس وقف سيدة مرينية للجزء 17 من ربعة قرءانية في 30 جزءا (29) .

2 – وهذا نموذج ءاخر لهذه العناية المغربية بالقرءان الكريم ، فقد سجل ابن الخطيب (30) : ان ديار رؤساء هنتاتة بجبل درن ، كانت تزين بيوتها بمعلقات تتخللها المدة من مصاحف القرءان الكريم، مناطة بمعاليق حريرية فاخرة ، وهذا تقليد اسلامي عام، حيث يفضل المهتمون بالامر ان يعلق المصحف في صدر المجلس ، على حائط نظيف (31) .

3 – يمتاز المصحف المغربي – في قراءة نافع – بوقف خاص ، وهو من عمل مغربي : هو محمد بن ابي جمعة الهبطي الصماتي ، المتوفى بفاس عام 930هـ(32)\23–1524م.ثم استمر عليه قراء المغرب حتى الآن ، وقد وقع فيما قيد عن الهبطي من هذا الوقف بعض كبوات ، ناقشه فيها عالمان مغربيان: اولهما : محمد المهدي بن احمد بن علي بن ابي المحاسن الفاسي الفهري المتوفى عام 1109 هـ / 1698 م (33) ، وله في هذا الصدد رسالة سماها : « الدرة الفراء في وقف القراء » ، تحدث عنها محمد بن عبد السلام الفاسي الفهري المتوفى عام 1214 هـ / 1799 م (34) ، واقتبس فقرات من اولها (35) ، كما وضع – بدوره – تاليفا مستقلا في الموضوع (36) ، اثبت قسما مهما منه في كتابه « المحاذي » .

❋ ❋ ❋

وهذه بضعة مصاحف نموذجية ، جلها بخطوط مغربية ، وتحفظ بالمغرب او خارجه ، وسنستعرضها في شيء من الايجاز ، مع الاحالة على المصادر التي عرفت بها او اجرت ذكرها :

---

27) هذه الصيغة كتبتها – مباشرة – من اللوحة المنقوشة عليها ، ضحى يوم الاحد 11 شوال عام 1384 – 14 يبراير سنة 1965 ، ووردت في « جذوة الاقتباس » ص 46 ببعض مخالفة .
28) المعيار للونشريسي ج 7 ص 11 .
29) « قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامعة القرويين بفاس ، بمناسبة مرور مائة والف سنة على تاسيس هذه الجامعة » – ص 4 .
30) الدكتور احمد مختار العبادي : « مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس » ، مطبعة جامعة الاسكندرية 1958 – ص 127 .
31) الفتاوي الحديثية لابن حجر الهيتمي ط . المطبعة الجمالية بالقاهرة عام 1329 هـ – ص 167 .
32) ترجمته ومراجعها في سلوة الانفاس ج 2 ص 67 – 70 .
33) ترجمته ومراجعها في المصدر الاخير ج 2 ص 316 – 318
34) ترجمته ومراجعها في نفس المصدر ج 2 ص 318 – 319 .
35) « اتحاف الاخ الاود المتداني ، بمحاذي حرز الاماني ووجه التهاني » ، مخطوط : خ ، ع ، ك 312 – ص 83 .
36) سلوة الانفاس ج 2 ص 67 .

1 ــ ربعــة المرتضـــى الموحـــدي

بخط ابي حفص عمر المرتضى بن السيد ابــي ابراهيم بن يوسف بن عبد المومن ، المتوفـــى عـــام 665 هـ / 1267 م ، وهي تتالف من عشرة اجزاء ، في كل جزء ستة احزاب ، وكانت توجد تامة بمكتبة ابــن يوسف بمراكش الى عام 1149 هـ (37) \ 36ـ1737م ثم تفرقت شذرمذر ، والمعروف منها ــ لحد الآن ــ خمسة اجزاء ــ 1 ــ 2 شذرات من الجزاين : الاول ، الثالثبمكتبةابن يوسف (38)بمراكش تحت رقم 432

3 ــ الجزء الثاني ، بالخزانة العامـــة بالرباط تحت رقم ج 658 ، وهو مبتور الاول والاخر بنحــو ورقتين ، ويبتدىء هكذا : « بالتورية قاتلوها ان كنتم صدقين » الآية 93 من سورة ءال عمران ، ثم ينتهــي عند : « ولو كانوا يومنون بالله والنبيء وما انزل اليــه ما اتخذوهم اولياء ، ولكـــن كثيرا منهم فسقون » ، الاية 83 من سورة المائدة ، وقد ذيل بالخاتمة التالية :

« كمل العشر الثاني من الكتاب العزيز ، بحمد الله عز وجل وحسن عونه ، وذلك يوم السبت السابع والعشرين لجمادى الثانية ، عـــام اربعـــة وخمسين وستمائة ، بحضرة الموحدين اعزهم الله تعالى : مراكش، حرسها الله تعالى واهلها ، وكتبه بخط يده الفانيـــة : عبد الله تعلـــى » .

وهنا تقف كتابة الصفحة الاخيرة من هذا الجزء ، وضاعت الورقة التي تليها ، ومع ضياعها نستطيـــع الجزم بان هذا الجزء هو من نفس الربعة التي نتحدث عنها ، استنادا للمماثلة الكاملة بين كتابته وخط القطع الاخرى المعروفة سابقا ، ونظرا للاتفاق الواقع فى عـــام الانتـــاخ : « 654 » مع الاجزاء الاخرى ، وللتقارب مع تاريخ الجزء الاول : 20 جمادى الثانية 654 ، والجـــزء الثالث 6 رجب 654 ، مع التشابه فى بعض ملامـــح صيغة الكلمة الختامية ، وقد غاب هذا الجزء عن علــم الذين درسوا هذه الربعـــة .

عدد اوراقه 72 ، مسطرة 9 ، مقيـــاس 290 / 225 ، مرمم الاطراف باوراق جديدة .

4 ــ 5 ــ الجزءان الرابع والتاسع ، وقد كانــا ــ من زمن ــ معروضين فى متحف الاودابة بالرباط (39)

2 ــ ربعــة ابــي الحسن المرينـــي

وهي ــ ايضا ــ بخط ابي الحسن علي بن ابــي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، المتوفى عام 752 هـ / 1351 م ، كتبها برسم المسجد الاقصـــى بالقدس الشريف ، عجل الله ــ سبحانه ــ بخلاصه ، وتحرير سائر الاراضي المغتصبة ، وهي الوحيدة التي لا تزال معروفة من بين الربعات التي خطها ــ بيده ــ هذا السلطان ، وتحفظ اليوم « او توسر » بالمتحـــف الاسلامي بالقدس الشريف ، وقد كانت تتالف من 30 جـــزءا ضاع منها خمسة اجزاء ، فعوضت باجـــزاء مستحدثة بخط احد المغاربة عام 1221 هـ (40) .

3 ــ مصحف ابن مرزوق الجـــد

وهو ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بـــن ابي بكر بن مرزوق ، العجيسي التلمساني ، المتوفـــى بالقاهرة عام 781 هـ / 1379 م ، وقد وقف عليه المقري بتلمســـان ، وقال عنه فى نفح الطيب (41) اثنـــاء ترجمة ابن مـــرزوق :

« ولقد رايت مصحفا بتلمسان عند احفـــاده ، وعليه خطه الرائـــق الذي اعرفه ... » ، ومن حسن الحظ ان هذا المصحف صار الى المغرب ، وهو محفوظ بمكتبة المعهد العالي بتطوان ، حيث وقفت عليه هنـــاك عشية الثلاثاء 17 رجب عام 1378 هـ الموافق 27 يناير سنة 1959 م ، وهو بخط اندلسي عتيـــق ، على رق الغزال ، فى حجم متوسط ، مربع ، وكانت كتابته بمدينة بلنسية من الاندلس ، عام 559 هـ .

---

37) محمد المنوني : « العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين » ــ ص 287 ــ 288 .

38) انظـــر عن شذرات الجزئين : محمد المنوني : « معرض المخطوطات العربية بمكنـــاس » مجلـــة « تطـــوان » ، العددين : 3 ــ 4 ، ص 97 ــ 98 .

39) انظـــر عـــن هذيـــن الجزئيـــن الرابـــع والتاســـع :
Deverdun et Mhammed Ben Abdeslem Ghiati : « Deux Tahbis Almohades » milieu du XIII° S. J.C. - Hespéris, année 1954, 3°-4° trimestres - p.p. 411 à 423.

40) انظر عن وصفها : عبد الله مخلص : « المصحف الشريف » صحيفة « الفتـــح » ، السنة الخامسة ، العـــددين : 237 و 238 .

41) ط . المطبعة الميرية بمصر عام 1279 هـ ــ ج 3 ، ص 217 .

4 ـ ربعــة ابي زيــان محمد الثانـــي

وهو ابن ابي حمو موسى الثاني الزياني سلطـان المغرب الاوسط ، والمتوفى عـام 805 هـ / 1402 م ، الموجود منها النصف الاول بالخزانة العامـة بالرباط تحت رقم 1330 ، مكتوب على رق الغزال بخط مغربي جميل ، ومحلى بالذهب عند اول كل سورة وعلى راس كل ءاية ، وجميع ما فيه من اسماء الله الحسنى مرقوم بالذهب ، وهو بخط ابي زيان نفسه ، كتبه بتلمسان عام 801 هـ / 98 ـ 1399 م ، وجاء في ءاخره :

« كمل الجزء الاول من الربعة المباركة ، نسخـه ـ بيده ـ امير المسلمين ابو زيان محمد ، بحضرتـه مدينة تلمسان ، أمنها الله تعالى ، في سنة واحد وثماني مائة ، عرف الله خيره (42) .

5 ـ مصحـف المنصــور السعــدي

مكتوب برسم خزانة ابي العباس احمد المنصور بالله السلطان محمد الشيخ السعدي ، المتوفى عـام 1012 هـ / 1603 م ، ووافق تمامه يوم الاربعاء 13 ربيع الثاني ، عام 1008 هـ / 1599 م ، بجامع الديـوان الكريم ، من قصور الامامة العلية ، على حـد تعبيـر الخاتمة التي ذيل بها في زخرفة فائقة ، حيث ورد فيها ـ ايضا ـ ان المصحف الشريف منمق الكتابة بالمـداد المقام من فائق العنبر ، المتعاهد السقيا بالعبير المحلوك بمياه الورد والزهر ، وتحفظ هذه الذخيرة المغربية في القسم العربي من مكتبة الاسكوريال باسبانية ، تحت رقم 1340 من قائمة ا ، لافي بروفنسال (43) .

6 ـ مصحـف الامير علي العلــوي

مكتوب برسم الامير العلوي علي حفيد السلطان المولى اسماعيل ، بخط مغربي عـام 1142 هـ / 29 ـ 1730 م ، محلى ومنقوش بالذهب والالـوان (44) ، وهو معدود من ذخائر دار الكتب المصرية ، ومحفـوظ بهـا تحت رقـم 25 .

7 ـ ربعــة القندوســي

بخط محمد ابي القاسم القندوسي سابق الذكر ضمن الخطاطين المصحفيين ، وهي ربعة كبيرة الحجم ، فخمة الخط ، مجزاة الى 12 جزءا ، في كل جزء خمسة احزاب ، وقع الفراغ من كتابتها يوم الجمعة ءاخر شوال عـام 1266 هـ / 1850 م ، برسم السفير المغربـي الحاج ادريس بن الوزيـر محمد ابن ادريـس العمروي الفاسي (45) ، وقد صارت هذه الربعة الى المكتبـة الزيدانية بمكناس ، حيث تحمل في الفهرس الجديـد رقـم 3595 (46) .

8 ـ مصحف مطبوع بالمطبعة الحجرية الفاسية

وهو اول مصحف وقع طبعه بالمغرب ، وكـان الفراغ منه عام 1296 هـ \ 1879 م ، بمطبعـة الحاج الطيب بن محمد الازرق الفاسي (47) .

الرباط ـ محمد المنونــي

---

42) انظـر :
E. Lévi Provençal : « Note sur un Coran royal du XIV° siècle » - Hespéris - Année 1921 - 1er trimestre - p.p. 83-86.
مع : ب، س، علوش وعبد الله الرجراجي :فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزنة العامـة برباط الفتـح ـ ج 1 ص 2 .

43) انظـر عن وصفه :
E. Lévi Provençal : « Manuscrits arabes de l'Escurial » - Imprimé à Paris, 1928 - p.p. 34-36.

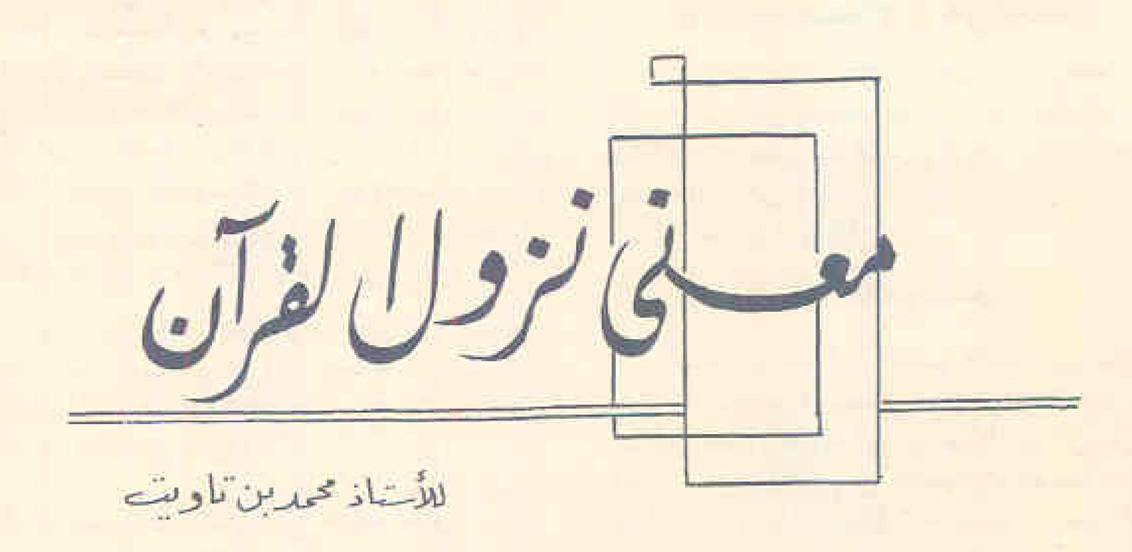
44) فهرس دار الكتب المصرية ج 1 ص 2 .

45) ترجمته في « اتحاف اعلام الناس » لابن زيدان ج 2 ص 32 ـ 41 ، مع « فواصل الجمان » لمحمـد غريـط ص 142 162 .

46) انظر : محمد المنوني : « معرض المخطوطات العربية بمكناس » مجلة « تطـوان » ، العددين : 3 ـ 4 ـ ص 98 ـ 99 .

47) محمد المنوني : « الطباعة الحجرية الفاسية » ، مجلـة « تطـوان » العـدد 10 ـ ص 147 .

ملاحظـة ، الموافقات بين التاريخين مأخـوذة مـن :
Tables de concordance des ères chrétienne-éthégirienne - Troisième édition - Editions Techniques Nord-Africaines



للأستاذ محمد بن تاويت

اختلف العلماء فى معنى نزول القرآن ، فمنهم من يقول : خلقه الله وهذا — طبعا — ممن يقولون بخلق القرآن ...

ومنهم من يقول بمعنى الاعلام ، وظاهر ان هذا ممن يقولون بازلية القرآن .. اما ابن تيمية فيقول : ان ليس معناه الا النزول الحقيقي الذي هو من اعلى الى اسفل وينكر أن يكون ورد لفظ النزول او الانزال بغير هذا المعنى . ولهذا فهو يخرج كل ما يوهم وروده بغير هذا المعنى مخرجا يجتهد فيه كثيرا ويبذل فيه من العناء والتكلف شيئا غير قليل ... (الرسائل) وهكذا نرى ابن تيمية يقرر النزول على حقيقته السالفة حتـــى فى الحديث الذي يقول : ان الله ينزل الى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان أو ما معناه ، فلقد اخبر ابن بطوطة فى (رحلته) انه حضره مرة وهو يخطب على منبـــر الجامع (يعني جامع دمشق) فكان من جملة كلامه ان قال : ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من درج المنبر ... !

قال ابن بطوطة وكان لهذه القولة وامثالها ما حمل الناصر (يعني ابن قلاوون) على سجنه بالقلعة حتى مات ..

والذي يظهر لي أن انزال القرآن على معنــاه اللغوي الذي قرره ابن تيمية : من السماء الى الارض بدليل ان النبي صلى الله عليه وسلم كان ينتظر الوحي من السماء كما وقع فى فترة الوحي وكما وقع فى تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة : قد نرى تقلـــب وجهك فى السماء ... وأما قوله : وانزلنا الحديد فالمتبادر منه (خلقنا) وفى تفسيره بغير هذا تكلف فالنتيجة أن النزول فى القرآن وفى الحديث ورد بمعنى النزول من فوق الى اسفل وورد بغير ذلك مثل : خلق ، والهم .. وهل هو حقيقي فيهما او حقيقي فى الاول فقط مجاز الباقي فى الظاهر الاخير : ففي القاموس يقـــــول : النزول الحلول . وفى الصحاح نحوه ..

وأما القول بخلق القرآن فمسالة من امهـــات المسائل الدينية والمباحث الكلامية اثارها المسلمون فى ايام المامون او اثارها المامون ولم يال جهدا فى حمل العلماء على القول بأن القرآن مخلوق ونال المخالفين له شر عظيم ...

وللالوسي فى الجزء الاول من تفسيره تحقيـــق فيها انتهى الى دحضها وابطال القول بخلق القرآن ...

وأما مسألة ، ازلية القرآن فالتحقيق ان الازلي انما هو المعاني ، لا الالفاظ ، فهي حديثه لا ريب وعلى ذلك فاذا قلنا مثلا : يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله .. الخ ، ان هذا كلام الله وهو طبعا ازلي ، فمعناه ان معنى هذه الالفاظ كلام الله .

ونظير هذا : الحاكم اذا اخبرنا بحكم وقال هذا قول الملك فمعناه ان هذه الاوامر او هذه النواهي هي مدلول كلام الملك لا ان الالفاظ هي نفسها كلامه .

وللعلامة بناني فى مبحث الدلالة قول فصل فى هذه المسالة . (شرح السلم) وعلى ذلك فهل الالفاظ لجبريل او للنبي ؟ هذا سؤال يجيب عنه من يبحث فى الحديث : انزل القرآن على سبعة احرف .

ما هو اول ما نزل من القرآن

وماهو آخر ما نزل ؟

اختلف العلماء فى الاجابة عن هذا الســـؤال اختلافا شديدا ففي الاتقان :

ان منهم من قال : ان اول ما نزل : اقرا باسم ربك وهذا هو الصحيح (كما فى كتب السير والحديث) ومنهم من قال يا ايها المدثر ، ومنهم من قال الفاتحة ، ومنهم من قال بسم الله الرحمن الرحيم ومنهم من قال غير ذلك ..

وكذلك الشان فى آخر ما نزل فعن البراء بن عازب يستفتونك .. وعن ابن عباس آية الربا (يا ايها الذين آمنوا لا تاكلوا الربا ..) وعنه وعن غيره غير ذلك من الاقوال ... اما المشهور فى كتب السير فهو: اليوم اكملت لكم دينكم.. ولقد اخرج مسلم عن ابن عباس انه سورة اذا جاء نصر الله .. الخ ولقد حاول القاضي ابو بكر الباقلاني ان يوفق بين الروايات المتضاربةفقال: ان كل ما فى امرها ضرب من الاجتهاد وغلبة الظن فكل يخبر بحسب ما علم ... ولكن حل هذا المشكل يتاتى على هذا الوجه اذا لم تختلف الروايات وتتعدد عن شخص واحد كما حصل عن عبد الله بن عباس فقد روى عنه ما ينيف على اربعة اقوال متناقضة ... وحينئذ فكيف يتطرق فيها ما ذكر القاضي ؟ ايقال ان ذلك ايضا بحسب ما كان يتجدد من حفظه فى السؤال بعدالسؤال؟ أظن أن هذا بعيد ...

ما هي اسباب النزول ؟

قال الجعبري : ان نزول القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداء (يعني من غير سبب) وقسم نزل عقب واقعة او سؤال ..

ونحن ندرس هذا القسم الثاني معتمدين فىذلك على استقراء ما ورد فى القرآن والسيرة . ولم ارجع فى هذا الاستقراء اليمرجع لاني لا اعرفه (انظر الخضري!) واسباب النزول كثيرة : منها :

1 — حادثة تحدث فلا يتبين وجه الصواب فيها فتنزل الاية فى شانها ، اما مبينة حكمها كحادثة الرفث ليلة الصيام وكحادثة المخلفين الثلاثة واما مبينة وجه الحق فيها كحادثة الافك وانه كذب وزور .. .

2 — ومنها قول باطل يقوله كافر او ضعيف الايمان فتنزل الاية رادة عليه مثل : وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا .. الخ ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم .. الخ .

3 — ومنها سؤال يوجه الى النبي صلى الله عليه وسلم كان يسال عن الخمر والميسر فيجيب القرآن : فيهما اثم كبير ... الخ

4 — ومنها رغبة النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك كمسالة تحويل الكعبة : قد نرى تقلب وجهك فى السماء .. الخ .

5 — ومنها التفسير لما اشكل على بعض القراء كالخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر .

6 — ومنها امر يجتهد فيه النبي صلى الله عليه وسلم فلا يصيب فتنزل الاية او الاي عاتبة :

عفا الله عنه لم اذنت لهم .. الخ ما كان انبيء ان يكون له اسرى .. الخ ، عبس وتولى .. الخ (والصحيح ان النبي قد يجتهد ويخطيء ولكنه لا يقر على خطئه كما هنا ...)

7 — ومنها ان يخفيالنبي صلى الله عليه وسلم امرا فى نفسه يريده مخافة اقوال الناس فتنزل الاية : واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسكعليك زوجك .. الخ .

او يتورع من امر احل له فتنزل الآية عاتبة : يـــا أيها النبيء لم تحرم ما احل الله لك .. الخ(وجائـــز للانسان أن يمتنع او يتورع من حلال اذا لم يكن فى ذلك مجابهة للتشريع ومحل العتاب فى الآية انما هـــو فى الحقيقة ان حرم النبي ذلك ابتغاء مرضاة ازواجـــه ومعلوم فى الاصول ان الكلام اذا قيد بقيد فروح الكلام هو ذلك القيد ...

والمحرم انما هو تحليل ما حرم او تحريم ما حلل عنادا : قل من حرم زينة الله .. الخ ، قل لا أجد فيما اوحى الى محرما .. الخ .اما لغير عناد كامتناعه صلى الله عليه وسلم من اكل الضب فجائز ...)

ما فوائد معرفة أسباب النزول ؟

فوائدها كثيرة منها :

1 — معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم .

(وذلك ليتأتى القياس فيما وجدت فيه تلك العلل المتشابهة فالتشريع والحكم كما يقولون يدور مع العلة وجودا وعدما ..)

2) تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب .

(وقد اختلف الاصوليون فى ذلك والاصح عموم اللفظ لا خصوص السبب) .

3 — ومنها ان اللفظ قد يكون عاما ويقوم الدليل على تخصيصه فاذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته فان دخول صورة السبب قطعي واخراجها بالاجتهاد ممنوع كما حكى الاجماع عليه القاضي أبو بكر فى التعريف .. ولا التفات الى من شذ فجوز ذلك كما حكاه فى الاتقان .

مثلا : الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا .

فى هذا المثال تضمنت الآية مع القول المتوعد عليه (باللعن) المقيد الامر بمقابلة المشتمل على اداء الامانة والمناسبة تقتضي دخول ما دل عليه الخاص فى العام : ان الله يامركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها ...

4 — ومنها الوقوف على المعنى وازالة الاشكال الذي قد يأتي من نحو الاشتراك . لهذا قال الواحدي : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها .. ونحو هذا قاله ابن دقيق العيد وابن تيمية .. فمثلا اذا قرأنا : نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم ، ووقفنا على مجرد دلالة (انى) وقعنا فى الحيرة والاشكال : لان انى تكون بمعنى حيث (اي حيث الاطلاق لا حيث التقييد) وتكون بمعنى كيف .. ولكن لو رجعنا الى سبب النزول وهو أن اليهود كانوا يقولون ان الرجل اذا جامع اهله على جنبه مثلا فان المولود يخرج احول . وأن القرآن رد عليهم : اذا رجعنا الى سبب النزول فهمنا ان (انى) هنا بمعنى كيف لا حيث . وكذلك لا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب.

فاذا لم ترجع الى ابن عباس ليبين لنا سبب النزول — وأن اهل الكتاب سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه وفرحوا بذلك — فاننا نرتبك .

5 — ومنها معرفة اسم النازل فيه الآية وتعيين المهم فيها .

ولقد قال مروان فى عبد الرحمن بن ابي بكر انهالذي انزل فيه : والذي قال لوالديه اف لكما .. الخ فردت عليه عائشة وبينت له سبب نزول الآية .

وقد يكون من فوائد معرفة السبب معرفة المتقدم من المتاخر فيكون هذا مقيدا او مخصصا او معمما او ناسخا اذا قلنا : ان المتاخر يقيد أو يخصص او يعمم الاول ...

والجهل بسبب النزول كثيرا ما ينجم عنه آراء باطلة من ذلك ان عثمان ابن مظعون وعمرو بن معدى كانا يقولان بحل الخمر احتجاجا بقوله : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا .. الخ ولو علما سبب النزول لما تورطا فى هذا الراي الفاسد.

6 — ومن فوائده عند الشافعي دفع توهم الحصر فى قوله تعالى : قل لا اجد فيما اوحى الي محرما على طاعم يطعمه .. الآية قال : لان الكفار لما أحلوا ما حرم الله وحرموا ما احل الله وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال : لا حلال الا ما حرمتموه ولا حرام الا ما حللتموه - والغرض المضادة لا النفي والاثبات على الحقيقة فكأنه قال تعالى : لا حرامالا ما حللتموه منالميتة والدم ولحم الخنزير وماأهل لغير الله به ولم يقصد حل ما وراءه ؛ اذ القصد اثبات التحريم لا اثبات الحل ...

هكذا قال الشافعي . أما مالك فيقول بالحصر الحقيقي فى هذه المذكورات .

ما السر فى نزول القرآن منجما ؟

السر فى ذلك أمور منها :

1 — ما اشار اليه الله فى قوله : لنثبت به فؤادك.

2 — الاعجاز المتكرر بتكرر الحادثات وهذا يؤخذ من قوله : ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا .

3 — التدريج فى التشريع كما حصل ذلك فى تحريم الخمر ليكون ذلك ابلغ اثرا فى الامتثال .

4 — تسهيل حفظه فى الصدور .

5 — تمرين النبي صلى الله عليه وسلم على امتثال كل الاوامر فلقد قال الله له : انا سنلقي عليك قولا ثقيلا !!

قال الالوسي : وكان شاقا ثقيلا عليه أكثر من غيره لانه صلى الله عليه وسلم مأمور بتحمل هذه الاوامر وتحميلها ...

وكذلك كما في البخاري عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يلاقي من الوحي شدة حتى ان جبينه صلى الله عليه وسلم كان يقطر عرقا في اليوم الشديد البرد ... ولا أظن أن تلك الشدة التي كان يلاقيها الا لخوفه صلى الله عليه وسلم من ذلك العبء الثقيل الذي كان يلقى على عاتقه .. وقد وصفه الله بأنه ثقيل..

6 — وان لا يضيق به المسلمون الاولون فيقع لهم ما وقع لبني اسرائيل ويصبحوا به كافرين .. ولامر ما نهاهم الله عن ان يكثروا من الاسئلة اما نحن فلم نضق به لاننا نشأنا في الاسلام وورثنا الدين عن آبائنا ولا يخفى ما للبيئة والوراثة من اثر ..

7 — ان يكون المسلمون الاولون على خشية من ان يرتكبوا ما حرم الله لانهم حينئذ لا يأمنون ان ينزل الله فيهم قرآنا يندد بهم ويفضح سرائرهم وفعلا فقد نزل القرآن في بعضهم كما نزل في بعض المنافقين الذين كانوا يظهرون الاسلام .. وهذا لاشك انه يجعلهم مشفقين كثيرا من ان ينتهكوا حرمات الله فالآية تنزل فيهم اشد عليهم من وخز الابر واقسى من التقلب على الجمر ، بل ان المشركين انفسهم كانوا يشفقون من أن تنزل فيهم آية لانهم على الاقل يعتبرونها هجوا من النبي لهم فلقد يروى أن امرأة ابي لهب لما نزلت السورة فيها وفي زوجها صارت تبكي وتنتحب وتقول لزوجها او لاخيه ابي طالب : ان ابن اخيك هجاني ...

8 — اثبات أن هذا الكتاب من عند الله وليس كتابا خلقه التفكير الطويل ومهد له صاحبه من زمن بعيد ، فما هي الا الحادثة تقع فينزل حكمها جديدا كجدتها وما هو الا السؤال يلقى فينزل حكمه وجوابه وكأن كان مهيأ ، وما هي الا الشبهات والمجادلات العنيفة حتى يكون الرد المفحم والحجة البالغة الدامغة، وهكذا .. فلو نزل القرآن جملة واحدة لقال القوم ما قالوا .. ولكنه كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لم ينزل الا مسايرا للحياة مصلحا من شأنها على حسب الظروف والحادثات .

ولم ارجع في استخلاص هذه العلل الا الى فكري وبعد ما كتبت هذا اطلعني زميلي على تقييد قيده في ذلك عن الفخر الرازي فاحببت ان اثبته هنا لان فيه بعضا مما ذكرت واسرارا اخرى لم اوفق اليها ..

وها هو التقييد كما هو :

1 — انه صلى الله عليه وسلم لم يكن من اهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبط ، ولجاز عليه الغلط والسهو .

وانما نزلت التوراة جملة واحدة لانها مكتوبة يقراها موسى .

2 — ان من كان من الكتاب عنده فربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ فالله تعالى ما اعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له اكمل فيكون ابعد له عن المساهلة وقلة التحصيل .

3 — ان تعالى لو انزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع باسرها جملة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك ، اما لما نزل مفرقا منجما فلا جرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها اسهل .

4 — انه اذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان اقوى على اداء ما حمل وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتماله اذية قومه وعلى الجهاد .

5 — انه لما تم شرط الاعجاز منه مع كونه منجما ثبت كونه معجزا فانه لو كان ذلك مقدورا لبشر لوجب ان ياتوا بمثله منجما مفرقا .

6 — كان القرآن ينزل بحسب اسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة لانه بسبب ذلك كان ينضم الى الفصاحة الاخبار عن الغيوب .

7 — انه لما نزل منجما مفرقا والنبي صلى الله عليه وسلم كان يتحداهم في أول الامر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل اولى ، فبهذا الطريق ثبت في فؤاده انهم عاجزون عن المعارضة لا محالة ...

8 — ان السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه الى الخلق منصب عظيم فيحتمل ان يقال : انه تعالى لو انزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل ، اما مع التنجيم فقد بقي ذلك المنصب العالي فلاجل ذلك نزل القرآن منجما .. انتهى .

تعقيـــب :

فى العلة الاولى : اختلف العلماء فى جوار السهو على النبي صلى الله عليه وسلم والتحقيق انه محال كما حرر ذلك الشيخ محمد عبده فى تفسيره قائلا :
انه لو جاز ذلك لجاز الخلل فى الرسالة وهو محال .

أما مايتوهم من انه صلى الله عليه وسلم حدث له نسيان كما وقع فى حديث ذي اليدين حينما (صلى) صلى الله عليه وسلم الرباعية اثنتين فسأله ذو اليدين: اقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله .. الخ . فانما ذلك لحكمة التشريع وليس من خلل فى الذاكرة وانما هو من الله لينبني عليه تشريع واحكام ولهذا قـال صلى الله عليه وسلم لا انسى ولكن انسى .. الخ .

وأما آية ما ننسخ من آية او ننسها نات بخيرمنها أو مثلها .. فليس قوله ننسها من النسيان وانما هو من النسأ بمعنى التاخير ، وعلى فرض انه من النسيان فهو لا يقوم دليلا الا على امكانه لا على وجوده ووقوعه فغاية ما فى الاية شرط وجزاء : ان كان كذا كان كذا او مهما ، وهل وقع ذلك أو لم يقع ؟ يبقى ما هو اعم ، والقاعدة الاصولية انه : ما احتمل واحتمل سقط به الاستدلال ..

وتأييد العدم امكان النسيان للنبي صلى الله عليه وسلم فى القرآن وانطباع الوحي فى حافظته ما رواه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم فى وصفـه للوحي واتيان جبريل وانه : يفصم عني و « وقـد وعيت » . فعبر بالماضي صلى الله عليه وسلم تصوير التمكن الوحي منه وتمكنه منه وانه ينطبع فى روعـه انطباعا تاما .

واما يروى عن عائشة فى تفسير المعوذتين من أن النبي صلى الله عليه وسلم سحر وانه كان يخيل اليه انه يفعل الشيء وهو لا يفعله فالظاهر ان ذلك انما هو فى أمور الدنيا لا الرسالة يشعر بهذا قولها : يفعل الشيء .

واما الحديث الذي رواه البخاري من ان جبريل كان ياتي النبي صلى الله عليه وسلم فى رمضان وانه كان يدارسه القرآن وكان صلى الله عليه وسلميعرض عليه ما حفظه فكان جبريل يتعهده لئلا ينسى .. الخ فهذا لا ينافي أن النبي صلى الله عليه وسلم محال عليه النسيان فى أمور الدين .

فجبريل ما كان يتعهده الا ليبقى النبي صلى الله عليه وسلم معصوما من هذا النسيان فنسيانه صلى الله عليه وسلم على كل حال محال بأمر من الله ؛ بجبريل او بغيره ...

والنتيجة من هذا كله ان العلة الاولى غيرظاهرة.. او لا تستقيم .. والثانية غير ظاهرة ايضا امر التساهل موقوف على امر الله فاذا أمره الله بعدمه فأمره منفذ لا محالة ...

واما الثالثة فهي موافقة لما ذكرته فى العلـــة السادسة .

واما الرابعة فهي ماخوذة من قول الله : كذلك لنثبت به فؤادك .

واما الخامسة فهي قريبة مما ذكرته فى الثانية ..

واما السادسة فهي قريبة مما ذكرته فى الرابعة..

واما السابعة فهي تكرار لما ذكره فى العلـــة الخامسة ..

واما الثامنة فلا أظن أن التبليغ ملحوظ فيه ترضية جبريل (ص) بمنصبه العالي « السفارة » والله اعلم .

تطوان : محمد بن تاويت

مباحث في القرآن

للدكتور تقي الدين الهلالي

اعلم ــ علمت خيرا ووقيت ضيرا ــ ان مباحث القرآن وعلومه وفوائده ، وجواهره ، واسراره لا تعد ولا تحصى ، وليست خاصة بزمان دون زمان ، ففي كل زمان يظهر منها شيء كان خافيا من قبل كما قال الشاعر :

يزيدك وجهه حسنا　　　اذا ما زدته نظرا

بل كما قال الله تعالى فى آخر سورة فصلت (53 سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : اي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسول الله (ص) بدلائل خارجية فى الآفاق من الفتوحات وظهور الاسلام على الاقاليم ، وسائر الاديان. قال مجاهد والحسن والسدى : ودلائل فى انفسهم قالوا : وقعة بدر ، وفتح مكة ، ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه .

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ، ما الانسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والاخلاط ، والهيآت العجيبة كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى ، وكذلك ما هو مجبول عليه من الاخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الاقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره ان يجوزها ولا يتعداها ، كما انشد ابن ابي الدنيا فى (التفكر والاعتبار) عن شيخه ابي جعفر القرشي حيث قال ، واحسن المقال :

واذا نظرت تريد معتبرا
فانظر اليك ففيك معتبر

انت الذي تمسي وتصبح فى الـ
ـدنيا وكل اموره عبر

انت المصرف كان فى صغر
ثم استقل بشخصك الكبر

انت الذي تنعاه خلقته
ينعاه منه الشعر والبشر

انت الذي تعطي وتسلب لا
ينجيه من ان يسلب الحذر

انت الذي لا شيء منه له
واحق منه بماله القدر　　اهـ

قال محمد تقي الدين : اقتصر من ذلك على مثال واحد اذا تأملته حق التأمل ازددت يقينا بما ذكرته آنفا، وذكره غيري من الباحثين من ان عجائب القرآن لا تنقضي قال تعالى فى سورة الواقعة (71 ــ 74 افرايتم النار التي تورون ، انتم انشأتم شجرتها ، ام نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم) .

قال القنوجي في تفسيره : (افرايتم النار التي تورون) اي اخبروني عنها ، ومعنى تورون تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال : أو ريت النار اذا قدحتها ، والعرب تقدح بعودين تحك احدهما على الاخر ، ويسمون الاعلى الزند والسفلى الزندة ، شبهوهما بالفحل والطروقة (أانتم انشاتم شجرتها) التي تكون منها الزنود ، وهي المرخ والعفار تقول العرب : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار . وزاد الجلال المحلي : الكلخ ، نقل سليمان الجمل عن شيخه انه قال : ولم نجده في القاموس ولا في المختار ، غير انه اخبر بعض اهل المغرب والشام بانه موجود معروف عندهم شبيه بالقصب ، تؤخذ منه قطعتان ، وتضرب احداهما بالاخرى فتخرج النار .

وقوله (أم نحن المنشئون) لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الانشاء : الخلق ، وعبر عنه بالانشاء للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة (نحن جعلناها) اي النار التي في الدنيا (تذكرة) لنار جهنم الكبرى حيث علقنا بها اسباب المعاش ، وعممنا بالحاجة اليها البلوى ، لتكون حاضرة للناس ينظرون اليها ، ويذكرون ما اوعدوا به .

قال مجاهد وقتادة : تبصرة للناس في الظلام . وقال عطاء : موعظة ليتعظ بها المؤمن . وقال ابن عباس تذكرة للنار الكبرى . عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال : ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا من جهنم ، قالوا : والله ان كانت لكافية يا رسول الله؟ قال : فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها . أخرجه البخاري ومسلم .

وقوله (ومتاعا للمقوين) اي للمسافرين ، قاله ابن عباس ، يعني منفعة للذين ينزلون بالقواء ، وهي الارض القفر ، كالمسافرين واهل البوادي النازلين في الاراضي المقفرة . يقال : ارض قواء بالمد والقصر ، اي مقفرة . ويقال : اقوى اذا سافر ، اي نزل القوى، وخصوا بالذكر ، لان منفعتهم بها اكثر من المقيمين ، فانهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ، ويهتدي الضال الى غير ذلك من المنافع .

وقال مجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس اجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، وتذكر نار جهنم . وقال ابن زيد : للجائعين في اصلاح طعامهم ، يقال : أقويت منذ كذا وكذا ، اي ما اكلت شيئا ، وبات فلان القوى ، اي جائعا .

وقال قطرب : القوى من الاضداد ، يكون بمعنى الفقر ، ويكون بمعنى الغنى ، يقال : اقوى الرجل اذا لم يكن معه زاد ، وأقوى اذا قويت دوابه ، وكثر ماله. والمعنى جعلناها متاعا ومنفعة للاغنياء والفقراء ، لا غنى لاحد عنها . وقال المهدوي : الاية تصلح للجميع ، لان النار يحتاج اليها المسافر والمقيم ، والغني والفقير وحكى الثعلبي عن اكثر المفسرين القول الاول ، وهو الظاهر . اهـ .

انتفاع المسافرين بالنار في هذا الزمان

قد رايت في كلام ائمة التفسير ان المقوين هم المسافرون ، وان الله جعل لهم النار متاعا يستمتعون بها في اسفارهم ، ورايت ما ذكره المفسرون في استمتاعهم بها ، وقد ظهرت في هذا الزمان أنواع من الاستمتاع بالنار للمسافرين لم تكن تخطر بالبال ، فمنها القطر ، جمع قطار ، وهي سفن البر التي تسير ليل نهار في جميع انحاء المعمور ، منها السريع والمتوسط والبطيء، تحمل المسافرين وأمتعتهم بالغة ما بلغت في الثقل ، وتحمل البضائع من قطر الى قطر ، ومن صقع الى صقع ، وتحمل الاطعمة لكثير من القرى والمحطات التي لا تعيش الا على ما تحمله القطر اليها . فهذا النوع من المتاع للمسافرين اولا ، وللمقيمين ثانيا قوامه النار ، فهي التي تسير القطر ، وتضيئها وتطبخ أطعمتها ، وتدفيء أهلها ، وهي على انواع غير ما تقدم فمنها التي تسير في سككها على وجه الارض ، ومنها التي تسير تحت الارض في انفاق طويلة مشتبكة ، ينزل اليها احيانا عشرين درجة واكثر ، وتكون في طبقات تحت الارض ، قطر في الطبقة المباشرة لوجه الارض ، وهناك طبقة تحتها تسير فيها قطر اخرى ، وهناك طبقة ثالثة ، كما يعلم ذلك من اقام في برلين وباريس ولندن . وهناك نوع من القطر يسير على قضبان ممدودة على اعمدة في سماء المدينة كلها في ارتفاع يحاذي الطبقة الخامسة والسادسة من البيوت ، حتى ان الانسان اذا كان راكبا فيها يرى السيارات على وجه الارض كانها حشرات ، كما في مدينة برلين .

ومنها القطر التي ترفع المسافرين وامتعتهم . والبضائع والاغذية الى الفنادق المبنية على قمم الجبال المرتفعة العالية آلاف الامتار ، كما في سويسرا والنمسا وغيرهما . وهذه القطر تسير بالكهرباء ، ولها أعمدة حديدية يلتصق بها القطار ، فيرتفع في الهواء

فوق غابات جبلية يندر أن يصل اليها الناس بأقدامهم او على الدواب ، ولا يشاهدون ما فيها من الوحوش والاشجار الا اذا كانوا راكبين فى تلك القطر وهـــي صاعدة بهم .

وسكان تلك الفنادق متوقفون فى معيشتهم على تلك القطر ، لا يصل اليهم من الارض الا ما حملته ، وهم يعيشون فى تلك الفنادق عيشة راضية ، لاينقصهم شيء مما يوجد فى المدينة اسفل منهم ومحطات هـذه القطر تعلو عن وجه الارض بمقدار مائة درجة ، ومنها ينبعث القطار صاعدا فى الجو ، وله منظر عجيب .

ومنها البواخر الجواري فى البحر كالاعلام ، اي كالجبال ، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فى سورة الشورى بقوله جل من قائل (32 — 35 ومن آياته الجواري فى البحر كالاعلام . ان يشا يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره ، ان فى ذلك لآيات لكـــل صبار شكور . او يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص) .

قال القاسمي فى تفسير هذه الآيات : (ومن آياته الجواري) اي السفن الجارية (فى البحر كالاعلام) اي الجبال (ان يشا يسكن الرياح ، فيظللن رواكد علــى ظهره) اي فيبقين ثوابت على ظهر البحر (ان فى ذلك) اي فى جري هذه الجواري فى البحر بتسخير الله تعالى الريح لجريها (لآيات) اي لعبرة وعظة وحجة بينةعلى القدرة الازلية (لكل صبار شكور) اي لكل مؤمن ، وانما آثر المذكورين تذكيرا بما ينبغي أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر ، وكثرة الشكر ، اذ لا يكمـل الايمان بدونهما ، والايمان نصفان ، نصف صبـــر ، ونصف شكر . اهـ .

وفى الزمان السابق كانت السفن صغارا لا تشبه بالجبال الا على ضرب من التجوز والتسامح ، امـــا فى زماننا هذا ، فقد صنعت سفن كالسفينة الانكليزيـــة المسماة (كون ميري) اي الملكة مارية ، وحمولتها ثمانون الف طن . وسمعت أن اليابانيين صنعوا سفينة من ناقلات الزيت حمولتها مائتا الف طن ، فهذه السفن شبيهات بالجبال يستمتع المسافرون فيها بالنار انواعا من المتاع ، فالنار هي التي تحملهم وتسيرهم ، وتجعل سفينتهم فى الليل الحالك قطعة من النور ، وفيـــها مطاعمهم ، ودور اللهو ، كالمسارح ، ودور الصـــور المتحركة (سينما) والمسابح ، وآلات النقل للانتقال من الارض الى الباخرة ، ومن الباخرة الى الارض فى المراسي وفى عرض البحر ، كل ذلك استمتاع بالنار .

ومنها الطائرات بجميع أنواعها ، فانها تسيـــر بالنار ، والمسافرون فيها يستمتعون بسبب النار انواعا من الاستمتاع ، لولا وجود النار ما قدروا على شيء منها . ومنها الصواريخ والاقمار الصناعية والسفن الفضائية التي تخرق الغلاف الجوي للارض ، كانها السهام المنبعثة من القسي ، او الرصاص المنبعث من البنادق ، فتشق ذلك السقف المحفوظ ، وتخرج الى الفضاء الخالي ، فتجول فيه دائرة حول الارض اياما وليالي كثيرة ، لان يومها وليلتها لا يزيدان على ساعة ونصف ، ثم ترجع الى الارض التي منها خلقت ، وفيها صنعت باذن العليم الحكيم .

واما قوله تعالى فى سورة الرحمن (33 — 35 يا معشر الجن والانس ، ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار السموات والارض ، فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكمـــا شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) .

قال البيضاوي : ان قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والارض ، هاربين من الله ، فارين مـــن قضائه (فانفذوا) فاخرجوا (لا تنفذون) لا تقدرون على النفوذ (الا بسلطان) الا بقوة وقهر ، وأنى لكم ذلك ، او ان قدرتم ان تنفذوا لتعلموا ما فى السموات والارض ، فانفذوا لتعلموا ، لكن لا تنفذون ولا تعلمون الا ببينة نصبها الله تعالى فتعرجون بأفكاركم عليها (فبأي آلاء ربكما تكذبان) اي من التنبيه والتحذيـــر والمساهلة والعفو مع كمال القدرة ، او مما نصب من المصاعد العقلية والمعارج النقلية ، فتنفذون بها الى ما فوق السموات العلى ، (يرسل عليكما شواظ) لهب (من نار ونحاس) ودخان قال :

تضيء كضوء سراج السليـ
ـط لم يجعل الله فيه نحاسا

او صفر مذاب يصب على رؤوسهـم (فـــلا تنتصران) فلا تمتنعان (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فان التهديد لطف ، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار فى عداد الآلاء . انتهى .

قوله (تضيء كضوء سراج السليط) السليط : هو الزيت . والنحاس : الدخان . واذ لم يجيء فى هذه الآيات تفسير عن النبي (ص) ، وقد اختلف المفسرون فيها ، فلا حرج علينا أن نفسرها بما يوافق لغـــة العرب ، وواقع علم الهيئة ، ففيها تحد للجن والانس انهم مكبلون بقدرة الله فى هذه الارض ، لايستطيعون

ان يخرجوا عن قضاء الله ، وما لهم مهرب ولا محيص، فان الله ربط حياتهم وسلامتهم بهذا الغلاف الجوي ، لا يستطيعون اختراقه والخروج عنه الا بقوة من الله تعالى يمنحهم اياها متى شاء على القدر الذي يريده . أما الارض فقد سخرها لهم وجعلها واسعة مذللة ، واذن لهم ان يمشوا فى مناكبها ، وياكلوا من رزقه فى جميع ارجائها ، برها وبحرها ، لا حجر عليهم . أما الخروج عنها فلا يمكنهم الا بالقدر الذي يريده الله ويشاؤه ، وبالسلطان الذي يمنحهم ، مع بقائهم مرتبطين بالارض ، منها يتزودون ، غذاء وهواء واخبارا واليها يرجعون اضطرارا .

فكل سفينة تسعى لاختراق هذا الجو المحيط بالارض الذي هو جو الحياة المحفوظ من الآفات السماوية ، من الشهب والنيازك والاشعاع القاتل تعرض نفسها للاحتراق بالنار والنحاس ، فان شاء الله منحها سلطانا تتغلب به وتنتصر على الشواظ من النار والنحاس ، وان لم يشأ احترقت وتلاشت ، فسبحان العزيز العليم .

يزيد هذا وضوحا قوله تعالى فى سورة الانعام 125 (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد فى السماء) .

قال القاسمي فى تفسيره هذه الآية (فمن يرد الله ان يهديه) اي للتوحيد (يشرح) اي يوسع (صدره للاسلام) بتصقيله بنور الهداية ، فيقبل نور الحق كما قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم) .

روى عبد الرزاق ان النبي (ص) سئل عن هذه الآية كيف يشرح صدره ؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح ، قالوا : فهل لذلك من امارات يعرف بها ؟ قال : الانابة الى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت ورواه ابن جرير ، وابن ابي حاتم ، قال ابن كثير : وللحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا . (ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) اي شديد الضيق فلا يتسع للاعتقادات الصائبة فى الله ، والامور الاخروية .

وقوله (كأنما يصعد فى السماء) اي يتكلف الصعود فى جهة السماء ، وطبعه يهبط الى الارض ، فشبه للمبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول أمرا غير ممكن ، لان صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة . اه .

وليس مقصودي بهذه الاشارة ان استوعب ما ظهر من الآيات فى الآفاق للعلماء والباحثين ، فقد الف فى ذلك الامام السلفي خاتمة المحققين ، وسيف الله المصلت على المبتدعين السيد محمد شكري الآلوسي البغدادي جزءا لطيفا سماه (ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان) ولم يتعرض رحمه الله للآيات التي ذكرتها من سورة الواقعة والرحمن والانعام ، فأكتفى بهذا القدر الذي سقته على سبيل التنبيه .

فضائل القرآن وشرطها

اعلم ان القرآن حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وعز لا ذل معه ، وسعادة لا يخالطها ولا يعقبها شقاء، وقوة أبدية ، ونصر سرمدي ، وفضائله لا تعد ولا تحصى ، ولكن لادراكها شروط لا تنال بدونها البتة ، وهذه الشروط مبينة فى الكتاب وفى بيانه ، وهو السنة ولو اردت ان استوعب ما وصل اليه علمي القاصر من هذه الفضائل المشروطة لطال الكلام حتى يبلغ مجلدات ، لذلك اقتصر على ذكر شيء من ذلك ، وفى بعضه كفاية . فمن آيات الكتاب العزيز :

1 — قوله تعالى فى سورة النساء (174 — 175 يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وانزلنا اليكم نورا مبينا . فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : يقول تعالى مخاطبا لجميع الناس ، ومخبرا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبهة ، ولهذا قال (وانزلنا اليكم نورا مبينا) اي ضياء واضحا على الحق . قال ابن جريج وغيره : وهو القرآن . (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا) اي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله فى جميع أمورهم . قال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن . رواه ابن جرير .

وقوله تعالى (فيدخلهم فى رحمة منه وفضل) اي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ، ورفعا فى درجاتهم من فضله عليهم ، واحسانه اليهم (ويهديهم اليه صراطا مستقيما) اي طريقا واضحا

قصدا قواما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . وهذه صفة المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة ، وطريق السلامة فى جميع الاعتقادات والعمليات ، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي الى روضات الجنات . اهـ .

2 ـ قال تعالى فى سورة المائدة (16 يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : يخبر تعالى عن نفسه الكريمة انه قد ارسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق الى جميع اهل الارض ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكاتبهم ، وانه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال تعالى (يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير) اي يبين ما بدلوه وحرفوه واولوه ، وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيروه ، ولا فائدة فى بيانه .

وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث ابن عباس قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب لقوله (يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) فكان الرجم مما اخفوه . ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

ثم اخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي انزله على رسوله الكريم فقال : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) اي طرق النجاة والسلامة ، ومناهج الاستقامة (ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) اي ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبين المسالك ، فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم احب الامور وينفي عنهم الضلالة ، ويرشدهم الى اقوم حالة . اهـ .

نفهم من آيتي النساء وآية المائدة امورا الاول ان القرآن نور وبرهان من الله تعالى . اما كونه نورا ، فانه يخرج كل امة آمنت به ، وعملت بمقتضاه ، واتخذته اماما وحكما من ظلمات الشقاء الماديوالروحي الى نور السعادة الكبرى ، حتى تكون أسعد الامم فى حياتها من جميع الوجوه ، ولا تكاد تساويها فى ذلك امة اخرى من الامم المخالفة ، وذلك بعينه هو ما حدث للعرب الذين استضاءوا بنور القرآن ، ولكل امة استضاءت به بعدهم .

واما كونه برهانا ، فانه حجة من الله تعالى على خلقه جميعا ، فاي جماعة استمسكت به ظهرت وانتصرت وفازت وعلت ، وبذلك تتم الحجة على غيرها من الامم التي سلكت غير مسلكها .

وقوله سبحانه (فاما الذين آمنوا باللهواعتصموا به ، فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) دليل على ان الايمان بالله ، والاعتصام بالقرآن كما قال ابن جريج شرط فى الاستضاءة بذلك النور ، والخروج من ظلمات الشقاء، فمن اعتل ايمانه بالله ، ولم يعتصم بالقرآن ، فلاعمل به ولا اتخذه اماما وحكما ، لا يستضيء بنوره ، ولا يخرج من ظلمات شقائه . والرحمة هنا هي السعادة الدنيوية والاخروية جميعا ، اي سعادة البدن والروح والعاجل والآجل ، والفضل هو زيادة الاكرام والانعام لمتبعي ذلك النور فوق ما يخطر ببالهم حتى يدهشوا ويتحيروا ويغتبطوا .

وقوله سبحانه (ويهديهم اليه صراطا مستقيما) اي يديم عليهم نعمته ، ويسلك بهم طريق السعادة . وهذا الصراط هو المعبر عنه فى آية المائدة بـ (سبل السلام) .

الثاني فى آية المائدة خطاب لاهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وحث لهم على الايمان بخاتم النبيين رسول رب العالمين محمد صلى الله عليهوسلم، وانه يبين لهم كثيرا مما اخفوه من كتبهم كآية الرجم، ويعفو عن كثير مما لا تدعو الضرورة الى بيانه فيتركه مستورا .

الثالث ان الله سبحانه اخبرهم بانه قد جاءهم منه نور وبرهان كما جاء الى غيرهم ، وهذا النور والبرهان هو كتاب الله القرآن ، فالعطف عطف تفسير كما فى قول الشاعر :

الا حبذا هند وأرض بها هند
وهند اتى من دونها النأي والبعد

فنأي هو البعد . وقال عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده
أقوى وأقفر بعد ام الهيثم

فالاقواء هو الاقفار . وقال عدي بن زيد :

تعددت الادبـــم لراهشيـــه
والفى قولها كذبـــا ومينـــا

والمين هو الكذب . ومثله قوله تعالى فى سورة البقرة (53 واذا آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) فالفرقان هو الكتاب .

واخبر سبحانه انه يهدي بذلك الكتاب المبين من اتبع رضوانه ، و (من) من الفاظ العموم تصدق على الواحد والجماعة ، فكل من اتبع رضوان الله ، بأن عمل بما فى كتابه ، واستضاء بنوره ، واتخذه اماما وحكما ، وتخلق بما فيه من الاخلاق يهديه الله سبل السلام ، أي طرق السلامة فى الدنيا والآخرة ، فلا يسلك سبيلا الا صحبته السلامة ، ويخرجهـــم أي المستضيئين بنور القرآن من الظلمات الى النـــور ، وظلمات الحياة كثيرة ، والنور هو زوالها ، فلذلك افرد (باذنه) أي بتوفيقه وارادته ، ويهديهم فى جميع اعمالهم الى صراط مستقيم ، وهو الاعتدال فى اعمالهم وأحكامهم بلا افراط ولا تفريط لتمسكهم بالقرآن الذي هو الميزان ، كما سيأتي فى حديث الحارث الاعور عن علي بن ابي طالب مرفوعا (ومن دعا اليه هدي الـــى صراط مستقيم) .

3 ــ وقال تعالى فى سورة الاعراف (2 ــ 3 كتاب انزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر بـــه وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء) .

قال الخازن : (كتاب أنزل اليك) يعني هذا كتاب انزله الله اليك يا محمد ، وهو القرآن (فلا يكن فى صدرك حرج منه) يعني فلا يضيق صدرك بالابلاغ وتأدية ما أرسلت به الى الناس . اه . (لتنذر به) أي بالقرآن جميع الناس تخوفهم من عذاب الله فى العاجل والآجل اذا أعرضوا عنه ، ولم يتبعوه (وذكـــرى للمؤمنين) أي لتذكر وتعظ به المؤمنين ، فانهم المنتفعون بالموعظة والذكرى .

ثم قال تعالى مخاطبا جميع الناس (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم) وهو هذا القرآن ، (ولا تتبعوا من دونه أولياء) من شياطين الانس والجن ، توالونهم على خلاف القرآن . والمومنون المنتفعون بالقرآن هم الموصوفون فى أول السورة التي تلي هذه ، وهـــي سورة الانفال (2 ــ 4 انما المومنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهـــم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)

عبر سبحانه وتعالى بـــ (انما) التي هي للحصر وأكد هذا الحصر فى آخر الآيات بقوله (أولئك هم المومنون حقا) وقد تضمنت هذه الآيات خمس صفات لا يتم الايمان بدونها . الاولى وجل القلب ، أي خوفه عند ذكر الله . الثانية زيادة الايمان عند سماع آيات الله تتلى . الثالثة : التوكل على الله والاعتماد عليه وحده لا شريك له فى جلب المنافع ودفع المضار ، والثقة بوعده .

الرابعة : اقامة الصلاة ، أي اداؤها قائمـــة كاملة تامة بالمحافظة على أوقاتها وطهارتها وجماعتها وأركانها وآدابها ، والخشوع فيها ، وكونها مطابقـــة لصلاة رسول الله (ص) لقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث مالك بن الحويرث الطويل (وصلوا كمـــا رايتموني أصلي) رواه البخاري .

الخامسة : انفاق المؤمن مما رزقه الله ، زكاة وغيرها . والمتصفون بهذه الصفات يعلي الله درجاتهم فى الدنيا والآخرة ، وينصرهم فى الدنيا والآخرة ، ولهم رزق كريم فى الدنيا والاخرة ، وهم المتبعون للقـــرآن السعداء به . واقتصر على هذا القدر من آيات كتاب الله العزيز ، لان المقام لا يتسع لاكثر منها وفيها غنية وكفاية .

الاحاديث النبوية فى هذا المعنى

1 ــ عن النواس بن سمعان قال : سمعـــت النبي (ص) يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة واهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقـــرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان او ظلتان سوداوان بينهمـــا شرق ، او كانهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما . رواه مسلم .

الظلة والغمامة : ما اظل الانسان فوق رأســـه كالسحاب ونحوه . والفرقان تثنية فرق بالكسر ، وهو السرب من الطير . والشرق : الضوء والنـــور . وتحاجان عن صاحبهما : أي تشفعان له . والشاهد فى قوله (وأهله الذين كانوا يعملون به) فيه ان اهـــل القرآن حقا هم الذين يقرؤونه ويعملون به . اما الذين يقرؤونه ولا يعملون به فليسوا بأهله ، ولا ينالون هذا الفضل .

2 ــ عن الحارث الاعور قال : مررت في المسجد، فاذا الناس يخوضون في الاحاديث ، فدخلت على علي فاخبرته فقال : اوقد فعلوها ؟ قلت نعم ، قال : اما اني سمعت رسول الله (ص) يقول : الا انها ستكون فتنة ؟ قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس به الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ؟ هو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا (انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به) من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدي الى صراط مستقيم . رواه الدرامي والترمذي وقال : هذا حديث اسناده مجهول ، وفي الحارث مقال .

ليس لهذا الحديث اسناد صحيح ، ولكن معناه صحيح ، ولذلك رواه المنذري في الترغيب والترهيب والبغوي في المصابيح ، وابن كثير في التفسير . والاحاديث التي كانوا يخوضون فيها وشغلتهم عن القرآن هي القصص والاخبار ، والحكايات التي لا طائل تحتها ، والمساجد انما بنيت للصلاة وذكر الله ، وخير الكلام كلام الله ، وبه ينبغي أن تعمر المساجد ، لا بالراي والاباطيل . قال الشعبي رحمه الله : والله لقد بغض الى اهل الراي المسجد ؟ حتى لهو ابغض الي من كناسة بيتي .

وقوله (او قد فعلوها) انكار عليهم ، والضمير عائد على الفعلة الشنيعة . وقد صح عن النبي (ص) مجيء الفتن بعد زمانه عليه الصلاة والسلام ، ولاشك أن من تمسك بكتاب الله وسنة رسوله التي هي بيانه عصمه الله من الفتن في كل زمان ومكان . وفي زماننا هذا فتن عظيمة ، ولا مخرج منها للدول والشعوب وآحاد الناس الا باتباع القرآن اتباعا حقيقيا ، والعمل به ، وتحكيمه ، ورفع رايته .

وقوله (نبا ما قبلكم) اخبار الامم السابقة ، وما اصابها من العذاب ، باعراضها عن كتب الله ورسل الله (وخبر ما بعدكم) من سوء عواقب الظالمين والفاسقين عن امر الله ، والمتعدين لحدود الله ، واشراط الساعة . فمن تمسك به هداه الله دائما سبل السلام كما تقدم في آية المائدة (وحكم ما بينكم) الاحكام الشرعية التي تحتاج اليها الامة الى يوم القيامة .

وقوله (هو الفصل) اي الفاصل بين الحق والباطل ، وليس فيه شيء من الهزل ، بل هو جد كله (من تركه من جبار قصمه الله) اي من ترك القرآن من الجبارين القاهرين لخلق الله المتعالين عن حكم الله قصمه الله اي اهلكه (ومن ابتغى الهدى) اي طلب الحق والرشاد والعدل في غير القرآن مما يضاد القرآن ويناقضه (اضله الله) اي اخرجه عن سبل السلام واوقعه في سبل الهلاك .

وقوله (وهو حبل الله المتين) قال الحافظ ابن كثير عن ابي جعفر الطبري بسنده الى ابي سعيد قال: قال رسول الله (ص) : كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء الى الارض . وروى ابن مردويه بسنده الى عبد الله قال : قال رسول الله (ص) : ان هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ؟ وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه . وروى عن حديث حذيفة وزيد بن ارقم نحو ذلك . اهـ .

فمن تمسك بالقرآن كما تمسك به أصحاب رسول الله (ص) والصالحون من بعدهم من جماعات وآحاد اوصله الى السعادة الابدية ، ومن اعرض عنه، فان له معيشة ضنكا ، اي ضيقة نكدة في هذه الدنيا ، ويحشره الله يوم القيامة اعمى ، لانه كان في الدنيا اعمى لا يستضيء بنور يستضيء بنور القرآن ، ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا . فكل ما اصاب المنتمين الى الاسلام في هذا الزمان هو بسبب اعراضهم عن القرآن ، ومن شك فليجرب، وكيف يشك عاقل في ذلك ، وهذا تاريخ المسلمين امامنا ؟ كاننا ننظر اليه باعيننا مطابق لهذا الوعيد كل المطابقة ، وقد اعترف بهذا الموافق والمخالف ، حتى الملحدون اعداء الدين اعترفوا بان القرآن هو الذي نفخ في اتباعه روح الحياة ، وبعثهم على اقتباس المدنيات وعلوم الحضارة كما تقرره جوزيف ماك كيب ، ونقله عن كبار الفلاسفة الملحدين في كتابه (مدنية العرب في الاندلس) في غير ما موضع . ويحتمل أن يكون الحبل بمعنى العهد في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) ومن اعرض عن القرآن فقد نقض عهد الله ، فالمعنيان متلازمان .

قوله (لا تزيغ به الاهواء) يعني أن من كان هواه تبعا للقرآن ، يحيي ما احي القرآن ، ويميت ما أمات القرآن ، ويثبت ما أثبته القرآن ، وينفي ما نفاه القرآن ويرفع ما رفعه القرآن ، ويخفض ما خفضه القرآن ،

ويدور معه كيفما دار ، فهو سعيد موفق منصور مهتد ، لان القرآن هو الصراط المستقيم ، فمن خرج عنه وقع فى الزيغ والهلاك . ويشابه هذا المعنى حديث الاربعين قال النووي : عن أبي محمد عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : قال رسول الله (ص) : لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به . حديث حسن صحيح ، رويناه فى كتاب الحجة باسناد صحيح .

ومصداقه فى كتاب الله عز وجل قوله تعالى فى سورة النساء (65 فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما فلا تصح دعوى الايمان ، ولا تدرك ثمرته ، وهي السعادة الا برد كل نزاع الى كتاب الله وسنة رسوله ، والرضا بما يصدر عنهما من حكم ، مع التسليم والاذعان والمحبة .

وقوله (ولا تلتبس به الالسنة) لان الله يسر تلاوته وتدبره على العربي والعجم ، ولذلك تجد المجودين والمتضلعين فى علوم القرآن من الشعوب الاعجمية اكثر مما تجدهم من العرب . وفى هذه الايام جرت مباراة فى (ماليزية) بالشرق الاقصى فى تجويد القرآن ، وحسن تلاوته ، اشترك فيها اربعة عشر قطرا ، رجالا ونساء ، ففاز بالجائزة الاولى قراء ماليزية وقارئاتها ، وفاز بالجائزة الثانية قراء اندونيسيا وقارئاتها ، صدق الله العظيم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) .

(ولا يشبع منه العلماء) لان فوائده لا نهاية لها، فمن شبع منه فهو من الجاهلين . وللاستاذ محمد مارماديوك بكثول الانكليزي النسب رحمه الله فى مقدمة تفسيره للقرآن بالانكليزية كلام حسن فى هذا المعنى ، وليس تحت يدي الآن نسخة منه لانقله . وكذلك الاستاذ الفرنسي خير الدين زينه فى تفسيره للقرآن بالفرنسية رحمه الله .

(ولا يخلق عن كثرة الرد) اي لا يبلى مع كثرة التلاوة واعادتها ، ولا يمل (ولا تنقضي عجائبه) أودع الله فى القرآن حكما واسرارا لا نهاية لها ، فلا تزال تظهر للمفكرين والمتدبرين فيتعجبون منها (هو الذي) لما سمعته الجن اجلته واكبرته ، وبهرها حتى قالت (انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد) الى الخير والعدل والحق ، واهم ذلك توحيد الله ، ولذلك قالوا (فلن نشرك بربنا احدا) وسائر ما قالوه فى سورة الجن يدل على شدة تاثير القرآن فيهم .

وقوله (من قال به) افتى بمقتضى ما فيه (صدق) اي اصاب الحق ، ومن افتى بخلافه كذب ، (ومن عمل به) نجا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، ومن لم يعمل به هلك هلاكا ابديا (ومن حكم به عدل) ومن حكم بخلافه تعدى وظلم (ومن دعا اليه) اي الى تحكيمه والعمل به (فقد هدي) بصيغة المجهول والمعلوم ، وهما متلازمان ، لان الهادي الى الصراط المستقيم مهدي .

تجويد القرآن

اعلم ان تجويد القرآن فرض على كل قارىء ، وتعليمه فرض كفاية على اهل كل بلد ، فان تركوه واهملوه اثموا جميعا ، وقد نص العلماء على ذلك ، وحرروه اتم التحرير ، غير ان هذا المقال قد طال ، لذلك اردت ان الم به الماما .

قال ابن الجزري فى المجلد الاول من كتابه (النشر فى القراءات العشر ص 210 ما نصه : التجويد مصدر من جود تجويدا ، والاسم منه الجودة ضد الرداءة ، يقال : جود فلان فى كذا اذا فعل ذلك جيدا ، فهو عندهم عبارة عن الاتيان بالقراءة مجودة الالفاظ ، بريئة من الرداءة فى النطق . ومعناه انتهاء الغاية فى التصحيح ، وبلوغ النهاية فى التحسين .

ولا شك ان الامة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن واقامة حدوده ، متعبدون بتصحيح الفاظه ، واقامة حروفه على الصفة المتلقاة من ائمة القراءة ، المتصلة بالحضرة النبوية الافصحية العربية التي لا تجوز مخالفتها ، ولا العدول عنها الى غيرها .

والناس فى ذلك بين محسن مأجور ، ومسيء آثم او معذور ، فمن قدر على تصحيح كلام الله تعالى باللفظ الصحيح ، العربي الفصيح ، وعدل الى اللفظ الفاسد العجمي او النبطي القبيح ، استغناء بنفسه ، واستبدادا برايه وحدسه ، واتكالا على ما الف من حفظه ، واستكبارا عن الرجوع الى عالم يوقفه على صحيح لفظه ، فانه مقصر بلاشك ، وآثم بلا ريب ، وغاش بلا مرية ، فقد قال النبي (ص) : الدين النصيحة : لله ، ولكتابه ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم .

اما من كان لا يطاوعه لسانه ، او لا يجد من يهديه الى الصواب بيانه ، فان الله لا يكلف نفسا الا وسعها ؛ ولهذا اجمع من نعلمه من العلماء على أنه لا تصح صلاة قارىء خلف امي ، وهو من لا يحسن القراءة . واختلفوا في صلاة من يبدل حرفا بغيره ، سواء تجانسا ام تقاربا ، واصح القولين عدم الصحة . اهـ

ثم نقل عن الشيخ ابي عبد الله نصر بن علي بن محمد الشيرازي في كتابه الموضح في وجوه القراءات في فصل التجويد منه ما نصه : فان حسن الاداء فرض في القراءة ، ويجب على القارىء أن يتلو القرآن حق تلاوته ، صيانة للقرآن عن أن يجد اللحن والتغيير اليه سبيلا .

ثم مضى الى ان قال : فالتجويد هو حلية التلاوة وزينة القراءة ، وهو اعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها ، ورد الحرف الى مخرجه واصله ، والحاقه بنظيره وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته ، وكمال هيئته ، من غير اسراف ولا تعسف، ولا افراط ولا تكلف ، والى ذلك اشار النبي (ص) بقوله (من احب ان يقرا القرآن غضا كما انزل ، فليقرا قراءة ابن ام عبد) يعني عبد الله بن مسعود ، وكان قد اعطى حظا عظيما في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله كما انزله الله تعالى .

وناهيك برجل احب النبي (ص) أن يسمع القرآن منه ، ولما قرا ابكى رسول الله (ص) كما ثبت في الصحيحين . وروينا بسند صحيح عن أبي عثمان النهدي قال : صلى بنا ابن مسعود المغرب بقل هو الله أحد ، ووالله لوددت انه قرا بسورة البقرة من حسن صوته وترتيله .

وقال ابن الجزي في المقدمة :

والاخذ بالتجويد حتم لازم ... من لم يجود القرآن آثم
لانه به الاله انزلا ... وهكذا منه الينا وصلا
وهو ايضا حلية التلاوة ... وزينة الاداء والقراءة
فواجب عليهم محتم ... قبل الشروع اولا أن يعلموا
مخارج الحروف والصفات ... ليلفظوا بافصح اللغات

وهذا الواجب مضيع في المغرب لا يقوم بادائه الا النادر من اهل العلم ، ولا اعلم في المغرب مدرسة تعلم تجويد القرآن ، مع ان اهل المغرب احق الناس بالعناية باصلاح اللسان لاختلاطهم مع الاعاجم، وابدال كثير منهم بعض الحروف ، كالجيم يبدلونها زايا، والتاء يبدلونها بحرف المانى بين التاء والسين ، والثاء ينطقون بها مثل ذلك ، والذال يبدلونها دالا مهملة ، والظاء يبدلونها ضادا ، والشين يبدلونها سينا ، وقد يبدل هؤلاء السين شينا ، يرتكب ذلك من ينسب الى العلم منهم من غير نكير ، وقد اشار الى ذلك المحقق ابن عبد السلام الفاسي في كتابه الذي الفه في القرآن وعلومه وآدابه في المجلد الاول قال : اللحن لحنان ، جلي وخفي ، فالجلي لحن الاعراب ، والخفي لحن ترك اعطاء الحرف حقه من تجويد لفظه ، وذلك اما بالنسبة الى مخارجها بأن لا تعطى حقها الواجب لها .

واما بالنسبة الى صفاتها التي تحقق ذاتها وتفصلها عما يشاركها او يقاربها ، واما بالنسبة الى تبديلها بغيرها كجعل الظاء المعجمة مكان الضاد ، وكجعل السين المهملة مكان الشين المعجمة ، وكجعل الزاي مكان الجيم ، وكجعل الغين المعجمة مكان الراء، وكجعل الهمزة مكان الكاف ، وكجعل همزة مفخمة بعض التفخيم مكان القاف ، الى غير ذلك مما يطول تتبعه مما نسمعه في السنة الناس . اهـ .

وقد سمعت باذني قارئا يقرا قوله تعالى (الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) بابدال الشين سينا ، والجيم زايا ، والذالين مهملتين ؛ وهذا من اللحن الذي يغير المعنى . وقد نقل القاضي عياض في الشفا الاجماع على أن من بدل حرفا من القرآن عمدا كفر .

ومن أسوا ما يرتكبه المغاربة من تبديل الحروف نطقهم بالتسهيل في قراءة ورش هاء خالصة ، فيقرؤون الهمزة الثانية في (ائنك ، وائذا) وما اشبه ذلك هاء ، وليس معنى التسهيل ، فالتسهيل تليين الهمزة الثانية حتى تكون بين الالف والهمزة ، او بين الواو والهمزة ، او بين الياء والهمزة ؛ ويقابله التحقيق بهما همزتين خالصتين .

ولم ينعدم التجويد بالمرة في المغرب في اي زمان، ولكنه كما قلت سابقا نادر ، واكثر القراء على خلافه، ومما يدلنا على ذلك ما جاء في نصوص الشيخ التهامي ابن الطيب السجلماسي ، ثم الغرفي في انكار تبديل التاء بما تقدمت الاشارة اليه ، وهذه الابيات بعضها مختل الوزن ، فانا ننقلها على علاتها قال :

تحفظ رعاك الله في السر والجهر
على مخرج التا حين تتلو بلا عسر
الى الحنك اصعد عند اخراجك لها
ولا تنحون نحو الثنايا تنل شكري
ولا تحدثن فيها صفيرا ورخوة
فذلك فعل الجاهلين ذوي السكر
فبالسين والزاي الجهير وضدها
يخص صفير القوم كلهم فادر
كما خصصوا رخوا بجملة احرف
وليس لحرف التاء فيهن من ذكر

وقد كان علماء المغرب الى عهد قريب جدا معتنين بتجويد كتاب الله أحسن عناية قلما يجاريهم في ذلك علماء قطر آخر من الاقطار الاسلامية ، حتى أن الملك فؤاد ملك مصر اراد ان يطبع المصحف على الرسم العثماني ، وكلف بذلك جماعة من علماء مصر المحققين ، لم يجدوا من الكتب ما يعتمدون عليه مثل كتاب مورد الظمآن بشرح العالم المقرىء عبد الواحد ابن عاشر ، ومن أشهر المنظومات التي عم نفعها ، وقل في التحقيق والبلاغة نظيرها منظومة (الدرر اللوامع في اصل مقرا الامام نافع) لابي الحسن علي بن محمد الرباطي المشهور بابن بري قال في المنظومة المذكور :

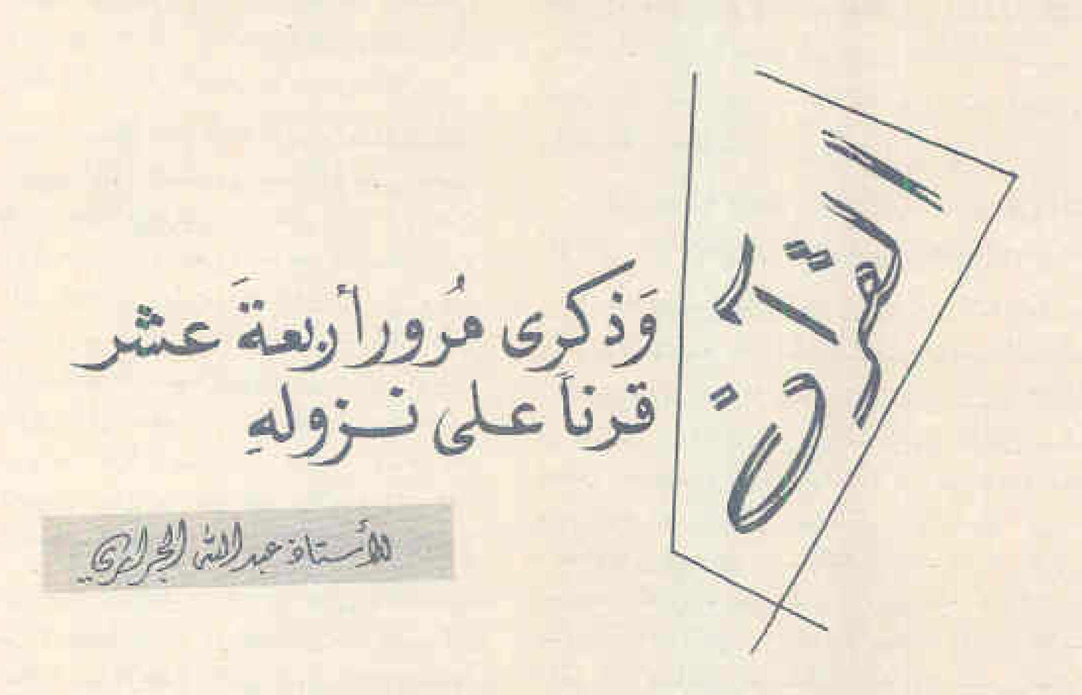
القول في التحقيق والتسهيل
للهمز والاسقاط والتبديل
والهمز في النطق به تكلف
فسهلوه تارة وحذفوا
وابدلوه حرف مد محضا
ونقلوه للسكون رفضا
فنافع سهل أخرى الهمزتين
بكلمة فهي بذاك بين بين

قال شارحه ابراهيم المارغني شيخ القراء بالجامع الاعظم بتونس المتوفى سنة 1349 هـ . في ابن بري المسمى (النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في اصل مقرا الامام نافع) ما نصه : التسهيل في اصطلاح القراء اذا اطلق اختص بالتسهيل بين بين ، اي فالهمزة الثانية بسبب ذلك التسهيل تكون بين بين، اي بينها وبين الحرف المجانس لحركتها ، فتكون المفتوحة بين الهمزة والالف ، والمضمومة بين الهمزة والواو ، والمكسورة بين الهمزة والياء ، هذا هو المأخذ به عندنا في كيفية التسهيل بين بين .

قال ابو شامة : وكان بعض اهل الاداء يقرب الهمزة المسهلة من مخرج الهاء ، قال : وسمعت أنا منهم من ينطق بذلك ، وليس بشيء . اهـ لكن جوز الداني وجماعة ابدالها هاء خالصة في الانواع الثلاثة .. قال العلامة سيدي عبد الرحمن بن القاضي في بعض تآليفه : جرى الاخذ عندنا بفاس والمغرب في المسهل بالهاء خالصة مطلقا ، وبه قال الداني . اهـ وجوزه بعضهم في المفتوحة دون المضمومة والمكسورة ، والاكثرون على المنع مطلقا ، وعليه جرى عملنا بتونس . اهـ .

قال محمد تقي الدين : الصواب هو تسهيل الهمزة الثانية بين بين كما قاله ابو الحسن ابن بري ، وقرره شارحه ، ولا حق للداني أن يتصرف في كتاب الله ، فيبدل حرفا بحرف ، لان القرآن سنة متبعة ، لا مجال فيه للاجتهاد ، ولا تصح الرواية بابدال اخرى الهمزتين هاء البتة . وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عائشة أن النبي (ص) قال : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وقد طال هذا المقال حتى انه لا يحتمل الزيادة . فنسأل الله أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن العظيم ، وبما فيه من الآيات والذكر الحكيم ، وان يجعله لنا شافعا مشفعا ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي



اخرج ابن ابي حاتم وابن الانباري وغيرهما عن ابن عباس قال : نزل القرآن جملة واحدة من عند الله تعالى من اللوح المحفوظ الى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عليه السلام عشرين ليلة ، ونجمه جبريل عليه السلام على الرسول الاعظم صلوات الله عليه ــ عشرين سنة . وفي رواية انه انزل ليلة القدر في رمضان ووضع في بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم انزل نجوما في عشرين ــ ثم قرا : « وقرآنا فرقناه لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .

ونزوله في مدة عشرين سنة قد لا يتفق مع اقامة الرسول الاكرم بالمدينة عشر سنين وبمكة ثلاث عشرة سنة ــ فقد اوحي اليه عليه السلام وهو ابن اربعين سنة ، والتحق بالرفيق الاعلى وهو ابن ثلاث وستين على ما صح . نعم أجابوا ــ ان ما زاد على العشر حذف اختصارا على عادة العرب في اساليبها القولية انها تحذف الكسر في كلامها . (1) .

وكان ينزل به جبريل عليه السلام على ما قيل هنا ــ خمس آيات ــ اخرج البيهقي في الشعب عن عمر رضي الله عنه أنه قال : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فان جبريل عليه السلام كان ينزل به خمسا خمسا وعن ابي نضرة قال : كان ابو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشي ويخبران جبريل عليه السلام نزل به خمس آيات خمس آيات ، ويظهر أنه الغالب في النزول والا فقد صح انه نزل باكثر من ذلك وباقل .

وهذا سر قوله تعالى : « لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » نزل هكذا بعضه اثر بعض ليقرا على الناس بتوءدة وتان فيسهل عليهم حفظه ، ويكون ذلك اعون على تفيم معناه » وفائدة قوله : ونزلناه بعد قوله : فرقناه ــ بيان ان ذلك التنزيل لمقتض وهو التنزيل على حسب الحوادث والنوازل التي كانت تجري في عهده صلى الله عليه وسلم اعتقادا وعبادة واجتماعا ، حيث لا يلبث روح القدس ينفث في روعه صلوات الله عليه بما يكون وما لا يكون حكما ناجزا في النازلة لا يدع لهواجس النفس وخلجاتها مكانا للاضطراب والريب الشيء الذي نرى له الرب جلت عظمته يهدد على لسان رسوله الاكرم محمد عليه السلام الذين قد لا تطمئن نفوسهم للكتاب المقدس متطاولين ومفتين ايمانهم قائلين : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا » ، «قل آمنوا به او لاتومنوا» اي آمنوا بهذا القرآن الذي لو اجتمعت الانس والجن

---

1) وورد في خمس وعشرين بل جاء في ثمان عشرة سنة ــ ثمان سنين بمكة ، وعشر بعدما هاجر . اهـ من تفسير الالوسي ج : 15 ص 188 .

على أن ياتوا بمثله لم ياتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا — او لا تومنوا به فان ايمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ولا تركم للايمان به ينقص ذلك .

وزاد سبحانه معللا عدم المبالاة بهم واحتقارشأنهم قائلا : « ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا » اي وان تكفروا به فان العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا ان الله سيبعث نبيا — يخرون لله سجدا شكرا له على انجاز وعده بارسالك يا محمد حين يتلى عليهم هذا القرآن — ويقولون فى سجودهم : ننزه ربنا عن خلف الوعد انه كان وعده آتيا لا محالة — فان لم تومنوا به فقد آمن به احسن ايمان من هو خير منكم ، وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وازدراء بشأنهم .

ثم ما خر هؤلاء ساجدين له عن ايمان واطمئنان كالاعراب الذين شهدوا نزوله ووحيه بين ظهرانيهم الا لقداسته واعجازه — الاعجاز الذي يقول عنه يوسف السكاكي الخوارزمي (ت : 626 — 1229 م) يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن ، تدرك ولا يمكن وصفها كالملاحظة ، كما يدرك طيب النغم العارض للصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة الا باتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما . وهذا أبو حيان التوحيدي (ت : 400 — 1010 م) يقول : سئل بندار الفارسي عن موضع الاعجاز من القرآن فقال : هذه مسألة فيها حيف عن المعنى ذلك انه شبيه بقوله : ما موضع الانسان من الانسان — فليس للانسان موضع من الانسان بل متى اشرت الى جملته فقد حققته ودللت على ذاته ، كذلك القرآن لشرفه — لا يشار الى شيء الا وكان ذلك المعنى آية فى نفسه ومعجزة لمحاولة ، وهدى لقائله .

وليس فى طاقة البشر الاحاطة باغراض الله فى كلامه واسراره فى كتابه ، لذا تعذر على الانسان الاتيان بمثله ، لان علمه لا يحيط بجميع اسماء اللغة العربية واوضاعها التي هي ظروف المعاني ، ولا يدرك المجموع معاني الاشياء المحمولة على تلك الالفاظ ، ولا تكمل معرفته باستيفاء جميع وجوه المنظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض — فيتوصل باختيار الافضل من الاحسن من وجوهها الا أن ياتي بكلام مثله — واذا تأمل المؤمن القرآن الكريم وجده حاز كل القداسة والكمال اللذين لم يبلغهما غيره من انواع الكلام ، ولن يبلغ ذلك — فالقرآن فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا يرى شيء من الالفاظ افصح ولا اجزل ولا اعذب من الفاظه ولا يرى نظم احسن تاليفا واشد تلاوة وتشاكلا من نظمه .

اما معانيه فيقف عندها الوصف اذ هي أعلى من كل علي ، واقدس من أن يحصيها القلم ويحصرها .

اذا يخلص من هذا ان القرآن انما صار معجزا لانه جاء بافصح الالفاظ فى احسن نظوم الصياغة والتاليف، وقد ضم أصح المعاني — من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته ، ودعائه الى طاعته وبيان طريق عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر واباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وامر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وارشاد الى محاسن الاخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يتوهم فى صورة العقل اليق به منه — مودعا اخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن مضى وعائد منهم، منبئا عن الكوائن المستقبلة فى الاعصار الاتية من الزمان جامعا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك آكد للزوم ما دعا عليه ، واحرص على وجوب ما أمر به ونهى عنه ، ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الامور والجمع بين اشتاتها حتى تنتظم وتتسق امر يعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرتهم فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله او مناقضته فى شكله ثم صار المعاندون له يقولون مرة انه شعر لما راوه منظوما ، ومرة انه سحر لما راوه معجوزا عنه غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعا فى قلوبهم وقرعا فى نفوسهم يرهبهم ويحيرهم فلم يتمالكوا ان يعترفوا به نوعا من الاعتراف — ولذلك قالوا : ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة — ان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر .

وكم يعجب فى توجيه اعجاز القرآن — ما درج عليه فيلسوف الاندلس ابن رشد — 595 هـ 1198 م قائلا : من المسلم ان القرآن ليس كتاب عقيدة فقط كسائر الكتب المقدسة التي سبقته ، ولكنه كتاب عقيدة وشريعة معا .

وهذا أهم ما امتاز به عن كتب الوحي الاخرى — فكان لهذه الظاهرة المعجزة الكبرى الخالدة خلود الدهر:

(اعظمها معجزة القرآن   تبقى على تعاقب الازمان)

وقد لا يداخل ادنى مسلم ريب فى هذه الحقيقة التي سجلها الكتاب المقدس ذاته فى الآية التاسعة من سورة الحجر « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » هو الكتاب المبين الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الترداد

تزداد منه على ترداده مقة

وكل قول على الترداد مملول (1)

انها الحقيقة الوضاءة التي لا يكاد يماسها حجاب او يخفيها ستار حتى الساعة والمسلمون فى مشارق الارض ومغاربها يتعبدون بتلاوته ، ويتدبرون اسرار آياته ، جاعلينه انشودتهم التوجيهية فى كل المقاصد والاهداف ايمانا منهم بدستوريته الحق ، وايقانا بحصيلته الثرية الغنية فى كل جانب من جوانب الحياة، وكل غرض من الاغراض سواء فيها الفردية والاجتماعية .

هذا ما حفز بعض الشعوب الاسلامية وفى المقدمة مغربنا الكريم ليقيموا مهرجانا عظيما « بذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرءان العظيم » اذ قامت كل من وزارتي الانباء والاوقاف والشؤون الاسلامية بالسهر على اختيار مقرئين من اطراف المغرب بواسطة لجنة رشحت لذلك ثم بعد طوافها على عدة مدن اختارت طائفة من القراء ، واقتضى الحال اجراء تدريب فني تضمن اعطاء قواعد علمية فى التجويد والتنزيل والتحسين والتمرين على ذلك مدة ستة ايام وعلى ضوء هذا وقع احياء الذكرى يوم عاشر رمضان المبارك 1387 — 1967 بمسرح محمد الخامس بالعاصمة — حيث تلا كل القراء المدربين حصة من الكتاب الكريم وعددهم 28 قارئا وقارئة بمحضر اللجنة ومن اضيف اليها من القراء كالمقرىء الحصري المصري والسيد عبد الرحمن بن موسى وكان كل فرد من افراد اللجنة يسجل تقديره لكل قارىء .

وختاما كان النجاح حليف خمسة قراء من بينهم قارئة (2) واذ صادف المهرجان ذكرى مرورسبعة اعوام على وفاة محرر المغرب البطل الخالد محمد الخامس نور الله ضريحه ختم حفل الذكرى المقام سنويا بالضريح الحسني بتوزيع الجوائز على الثلاثة الاول من الفائزين .

وقد ضمت نقودا ومصاحف من المصحف الخالد الذي أمر جلالة الحسن الثاني أيده الله بطبعه بعدما اختير خطاط فني لذلك ولجنة من القراء للسهر على تصحيحه — تحت اشراف وزارة الشؤون الاسلامية النشيطة . وكان مسك الختام تلاوة الفائز الاول الحاج محمد الحياني آيات بينات من الذكر .

نعم كان هذا التمهيد لاقامة الذكرى الكبرى تحت اشراف الملك المعظم الحسن الثاني ليلة القدر المباركة (27 رمضان 1387) بمسجد اهل فاس — ازاء القصر الملكي — فى مهرجان ديني مهيب يتناسب وعظمة الكتاب المقدس وخيرية الليلة — حضره علية القوم من المومنين مغاربة وغيرهم ممن استدعوا خصيصا لحضور الذكرى المجيدة .

وفى نفس الليلة المباركة قامت عدة جمعيات وهيئات (ككل مساجد المغرب) باقامة مهرجانات قرآنية — كلها تلاوة للآي الذكر الخالد علاها نور وشعور من جميع المومنين ، خاصة ما كان يتخلل بعض المهرجانات من احاديث الوحي والتنزيل ومراتبه وكيف كان الرسول محمد صلوات الله عليه يتلقى ذلك .

ادام الله النصر والتأييد للملك المعظم واعانه على احياء المآثر والذكريات التي لا يعزب عن البال ما تحمله فى طياتها من اذكاء الوعي ، وبث روح اليقظة والرجوع قليلا الى الوراء والعيش لحظات فى احضان الماضي الجميل الذي ندين لتراثه الخالد بشتى المنن تمدنا وحضارة خاصة ما يعود الى تركيز العقيدة واخلاص العمل الصافي الينابيع والتاثر من كثب (3) بكل ما يمت الى الاسلام الصحيح بصلة .

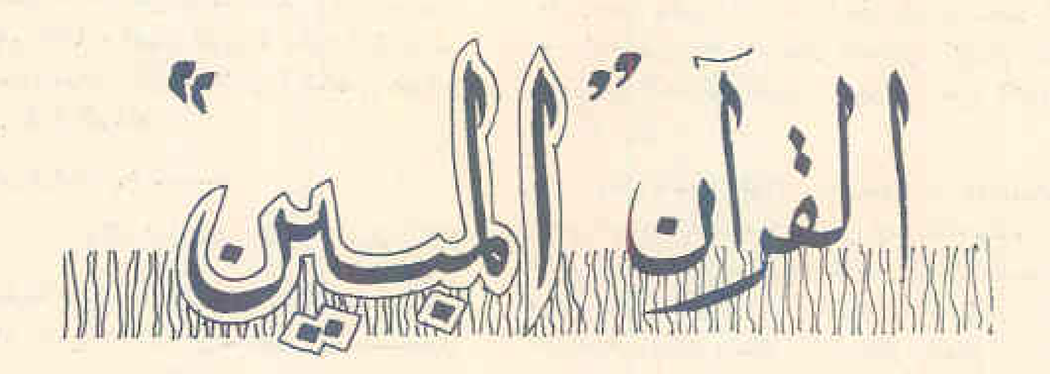
الرباط : عبد الله الجراري

---

1) من لامية المديح للبوصيري

2) وكان للتلفزة المغربية حظها المشكور فى البعث والتقريب .

3) من كثب لا عن كثب .



للأستاذ عبدالقادر الصحراوي

كان اهتمام المسلمين الاولين بالقرآن الكريم ، وحرصهم على الحيلولة دون تطرق اللحن او التحريف الى لفظه ، وعنايتهم بالتدليل على مجاراة استعمالاته اللغوية كلها لكلام العرب ، كان كل ذلك من الاسباب الاساسية فى تدوين اللغة ، وجمع الاشعار ، ووضع المعاجم والقواميس وما الى ذلك .

لقد انزل القرآن بلسان عربي « مبين » ، هذا شيء قرره القرآن نفسه ، ويؤكده ان العرب الذين نزل بين ظهرانيهم ، وبلغتهم ، كانوا يسمعونه فيفهمونه بسهولة ، ويتأثرون به غاية التأثر ، ولا يشكل عليهم منه شيء ، سواء فى الفاظه او تراكيبه ، او استعمالاته النحوية والبلاغية .

كانوا يسمعونه ، فينفذ الى وجدانهم ، ويحرك سواكنهم ، ويثير عقولهم ، وينفعلون به انفعالا ، لا يترك لهم مجالا للتفكير فى هذه اللفظة او تلك ، او هذا الاستعمال او ذاك .

وما ان بعد العهد بعض الشيء بزمان الوحي ، وعهد السليقة والفطرة السليمة ، واتسعت الفتوحات، واتصل العرب بغيرهم من الامم ، واقبلت هذه الامم على تعلم اللغة العربية التي لم تكن بالنسبة اليها لغة فطرة وسلقية ، حتى بدأ الناس يقفون عند بعض الاستعملات اللغوية او النحوية او البلاغية فى القرآن، يحللون ويفسرون ، ويختصمون فى بعض الاحيان ، ويحاول البعض ان يجد من ذلك منفذا للطعن فى القرآن ولو من طرف خفي ، ويحاول البعض الاخر ان يسد الباب دون ذلك الطعن ، بالتماس الاشباه والنظائر من كلام العرب الاقدمين للتدليل على سلامة الاستعالات القرآنية ، من لغوية ونحوية وبلاغية .

وتوسع المتوسعون فى ذلك حتى اصبح الناس امام ظاهرة غريبة وان لم تبد لهم هم غريبة فى ذلك الحين ، هذه الظاهرة هي ان النصوص الادبية الجاهلية ، الغير المقطوع بصحتها فى مجموعها قطعا كاملا ، او التي لا ترقى — على الاقل — فى الجزم بصحتها الى مستوى القرآن ، اصبحت هذه النصوص الجاهلية هي الاصل ، الذي تقاس عليه الاستعمالات اللغوية القرآنية ، ويستدل به على صحة هذه الاستعمالات وسلامتها .

ومر على ذلك زمن طويل ، قبل ان يأتي الدكتور طه حسين فى العصر الحديث ، ليحطم هذه القاعدة او هذه الظاهرة ، وليقول ، ان القرآن هو اقدم نص عربي مقطوع بصحته وصل الينا ، واننا لا ينبغي ان نلتمس التدليل على سلامة استعمالاته اللغوية والنحوية والبلاغية ، بالاستدلال من كلام العرب الاقدمين الذي لم يدون الا فى عصور متأخرة ، بل ان عكس ذلك هو الصحيح ، اي ان نتخذ القرآن هو الاصل ، وهو المقياس وهو المعيار ، فنقبل من الاستعمالات اللغوية الادبية القديمة ما وافقه ونقف موقف الشك من كل ما خالفه من هذه الاستعمالات .

وقد بنى الدكتور طه حسين نظريته هذه ، على شكه في كثير من الشعر الذي يروى للجاهليين ، ذلك الشك الذي بسطه بسطا في كتابه المتداول المعروف « في الادب الجاهلي » والذي يعتبر طبعة أخرى لكتابه « في الشعر الجاهلي » الذي اثار عند ظهوره ضجة عارمة ، اضطر معها الدكتور طه حسين في النهاية ان يعد له بالزيادة والنقص ، ثم يصدره باسم آخر ، هو « في الادب الجاهلي » .

وسواء كان الشك في الادب الجاهلي يقوم على اسس سليمة أم لا ، فان الذي لاشك فيه انه لا يمكن أن يرقى من حيث الصحة الى درجة القرآن الكريم ، الذي هو اول نص عربي وصل الينا ، موثوق بصحته تمام الثقة ، لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد .

*

والقرآن بعد ذلك ، ليس أول نص عربي موثوق بصحته وصل الينا فحسب ، بل انه زيادة على ذلك ، اقوم واجمل وأرقى نص في اللغة العربية على الاطلاق بل ان اعجازه في كل ذلك كان هو معجزة الاسلام الكبرى ، معجزته الخالدة ، التي تحدى بها الخلق جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ، وحكم الله تبارك وتعالى حكمه القاطع ، بأنهم لن يستطيعوا ان يأتوا بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

ولن نعدو الحقيقة والواقع اذا قلنا ، ان اية لغة من اللغات ، لا تتوفر من بين جميع نصوصها الادبية الرائعة ، على نص ، يرقى في درجته الى درجة النص القرآني في اللغة العربية ، او يفعل في قارئيه ومستمعيه مفعول القرآن في قارئيه ومستمعيه من العارفين باللغة العربية ، ولو لم ترق معرفتهم بها الى حد كبير .

*

ونحن نريد أن نخلص من كل ذلك الى تقرير قضية على جانب كبير من الاهمية ، هي اننا نحن العرب المسلمين جميعا ، لا نستفيد في تعليم ابنائنا لغتهم العربية الفصحى ، استفادة كبيرة ، من نص القرآن ، كاقدم نص عربي موثوق به وصل الينا ، وكأرقى واجمل واقوم نص في اللغة العربية على الاطلاق .

نعم ، اننا لا نهمل اهمالا كليا ، ولكننا نكاد نقصر النظر اليه ، على أنه فقط كتاب هداية وارشاد ، وهو كذلك فعلا ، ولكنه الى جانب ذلك نص ادبي رفيع ، كان ينبغي ان نستفيد منه اعظم الاستفادة في تقويم السنة ابنائنا ، والارتقاء بأذواقهم ، وارهاف حسهم اللغوي ، وطبع ملكاتهم بالاسلوب الارقى والامتن ، والاصح والاجمل ، وكل ما الى ذلك من افعال التفضيل .

*

ان تلقين القواعد شيء مهم واساسي في تعليم اللغات ، قواعد النحو والصرف والبلاغة وما اليها ، ولكن الاجماع معقود على ان ذلك لا يكفي ، وانه لابد معه ، وقبله ، وبعده ، من وضع النصوص الادبية الرفيعة بين ايدي التلاميذ والطلاب ، وتعويدهم على فهمها ، وتذوقها ، وتحليلها ، واعتصارها ، لتعطي كل ما يمكن لها أن تعطيه ، لابد من النموذج اللغوي الرفيع ، للتشبع به ومحاولة احتذائه ، ذلك الاحتذاء الذي يكون شعوريا احيانا ، ويكون غير شعوري في كثير من الاحيان ؟

ونحن نفعل ذلك فعلا ، فنضع بين ايدي التلاميذ والطلاب نماذج من الشعر والنثر تبتدىء بامرىء القيس ، والنابغة ، والاعشى ، وطرفة بن العبد ، وتنتهي الى البارودي ، وشوقي ، وحافظ ، مارة بالمتنبي والمعري والبحتري وابي تمام ، وبالجاحظ ، وابن المقفع ، وعبد الحميد الكاتب ، وبالحريري وبديع الزمان الهمذاني ، وغير هؤلاء واولئك .

ولكننا قلما نضع بين ايديهم النص الارقى والامثل النص المعجز في اللغة العربية ، المثل الاعلى ، النموذج المصفى ، الذي هو القرآن الكريم .

وخذ اي كتاب من كتب الادب ، او من كتب تاريخ الادب في المدارس الثانوية والابتدائية ، بل خذ المحاضرات التي تلقى في الادب في الجامعات على اختلافها ، فستجد نفسك امام سيول وسيول من النصوص الادبية قد لا يكون القرآن من بينها ، واذا كان ، فانه قد لا يأخذ من الحيز ، او من الوقت ، او من الاهتمام ، الا مقدار ما يمكن أن تأخذه مقامات الحريري ، او خمريات ابي نواس ، او اهاجي جرير والفرزدق والحطيئة .

وسواء هنا في المغرب او في غير المغرب من البلاد العربية الاسلامية فان الشكوى قائمة قاعدة ، من

ضعف الملكة اللغوية عند التلاميذ والطلاب بل وعند كثير من المتخرجين في الجامعات ، فمنهم من يعجز عن تحرير كلمة تحريرا سليما ، واكثر الذين يكتبون منهم بسهولة يكتبون باسلوب مهلهل ، متخاذل ، واهي الاركان ، بل قد ينقصه الحد الادنى من السلامة اللغوية في كثير من الاحيان .

وفي بعض البلاد العربية — وهذا شيء شاهدناه وسمعناه — يكاد يعتبر درس قواعد اللغة العربية درسا مقيتا غير مرغوب فيه ، لا يحضره الطلبة الا لانهم مجبرون على حضوره ، ولا يتجاوبون مع معلمه او استاذه الا بالقدر الذي يستلزمه النجاح في الامتحان

❋

هذه ظاهرة واقعة ، ولابد لعلاجها من البحث عن اسبابها .

وفي اعتقادي ان من اسبابها، بل من اهم اسبابها، اننا في العالم الاسلامي كله ، لم نعد نأخذ التلاميذ منذ نعومة اظفارهم باستظهار اجزاء ولو يسيرة من القرآن الكريم .

ونستطيع ان ندرك اهمية هذا السبب بسهولة كبيرة ، اذا عرفنا ان الفضل الاول في متانة وسلامة الاسلوب العربي عند كثير من ادباء وشعراء الجيل الذي يعيش الان طور الكهولة والشيخوخة ، انما يعود الى ان افراده فتحوا عيونهم عندما فتحوها على القرآن الكريم ، يسمعونه ، ويتلونه ، ويحفظونه ، ويتشبعون به ، ويأتي بعد ذلك دور القواعد ، بعد ان يكون اللسان قد انطبع ، وبعد أن تكون نفس الشخص وكيانه قد تشبعا بالاسلوب القرآني ، وتسرب اليهما ، واستقر فيهما وامتزج بهما .

تاتي القاعدة لتؤكد المثال والنموذج لا لتخلقه وهي وحدها عاجزة على خلقه على كل حال .

واي مثال واي نموذج ؟ انه القرآن الكريم ، وكفى

بل اننا نستطيع ان ننظر حتى في اساليب المشاهير من الكهول والشيوخ من الادباء المعاصرين ، فنجد أن الذين اتيح لهم منهم أن يكون القرآن مادة اساسية في تعليمهم في صغرهم ، يمتاز اسلوبهم العربي بالقوة والمتانة والسلاسة عن اساليب نظرائهم الذين لم يتح لهم ذلك ، لهذا السبب او ذاك ، مما لا نريد هنا ان نخوض في شرحه وتفصيله .

فقد نجد في بعض كتابات او اشعار هؤلاء الذين لم يتح لهم ان يتعلموا القرآن في صغرهم ، مضمونا يغري بالقراءة ، ولكننا نفتقد في اسلوبهم تلك الطلاوة، وذلك الاشراق ، وتلك السليقية ، التي نجدها عند غيرهم من الذين أتيح لهم ان تنطبع السنتهم وملكاتهم في وقت مبكر بالاسلوب القرآني الرفيع .

❋

ونعود الى موضوعنا ، فنؤكد مرة اخرى ، اننا نرى ان من اهم اسباب ضعف الملكة اللغوية عند الجيل الصاعد ، اننا لم نعد ناخذ صغارنا منذ نعومة اظفارهم باستظهار اجزاء ولو يسيرة من القرآن الكريم ، وهي نعمة نحرمهم منها دون سبب ظاهر ، ووسيلة لتربية الملكة اللغوية نفوتها عليهم ، ثم نعود بعد ذلك فنشكو مر الشكوى من ضعف ملكاتهم اللغوية عند ما يكبرون، وقد كان في امكاننا ان نتلافى ذلك ، ولكننا لم نفعل ، فما احرانا ان نلوم انفسنا قبل أن نلومهم ، وما احرانا ان نعمل على تدارك ما فات ، فنعلم اولادنا القرآن ، وهم بعد اطفال صغار ، ونستمر في تعليمه لهم حفظا وفهما وتمرسا باساليبه ، حتى يبلغوا من ذلك ما يراد لهم ان يبلغوه ، او بعض ما يراد لهم ان يبلغوه .

نعم ان مقتضيات العصر ، وان سعة وتنوع المعارف التي اصبح على التلميذ والطالب ان يلما بها ليتهيآ للحياة العملية ، لم يعودا يسمحان باقتطاع سنوات من العمر للتوفر على حفظ القرآن ، ذلك الحفظ الذي قد يتطلب العمر كله او جزءا كبيرا منه ، ولكننا ما نقل ذلك ، لم نقل بوجوب حفظ القرآن كله على كل متعلم ، فيكفي لكي يبقى القرآن محفوظا في الصدور أن يتوفر على ذلك بعض الطلبة ، يتخصصون في القرآن وعلومه حفظا وتجويدا وفهما في معاهد مخصصة لذلك، ولكن ذلك لا يعني ان يبقى غيرهم محروما من الاخذ بحظه من القرآن ، وهو حظ يجب ان يكون في مستوى اهمية القرآن ، ككتاب هداية وارشاد وتربية وتهذيب ، وكنص لغوي ادبي فريد من نوعه ، لا يمكن ان يرقى الى درجته اي نص لغوي آخر كيفما كان ، سواء في اللغة العربية او في غيرها من اللغات .

❋

وتأتي بعد ذلك نقطة اخرى ، تتعلق بمعاني القرآن ، تتعلق بشرحه وتفسيره ، ومساعدة التلاميذ والطلاب على فهمه .

ونريد ان نسارع هنا فنقرر ، ونحن نتحدث عن شرح القرآن وتفسيره ، أننا نرى ان القرآن بأسلوبه السهل الممتنع ، أسلوبه المعجز ، ربما كان في غنى عن كل تفسير ، فقد نزل بلسان عربي « مبين » بلغة عربية واضحة سهلة قريبة المتناول ، لا تعقيد فيها ولا غموض ولا ابهام .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعني عناية كبيرة بشرحه وتفسيره للناس ، سواء من المؤمنين او غيرهم ، وانما كان يقراه كما يوحى به اليه ، فيفهمه كل من يسمعه ، ويتأثر به ، فأما الذين آمنوا فيزيدهم ايمانا ، واما الذين كفروا واصروا على كفرهم وجحودهم وعنادهم لاسباب اخرى لا تتصل بالتأثر والاقتناع ، فانهم يتولون وهم مدبرون ، ويوصون اتباعهم واصحابهم الا يسمعوا لهذا القرآن ، وان يلغوا فيه ، لانهم اذا سمعوه لم يؤمن عليهم ان يتأثروا به على الفور ، والتأثر يسبقه بطبيعة الحال ، الفهم ، والادراك ، والتذوق ، واستشعار الجمال والجلال .

هكذا كان شأن القرآن في العصر الاول ، وانما احتاج الناس الى تفسيره بعد ذلك لما بعد العهد ، وضعفت السليقة ، ولم تعد الملكة اللغوية حتى عند العرب انفسهم في قوتها الاولى ، وذلك لاسباب تاريخية ليس هنا مجال شرحها .

ولكن المفسرين لم يقفوا عند حد التفسير الذي يساعد على الفهم ، وانما بعدوا عن ذلك بعدا كبيرا ، فاتخذوا من القرآن منطلقا لعرض جميع معارفهم وعلومهم في اللغة وفي الفقه ، وفي الفلسفة والمنطق والجدل ، وفي علوم الفلك والطب والطبيعة والكيمياء وغير ذلك ، كما اتخذ منه بعض المفسرين ذريعة لنصرة هذا المذهب او ذاك ، وتأكيد هذه النحلة او تلك من النحل العقائدية التي اختصم فيها المسلمون كثيرا ، وتعددت فيها مدارسهم واتجاهاتهم واساليبهم في الفهم والتفكير والنظر .

واصبحنا نتيجة لكل ذلك امام عدد هائل من كتب تفسير القرآن ، ليست في واقعها تفسيرا له بالمعنى الصحيح ، فهو في الواقع لا يحتاج الى تفسير ، واذا احتاج الناس الى تفسيره لهم بسبب ضعف ملكاتهم اللغوية ، فانما ينبغي ان يكون ذلك في نظرنا بالقدر الذي لا يخرج عن القرآن نفسه ، وبالقدر الذي لا يتعدى شرح بعض المفردات والتعابير ، او النص على اسباب النزول ، او ما الى ذلك مما لا يبعدنا اطلاقا عن النص القرآني نفسه ، لانه هو المراد ، وهو المقصود وهو الغاية .

اما دروس النحو والصرف والبلاغة ، واما المنطق والجدل اللفظي والعقائدي ، واما الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع ، واما الخصومات المذهبية ، فلكل ذلك وغيره مجالات اخرى كثيرة ، وحشر ذلك كله في تفسير القرآن انما من شأنه ان يبعد بنا عنه ، ككتاب هداية وإرشاد ، وكنص لغوي أدبي رفيع الى حد الاعجاز .

قد يقال : ان كتب التفسير هذه التي نشير اليها لم توضع لعموم الناس ، وانما وضعت للطلاب النابهين وللعلماء المتخصصين .

وهو كلام له وجاهته ، وان كنا نرى مع ذلك ان في استطاعة هؤلاء الطلاب النابهين والعلماء المتخصصين ان يشبعوا نهمهم العلمي في مجالات اخرى ، وان يبقى القرآن بالنسبة اليهم ، هو القرآن ، كما ينبغي ان يكون بالنسبة لجميع الناس .

وعلى كل ، فان كثيرا من كتب التفسير المطولة ، سواء القديمة منها او الحديثة ، تعتبر ثروات ثقافية هائلة ، تستحق العناية ، وتستحق القراءة والدرس، فهي معارض واسعة للثقافة العربية الاسلامية ، وللعلوم والمعارف الكونية ، من نظرية وعملية ، فقد دأب كثير من المفسرين ، سواء في القديم او الحديث، ان يتخذوا من القرآن — كما اسلفنا — منطلقا لعرض علومهم ومعارفهم الكثيرة المتعددة .

ويبقى بعد كل ذلك ، ان القرآن واضح لا يحتاج الى تفسير ، فيكفي ان نقراه وان نسمعه بامعان وتدبر ، بقلوبنا وعقولنا معا ، بكل كياننا ، بكل ذرة فينا ، واذا احتجنا الى تفسيره — بسبب ضعف ملكتنا اللغوية — فيجب ان نلتمس ذلك من اقرب الطرق ، بحيث لا نضل ولا نتيه ، وبحيث لا نبعد ابدا عن القرآن نفسه ، القرآن أولا واخيرا وقبل كل شيء .

❊

واذكر بهذه المناسبة ، ان اساتذتنا ونحن بعد فتيان صغار ، عندما اهتموا بمساعدتنا على فهم القرآن وضعوا بين أيدينا تفسيرا بسيطا لا ازال شخصيا اعتبره حتى الآن احسن التفاسير ، ولا ازال حتى الآن ارجع اليه كلما دعتني الضرورة الى ذلك ، ذلك هو التفسير المعروف بتفسير الجلالين . جلال الدين محمد ابن احمد المحلى المتوفى سنة 864 هـ وجلال الدين عبد الرحمان بن ابي بكر السيوطي المتوفى سنة 911هـ وقد بداه الاول ، واتمه الثاني من بعده على نمطه وأسلوبه وشكله .

وقد دأب الناشرون على ان ينشروا بهامش هذا التفسير كتابا آخر مختصرا ومفيدا ، لجلال الدين السيوطي ، هو « لباب النقول في اسباب النزول » .

ولاشك ان معرفة أسباب نزول الآيات ، اي معرفة الظروف التاريخية والنفسية التي اكتنفت واستدعت نزول هذه الآيات ، مما يساعد على فهمها وتذوقها واكتناهها .

وتفسير الجلالين ، تفسير معروف ومتداول على نطاق واسع ، واهميته فيما نرى ، ترجع الى انه لا يضيف شيئا الى القرآن ، ولا يعلق عليه ، ولا يبتعد عنه ليتيه في وديان لا قرار لها ، كما هو شأن كثير من كتب التفسير القديمة او الحديثة ، وانما يكتفي بتفسير الكلمة ، او توضيح الاشارة ، او النص على بعض « المكملات » او « الزوائد » التي كثيرا ما يختصرها القرآن باسلوبه المحكم المركز ، المتين الاسر ، وذلك كالظروف والاحوال والمجرورات وغيرها .

ومهما يكن ، فانه لا يبعد بنا أبدا عن القرآن ، وان كان مع ذلك يكاد يلتزم شرح جميع مفرداته وتعابيره ، وهو شيء لا نراه ضروريا الى هذا الحد ، فليس القرآن من الغموض او من الصعوبة بحيث تحتاج كل كلمة فيه الى تفسير ، وانما يكفي أن يكون المرء على بعض العلم باللغة العربية ليستطيع أن يفهمه ويتذوقه ويتأثر به الى حد بعيد .

واخيرا ، فاننا لا نقصد الى أكثر من ان نؤكد لنوفسنا اننا نقصر في حق ابنائنا عندما نفوت عليهم في تعليمهم فرصة التمرس بالقرآن الكريم منذ نعومة اظفارهم ، التمرس به ككتاب هداية وتقويم وتربية وارشاد ، وكنص ادبي رفيع ، لا يمكن ان يطاوله في رفعته اي نص ادبي آخر .

وكيف وقد اعجز الاولين والآخرين .

وكيف وقد تحدى به الرسول صلى الله عليه وسلم فصحاء العرب وبلغاءهم من اصحاب اللغة العربية الاصليين ، أولئك الذين كانت هذه اللغة بالنسبة لهم فطرة وسليقة .

فلنضع القرآن بين ايدي ابنائنا ، ولنجعلهم على اتصال دائم به طيلة فترات تعليمهم ، يهديهم ويقومهم ويرشدهم ، ويطبع السنتهم وملكاتهم بالاسلوب المتين ، الاسلوب المعجز ، الاسلوب السهل الممتنع .

واعتقد اننا اذا فعلنا ، فلن نشكو بعد من ضعف ملكاتهم اللغوية .

زيادة على اننا بذلك نقوم نحوهم بواجبنا الديني والمدني ، واجب التماس هدايتهم وارشادهم وتربيتهم وجدانيا وخلقيا .

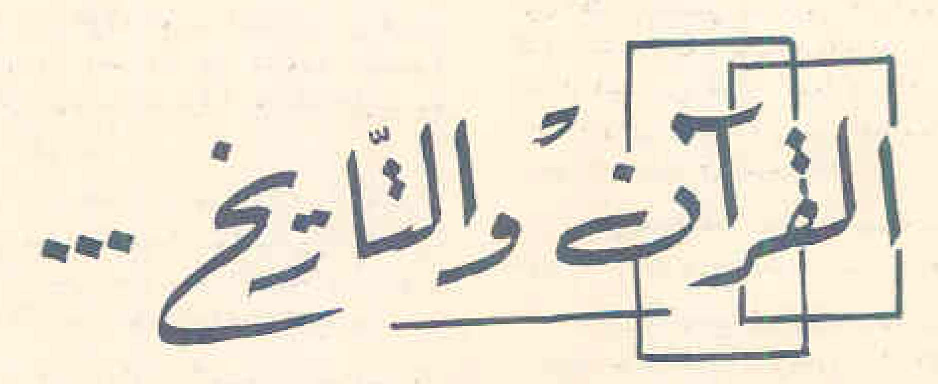
وكل ذلك يتكفل به القرآن ، ولن يستطيع غيره ابدا ان يسده مسده في هذا الباب .

الرباط : عبد القادر الصحراوي

*

« كان للدعوة الاسلامية التي اطاحت بالاوضاع المدخولة ، وقومت الاعوجاج والزيغ ، واستأصلت الفساد ، وقوضت أركان الطغيان ، كان لها الدوي الذي تجاوز حدود الجزيرة العربية الى ما حولها والاثر البليغ الذي سرى في شعوب وشعوب »

جلالة الحسن الثاني



للأستاذ محمد ازنيبر

على الكاتب اليوم ان اراد ان يتحدث عن القرءان فيستمع له الناس ، وتنصت له بالخصوص الاجيال الصاعدة ، ان يجد الفاظا جديدة لصياغة افكاره . فلن يفيد في شيء تكرار ما قاله السلف ، لا لان السلف اخطأوا او كانوا قاصدين وانما لان المسألة مسألة اسلوب ... وافكار طبعا .

وفي نظري ان الاسلوب يأتي في المقام الاول ، فأجمل الالحان واشجاها تفقد وقعها في النفوس مع طول التكرار ، هذا اذا كانت جديدة غضة ، فكيف بها لو كانت ترجع الى عهود غابرة تعرب عن اذواق عتيقة احتضنها التاريخ في صحائفه المطوية ؟ !

وهنالك اسلوب فرض وجوده في عصرنا هو اسلوب القرن العشرين ، اسلوب بنى قوته وقيمته على تجارب الانسانية على اختلاف الازمنة والاماكن وعلى المكاسب التي حققها العقل الانساني في صراعه مع الطبيعة ، ومع المجهول . فهو اسلوب يغذي العقل، ويغذي العاطفة معا ، وهو اسلوب يستجيب لمشاغلنا الحقيقية التي نعايشها باستمرار ، كما انه يحقق نوعا ما المثال الذي نتوق اليه من الناحية الجمالية ، فهو على كل الاحوال ، اسلوبنا الطبيعي الذي به نرى الاشياء وبه نصوغ افكارنا فاذا خرجنا عليه ، فان كلامنا يفقد قوته التأثيرية وتضيع الفائدة المرجوة منه.

والمسألة كذلك مسألة افكار . فليس من الممكن أن نفكر عما كان يفكر اسلافنا ، لان ظروفنا ليست هي ظروفهم ولان المشاكل التي نعانيها في هذا العصر تختلف عن مشاكلهم ، ولان وضع المسلمين في القرن العشرين ليس هو وضعهم في العصر الوسيط . فلا ننسى ان عصرنا هو ، قبل كل شيء عصر صراع حاد بين الافكار والعقائد ، وان المستند الاول والاخر للمذاهب والنظريات الرائجة في عصرنا هو العقل والتجربة ، وان الايمان بعقيدة ما اصبح يرتكز على البحث الحر والنقد ، وان الانقياد الفكري الرخيص اصبح مذمة ومنقصة في حق انسان هذا الجيل .

ومعنى هذا ان الدراسات الاسلامية لا يمكن ان تنتعش وتثير اهتمام الاجيال الحالية والمقبلة الا اذا روعي فيها هذا التعبير العميق الذي طرا على الذهنية الانسانية منذ احقاب طويلة والا اذا استعمل فيها الاسلوب الصالح ، الاسلوب الطبيعي ، اسلوب العصر. والغريب هو ان عددا من الباحثين الغير مسلمين استطاعوا ان يقدموا عن الاسلام دراسات كان لها الفضل في اجتذاب طائفة من الشباب ، لانها باجتنابها لذلك المنهاج العاطفي المبتذل ، امكنها ان تبرز مزايا الاسلام الحقيقية .

* * *

ونحن عند ما نعود اليوم الى ذكر نزول القرءان ، ونتروى في اهمية هذا الحدث بالنسبة لتاريخ الانسانية تستوقفنا عدة تساؤلات تنطوي وراءها حقائق كبرى :

ما الذي حدا بالعرب للخروج من جزيرتهم في القرن السابع الميلادي والانتشار في انحاء العالم المعروف آنذاك ، بعد أن ظلوا منزوين في صحاريهم عصورا ودهورا ؟ يجيبنا التاريخ بكلمة واحدة : القرآن.

وما الذي مكن هؤلاء العرب الطارئين من فرض سيطرتهم وشريعتهم وهم قلة على شعوب كثيرة وقوية ، عريقة في العلم والحضارة ؟ يجيبنا التاريخ بكلمة واحدة : القرءان .

وما الذي جعل عددا من الشعوب في افريقيا وآسيا تصبح عربية بلغتها وثقافتها وتقاليدها وشعورها ، متناسية شخصيتها القديمة وثقافاتها الاولى ؟ يجيبنا التاريخ بكلمة واحدة : القرءان .

وما هو الد عدو صادفه الاستعمار الغربي ولا يزال يصادفه في الاقطار الاسلامية او التي توجد بها جماعة اسلامية في آسيا وافريقيا ؟ يجيبنا التاريخ بكلمة واحدة : القرءان .

واذن ، فللقرءان لقاء طويل مع التاريخ ، لقد تحدث علماء الاسلام عن معاني القرءان ، عن اسباب النزول ، عن الآيات المتشابهات ، عن المفاهيم القرءانية فيما يخص الصفات الالاهية والعدل الالاهي والمعاملات بين المسلمين في الدنيا ؛ وتحدث الصوفية عن المفاهيم الكبرى العميقة والخفية في القرءان ، عن الفرق بين الشريعة والحقيقة ، عن المعرفة الصحيحة وطرقها ، عن مدراج السلوك نحو الاتصال بالذات الالاهية والفناء فيهـا .

ولكن القرءان له دور تاريخي عظيم لم ينل نصيبه من الاهتمام عند علماء الاسلام في القديم ولا زال لحد الساعة لم يدرس الدراسة الكافية الشافية . وانما هي لمحات مبعثرة نقراها لهذا الكاتب او ذاك في مسائل محدودة . وكما راينا من خلال الامثلة السابقة ، ان الدور الذي لعبه القرءان في التاريخ مهم جدا الى درجة انه يصعب على الباحث تقديره وقياسه بالمقاييس العادية . فالقرءان هو الكتاب الذي استطاع ان يتحول في الحين الى اداة فعالة في التاريخ لان كلامه لم يبق مجرد آراء ونظريات ، بل انقلب في حال صدوره الى مجموعة من التعاليم والاوامر التي يؤمن بها الملايين من الناس ويموتون في سبيلها .

وهذا الدور التاريخي هو الذي يجب الاطلاع عليه والبحث في اطواره وجوانبه . وهو الذي يعطي للقرءان قيمته واهميته في نظر الباحثين من غير المسلمين . فالعلماء الاروبيون ، مثلا ، قد يجادلون في بعض المعاني والافكار الواردة في القرءان ، ولكن عند ما يتطرقون الى مفعوله في التاريخ ، فربما قالوا احسن واكثر مما يقوله عدد من المسلمين . وهذا يرجع الى كون اكثر الباحثين المسلمين لا زالوا فاقدين للحاسة التاريخية . وبهذا المعنى ، فالقرءان يفرض وجوده على العلماء المسلمين ككتاب سماوي مقدس ، قبل كل شيء ، وعلى العلماء من غير المسلمين كحدث تاريخي عظيم له اهميته في تطور العالم .

ولتوضيح هذا الدور واهميته ، لا يسعنا في هذه العجالة الا ان نورد بعض الامثلة ونحللها بايجاز .

وأول ما يجب الوقوف عنده ونحن نستعرض التاريخ هو « الثورة القرءانية » او الثورة الاسلامية ، والكلمة الاولى في نظري احسن لان القرءان هو التعبير الاصح والاوثق عن حقيقة الاسلام . اننا نتحدث اليوم كثيرا عن الثورة الفرنسية ، وعن الثورة الاشتراكية ، ولكننا ننسى أن العرب قاموا هم ايضا بثورة عظيمة في التاريخ منذ اربعة عشر قرنا . ولست اشك في ان المسلمين الاولين ما كانوا ليترددوا في نعت الاسلام بلفظ الثورة ، لو كانت هذه الكلمة تستعمل في زمانهم بنفس معناها اليوم .

وما علينا الا ان نرجع الى القرءان لنجد هنالك كل المعاني والمفاهيم الجوهرية التي تقتضيها كل ثورة ذات الابعاد التاريخية . ولننظر أولا الى هاته الآية : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » . ان تحليلها يؤدي بنا في الاخير الى تحديد الثورة كما يفهمها المؤرخون والمفكرون في عصرنا الحاضر . فالآية تفترض ، أولا ، انه من الممكن تغيير حالة المجتمع من حسن الى احسن او من سيء الى اسوا . فالمجتمع حر وليست هنالك اي حال مفروضة عليه بصورة حتمية. واستمراره على حالة واحدة وجموده ، انما هو نتيجة لعدم رغبته في التغيير ولتوقف ارادته عن الحركة . ومتى انتعشت تلك الارادة واتجهت الى الاصلاح والتطور والتغيير فلا شيء يقف امامها . وبهذا المعنى فالعامل المحرك للتاريخ هو الارادة الانسانية . ولهذه الارادة غاية ووسيلة ، فالغاية هي تغيير « ما » بالقوم. وكلمة « ما » تفيد هنا الاحاطة والشمول ، وتشير الى الحالة الحقيقية التي يعيش عليها القوم في النطاق المادي والمعنوي من يسر أو عسر ، وعز او ذل ، وسعادة او شقاء . والوسيلة هي تغيير « ما » بالنفوس . وكلمة « ما » تفيد هنا ايضا الاحاطة والشمول وتعني كل ما تحمله النفوس من عواطف

وميول واهواء وافكار واخلاق ونوايا . فالتغيير الحقيقي الذي يكون له اثر في التاريخ يبدا من النفوس ويتناول كل ما يمثل فيها القوة الفعالة . ويعني ذلك شحن النفوس ، بعد افراغها من كل ما هو فاسد ، بالافكار والحقائق الجديدة . وهذا ما يقودنا الى الفكرة الحديثة ، فكرة الضمير الجماعي او الوعي الجماعي ، كما عبر عن ذلك علماء الاجتماع في عصرنا وبالجملة ، فالاية تحدد الهدف وهو السير نحو مجتمع افضل وتحدد الوسيلة وهي اثارة وعي جديد في النفوس وتفترض وجود محرك أولي وهو الارادة الانسانية . وتلك هي الدعائم الكبرى التي قامت عليها الثورات الاصلاحية في التاريخ .

ويؤكد هذا الاتجاه التجديدي الثوري في القرآن ما نجده فيه من آيات تحارب الجمود والتقليد وتدعو الى استعمال العقل والنقد الحر « واذا فعلوا فاحشة، قالوا وجدنا عليها آباءنا » (7 \ 28) . « وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » (43 \ 23) .

وكان لزاما على الاسلام ان يحارب التقليد والجمود لانه جاء لينسخ بالكلية كل العقائد القديمة فحارب عبادة الاوثان حتى الهاها من الجزيرة العربية قبل وفاة النبي .

وفكرة الصراع والكفاح التي ترتكز عليها اليوم كثير من الحركات السياسية والاجتماعية نجدها موضحة في القرءان كحقيقة تاريخية وانسانية لا مندوحة عنها لحياة البشر وتقدمهم : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز » . (22 \ 40) . فالقرءان بهذا المعنى يؤمن بضرورة العمل المتواصل والكد والكفاح في سبيل نصرة الدعوة وتحقيقها . ولذلك فان كثيرا من المسلمين في الصدر الاول كانوا يرون ان التقاعد عن العمل في سبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اخلال بالواجب الديني ، بل ان احدى الفرق الاسلامية الكبرى ، وهم الخوارج ، كان فيهم من يكفر القعديين ، والقعديون (بفتح القاف والعين وكسر الدال) هم الذين يتخلفون عن النضال في سبيل الفكرة ويؤثرون القعود في البيت .

ومن المفاهيم الثورية التي نجدها في القرءان تمييزه بين الاختيارات الرئيسية والجوهرية التي ترتكز عليها حياة الجماعة ، والمسائل الهامشية والسطحية كما هو واضح في هاته الاية التي ضرب فيها المثل للتفريق بين الحق والباطل : « فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال » .

ويعني كذلك مفهوم الثورة في عصرنا صورة جديدة للالفة والتضامن بين الناس ، فهي خلق لمجتمع جديد نشأت فيه روابط قوية غير معهودة من قبل وتغلبت فيه عوامل التقارب والالتحام على عوامل التفرقة والانقسام . وتلك صورة يقدمها لنا القرءان في الاية : « هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين ، والف بين قلوبهم ، لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ، ولكن الله الف بينهم ، انه عزيز حكيم . » (8 \ 62) .

هذه بعض الايات التي تبين :

— ان القرءان يشتمل على كثير من المفاهيم النظرية عن الثورة وتحديداتها ، كما اقرتها التجارب التاريخية المختلفة قبل الاسلام وبعده الى عصرنا الحاضر .

— ان الاسلام كان يسعى منذ الاول الى هدف اهم واوسع من الدعوة الروحية المجردة ، وهو تحقيق انقلاب شامل وحاسم في تاريخ البشر .

وبالفعل ، فقد استطاع الاسلام ان يطبق تلك المفاهيم الثورية النظرية التي ذكرنا البعض منها ، فكان ثورة شاملة تناولت الجوانب المادية والروحية في الجماعة ، وكان لها ابعد الاثر في حياة الفرد وفي حياة المجتمع على السواء . ونحن عندما نقول هذا ، لا نندفع وراء اي عاطفة ، ولا ننساق مع تيار المبالغة . وانما نعبر عن حقيقة تاريخية بالفاظ متواضعة ربما كانت لا تفي بالتعبير . وهذه الحقيقة يسلم بها طائفة من كبار المفكرين والعلماء الاجانب عن الاسلام ، والذي لا يمكن ، على أي حال ، اتهامهم بالانقياد للهوى والتعصب .

فهذا فولتير فيلسوف القرن الثامن عشر بفرنسا يقول :

« لقد كان محمدا من دون شك ، رجلا عظيما وكون على يده رجالا عظاما . وكان من الضروري ان يكون اما شهيدا او فاتحا ، ولم يكن هنالك اي موقف وسط بالنسبة اليه . وقد حالفه النصر دائما، وكانت انتصاراته انتصارات الفئة القليلة على الفئة الكثيرة . وهو كفاتح وكمشرع ورئيس دولة وامام ديني لعب

في العالم اكبر دور يمكن ان يطمع اليه انسان في اعين الجماهير » .

وهذا القائد العظيم نابوليون يقول :

« منذ بدر ونحن نرى محمدا كبطل ، ورغم أن الانسان ما هو الا انسان ، ففي مستطاعه ان يفعل الكثير . فقد يكون مشعلا وسط مواد قابلة للالتهاب ... والذي يشهد بتفوق محمد هو انه استطاع في ظرف عشر سنوات ان يفتح نصف العالم ، وان المسيحية تطلبت ثلاثمائة سنة لتركز نفسها في العالم »

وهذه شهادة الشاعر « لامارتين » :

« اذا كانت عظمة الاهداف وضآلة الوسائل وضخامة النتائج هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الانسان، فمن يستطيع ان يقارن ، من الوجهة البشرية ، اي رجل عظيم من العصر الحديث بمحمد ؟

واعظم الرجال لم يستطيعوا ان يحركوا الا الاسلحة ، والقوانين ، والامبراطوريات ؛ ولم يؤسسوا — ان هم اسسوا شيئا — الا قوات مادية ، تنهار احيانا قبلهم ، اما محمد ، فقد حرك الاسلحة ، والتشريعات، والامبراطوريات ، والشعوب ، والدول ، وملايين البشر على ثلث المعمور ؛ لكنه حرك ، زيادة على ذلك ، المعابد والالهة ، والاديان ، والافكار ، والعقائد ، والارواح . وعلى اساس كتاب اصبح فيه كل حرف قانونا ، بنى قومية روحية تضم شعوبا من مختلف اللهجات والسلالات ، وطبع هذه القومية الاسلامية بطابع لا يمحى وهو كراهية الالهة المزورة والتعلق بالاه واحد لا تدركه الحواس » .

وآراء الكاتب الالماني الكبير « جوته » والمفكر الانجليزي المشهور « كارليل » في الموضوع معروفة ومتداولة بحيث لا تحتاج الى تقديم جديد . وهي تؤكد الشعور بالتقدير والاعجاب الذي رايناه عند بعض المفكرين اللامعين بفرنسا ازاء حادث ظهور الاسلام .

هنالك ملاحظة عامة ربما اثيرت حول هذه الآراء واصحابها . فهي تمثل وجهة نظر اناس عاشوا في القرن الثامن عشر او في النصف الاول من القرن التاسع عشر اي في عهد كان علم التاريخ لا زال لم يستكمل كل ادواته ولم يتسلح بالوسائل والضمانات العلمية الكافية . ومنذ ذلك العهد خطت العلوم التاريخية خطوات جبارة وتقدمت المعارف الانسانية بسرعة خارقة ، وظهرت نظريات وآراء جديدة ، وروجعت جل الافكار التي كانت قارة في الضمائر ، بحيث كان من الطبيعي أن تظهر آراء مناقضة لما رايناه من قبل ، وهذا ما راج بالفعل على يد بعض الاقلام المتسرعة من نوع « رينان » و « لامنس » لكن التيار العالمي الصحيح الذي تمتن وقوى بتكاثر الابحاث وتكاثف الجهود من جيل الى جيل ، يقف اليوم موقف الاكبار والاعجاب امام حادث ظهور الاسلام .

فهذا « مونتجومري وات » احد الاساتذة البارزين بانجلترا ومؤلف عدة كتب عن حياة النبي شهد لها اكبر النقاد المعاصرين بالقيمة العلمية يقول في كتابه : « محمد ، نبي ورجل دولة » :

« كلما امعنا النظر في سيرة محمد وتاريخ الصدر الاول للاسلام ، ازداد تعجبنا من ضخامة المنجزات التي تم تحقيقها .

حقا ان الظروف قدمت له فرصة قلما تسنح للغير ، ولكن الرجل كان في مستوى الظروف بكل معنى الكلمة . فلو لم تتوفر لديه مواهب النبوة ورجل الدولة والقائد ، ولو لم يضع من فوق هذه المواهب ثقته في الله وفي الرسالة التي بعثه من اجلها لما كتب فصل مهم من تاريخ الانسانية » .

وهذا المؤرخ « جوتي » يقول في معرض حديثه عن دخول الاسلام الى بلاد المغرب :

« لقد حدثت ثورة عظيمة . فالبلاد قد تقوضت فيها تلك الحواجز التي تفصل بين الشرق والغرب ، تلك الحواجز التي لم يمكن ازاحتها في اماكن اخرى . وان الثورتين الفرنسية والروسية لتظهران لنا ضئيلتين اذا نحن قارناهما بهاته الوثبة نحو المجهول » .

(E.F. Gautier: le Passé de l'Afrique du Nord, p. 233)

وهذا المؤرخ والمستشرق الكبير « برنارلويس » يقول في كتابه « العرب في التاريخ » :

« ان موجات الفتح الكبرى التي تلت وفاة محمد واقامة الخلافة على راس الامة الاسلامية الناشئة سطرت بحروف كبرى كلمة « عرب » على خريطة القارات الثلاث : آسيا ، وافريقيا ، واوربا . وجعلت منها عنوانا لفصل حاسم رغم قصره في تاريخ الفكر والاعمال البشرية . »

ويقول في مكان آخر من نفس الكتاب :

« لقد أعطى محمد دفعة جديدة للقوات التي كانت كامنة من اجل الانبعاث الوطني ورغبة العرب في

التوسع والانتشار . وجاء بعد النبي اشخاص آخرون ليتموا هذا العمل » .

وما أكثر الشهادات من هذا النوع ! وقد اوردنا البعض منها بنصه لا رغبة فى الاسهاب والتطويل ، وانما لنبين الاجماع الحاصل بين كبار العلماء والباحثين باوربا عن هذا الموضوع ، الا وهو ان الاسلام يمثل في التاريخ انقلابا ثوريا شاملا .

اذ حاولنا الان التعرف الى ابعاد هذه الثورة وجدناها ذات مستويات مختلفة ، تظهر لاول وهلة وكأنها متناقضة ، لكنها فى الواقع متكاملة ومتصلة .

فهي ثورة قومية بالنسبة للعرب لانها ابرزتهم بعد الخمول وشرفتهم بعد الضعة . وماذا كان يمثل العرب قبل الاسلام فى اعين الشعوب المجاورة لهم ؟ فى اعين الروم ، فى اعين الفرس ؟ تقريبا لا شيء : قبائل مشردة ، فقيرة تكابد مشاكل العيش فى ارض شحيحة، ويضطرها البؤس لحياة النجعة والصعلكة وللصوصية والاستجداء . الاسلام مكنهم من أن يتجاوزوا الحاجز القبلي ويخلقوا لنفسهم وحدة جديدة ، ويظهروا في العالم ، لاول مرة ، بمظهر الامة المتوثبة القوية التي لها ارادة واهداف جماعية . وتلك حالة خاصة ونادرة فى حياة الشعوب . واذا ما وقعت ، فانها تكون مصدر طاقات خارقة ظلت كامنة مع الاحقاب وزادها الكمون كثافة وثقلا .

وقد استطاع العرب بفضل المعونة الجديدة التي اكتسبوها أن يدخلوا الى التاريخ من الباب الواسعة من الباب التي لا تفتح الا فى اليوم الكبير ، باب المجد والسؤدد ، فغلبوا الدول العظيمة وانتشروا فى آفاق الدنيا واقاموا الدليل ــ وربما لاول مرة فى التاريخ ــ على ان مجموعة من القبائل الفقيرة تستطيع ، ان هي التحمت برباط الفكرة والعقيدة والايمان ان تكون شعبا كبيرا ، شعبا متفوقا على الشعوب العريقة في العلم والحضارة .

لكن هذا الانتصار المادي والروحي اذا تدبرناه مليا ، فانه لا يعني عرب القرن السابع الميلادي وحدهم بل هو يتعلق كذلك بالزمان السابق والزمان اللاحق ومعناه أوسع واشمل ، ولا يمكن فهمه الا اذا أدرج فى تاريخ الانسانية منذ العهد القديم . نعم ، انه انتصار يحرك كوامن التاريخ القديمة ، ويتجاوب مع اصداء العصور الغابرة المنسية ، وذلك لانه يعيد النظر بصورة جدية وعميقة فى الوضعية التي كان يعيش عليها شعوب الشرق الادنى منذ عدة قرون . انه يكتسي صبغة انتقام تاريخي ، انتقام لكرامة تلك الشعوب وما عانته من ذل وهوان تحت وطأة الاستعمار الاجنبي . فكأن محكمة التاريخ التي لا تنعقد الا فى المهمات أصدرت حكمها يومئذ باندحار الاستعمار البيزنطي والروماني والفارسي وقررت ان يكون تحرير الشعوب المستعبدة على يد العرب .

ان انتصار العرب فى القرن السابع يكون حلقة مهمة داخل الصراع الذي قام بين الشعوب السامية والآرية منذ الاحقاب الغابرة . ولقد كان نجم الشعوب السامية آفلا منذ زمان طويل . والى الوثبة الاسلامية الكبرى ، لم تقم لتلك الشعوب قائمة تذكر منذ الهزيمة التي منى بها القائد القرطاجي الكبير « حنبعل » في معركة زاما (اواخر القرن الثالث قبل الميلاد) ، وانمحت دولة قرطاج السامية من الوجود بعد ان كانت كوكبا ساطعا فى سماء البحر المتوسط تملي على التاريخ فيكتب . ومنذ ذلك العهد خضعت الشعوب السامية فى ذلة ومسكنة للغطرسة الرومانية والبيزنطية وللطغيان الفارسي ، ولم يفلت منها الا العرب المعتصمون بصحرائهم . وربما كان فى هذا البعض من سر الانفة والاباء التي اتصف بها العرب منذ جاهليتهم العريقة والتي تظهر بوضوح فى مفاخرتهم الشعرية .

ومهما يكن، فان ظهور الاسلام أعاد لتلك الشعوب وجودها بعد ان كادت تهضم فى كيان الشعوب المتغلبة، وتتناسا شخصيتها وثقافتها الاصلية . واذا كان في التاريخ عبرة ، ففي هذا الذي نذكر الان عبرة واي عبرة ، اذ نرى القصة تتكرر فى عصرنا فتنقض الدول الاوربية القوية على شعوب الشرق الادنى المستضعفة وتستعبدها بالوسائل العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية . ورغم تحرر تلك الاقطار الشرقية الان ، فلا زالت لم تسترجع كامل ثقتها بنفسها ولم تتخلص من المركبات والعثرات ، وذلك لانها لم تجد بعد القوة المعنوية الدافعة التي تسلحت بها حين ظهور الاسلام .

ومن جهة أخرى ، فان حادث ظهور الاسلام ترتب عنه مراجعة عميقة للاوضاع الاقتصادية في العالم . ولا اشير هنا الى الثروات الضخمة التي تجمعت فى يد المسلمين ولا الى الازدهار الاقتصادي الذي عرفته ضفاف الرافدين والنيل وربوع الشام وديار المغرب والاندلس . وانما اشير الى التأثيرات الاقتصادية التي نجمت عن ظهور الاسلام فى بلاد اوربا

وبلاد الشرق الاقصى . وهذا موضوع بالغ الاهمية عالجه المؤرخ الكبير المعاصر «جاك بيرين» Jacques Pirenne في كتاب كان له صدى كبير في الاوساط العلمية . وساكتفي هنا بتلخيص فكرته في فقرة قصيرة .

فهو يجمل نظريته في هاته العبارات :

« لقد ترتب عن الفتوح الاسلامية تجديد حقيقي للاقتصاد العالمي . وبفضل السلم الذي ساد في البحر المتوسط وفي آسيا الصغرى ، فقد نشطت المبادلات الدولية وتضاعفت بنسبة عظيمة تبعا لوحدة العالم الاسلامي الممتد من قرطبة الى الهند .

اما بيزنطة ، فقد عرفت هي ايضا الازدهار ، بما فتحته لنفسها من طرق تجاه الشمال . وفي نفس الوقت ، بلغت الصين منتهى اشعاعها . وفي اوائل القرن الثامن الميلادي كانت آسيا كلها داخلة في حكم الامبراطوريتين الاسلامية والصينية ، في حين كان الاقتصاد الاوربي كله متجها نحو الامبراطورية البيزنطية . وكانت المبادلات كثيرة ومستقرة بين هاته الامبراطوريات الثلاث . وساد الشعور بان عهدا من الاستقرار سينفتح في تاريخ العالم (1) » .

« وبيرين » الذي ليس مسلما ولا متعصبا للاسلام يتأسف ، بالطبع ، لبعض النتائج التي ترتبت عن ظهور الاسلام . ومن جملة ذلك اسفه لضياع الوحدة المتوسطية التي تحققت في عهد الرومان ، اذ كان هؤلاء يسمون البحر المتوسط « بحرنا » وضياع هذه الوحدة معناه تقسيم العالم الى قوى متطاحنة .

والواقع ان هذه الوحدة « لو تحققت ، ما كانت الا صورة مقنعة لسيطرة دولة واحدة على سائر الشعوب . فنظرا لروح العصر وتقاليده ، فلم يكن من الممكن أن تتحقق في دائرة التآخي والمساواة بين الاجناس والشعوب . ولذلك ، فان الاسلام جاء كثورة ضد الامبريالية البيزنطية الرومانية والامبريالية الساسانية ،ووضع حدا للاستغلال الاقتصادي التي كانت تعانيه عدد من الامم . والانقسام الذي حدث في البحر المتوسط رد لتلك الشعوب كيانها وشخصيتها ، ولم يمنع التبادل الاقتصادي بين اوربا وبلاد الشرق الادنى والشرق الاقصى . فقد كانت اعظم الطرق التجارية العالمية في العصر الوسيط تمر بالضرورة من بلاد الشرق الاوسط أي من العالم الاسلامي . واكبر دليل على ذلك هذه الشهادة الفردية التي يقدمها لنا عميد الجغرافيين العرب : ابو القاسم عبيد الله ابن خرذاذبه عن التجار اليهود الذين كانوا يذهبون من جنوب فرنسا الى الشرق الاقصى :

« هذا مسلك التجار اليهود الرذانية (2) الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والافرنجية والاندلسية والصقلبية . انهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز (3) والفراء والسمور (4) والسيوف ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما (5) ويحملون تجارتهم على الظهر (6) الى القلزم (7) وبينهما 25 فرسخا ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار (8) ثم يمضون الى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك ، والعود والكافور والدار صيني (9) وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم . فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما ساروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك . وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون في الفرات الى بغداد ، ثم يركبون في دجلة الى الابلة ومن الابلة الى عمان والسند والهند

1) هذه الفقرة ترجمناها عن كتاب : J. Pirenne: Les grands courants de l'histoire universelle, T. 2, p. 54

2) لعلها من كلمة « رهدان » الفارسية التي معناها الخبير بالطريق .

3) حيوان يتخذ من جلده الفرو .

4) هو ايضا حيوان يمتاز بفروه .

5) مدينة وميناء بمصر قرب العريش .

6) اي على الارض .

7) القلزم مدينة صغيرة على البحر الاحمر وقد انقرضت اليوم .

8) ميناء على البحر الاحمر بجزيرة العرب .

9) شجر هندي يشبه الرمان .

والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض » . (المسالك والممالك) .

هذا الدور الذي استطاع ان يلعبه العالم الاسلامي كوحدة متماسكة ، دور الوصل بين الشرق الاقصى واوربا ، هو الذي مكنه من التوفر على قوة اقتصادية هائلة في العصر الوسيط ، وبالتالي على حفظ نوع من التوازن الاقتصادي بين مختلف الشعوب في تلك العصور .

كان للثورة الاسلامية ، اذن جانب سياسي واقتصادي في النطاق القومي والعالمي . ولكن كان لها، ايضا ، جانب اجتماعي واخلاقي وانساني هو الذي سنعرض له من بعد .

— يتبع —

سلا : محمد زنيبر

صحيفة س ب الاسبانية تكتب مقالا بعنوان :
جلالة الحسن الثاني يوجه نداء الى الوحدة الاسلامية

كتبت صحيفة (س ب) الاسبانية مقالا تحت عنوان « جلالة الحسن الثاني يوجه نداء الى الوحدة الاسلامية »، قالت فيه على الخصوص : « ان المغرب المتشبث بدين الاسلام الحنيف ، والمتمسك بسيرة النبي محمد صلوات الله عليه في اصدق مظاهرها ، قد اصبح مركزا اسلاميا مشعا، وأن اتصالي الجديد بالمغرب قد ادهشني كثيرا عندما لاحظت ان شهر رمضان قد مر في خشوع وابتهال ، وهو جو روحاني عميق ، كما ان عيد الفطر قد تميز بحضور علماء اجلاء أتوا من ثمانية عشر بلدا اسلاميا ، والواقع اني تصورت نفسي قد انتقلت الى ايام الخلافة الاسلامية باصالتها وروعتها ، وان الفضل في هذا البعث الروحي يرجع الى جلالة ملك المغرب ، فالعاهل المغربي قد كرس جهوده منذ اعتلاء عرش اسلافه المنعمين لخدمة القيم التي كانت في القدم اساس انطلاقة المسلمين ، وشعار نهضتهم وهو يرمي من وراء هذه الجهود الى بعث وحدة المسلمين ماديا وروحيا .

وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى ان الخطاب الذي وجهه الى العالم الاسلامي قد تضمن معاني سامية في المجال الديني والفلسفي والسياسي. ويستطرد مراسل الصحيفة الاسبانية بقول : « الحقيقة ان هذا المركز الاسلامي الذي هو المغرب اصبحت تصدر عنه قرائن لانطلاقة سياسية واقتصادية تضاف الى النهضة الروحية حينما ما دعا الى ذلك الملك الحسن الثاني عند ما تكلم عن العالم الاسلامي الموحد .

دلالة القرآن على صدق الرسول عليه السلام

في نظر الفيلسوف ابن رشد

للأستاذ : محمد الطنجي

ان هداية الله للبشر هي اعظم نعمه على بني الانسان حتى يعرفوا ربوبيته ويحسنوا شكره وعبادته ، ويترسموا مواقع رضاه فتتطهر نفوسهم بتقواه ويحسن سلوكهم ومعاملاتهم بهداه .

وان معجزة الوحي شغلت العقول قديما وحديثا فآمن بها كل من شرح الله صدره ، وجحدها من اتبع شهواته وهواه ، ولكنها شقت طريقها في الوجود الانساني ووجهت المجتمعات في مختلف اطوار التاريخ الى اكرم الفضائل ، واتخاذ خير الوسائل لتحسين الاوضاع ، وبناء الحضارات واكتساب المعلومات في جميع الاصقاع ، وان جحد وجود الوحي الملحدون وكابر في هدايته المتنطعون ، واذا كان شرف العلم بموضوعه وغايته ، فموضوع العلم الديني معرفة رب العالمين بأوصاف ربوبيته ، وعبادته بما شرعه على السنة رسله حق عبادته وغايته وثمرته هداية ربانية للنفوس ، ورقي وسمو للارواح ، وتربية لها بالتحلي بفضائل ، هي العنوان الكامل لكل صلاح ونجاح .

وكثير من الاخوان يذكرون في مناسبة التعرض لانزال القرءان كيفية نزوله على الرسول ، واول ما نزل منه على قلبه الامين دون الاشارة الى محتوى رسالته الخالدة ، مع ان الكيفية والشكل هو حرز للمصون ، وغشاء فقط للجوهر المكنون ، والسيف الصيقل في الحرب قيمته في قطعه وحده ، لا في حليته وغمده .

فما هي حجة صدق الوحي ؟

الف الفيلسوف الاسلامي ابن رشد رحمه الله كتاب مناهج الادلة ، فازال بها عن القلوب والعقول كل شبهة وعلة ، ونحن نقتطف منه زهرات في الحديث عن رسالة خاتم النبيئين وصدق الوحي اليه من رب العالمين ، قال رحمه الله : كون القرءان دلالة على صدق نبوته عليه السلام ينبني عندنا على اصلين قد نبه الكتاب عليهما : احدهما ان الصنف الذين يسمون رسلا وانبياء معلوم وجودهم بنفسه ، وان هذا الصنف من الناس هم الذين يضعون الشرائع للناس بوحي من الله ، لا بتعلم انساني ، وذلك انه ليس ينكر وجودهم الا من انكر وجود الامور المتواترة كوجود سائر الانواع التي لم نشاهدها والاشخاص المشهورين بالحكمة وغيرها ، وذلك انه قد اتفقت الفلاسفة وجميع الناس الا من لا يعبأ بقوله وهم الدهرية على ان هاهنا اشخاصا من الناس يوحى اليهم بأن ينهوا الى الناس امورا من العلم والافعال الجميلة بها تتم سعادتهم ، وينهونهم عن اعتقادات فاسدة وافعال قبيحة ، وهذا فعل الانبياء .

والاصل الثاني ان كل من وجد عنه هذا الفعل الذي هو وضع الشرائع بوحي من الله تعالى فهو نبي ، وهذا الاصل ايضا غير مشكوك فيه في الفطر الانسانية ، فانه كما انه من المعلوم بنفسه ان فعل الطبيب هو الابراء وان من وجد منه الابراء فهو طبيب ، كذلك ايضا من المعلوم ان فعل الانبياء عليهم السلام هو وضع الشرائع بوحي من الله وان من وجد منهم هذا الفعل فهو نبي .

ثم اشار الفيلسوف ابن رشد الى تنبيه القرءان على قضية بعث الرسل المعلومة عن طريق التواتر من غير القرءان بقول الله تعالى : « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيئين من بعده » وقوله : « قل ما كنت بدعا من الرسل » .

وفي نفس الموضوع استدل الفيلسوف ابن رشد على كون شرائع الانبياء بوحي من الله قائلا : ان ذلك يعلم بامرين بما ينذرون به من وجود الاشياء التي لم توجد بعد فتخرج الى الوجود على الصفة التي انذروا بها ، وبما يامرون به من الافعال ، وينبهون عليه من العلوم التي ليست تشبه المعارف والاعمال التي تدرك فتعلم ، (يعني بذلك المعجزة) ، ثم قال : وذلك ان الخارق للمعتاد اذا كان خارقا في المعرفة بوضع الشرائع دل على ان وضعها لم يكن بتعلم ، وانما كان بوحي من الله ، وهو المسمى نبوة ، وقال ايضا رحمه الله : ان المعجزة في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة ، واما المعجزة في غير ذلك من الافعال فشاهد لها ومقو » .

هذا بعض ما سجله ابن رشد في شأن بعثة الرسل والدلالة العقلية على صدقهم في دعواهم الوحي بما ابرزوه من علوم خارقة دون تعلم ، وشرائع هادفة من غير ممارسة لدراسة القوانين والحياة في بيئة علمية تبعث الشك فيما جاء به الانبياء من علوم وعقائد واخلاق ضمنت الحياة السعيدة لمن آمن وعمل بها في اي زمان ، وكل من تتبع قصص الانبياء مع اممهم ، وادرك الحكمة التي تتفجر من عقولهم ، والشرائع التي اوحى الله اليهم، يزيد يقينا بصدقهم وامانتهم وتبليغهم رسالات ربهم الى خلقه ، وانتفاء شبهة الكذب والخيانة وعدم تبليغهم لشريعة الله ودينه الى العباد .

وقال الامام ابو القاسم الراغب الاصبهاني : لكل نبي آيتان احداهما عقلية يعرفها اولو البصائر من الشهداء والصالحين ومن يجري مجراهم .

والثانية حسية يدركها اولوا الابصار من العامة .

فالاولى ما لهم من اصولهم الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة لهم الى آخر كلامه .

وهكذا يتفق ابن رشد والراغب على معرفة الانبياء بالمعارف الباهرة ، والاخبار عما لم يكن فيكون

ومن المناسب ان نذكر بعض الامثلة من الامور الموحى بها الى الرسول التي اكتشفت او التي وقعت بعد ما اخبر بها الرسول على الصفة الذي ذكرها ، اولها حفظ القرءان من التغيير والتبديل الذي طرا على الكتب المقدسة قبل القرءان ، فانه محفوظ بلغته اولا ، ولا يوجد كتاب مقدس محفوظا بلغته الاصلية غير القرءان ؛ كما انه محفوظ بكلماته وجمله وطريقة ادائه منذ عهد انزاله بعد ما مر على هذا الانزال اربعة عشر قرنا كاملا ، كما تذكر الاية الكريمة : « انا نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ، بخلاف من كان قبلنا ، الذين نسوا حظا مما ذكروا به او كانوا ممن قال الله فيهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » .

ومن ذلك اخبار القرءان بعد ما غلب الفرس الروم وكلا الدولتين تجاوران البلاد العربية التي بعث فيها رسول الاسلام ، فقال القرءان : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » ، اي وهم سينتصرون على الفرس بعد ان غلبهم الفرس فيما دون عشرة اعوام وكذلك كان ، وتحقق خبر القرءان .

ومن اخبار القرءان التي تحققت في اجلى مظهر ان سورة « انا فتحنا لك فتحا مبينا » نزلت بعد رجوع النبي من العمرة التي ارادها في السنة السادسة من الهجرة فمنعته قريش ، وكان صلح الحديبية ، وفي هذه السورة : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ، وبعد سنتين كان وحصل فتح مكة بالفعل فدخل الناس بعد هذا الفتح في دين الله افواجا .

والنبي وان كانت رؤيته التي هي حق وقعت قبل عمرته الا ان هذه الرؤيا المتعلقة بدخول مكة لم تكن معينة الزمان حين حصلت للرسول فتحققت بعد ذلك بسنتين فقط . والمقصود هو تحققها في الواقع وان تراخي الزمان ومثلها في التحقق بعد تراخي الزمان رؤية نبي الله يوسف عليه السلام حيث تحققت بعد كبره ومكوثه بالسجن وتوليته امر مصر فقد كانت الرؤيا في صباه كما حكت الاية القرءانية : « اذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ، قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا » ؛ فبقيت هذه الرؤيا في طي الغيب والكتمان حتى تولى امر مصر فكان ما قصه الله في القرءان حيث قال : « ورفع ابويه على العرش فخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تاويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا .

ومن اخبار القرءان التي تحققت الوعد الصادق من الاستخلاف في الارض وتمكين الدين الاسلامي فيها بعد الخوف والضعف وهو المذكور في قول الله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم امنا .

ومن ذلك ان بعض المسلمين كانوا يحرسون النبي بعد العداوة الشديدة التي اظهرها له اعداء الاسلام ، فلما نزل قول الله تعالى : « والله يعصمك من الناس » صرف النبي من كان يحرسه موقنا بحفظ الله له وعصمته له من الناس ، فلم تحدث له اية آفة منهم حتى وافاه الاجل عليه الصلاة والسلام .

هذا زيادة على ما اشتمل عليه القرءان من العلوم الالاهية واصول العقائد الدينية واحكام العبادات وقوانين الفضائل والاداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي بما في ذلك الاحوال الشخصية وغيرها مع موافقة مبادئه وقواعده لكل زمان ومكان ،

ويقول الفيلسوف ابن رشد ان معرفة وضع الشرائع لن تنال الا بعد المعرفة بالله وبالسعادة الانسانية والشقاء الانساني وبالامور الارادبات التي يتوصل بها الى السعادة ، كما يذكر حاجة واضع الشرائع ان يعرف ما يكون به الجمهور سعيدا من هذه المعرفة واي الطرق التي ينبغي ان تسلك بهم في هذه المعارف ، وهذا كله بل اكثره ليس يدرك بتعلم ولا صناعة ولا حكمة ، وقد يعرف ذلك على اليقين من زوال العلوم وبخاصة وضع الشرائع وتقرير القوانين والاعلام باحوال المعاد ، ولما وجدت هذه الامور كلها في الكتاب العزيز على اتم ما يمكن ، علم ان ذلك بوحي من عند الله وانه كلامه القاه على لسان نبيه ، ولذلك قال تعالى منبها على هذا : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرءان لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

وزيادة في تاكيد عدم تعلم الرسول او تلقيه لاي معلومات جاء قول الله تعالى : « و ماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون » . هذا ومشركو قريش اعرف الناس بسيرته وحاله قبل دعوى الرسالة فلم يكذبوه في هذا ، وينبغي ان نختم هذا الحديث بحديث ورد في صحيح البخاري من اخباره عن المغيبات حيث قال عليه : يوشك الفرات ان يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا ياخذ منه ، قال ابن التين شارح الحديث انما نهى عن الاخذ منه لانه للمسلمين فلا ياخذ منه الا بحقه فناحية الفرات من العراق والكويت وايران هي المناطق الغنية بالبترول الذي يسميه اهل هذا العصر الذهب الاسود وكان كنزا مخفيا قبل ان ينكشف ويظهر كما كان الناس يومنون بقول النبي بوصفه خبرا نبويا دون معرفة كيف يتحقق ، ويمكن والله اعلم ان تكون الاشارة به الى هذه الثروة البترولية التي صارت عماد حركة العالم المعاصر مع تسمية اهل العصر لها الذهب الاسود .

وبعد فان القرءان هو الذي اعلى شان الامة العربية بعد انحطاطها ، فجمع شملها بعد شتات وقوى عزائمها بعد ضعف ، وبواها اشرف مكانة في الوجود، مكانة المرشد المعلم المهذب للاخلاق ، الباعث للروحانية المثلى ، والقيم الاخلاقية ، التي رفعت من شان المسلمين ، بل من شان الانسانية بوجه عام ؛ فعسى ان نراجع ديننا ونعتصم من جديد بشريعة القرءان التي صاحبتها السعادة والفلاح والرشاد ، كما صاحبتها العزة التي كتبها الله للمومنين حيث قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمومنين » .

الرباط : محمد الطنجي



قم فى حراء مكبرا ومهللا … وتمل من أنواره متبتلا
واكرع من النبع المقدس عنده … كرعا يعيد لك الزمان الافضل
وتمل من آثار أحمد ضارعا … متخشعا بدعائه متوسلا
واذكره فى ارجائه متيمنا … متحننا متحيرا متعقلا
متبصرا فى حال امته التي … سلكت سبيلا فى الغواية معضلا
عبدت سوى الرحمان جل جلاله … فتعبدتها الجاهلية همـلا
وغدت تعيش الغشم فى انماطه … يذكيه عقل بالخرافة اثقل
لا الدين يهديها الحياة ولا لها … فكر باسباب الرشاد توسل
عجبا لها تئد البنات ولا ترى … فى العيش الا ان تغير وتقتل
صور من العيش الحقير تمدها … مثل من العادات لن تتبدل
واذا فتى من نفسها قد هاله … شعب لانواع الجهالة حمل
كيف السبيل الى انارة فكره … والى هدايته الطريق الامثل
ويهاجر الاعراب فى غمراتهم … متدبرا فى امرهم متأملا
ولدى حراء بخلوة احدية … يدعو السماء ويستمد الموئلا
لم يدر ما الايمان او اسراره … او ما الكتاب وما به قد حصلا
ما كان يرجو ان ينبا لحظة … او كان يطمع ان سيصبح مرسلا
لكنه التوحيد يملا قلبه … والشرك قد غطى القلوب واسبل
رباه اني قد ضللت وانما … منك الهداية فاهدني سبل العلا
رحماك ربي امتي وعشيرتي … وجميع ابناء البسيطة ابهلا
كل البرية عبدو لرؤوسهم … فتحملوا الذل الذي لن يقبل
يا رب حرر كل انسان فقد … طغت الرؤوس على الشعوب تختلا

ويمدهم رهبانهم في غيبهم ... ويحرفون الدين عنك تقولا
من للبرية من يعيد حياتها ... علما وحرية ودينا مكملا
ويحس صوتا رن في أعماقه ... ودبيب موج في الفضاء مزلزلا
ويجيل طرفا في السماء فلا يرى ... الا عجيبا للمشاهد قد ملا
ويحس خوفا ، هل يعود لاهله ؟ ... انى السبيل ؟ وكل باب اقفلا
واذا بها لحظات انس تنجلي ... واذا بجبريل الامين به ، خلا
نادى به، اقرأ. ما قرأت وكيف لي؟ ... هل يقرأ الامي سطرا مهملا ؟
ويضمه حتى يحس عناءه ... ويرده نحو الوجود ليعقلا
ويعود، اقرأ . ما قرأت وكيف لي؟ ... ويضمه حتى يحس تحولا
ويعيده ، اقرأ باسم ربك ، انها ... كلمات أمر للبرية تجتلى
تلك النبوءة في بسيط جمالها ... لا المال لا السلطان لا نسب العلا
اقرأ ، وحسبك آية علوية ... لم يتلها من قبله ، من رتلا
ويعود احمد مخبرا عن حاله ... والخوف يملا قلبه مما ابتلى
لله صدر خديجة اذ ضمه ... وحنا عليه تعطفا وتجملا
حاشاك يخذلك الاله ، وانما ... تاتي المكارم رحمة وتفضلا
والى ابن عم خديجة تاتي به ... حتى يفسر ما قراه وما اجتلى
هذا هو الناموس لا تجزع فقد ... اصبحت للامر العظيم مؤهلا
ويظل احمد خائفا مترقبا ... متقلبا في كونه ، متجولا
ويخاف بعد الوصل هجرا حارقا ... ويزيده الشوق الذي قد أشعل
واذا بجبريل الامين وقد بدا ... في الافق ، يدعو قم وانذر للملا
قام النبي بدعوة ميمونة ... وغدا على اقوامه متنقلا
الله ربي ، والصلاة دعاؤه ... والمال مال الله ، ليس لمن علا
والحج للبيت الحرام فريضة ... فيه اخاء المسلمين تأمل
والناس في الدنيا سواء حقهم ... والواجبات عليهم لن تفصل
والسلم حق للجميع فمن يرد ... غير السلام فقد بغى وتختلا
وتعيش اخلاق النبوءة بيننا ... وتجد للانسان خلقا مذهلا
من كان يامل أن سيصبح قومنا ... أسمى الشعوب تقدما وتعقلا ؟
لولا كتاب الله لم ينهض لهم ... قدر ولم يصلوا المقام الاول
لله خير الخلق حين دعاهم ... بطلا بأسباب النجاح تسربل
قاسى الشدائد منهم لكنه ... كان الغفور السمح والمتحملا
ويعود للغار السعيد مهاجرا ... وصديقه الصديق لن يتململ
ويقول ، لا تحزن فان الاهنا ... معنا ، وحاشا ان نضام ونخذل

ايمان قلب بالنبـــوءة عامـــر ... وسلوك فرد بالكتاب تأثـــل

ما كان أحمد غير قرآن علـــى ... وجه الثرى يمشي اماما مجـزلا

بحديثه وبيانـــه وسلوكـــه ... وسكوته يهدي البرية مفضـــلا

لله سنته الرشيـدة منهجـــا ... من سر اسرار الكتاب تنـزل

لله اصحاب النبـــي فانهـــم ... نقلوا لنا الدين الطري الاكمـل

ثاروا على ماضيهم وتسربلـــوا ... بلباس آيـــات الاله تقبـــلا

سهرتهم الآيات فانفعلت لهـــم ... صور الوجود فما ارادوه انجلى

تخذوا كتاب الله مقياسا لهـــم ... ومشوا على نهج الرسول وما تلا

كم حرروا من امة ، كم شيدوا ... من حكمه كم وطدوا اسس العلا

حملوا الرسالة دعوة وثقافة الانـ ... ـسان علما والعدالـة منهـلا

وغدوا على قمم الزمان كأنمـــا ... حملت يد الازمان منهم مشعـلا

ولقد مضت هذي المئات من السنـ ... ـين وكل عصر منهم قد اثـل

والصالحون السالكون سبيلهـــم ... اثر لهم عن نهجهم لن يعـدل

لله ابطال القـــران جنـــوده ... حفاظه حراسه مـذ انـــزل

حملوا لنا القرآن غضا ، ناصعا ... ما ان يلاحقه على الدهر البـلا

وبكـل يوم آيـة مجلـــوة ... تهدي النفوس الى معارف تجتلى

نتلوه فـي ايامنا وكأنمـــا ... فينا به جبريل عاد مجلجـــلا

وبكل عصر تجتلي آياتـــه ... وحيا جديدا للبرية ما خـــلا

صور من الاعجاز يكشفها الزمـ ... ـان فتكسب الاعجاز معنى مقبلا

تتفاعل الاعصار في ابـــرازه ... كتفاعل الاسـرار امــا أو لا

يا ليلة القدر التي شرفت بـــه ... وسمت على الف الشهور تنـزلا

فيك الحضارة كلها قد جمعـت ... وبك الهنا للعامليـــن تأثـــل

قدر الاله بك الامور قاطبـــة ... سمة الامور لمن اراد تأمـــلا

انا لنحيي فيك ميلاد السنـــا ... والمجد والعرفان يوم تأصـــلا

والعدل والاحسان والتقوى وما ... يهدي السعادة والسلام الاجمل

انا لنحيي فيك ايمان الـــورى ... بالله والانسان يـوم تحمـــل

انا لنحيي لحظة الانس السعيـ ... ـدة في حراء وسرها المتنقل

ذكرى نزول الوحي في ارجائـه ... ومحمد يصغي لما قد انـــزل

واذا بدنيانا حـــراء كلـــها ... وكان جبريلا يردد مـا تـــلا

وكأننا من حول احمد خشـــع ... جمع الزمان به فيا ما اجمـــل

* * *

يا امة قرآنهـا دستورهـــا ... وزعيمها كان النبي المرســـل

عودي الى الدين الحنيف عقيدة　　وشريعة وتخلقـا وتعقـلا
ما في سوى القرآن خير يجتبى　　او في سوى الاسلام نهج يبتلى
الله خارك للرسالة فانهضي　　لتواصلي عمل الجدود الاول
ميراث احمد دينه وكتابه　　لك عدة تغنيك عما اعمل
قل للذين رشوا ثقافة غيرهم　　وتصوروا الاسلام عهداً قد خلا
ايليق ان تبقى العروبة بيننا　　جسدا بلا روح ولفظا عطل ؟
جربتم دعوات غير محمد　　ماذا جنيتم هل عقدتم موصلا ؟
هذي فلسطين الجريحة اصبحت　　بيد اليهود اسيرة لن ترسل !
والقدس اولى القبلتين يحده　　اعداء احمد كي يقيموا الهيكل
مسرى النبي ومبدأ المعراج قد　　اضحى به دين النبي معطلا
ماذا اتت نهضاتكم ؟ ماذا بنت　　اراؤكم ؟ ذلا وجبنا مخجلا ؟
ايه ؛ بغاة المرب يا من زوروا　　باسم التقدم شهوة وتعبهلا
عودوا الى الاسلام يصلح شأنكم　　وينلكم نصرا مبينا في الملا
ان العروبة لا تعود لمجدها　　الا كما كانت بلاغا منزلا
وبلادنا والقدس درة تاجها　　بيد الجهاد تفك فكا معجلا
لا ينصر الاسلام الا مومن　　باع الحياة لربه وتوسلا
انى ينال الجند نصرا ان هم　　خاضوا المعارك دون عقد او ولا؟
تالله لن تتحرروا او تدركوا　　بسوى الحنيفة غاية او منزلا
العالمون جميعهم في حيرة　　لم يظفروا بحراء فيها معقلا
عبدوا المتاع فاصبحوا في نكبة　　لا يعرفون لها علاجا معملا
شغلتهم اموالهم وحروبهم　　فغدت حضارتهم جحيما مشعلا
الجاهلية عاودت كل الدنا　　وبغير احمد فعلها لن يبطل
قوموا انشروا هدى الرسول ودينه　　بين الورى ، اجدر به ان يقبلا
لم يجمع الروحين الا هديه　　فهو العلاج لكل ما قد اشكل

* * *

يارب يامن يستجيب لدعوة المظلوم　　والمقهور يا من لا يضيع مؤملا
يامن يجير المستجير ويرحم المضطر　　يامن يكشف السوء المبرح والبلا
يا راحما ايوب في ظلماته　　يا ملهما لابي البرية معدلا
يا هاديا خير البرية في حرا　　لما عليك لهديه قد عول
يا واهب النصر المبين لاحمد　　في غزوة بعد امتحان اهول
يا رادعا اهل الصليب وقد طغوا　　لما صلاح الدين هب مجلجلا
يا منقذا للقدس من طغيانهم　　يا من اطاح بجيشهم حتى جلا

ضاقت بنا سبل النجاح ولم يزل ... الاك عونا للنجـــاة موصـــلا

اغفر ذنوب المسلمين فانهـــم ... خانوا الامانة واستحقوا الابتلا

رد اعتبار الدين فى افكارهـــم ... واعد لهم روح الامانة والـــولا

غير نفوسـهم لتصلح بالهـــم ... واسلكهم فى الصالحين تفضـلا

يا رب انقذ ارض قدسك انهـــا ... بك تحتمي وحماك ما ان يختلى

يا رب حررنا وحرر ارضنـــا ... وشعوبنا من كل ما قد كبـــل

وبليلة القدر السعيدة اننـــا ... نرجوك عدلا للبرية معمـــلا

انشر سلامك فى الوجود باسـره ... واجعل اخاء الناس فيه مكمـلا

الرباط 26 رمضان 87 13 هـ موافق 28 ديسمبر 1967م

الرباط : علال الفاسي





للأستاذ عمر السائح

اربعة عشر قرنا خلت على نزول القرآن الكريم الذي كان بداية انطلاق الاسلام ، وكان الدليل القاطع على صدق نبوة الرسول عليه السلام ، ولم يكن فى الوسع ان تكون للنبي حجة على صدق رسالته الا فى هذا الكتاب المعجز المبين .

ومن العسير ان ناخذ انفسنا فى البحث عن اسرار اعجاز القرآن ، هذا الاعجاز الذي اصبح فنا قائما بذاته شغل المفكرين المسلمين وما يزال ، يرى بعضهم ان الاعجاز فى الكلمة القرآنية وما فيها من طاقة توحي للنفس بالقوة والتفكير ، ويرى بعضهم ان الاعجاز فى التعبير القرآني وما فى بيانه من سحر ، ويرى آخرون ان القرآن معجز بما فيه من قوانين تشريعية خالدة وما فيه من اقاصيص عن سيرة الاولين وحياتهم ، ويرى فريق منهم ان الاعجاز فى سرد مغيبات الاحداث ، ويذكر فريق آخر ان الاعجاز فى الصرفة عن المعارضة .

ولكن الحقيقة التي لاشك فيها ان الذين سمعوا القرآن انقلبت حياتهم راسا على عقب ، فبعد ما كانوا اميين يعيشون فى صراع وشقاق اصبحوا امة حية قوية العقلية ، قوية الايمان . تؤدي رسالتها الانسانية وتشعر بعبء مسؤولية تحرير الانسانية جمعاء من الجهل والضلال والتاخر ، واذا بها امة تترك الجزيرة العربية متجهة الى فارس والصين والهند وما وراء النهر من ناحية الشرق او الى افريقيا شمالها ووسطها واقصاها من ناحية الغرب ، ثم تتجاوزها الى جزيرة اسبانيا وتعبر شمالها الى ان تقف فى بلاط الشهداء ، وتكاد أن تسير متجهة الى الشرق لتتصل بفتوح المسلمين فى آسيا الوسطى لولا أن تقف العقبات دون تحقيق هذه الامنية ، ولم تكن هذه الامة الجديدة تفتح الارض والبحار وانما كانت فى نفس الوقت تغزو مجاهل الفكر أيضا ، فالقرآن الذي جعل منها امة هادية مهدية جعل منها امة شاعرة مفكرة أيضا ، فقد عكف المسلمون على دراسة القرآن ليبحثوا عن الكلمات اللغوية واشتقاقاتها ويتجاوزون الكلمة الى العبارة القرآنية وبلاغتها وبيانها وبديعها فاذا بالباحثين والنقبين امام فنون لسانية بليغة خصوها بالكتب العديدة والتآليف الواسعة ، واذا هذه الدراسة اصبحت مصدرا للعلوم اللسانية والادبية والنقد ثم اخذوا يبحثون فى القرآن على اساس ما فيه من التشريع والاحكام وقوانين استنبطوا منها الفقه واصول التشريع المدني والجنائي وقوانين العلاقات الفردية والاجتماعية والاممية ثم درسوا العقيدة الاسلامية فى القرآن ، وتجادلت مختلف الطوائف فى فهمها ، واضطروا ان يترجموا الحكمة اليونانية والفارسية والهندية كما اشتغل فريق منهم بتحليل الجوانب العلمية والرياضية ، فعرفوا من القرآن كروية الارض واختلاف الليل والنهار عليها وسير النجوم فى مداراتها ، وبذلك كان القرآن الكريم مصدر دراسة مختلفة الاتجاهات والاختصاصات كما اشتغل كثير من المفكرين بشرح القرآن وتفسيره كل حسب تخصصه فكانت حياة النهضة الاسلامية ترتكز على القرآن الذي كان دستور المسلمين والاسلام والذي

كان مصدر الدراسات الفقهية والفلسفية والصوفية والعلمية أيضا .

وقضى الله ان يظل القرآن محفوظا بعنايته ولكن مسخت عقول كثير من المسلمين وقست قلوبهم فاذا هم يقرأونه وفى آذانهم وقر لا يعطيهم شيئا ولا يمدهم بمعرفة ولو اقبلوا عليه متفهمين واعين كما اقبل عليه آباؤهم لكان مصدر خير كبير ولغير الله ما بهم عندما يقراون القرآن مخلصين واعين .

والمسلمون يتلون القرآن صباحا مساء ويرددون كلماته فى خلوتهم وفى مجالسهم ويستشهدون بالآيات فى علومهم ومعارفهم ولكنهم لا يعون دعوته ولا يفهمون مراميه واغراضه ، وانما يتلونه بالسنتهم ولا تتجاوز التلاوة حناجرهم ولا تعي عقولهم شيئا مما يدعوهم اليه من تفكر وتذكر ، ولا تستجيب عواطفهم لما يأمر به من محبة واخوة قد خرج عمليا من تشريعاتهم وقوانينهم واصبحت جامدة او معطلة وابتعدوا عن دعوته فاذا قلوبهم قاسية او اشد قسوة من الحجارة ونبذوا ظهريا كل تعاليمه، واستوردوا نظريات اجنبية عنهم وآراءبعيدة عن بيئتهم وعقليتهم ووجدانهم حتى اصبحوا غرباء فى ديارهم وبذلك تغيرت حالتهم من العزة الى الذلة ومن الغنى الى الفقر ومن العلم الى الجهل ومن الوضوح الى الغموض ، وتداعت عليهم امم وهم كثرة ليسوا بقلة ، ولكنهم كغثاء السيل ، ومن الغريب فى شان هذه الامة ان التعاليم التي فرطوا فيها تولاها اعداؤهم فاذا الكنيسة التي تختلف فى الاقاليم الثلاثة وطبيعة روح المراة وتستبد بالكتاب المقدس اصبحت تترجم هذا الكتاب وتضعه فى ايدي المؤمنين بها ليكون مقروءا من جميع المؤمنين به ، واذا بفريق منها يدعو الى بساطة الفن وتحطيم الايقونات Iconoclaste واذا فريق منها كذلك يؤول النصوص الدينية لينفي التشبيه ، واذا كثير من الفلاسفة والحكماء يرددون تعاليم الاسلام فيتكر نيوتن فولتير وساطة الرهبان ويدعون الى الدين الطبيعي المستمد من العقل لا من تعاليم الكنيسة، بل ينادي (جوته) فى المانيا بأن الاسلام اذا كان كما وصفته الكتب فهم المسلمون لانهم دعاة حرية الفكر والفضائل الانسانية ، وينتهي قبله القرن السابع عشر وهو يردد شعار كلمة عمر بالثورة الفرنسية (كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا .

أما المسلمون فلم ينتفضوا للتدبر فى القرآن حتى روعتهم مدافع الغرب فاستيقظوا ولم يجدوا عندهم من بقايا حضارتهم الا القرآن المحفوظ بعناية الله ، اما عالم الاسلام فدكته الايام دكا ، فالاندلس أصبحت مسيحية وتخلت تركيا عن الخلافة الاسلامية فازدادوا تفرقا وحيرة ولكنهم اعتصموا بالقرآن فكان بداية الحركة السلفية التي نادت بالرجوع اليه فامدها بقوته التي لا تقهر وطاقته التي لا تنفذ ، واستطاع المسلمون عندما رجعوا الى القرآن يتلونه وكانه ينزل عليهم لاول مرة كما يقول اقبال ، ان يستمدوا منه قوة لمواجهة العدوان المسلح وتسرب المبشرين والضغط السياسي والغزو الفكري المتتابع فى معاهد التعليم الاجنبي وما يكتبه اعداء المسلمين من المستعمرين والمأجورين وما تذيع الصحف والمجلات وتنشر القصص والمقالات من دعوات لينبذ الاسلام وتفويت معالمه وتعطيل أحكامه والرجوع عنه الى المسيحية او الالحادية الماركسية ، وهذه الدعوات على اختلاف مشاربها واتجاهاتها كانت فى معظمها تخضع لتاثير الصهيونية العالمية ، والاستعمار الغربي اللذين تحالفا معا على حرب القرآن لانه قوة جارفة ترد الطغيان والجور فعمدوا الى ترجمته محرفين كما طبعوه طبعات ممسوخة ليغيروه فما وصلوا الى شيء مما ارادوا واعتمدوا على المال لتحويل المسلمين عن الاسلام فاشتروا من العملاء انفسهم بأن لهم الدنيا ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا ان يشتروا المؤمنين جميعا لان الاسلام محفوظ فى القرآن وهو بيد المؤمنين جميعا راسخ فى صدورهم مردد فى افواههم فلم يستطيعوا أن يغيروا ما عصمه الله من التغيير ولا ان يطفئوا نور الله بافواههم واخيرا لجأوا الى القوة الغارمة يسفكون الدماء ويسعون فى الارض فسادا ، وما يزال المسلمون فى حربهم الضروس يحملون القرآن بين أيديهم شعارا فى هذه المعركة بين الحق والباطل والايمان والكفر والاستقامة والانحراف .

ومهما كانت المبادىء تخون اصحابها عند ما تتغير البيئات والازمان وفعالية الدعوة فان القرآن لم يخن المسلمين قط واعتقد انه لن يخونهم ابدا ، فمنذ نزول اول آية منه وهو يهيب بالناس ان يقرؤوا الى نزول آخر آية منه مفعمة بالرضى وهو مصدر رحمة بالمومنين وسلام بالناس كافة لم يكن سببا فى ازمة او فى حرب رغم ان كثيرا من المؤمنين اقحموه فى هذا الجدال السياسي او فى الجدال الحربي ، فقد رفعه اصحاب معاوية على الحراب حينما كادوا أن يغلبوا فى حربهم مع الامام علي فاوقف حروبهم الى ان تحاكموا الى ما فيه من حق ويقين ، وقبل هذا التاريخ بقليل لم يستنكف الثوار على الخليفة عثمان أن يريقوا قطرات من دم

راسه ممزوجة بقطرات من دم زوجته على صفحاته شهدت على ان الله تعالى سيكفيه شر الظلم وينتقم لدمه المسفوك فى حروب داهية ، وتجرا عليه الوليد الاموي فيما يروي بعض المؤرخين فمزق صفحاته ولكن الله مزق ملكه حفظا للقرآن وتبكيتا لاعدائه ، واثار خلفاء بني العباس مشكلة خلق القرآن ونحوا فى هذا الصراع السياسي كثيرا من المفكرين واصحاب المذاهب الكلامية من معتزلة وسنية وغير ذلك من الفرق وعذبوا كثيرا من المفكرين بهذا الموضوع الخطير الذي لم يثره القرآن وانما اثاره السياسيون والدوجماتيكيون ، ثم اختلف المفسرون وعلماء الكلام فى عبارات القرآن التي تفيد التشبيه فمنهم من أولها عن ظاهرها ومنهم من اخذها على حقيقتها فاختلفوا بينهم اختلافا شديدا اثار حروبا قلمية ودموية ، ونعرف فى المغرب ذلك الصراع الحاد بين المرابطين الذين يؤولون والموحدين الذين اولوا فسموا بالمجسمين ، واختلف الفقهاء كذلك فى فهم نصوص القرآن وكان اصحاب ابي داود فى العراق وأصحاب ابن حزم فى الاندلس يفهمون القرآن على ظاهره فى كل ما تعطي الكلمة اللغوية من ابعاد وتطرف فريق من غلاة الشيعة والمتصوفة فى الاخذ بباطن القرآن لا يفهمون منه كلماته على حقيقتها وانما يؤولونها تأويلا يناسب معتقداتهم ومعطيات وجدانهم ، وهكذا انحرف هؤلاء عن الطريق المستقيم الذي سنه القرآن رغم انه كتاب رحمة ومحبة وهدى واتفاق وجمع كلمة وتوحيد المسلمين كافة ، على أن القرآن الكريم محروس بعناية الله لم يتأثر بشيء من ذلك بل ظل محفوظا فى نصه وتلاوته مهما يختلف المفسرون فى تفسيره ، فكل هذه التفاسير جانبية عنه تتلاشى مع الايام ويبقى القرآن الكريم رحمة للناس كافة .

كما ترجم كثير من المستشرقين القرآن الى لغتهم بل ما من لغة فى لغات العالم الا وتتوفر على ترجمة للقرآن الكريم ، وليس من شك ان ترجمة القرآن تنبع من روح الذين ترجموه فمنهم من استخف بآياته واحكامه وتشريعاته فجاءت الترجمة مهلهلة ضعيفة تنقصها الروح ونزاهة الفكر ، ومنهم من حاول ان يقدم القرآن فى حرارة لغته وسمو دعوته ولكن هؤلاء جميعا لم يبلغوا الى ما ارادوا لسبب بسيط هو أن للقرآن بلاغته العربية الخاصة به واسلوبه المعجز وهو فى لغته لا يحتمل تقديما وتأخيرا ولا استبدال كلمة باخرى وكما جاء فى القرآن وهو يتحدى بلغاء العرب (قل لو اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

ولكن عمل هؤلاء المستشرقين كان ابلاغ دعوة القرآن الى المتكلمين بغير لغته ، ومهما اختلفت قيمة عملهم فهم دعاة اسلام شعروا بذلك او لم يشعروا ، واحبوا ذلك العمل ام كرهوه ، فالقرآن بقي دستور الاسلام وكتاب العربية وهم يقرؤون الاسلام فى ترجمة القرآن ويعرفون التفكير الاسلامي فى ترجمة القرآن كذلك ، وكما يستمعون الى حلاوة جرسه ويتأثرون بسمو نظرياته وكانهم يصغون الى قطع غنائية رائعة فيعرفون الكثير عن هذا الكتاب الذي قاد المسلمين طيلة اربعة عشر قرنا وسيظل يقودهم الى ان يرث الله الارض ومن عليها .

وكما ترجم المستشرقون القرآن الى هذه اللغات ترجمة لا تخلو من عناية فان كثيرا من الشعوب والامم التي انضوت تحت لواء الاسلام وكان منها من لا يحسن اللغة العربية اضطر سوقة العلماء أن يترجموا سورا وآيات من القرآن الى لغاتهم وعلى هذا النحو نقل بعض فقهاء سوس وبالاخص فى عصر الموحدين جزءا من القرآن ، فكتب المهدي بن تومرت آيات من القرآن باللغة البربرية وفعل هذا كثير من حفاظ القرآن فى فارس وفى تركيا ايضا ولكن هذا لا يمكن ان يسمى ترجمة بالمفهوم العلمي وانما كان نقلا لفقرات من القرآن ، والمقصود منها شرح العبارات القرآنية وتقريبها للافهام ، اما هذه الشعوب وهذه الامم سواء منها فى الهند او فى الصين او اندونيسيا او فى الباكستان او فى بلاد الترك او فى بلاد فارس او فى بلاد البربر فهم يحفظون القرآن ويتقنون حفظه ويحاولون ان يجعلوا لغته هي لغتهم ولذلك كان صحيحا ما يقوله بعض المفكرين من ان القرآن الكريم لم يحفظ اللغة العربية فقط ولم يطورها فحسب بل جعل منها لغة الاسلام فتغلبت لغته على الحناجر والحدود الطبيعية والجغرافية وعجمة الالسن وجعلت المسلمين سواء فى روسيا او فى افريقيا السوداء يتكلمون اللغة العربية ويكتبون بها وبذلك وسعت اللغة العربية مختلف اللهجات واللغات والتعابير الفنية والفلسفية والعلمية ودونت بها العلوم بمختلف شعبها وكانت العربية الى وقت متأخر لغة العلم والفلسفة والدين والادب ولغة الشعوب الاسلامية جميعها ، ويحدثنا تاريخ المغرب عن ابن بطوطة الرحالة المغربي الذي خرج من طنجة فتكلم بلغته العربية فى آسيا الوسطى وفى الهند وفى الصين وفى بخارى وفى افريقيا السوداء ولم يكن فى حاجة فى معظم هذه البلاد الى مترجم وانما كان يجد صعوبة فى التعبير فى بعض الاماكن ولدى طبقات خاصة من الناس

ولسنا فى حاجة الى الدليل على ان هذه الوحدة اللغوية انما ترجع الى القرآن لا غير .

واذا كانت خطوات المستقبل تقتفى خطوات الماضي ، فمن المحقق أن المسلمين اليوم فى حاجة الى ان يعتصموا بالقرآن ، ومن حقنا ان نتساءل عن طريقة الاعتصام وعن الاسلوب الذي سنتبعه فى ذلك، فلست اريد ان نقرا القرآن كما كان اليهود يقراون التوراة ، ولست اريد ايضا ان نفهم القرآن منحرفا بعيدا عن واقعنا ، ولهذا فمن الواجب أن ندون معجما قرآنيا حتى نتفق على دلالة كلماته وان نفهم نصوصه فهما واعيا يتفق وتطور العلم والمجتمع الانساني ويتناسب والوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي نعيشه لهذا يجب أن تنشأ لجنة لتفسير القرآن تضم المختصين فى العلم والدين والادب والاجتماع والاقتصاد والقانون، فهولاء يستطيعون بعلمهم ان يفسروا القرآن تفسيرا متكاملا ، وان يدخلوه الى الجماعة الاسلامية بحيث لا يظل خارجا عنها وهم الذين يهيؤون لرجال الترجمة التبشير بالاسلام النص المعتمد فى دلالاته اللغوية وتفسيره ، وعملهم هذا سيساعد رجال التربية والتعليم على تبسيط المناهج القرآنية فى البرامج التربوية .
وسنكون بهذا العمل نعيش القرآن وتعاليمه ولا نشعر بمركب ازدواج المفارقة بين تعاليم نستمع اليها ونتأثر بها ولكننا لا نحياها ولا نعيشها ، لن يكون عمل هذه اللجنة هينا ، ولم يكون برنامجها ارتجاليا أو عشوائيا ولن تكون خاصة ببلد من البلدان او بقطر من الاقطار ، فيجب أن تكون من كل البلاد الاسلامية وان تكون فى كل البلاد الاسلامية كذلك وتضم ممثلين عن مختلف الاقطار الاسلامية ، وليس معنى ذلك انني اقلد رجال السياسة عندما يدعون الى هيئة أممية وانما ادعو الى ذلك لسبب بسيط جدا ذلك ان القرآن ملك للجميع والدين الاسلامي دين عام ، ومن حق هذه الشعوب المسلمة ان تعرف دينها وتفهم القرآن ، وهذه الشعوب مختلفة اللغات ، مختلفة العوائد ، مختلفة الانظمة ومن المحقق أن الاسلام كدين عالمي لا يضيق بهذه الانظمة ولا بهذه الاعراف ولذلك فمن الواجب ان يظل منسجما مع طبيعة هذه الشعوب كما كان من قبل ، واخشى اذا استبدت بهذه الجمعية امة من الامم أن تفسد فى معظم الشعوب الاسلامية طبيعتها التلقائية فى فهم الاسلام ، وربما نفسد حقيقة الاسلام من حيث اننا نصلحه بل نضعف من شانه بينما نظن اننا نسعى الى تقويته ، وسوف لا يصطدم عمل هذه اللجنة بمختلف النشاطات المحلية المركزة فى الهيئات الثقافية والجمعيات الدينية ، كما انه لا يصطدم بالعمل الجاد الذي تؤديه الجامعات الاسلامية هذه الجامعات التي يجب أن تضطلع بمسؤولياتها الدينية والتي يجب احياؤها سواء فى القرويين او فى الازهر او فى الزيتونة أو النجف ... او فى تمبكتو .. والتي يجب أن يكون لها برنامج جديد ومنهاج جديد سواء فى دراسة الاسلام او دراسة المجتمعات الحديثة على هذه التطورات الفكرية المعاصرة .

فمن واجب هذه المؤسسات أن تقوم بمهمة الدراسات الاسلامية والعربية وتكون اختصاصيين فى هذه الموضوعات سواء كمفكرين او كمخططين تربويين فى تطوير العالم الاسلامي روحيا وفكريا وادبيا واخلاقيا ، ومع الاسف فمعظم الجامعات الاسلامية فقدت شخصيتها او آخذة فى فقد شخصيتها لتدخل فى اطار التعليم الجديد ، وهي اذ تفعل ذلك تسير متأثرة بالتفكير الغربي الذي يفصل بين الدين والدنيا ، ويعطي تحديدا للعلم خارجا عن نطاق الدين ومع الاسف الشديد فهذا العمل يعبر تعبيرا صريحا عن عدم فهم الاسلام كدين اجتماعي لا كدين ضمير ووجدان ، واذا كان العالم الاسلامي تحت ظروف قاهرة تخلى عن الخلافة الاسلامية فلم يبق لديه الا هذه الجامعات التي ستظل حارسة الاسلام ، والتي يجب ان تقيم وحدة جامعية فى شكل اتحاد جامعي ، يضم الازهر وجامعة السنوسي فى ليبيا والزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب والنجف بالعراق والمقاصد فى لبنان ومعهد الشريعة فى سوريا والعراق ، ومعهد الحديث للمدينة المنورة ، وعليكرة فى الهند ومعاهد الشريعة الاسلامية فى اندونيسية والصين وبخارى حتى تكون هذه الوحدة اساسا لمركزية التفكير الاسلامي ، واعتقد ان هذا العمل اداري لا يضايق عمل لجنة احياء القرآن بقدر ما يساندها وتستفيد منه ، ولست أتصور ان عملهاسيكون سهلا اذ عليها أن تصدر مجلة وتؤسس عدة اندية وتتولى توجيه محاضرات ومناقشة كل ما جد من النظريات والاراء الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية بل تتولى ترجمة الابحاث الايدولوجية فى مختلف المستويات والتوجيه الاذاعي والصحفي والتلفزة فى البلاد الاسلامية . وتتجاوز ذلك الى مراقبة كل ما يصدر عن الاسلام من آراء مغرضة او منحرفة وعليها أن تستعمل لغة العصر من قصة مسرحية وافلام تثبت فيها الروح الاسلامية على اساسها السلفي النبيل .

اما المغرب بصفة خاصة فقد اهتم المغاربة بحفظ القرآن اهتماما بليغا وليس من الصعب علينا أن نحدد ذلك اليوم الذي تعلم المغاربة فيه القرآن ، فالاسلام يحمل معه تلاوة الكتاب المقدس اينما حل ، ففي الوقت الذي ورد فيه المسلمون فاتحين للمغرب في عهد عبد الله بن أبي سرح وانتصروا على الرومان في معركة سبيطلة عرف المسلمون الافارقة والمغاربة سور القرآن التي تتلى في الصلاة ، وكلنا يعرف أن الخليفة الاموي الذي بعث الى المغرب القراء ليفقهوا المغاربة في امر دينهم ، كما نعرف أن هرثمة بن أعين اسس رباطات في شمال افريقيا وكانت بهذه الرباطات مدارس لدراسة القرآن وحفظه ووعي دعوته .

والواقع ان المغاربة تهافتوا على القرآن الكريم ووجدوا فيه ضالتهم ووحدتهم يقرؤونه ما وسعتهم القراءة ويتلونه ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، يؤدونه بطريقة (ورش) التي اخذها عن نافع المدني لانه من مدينة الرسول (ص) ثم تجاوزها الى مختلف الاداءات حبا منهم في حذق تلاوته بطرق عديدة ، واشتغلوا بتجويده واشتهر في ذلك الكتاب العاصمية والشاطبية وكتبت مآت المؤلفات في فن القرآت والتجويد ، وقلما نجد مؤلفا مغربيا لم يكتب فيموضوع التجويد والقراءات ولقد صدق الدكتور الاهواني حين قال ان المغاربة سيطروا على هذا الفن واظهروا فيه مقدرتهم ، واذا عرفنا اساليب التعليم القرآني كما يرويها الامام سحنون وابن العربي وابن خلدون عرفنا مدى العناية بالقرآن الكريم في المغرب فقد تعود المغاربة ان يدخلوا اطفالهم للكتاتيب القرآنية في سن مبكرة جدا قد تبدا من الثالثة سواء اكانوا اطفالا او كانوا طفلات ، ويبداون بتعليمهم سور القرآن القصيرة يحفظونها عن ظهر قلب ، وهكذا يستمرون في تحفيظ القرآن حتى اذا كانوا أبناء العاشرة أو الحادية عشرة كان معظمهم يحفظ القرآن ثم يعلمونهم في نفس الوقت فن التجويد ومخارج الحروف وعددها في القرآن من آية خاصة بالفاظ معينة ينظمون ذلك في أبيات يسمونها (النصوص) وقد بالغوا في ذلك حتى انتقد ابن العربي طريقة تعليم القرآن في المغرب وانتقدها ابن خلدون من بعده كذلك ، وليس من شأننا أن نناقش هؤلاء ونفاضل بين الطريقة الشرقية والطريقة المغربية ، وانما اردت ان اثبت عناية المغاربة بالقرآن واهتمامهم بحفظه وتلاوته ، والى عصور متاخرة والقرآن يدرس في الكتاتيب القرآنية وينهي الطفل حفظه بحفلة كبرى تقام بالكتاب وبمنزل الطفل ، وقد كانوا في الكتاب يكتبون القرآن بمادة الصمغ السوداء على الواح خشبية مطلية بالصلصال وكان من عادة المغاربة والاندلسيين ان يرسلوا في هذه اللوحة يوم ختم القرآن دوائر هندسية وتخطيطات منسجمة ويملؤون ذلك بآيات قرآنية في حروف مجوهرة اندلسية وكوفية شرقية ومبسوط مغربي ، فتكون اللوحة آية في التناسق الهندسي وهم بذلك يعلمون الاطفال مبادىء الهندسة أيضا ، ويحدثنا كثير من المستشرقين عن مشاهدتهم لحفلات ختم القرآن التي كانت تنال اعجابهم واذا كان المؤرخون المغاربة لا يهتمون بوصف هذه المناظر لانهم الفوها باستثناء الوزان الفاسي الذي اعطى لنا صورة مصغرة عن ذلك فان المستشرق (جون وندروس) يصف لنا ذلك الحفل البهيج في ذلك اليوم الخالد في حياة الطفل حيث يشترى للطفل فرس مطهم ويلبس العمامة والسلهام ، وفي حفل بهيج يغادر الكتاب الى منزله تتبعه الصبية وهم يرددون الاناشيد ، حتى اذا وصلوا الى منزل المحتفل به اخذوا في تلاوة القرآن والاشادة بحافظه ، وتقدم للمعلم جوائز نقدية اعترافا بمجهوده لاداء رسالته ، على أن مباهج هذا الحفل تنسينا حياة الكتاب القاسية ، حيث كان الطفل يقضي به حياة اليمة كانت تبدا الدراسة في الصباح بعد صلاة الصبح ، وتنتصف في صلاة العصر ، وتنتهي بعد صلاة المغرب وتلاوة القرآن في المسجد الى بعد صلاة العشاء ، باضافة التراويح أو ما يسمى بالتشفيع في شهر رمضان ، لا يعرف الطفل فيها طيلة السنة عطلة طويلة المدى ، سوى ثلاثة ايام في الاعياد الدينية ويوم الخميس ، اما يوم الجمعة فتبدأ الدراسة في الكتاب بعد صلاة الظهر فتستمر طيلة المساء كله وكانت لحياة الكتاب مظاهر خاصة في اسلوبها التعليمي ، فالفقيه يملك مجموعة من العصي ويستعين بالفلاقة لا لتقويم الاخلاق فحسب ولكن لمعاقبة من لم يستطيع حفظ ما كلف بحفظه ، ولم يكن في الكتاب الا حصير متلاش يجلس عليه مختلف الصبيان ، والا ممحاة من الماء لتمحى فيها الالواح وليشرب ماءها من استعصى عليه الحفظ ، أما أدوات التعليم فلا تتجاوز مدواة بمادة الصمغ وقلما من القصب واحيانا خشبة مستطيلة صغيرة يتتبع بها الطفل حفظ الآية القرآنية ، فلم يكن في الكتاب مصحف ولا دفتر ولا كتاب ولا مداد ، وانما هي ادوات بسيطة جدا وتجهيز فقير جدا . وحياة قاسية اليمة لا راحة فيها ولا هدوء ، وكانت قدرة المعلم تتجلى في قوته على ارهاق اطفاله الصغار بالحركة اثناء الحفظ والصخب اثناء التلاوة وصوت بكائهم وهم يتضورون تحت سياطه التي لا ترحم ، وقد اختفت هذه الكتاتيب اليوم تحت تجديدات مدرسية واصبحت كتاتيب

نموذجية لا ترهق التلميذ الصغير كما كانت ترهقه من قبل .

واذا كان المغرب الحديث فتح نوافذه على الحضارة الغربية واقتبل كثيرا من انظمتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فانه ظل متشبعا بروحه الدينية ، هذه الروح التي تعتمد على القرآن الذي يرى فيه استمرار الشخصية وضمانا لمستقبله ، وهو في كل المدارس ذات النظام العصري والمواد الحديثة يهتم بتعليم القرآن ولم يكن يكتفي المغاربة بذلك بل يبعثو باطفالهم الى الكتاب مساء بعد دراستهم بالمدرسة نهارا .

ومعظم الذين درسوا بالمدرسة الحديثة كانوا يتضمون جزءا من اوقاتهم بالكتاب يحفظون ما تيسر من القرآن في اوقات الاجازة او بعد نهاية حصة الدراسة المسائية ، وان دل هذا على شيء فهو دليل على ايمان المغاربة بتعليم القرآن وحرصهم الشديد على حفظه منذ عهد طفولتهم ، ولم يكونوا يقتنعون بالدراسة على ضعفاء المعلمين ، فقد تعودوا ان يختاروا من بين فقهاء المغاربة الذين يتوفرون على شخصية روحية تعتبر اساسا لتكوين شخصيتهم ولذلك ظلوا متمسكين بالتراث الحضاري والثقافة الاسلامية ، هذه الثقافة التي تناسب طبيعتهم التي تؤمن بالحرية الانسانية فاستطاعت ان تخلق وتنمي في الانسان ضميرا اجتماعيا حرا الف بين الناس مهما اختلفت الوانهم وعقائدهم دون ان يفسد ارادتهم الحرة، ولهذا فنظامهم التربوي يلائم بين الذاتية والتطور ، لان المبدأ الاساسي الحر سيظل مخيما على علاقة الفرد بالمجتمع الحر الانساني المتدين ، وكما يرى (توينبي) وهو علم من اعلام التاريخ المعاصرين ، فان الدين هو عماد المجتمعات التي عليها تقوم الحضارات ، بل سيطر على تفكيره التاريخي ضرورة وجود الروح الدينية مهما كانت مسيحية أو اسلامية او بوذية هندوسية .

والواقع ان التربية الروحية ضرورة لتكوين الشخصية شانها شان التربية الجسدية والعقلية ، وتهذيب الروح حسب القوانين التربوية فن قائم بذاته، فيمكن تطوير الروح وتربيتها على حدة . وتربية الروح انما تكون عن طريق معرفة الله والايمان بالشخصية الانسانية ، ولاشك ان كل تعليم يخلو من عنصر التربية الروحية تعليم لا يفيد الانسانية . وان كلمة التربية الروحية مشوسة فماذا يراد بهذه التربية ؟

انها تربية المحبة والخير والجمال والعزم والثقة في الروح الانسانية ، هي تربية شاملة ، تنمو وتزدهر بطريقة تلاوة النصوص الدينية القرآنية وفهمها فهماصحيحا مع تدريب على ممارسة الواجبات الدينية التي هي الرياضة الروحية وكما ان العقل انما ينمو بالرياضيات والجسد ينمو بالرياضة الجسدية والتمارين العضوية ، فكذلك التربية الروحية لابد لها من تدريبات وممارسة طقوس ، وهذا يتوقف على المربي الصالح الذي يكون نموذجا صادقا ، وصدق المعلم في تغلبه على نفسه وكبحه لشهواته .

والهدف القويم للتربية القرآنية هو تهذيب الاخلاق وتقويمها لان الاخلاق مستمدة من الوحي الالهي ، فنحن نتفق جميعا على ضرورة الاخلاق لتقوية كل مجتمع من المجتمعات الانسانية ، واذا كان بعض المربين يرون ان الاخلاق تعتمد على اساس التقويم الفكري لان العمل الخلقي انما هو تعود عقلي ، فهو راي خاطيء اذ ان واقع الحياة يكذب هذا فالاخلاق لا ترتكز على اساس عقلي ما لم تكن مدعمة بالايمان والخوف من الله ، والايمان بالله انما ينبثق عن الايمان بالتعاليم الدينية القرآنية ، وهي تعاليم انسانية تركز فينا احترام الحرية الانسانية وشخصية الانسان وعقيدته وفكره وشعوره بالتعاون الانساني ، ولا شك ان الاخلاق عندما تبنى على الافكار قد تنحرف وقد تضطرب لان الفكر نفسه قد يضطرب وقد ينحرف وقد يضل طريقه فينحرف عن الصدق والاستقامة والرحمة، وليس معنى هذا اننا لا نثق بالفكر الانساني ولكن الفكر الانساني قد يشذ ويحلل المحرمات تبعا للاهواء ، وبذلك فالايمان بالله هو الضمانة لاستقامة الاخلاق فلا خلاص الا بتعاليم القرآن التي لا تركز المبادىء المثلى فقط ، وانما تجمع المؤمنين عليها ايضا ، ولا يجوز لنا كمسلمين ان نتفرق في عصر يدعو الناس بعضهم الى بعض الى الاتحاد لان في الوحدة قوة ، لا سيما اذا كانت على اساس خلقي متين خبرناه عدة قرون فزدنا به ايمانا وثقة .

وكذلكفقد دخل القرآن الكريم حياة الشعب المغربي فنقش كل لسان بآيات منه وتحرك كل فؤاد بمعانيه وكان عنوان حياة المسلمين التي تغيرت من حياة سادجة غير واعية الى حياة ترتكز على الوعي الدائم للعمل الصالح . وقد عبر الفنان المغربي عن هذا الوعي بازميله ونحته سواء في الجص او في الخشب او في الحجارة .. فعلى كل خشبة يفرغ عبقرية في آيات قرآنية مكتوبة بخط بديع هو آية اخرى من الفن ،

نقش على الاحجار وعلى الجص وعلى الخشب الايات الكريمة التي تعبر بمفهوم كلماتها مالا تعبر عنه الصور والتماثيل الرخامية ... وفي الواقع ان الفن الاسلامي محا التجسم ليقود الى البساطة في التعبير من الداخل النفسي ، ولكن ليس تعبيرالبساطة الفنية وانما هي آيات قرآنية مشحونة بمعاني خالدة وسواء في القصور او في جدران المساجد او في سقوف البيوت او اسكافات الابواب .

وانه لمنظر جميل أن نرى الفسيفساء البديعة التركيب تضم آيات قرآنية مكتوبة بخط جميل مغربي او اندلسي ونرى الفنانين نحتوا على رخامات اللحود آيات قرآنية تعبر عن مصير الانسان الى خالقه ، وحقيقة الموت التي لا يمكن ان يفر منها اي مخلوق . والبقاء لله وحده دون غيره .. كل الايات التي تبعث في النفس عظمة الخالق وتشعر الانسان بحقيقته كمخلوق ومصيره النهائي الذي ينتظره . وهذه الايات القرآنية التي تكمن في القلوب يعبر عنها الفنان المغربي بعبقريته في النحت والتصوير والرقم والتخريم . وهكذا دخل القرآن للحياة المغربية وطبعها بطابع قوي سواء بلغته او تعاليمه او توجيهه ، وسواء في التربية او القانون او التعليم او الاخلاق او الفن ، فالمغرب مصحف يتحرك، وايمان بالاسلام تجسم في شعب قوي الايمان .

الرباط : حسن السايح





الدلالة القرآنية ..

للأستاذ عبد القادر زمامة

عندما قالت السماء كلمتها الخالدة فى غار حراء . انبعث فى الوجدان الانساني صوت من الاعماق يربط المثل العليا فى الحق والخير والفضيلة برباط متين من كلمة السماء فى غار حراء ... !

وكلمة السماء وحي من الله ! ورسالة من جبريل! وتبليغ من محمد عليه السلام ..! ودلالة من كتـــاب ..! فهمها المومن فكانت حجة له ... وفهمها الجاحد الكافر فكانت حجة عليه ..!

والصراع الذي كون تاريخ الاسلام . كان مبنيا على اساس من الدلالة القرءانية التي فهمها الجميع ... خصما كان للاسلام ام صديقا ..

فالخصم فهم من كلمات القرآن وآياته وسوره ما تدل عليه . فهما لا يقل عن فهم الصديق .. فجادل بباطله ما شاء الله ان يجادل ..! وحارب ما شاء الله ان يحارب.

والصديق فهم من كلمات القرآن وآياته وسوره ما تدل عليه فهما اثار زوايا قلبه - واوقد نبراس ضميره.. فآمن واعتقد واستمات فى الدفاع عن هذا الايمان وهذا الاعتقاد ..

فالوضع الحقيقي للاشياء هكذا كان طيلة الفترة التي تتابع فيها نزول القرآن وحيا من الله ..! ورسالة من جبريل ..! وتبليغا من محمد عليه السلام ..! ودلالة من كتاب ..! وهذه الفترة دامت اكثر من عشرين سنة والاعجاز القرآني المقصود به التحدي لا يتم معناه ولا يقوم حجة منطقية خالدة .. الا اذا تحقق مدلول الدلالة القرآنية واصبحت امرا واقعا ليس له من دافع ..! ولهذا نجد القرآن يؤكد هذه الدلالة .. ويقول انه انزل بلسان عربي مبين ... ليفهمه المخاطبون به عند سماعه .. من غير احتياج ضروري الى شيء آخر ..

ولم يثبت عندنا بطريقة علمية مسلمة ان المخاطبين بالقرآن اول نزوله جعلوا من جملة اسلحة الطعن فيه. فساد الدلالة ..! او غرابتها ..! او غموضها ..! او انحرافها عن الاسلوب العربي ..!

ولم يثبت عندنا بطريقة علمية مسلمة ان الذين آمنوا بالقرآن وحفظوه . وكتبوه . ورتلوه . كانوا يقومون بذلك بعد اخذ دراسة او معلومات او تدريب خارج عن المالوف المعتاد ..!

فاذا نعق اليوم ناعق فى شرق الدنيا ..! او نهـــق ناهق فى غربها باسم العلم والبحث ..! ان الذين آمنوا بالقرآن والذين كفروا به سواء فى الجهل بدلالته .. لانه جاء باسلوب غريب ..! والفاظ غريبة ..! وتراكيـــــب غريبة ..! ومعان غريبة ..! لم يالفوها .. ولم يفهموها . . فان اقل ما يقال عن هذا التمنيق ..! وهذا التنبيق ..! هو انهما لا يمتان الى العلم الصحيح .. والبحث النزيــــــه بصلة ...

والقرآن بحكم نزوله متتابعا طيلة سنوات اصبح من اللازم ان يكون لسوره وآياته مناسبات وظـــروف كانت لمن عاصرها من صولة بحياة عقيدته مرتبطة اشد الارتباط بوجوده داخل الجماعة الاسلامية .. التي تكونت فى ظلال القرآن .. تهتدي بهديه فتحل حلاله . وتحـرم حرامه .. فى العبادات والمعاملات ..

اما بالنسبة لمن لم يعاصر هـــذه الظـــــروف والمناسبات فان معرفتها والاطلاع عليها يمكن من تقرير الدلالة وتوضيحها ومعرفة ملابساتها ..

وهذا شيء زائد على مجرد الدلالة ... فاذا فرضنا اننا جهلنا مناسبة النزول ، وظرفه الخاص فان الدلالة القرآنية تبقى قائمة الحجة ... ناصعة الدليل .. واضحة

المدلول .. وتلك ناحية من نواحي الاعجاز القرآني فى رائع البيان .. !

ومن أجل ذلك كان للقرآن ترتيبان :
ترتيب النزول ،

وترتيب التلاوة ،

وكلا الترتيبين امر الهي تعبدي لامجال فيه لقارىء ولا لمفسر ، ولا لكاتب ، ولا لطابع ..

وكلا الترتيبين قام به الاعجاز .. واستقرت بـه الدلالة .. القرآنية .. غير أن الترتيب الاول كان ترتيب مناسبة اقتضتها حكمة الباري جل وعلا فى نزول القرآن مجزا تخفيفا منه على عباده . وتسهيلا عليهم فى تلقي الاحكام والعقائد والاداب ..

وانتهى هذا الترتيب المبني على المناسبات والظروف ليحل محله ترتيب التلاوة الذي كتبت بـه مصاحف المسلمين بطريقة متواترة خالدة قاومت الزمان وتحدت كل ما يلده الزمان من افكار تجد كما تشاء ... وتعبث كما تريد ..

واذا كان كل كتاب يجد صاحبه بعد مدة تطول او تقصر انه فى حاجة الى زيادة . او نقص أو اصلاح ، أو حذف .. كما يجد فيه قراؤه بعد احقاب من الزمن . انه اصبح بينه وبين قلوبهم وعقولهم وواقعهم بون شاسع..

واذا كانت للكلمات ودلالاتها .. وللاساليب وانواعها .. اعمار محدودة تبلى جدتها .. وتذوي زهرتها ..فان للقرآن اعجازه القائم على وضوح الدلالة .. وروعة البيان .. وتحدي المواهب والعقول والاقلام ..

وهذه اربعة عشر قرنا منذ أن قالت السماء كلمتها فى غار حراء ... لم تستطع ولن تستطيع ان تبلى من جدة القرآن وطراوة اسلوبه . ونصاعة مدلوله ...

فهو قريب من عقولنا وقلوبنا واحساسنا الباطني وضميرنا الانساني .. لا يبعده عنا جحد الجاحدين ولا تنطع الناهقين والناعقين ..!

واذا كان القرآن لا تبلى جدته الايام فذلك لانـه ليس كتاب جماعة . ولا جيل . ولا لون من البشر . ولا حقبة من الزمان .. ولكنه كتاب الانسان أين كان .. ومتى كان ..

فلا طائفية .. ولا عنصرية .. ولا سلالية فى القرآن.. يخاطب بدلالته الواضحة فى اساليبه الناصعة البر .. والفاجر .. والقريب . والبعيد . والعالم، والمتعلم والجاهل الكل يجد فيه صارم حق لا يكل .. ومعين حيوية لا يغيض .. ونبع اشراق لا ينطفىء ..

فليس ضروريا انتكون عالما او فيلسوفا أو عبقريا فى اللغة والبيان لتقرا القرآن وتهتدي به وتتمتع بجماله وجلاله ..

وليس ضروريا ان تجمع كتب التفسير وتقراها لتفهم الدلالة القرآنية والهدى القرآني .. وانما يكفيك أن تعرف لغة القرآن لتتلو آياته فتجد لمعانيها التي تتسابق الى قلبك ووعيك اشراقة روحية من عالم الرحمة والحكمة فيستيقظ ضميرك الديني كما استيقظ ضمير الملايين قبلك .. ويستيقظ ضمير الملايين بعدك ..

مفسرو القرآن .. أساء منهم قوم وأحسن آخرون فالذين اساءوا حاولوا ان يجمعوا بين الدلالة القرآنية وبين دلالات اخرى .. ففاتتهم هذه .. ولم يظفروا بتلك ..

والذين احسنوا حاولوا ان يربطوا بين الدلالة القرآنية وبين وجدان الانسان فاستقامت لهم تلك .. ولم يفتهم ذلك .

لكن الطامة الكبرى هي التي جاءتنا من الذين يحاولون تعطيل الدلالة القرآنية من أهل الاهواء والنزعات الضالة المضلة فيسبحون فى بحار من الاضاليل والهرطقات والاشارات زاعمين ــ باطلا ــ ان للقرآن ظاهرا وباطنا .. !!

« كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا »

والمسلمون اليوم امام تيارات متعاكسة من الاراء والاهواء وهم الهدف الذي يصوب نحوه السهام القاتلة كل افاك اثيم .. لهذا يجب أن يتضافروا افرادا وجماعات على اسناد الدلالة القرآنية واعطائها المحل اللائق بها من اهتمامهم ودراستهم ..

وذكرى نزول القرآن دعوة كريمة .. ومناسبة طيبة .. ليرى المسلمون وجوههم فى مرآة القرآن ... وليدركوا ما يفصل اخلاقهم واعمالهم واحوالهم عن هديه الذي دعاهم اليه ...

« ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا »

فاس : عبد القادر زمامة



للأستاذ عبدالله العمراني

لا مراء في ان بعض المستشرقين قد اسهموا في خدمة اللغة العربية وتاريخها وادبها ، بما انتجوه من ابحاث ، ونشروه من كتب عربية ، وآثار علمية ، ظلت مكتومة الانفاس ، محجوبة عن نور الوجود اجيالا عديدة . وهم في ذلك تحدوهم اغراض علمية بحتة ، تستهدف الكشف عن تراث الاولين ، وترمي الى تحقيق بعض معالم التاريخ او الادب او الفن ؛ التي طالما ثار حولها النقاش ، او كانت في امس الحاجة الى من يلقي عليها بصيصا من نور يهدىء من روع المناقشين حولها ، ويزيل عنها ظلمة الجهل ، فيتضح صبحها لذي عينين .

ولا جدال كذلك في ان بعض اولئك المستشرقين دخلوا ميدان الاستعراب وهم مدفوعون باغراض معينة ومفعمون بافكار وآراء ونظريات خاصة يحاولون ابرازها والتدليل عليها ، ويقذفون بها وجه الحقائق التاريخية والادبية والدينية التي ظلت ثابتة الدعائم ازمانا متباعدة . وهدفهم من وراء ذلك السعي غير المشكور ، التشكيك ، ومحاولة الاتيان بجديد كيفما كان ، وطمس الحقيقة باسم البحث العلمي المزعوم ، ثم غمط اقوام حقوقهم واعتباراتهم ، وظلم امم ظلت تعتنق هذه الحقيقة او تلك ، وتعدها من اقدس مقوماتها الحضارية .

عن هذا الصنف الاخير ، سأتحدث في هذه المحالة ؛ مدركا انى قد اثير حفيظة بعضهم ، ولكني في الوقت نفسه حريص على ارضاء الحقيقة والواقع ، وان الحق يعلو دائما ولا يعلى عليه ، وبمناسبة الاحتفال بمرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم ، اخترت مزاعمهم وترهاتهم واباطيلهم التي قذفوا بها القرآن الكريم ، لاردها وادحضها والله المعين .

قد تعتري المرء الدهشة اذا علم :

1 — ان هؤلاء المتجنين على القرءان الكريم الذين لا يزالون يعيشون بين ظهراني القرن العشرين، انما يستقون افكارهم الهدامة من مصدرين رئيسيين:

ا — كتابات بعض الحانقين على الاسلام والعروبة في القرون الماضية حيث كان الجهل والتعصب الاعمى يغشى ابصارهم، فلا يكفوا عن غلوائهم، حتى جاء الكاتب الانكليزي توماس كارليل (1795—1881) T. Carlyle الذي اختار النبي العربي من بين الانبياء جميعًا ليتحدث عنه في كتابه : « الابطال وعبادة البطولة » ، ويصوره بطلا في صورة رسول ، فالقمهم حجرا بما كتب ، وعاب اقوالهم ، وشنع عليهم .

ب — ما ركب في نفوسهم من نقمة وكراهية لكل ما هو عربي او اسلامي .

2 — ان كتابات هؤلاء المتجنين تعتبر — في زعمهم — وفق طرق البحث العلمي الحديث .

3 — ان اصحاب تلك الكتابات ذوو مكانة علمية بارزة في اوساطهم ، ولذا نجد كتاباتهم تعد مرجعا لطلبة الجامعات الغربية .

4 ـ ان ابناء العروبة والاسلام ، القادرين على نقد كتب هؤلاء ، ونقض آرائهم ، ومحو كل ما عسى ان يلحق بكتاب الله ومقومات المسلمين من اذى مادي او معنوي ... تجدهم صامتين ساكتين سكونا اشبه بما عليه سكان القبور .

ولا استطيع هنا ان اعالج كل الموضوعات التي اثاروا حولها النقاش المفتعل فتعالى عجاجه في اجواز الفضاء حتى حال بينهم وبين ادراك الحقائق ناصعة البياض كالحليب ، صافية الاديم كالثلج ؛ كما لا اقدر ان ارد كل المغامز التي حاول مؤلفون غربيون ان يغمزوا بها الاسلام والقرآن الكريم وصاحب الرسالة المقدسة الخالدة محمد عليه السلام ، فذلك موضوع طويل جدا، ولكني اكتفي بالاشارة الى بعض منهم ، والى ما كتبوه حول القرآن المجيد .

وجهتا نظر مختلفتان :

ينص هؤلاء المستعربون الغربيون على الخلاف الموجود حول القرآن بين المسلمين وباحثي الغرب . يقول احدهم (1) : « الاصالة الجوهرية للقرآن مقبولة لدى الشرق والغرب بدون خلاف ، لكن الخلاف الاساسي انما يوجد في الدراسات القرآنية ؛ حيث ان علماء الاسلام يرون رايا ، ويرى الباحثون غير المسلمين خلافه :

« فالمسلمون يرون ان محمدا (ص) هو مجرد مبلغ وناقل للكلمة المقدسة ... وفي الواقع ان الله قبل ان يخلق العالم من العدم ، خلق اللوح والقلم ، فكتب هذا على اللوح ـ بأمر من الله ـ كل ما سيقع وما يمكن ان يعرف ، وعند ما كان الله يرسل انبياءه الى شعوب العالم المختلفة ، كان جبريل يوحي الى الرسل من محتويات اللوح ذلك الذي عليهم ان يبلغوه للناس ، فمحمد اذن ، لم يفعل اكثر من ان كرر بدقة وضبط عبارات اللوح حسبما ابلغه جبريل اياها . وبالطبع ، وحسب هذه الوجهة ، فان مسالة مصادر القرآن لا يمكن بأي شكل من الاشكال ان تطرح على بساط المناقشة في الدوائر الاسلامية .

« ولكن العلماء غير المسلمين ـ منطلقين من اساس ان محمدا هو مؤلف القرآن ، وواجدين في نصه عبارات عديدة مطابقة او موازية لوثائق اخرى اقدم منه ـ اندفعوا للبحث عن المصادر التي استقى منها محمد مبادئه التي بشر بها . »

ويزيد المؤلف وجهة النظر الغربية توضيحا فيستبعد المصادر المكتوبة حيث ان محمدا لم يكن يستطيع الاستفادة منها مباشرة ؛ ويقول : « وبترك مسالة الامية ـ امية النبي التي ثار حولها الجدل ـ جانبا ، فالكل متفق على ان محمدا كان يجهل اللغات التي حررت بها الكتب المقدسة لدى الاديان الاخرى . اذن ، لابد من اللجوء الى الفرض Hipotesis (كذا تهاجم الحقيقة الثابتة بالافتراض والتخمين !) القائل بالنقل الشفوي الـ Araboiona الذي قام به المسيحيون واليهود ، واتبعه محمد في شرح اصل كثير من الافكار والآراء الدينية التي ظهرت بعد في القرآن .

« ان المواسم التي كانت تقام في مكة وما حولها ، لم يكن يعوزها ممثلو الطوائف المشهورة وغير المشهورة فقد كانوا يقصدونها ويقومون فيها بالدعاية ، اولئك المثلون في هروبهم من الضغط الاستبدادي كانوا يبحثون لهم عن ملجا في الاراضي الصاقبة للامبراطورية البيزنطية ، وهكذا اتصل بهم محمد ، واستطاع الحصول منهم على بعض الاخبار المتعلقة بالعقائد التي كانوا يعتنقونها : كما اقترحوا عليه كثيرا من الآراء المسيحية المتسمة بالهرطقة ، ومن تذكارات الهكاداه Haggâdâh اليهودية ، ومن الكتب الدينية المشكوك في صحتها .

« ولربما كان محمد قد حصل على بعض هذه الآراء من اسفاره التجارية التي قام بها عبر صحاري شبه الجزيرة العربية ؛ لكن الاشتغال المتعلقة بذلك ، والوقت القصير نسبيا ، مع اختلاف اللغة ، كل ذلك قد صعب مهمة البحث الطويل ؛ الا انه فيما بعد ، في المدينة وجد محمد الفرصة لتعمق هذه المذاهب اليهودية المسيحية ، وللعمل على نشرها . وزيادة على بعض التأثيرات الصغيرة ، نجد لبعض المصادر الاهلية من تقاليد شبه الجزيرة ، وعاداتها اثرا بارزا في القرآن كالاعتقاد في الجن ، ومثل اساطير الشعوب العربية الغابرة ، ومثل مناسك الحج وتقديس الكعبة .

« وبادىء بدء كان محمد يعتقد ان وحيه كان ياتيه من نفس المصدر الذي اتى منه الوحي اليهودي والمسيحي : من نسخة سماوية محفوظة ومحروسة

1) راهب واستاذ باحدى جامعات ايطاليا ، وكان قبل استاذا للعربية باحدى كليات الهند (بومباي) ، له كتاب بالايطالية عن الاسلام في أزيد من الف صفحة ، وقد ترجم الى بعض اللغات الاوربية .

جيدا . من هذه النسخة كان رسول فائق لطبيعة البشر (وصفه محمد فيما بعد بالملاك جبريل) يسمعه عبارات في لغة عربية واضحة » .

ويقول مستشرق (2) آخر انكليزي : « .. وهكذا قد ألقينا هنا نظرة اجمالية على النظرية القائلة بأن القرآن نسخة او نقل من اللوح المحفوظ في السماء : فكرة ترجع الى ما وراء آلاف السنين الى السومريين الاوائل لتظهر مرة اخرى في العقيدتين اليهودية والاسلامية » .

هذا قليل من كثير مما قاله بعض هؤلاء الغربيين، وحقا ان وجهتي النظر لمختلفتان اشد الاختلاف ؛ ولعل كبلنك كان محقا حينما قال : « الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا ... الغرب المشحون بطاقات الكراهية والتعصب ضد هذه الديانة السمحة ، وضد اصحاب المثل العليا ، وضد البلاد المقدسة مهبط الوحي ، ذلك الغرب ... الا يمكن ان يرعوى عن غيه ، ويرجع الى الصواب فيعتنق فكريا ــ ان لم يكن قلبيا ــ المبادىء السامية التي آمن بها ملايين الخلق ، ومئات الملايين وآلافها منذ أشرق نور الاسلام على شبه الجزيرة العربية ، الى ان نشر لواءه الخفاق في مشارق الارض ومغاربها الى اليوم ؟ ؟

ان هؤلاء المتهجمين على الاسلام ، وعلى اصح واقدس واخلد كتاب سماوي ــ وهو القرآن الحكيم ــ لا يخلو امرهم ، فهم :

أ ــ اما غير (جمع غيور) من السمو والمجد اللذين رقل فيهما الاسلام عبر الاجيال والقرون .

ب ــ واما موتورون لان الاسلام بمبادئه السامية السمحة استطاع في مدة وجيزة ان يستميل نحوه العالم القديم المعروف ؛ آنئذ كله تقريبا ؛ واعتنقته امم كثيرة فزودها بحضارة مادية وروحية ، كانت في اشد الحاجة اليها .

ج ــ واما مغرضون ، فهم :

1 ــ من رجال الكهنوت الذين قد يفرض عليهم مركزهم ان ينتقصوا من مبادىء الاسلام ومثله العليا .

2 ــ او من رجال السياسة يكتبون ليرضوا السياسة الاستعمارية الغربية التي استهدفت في القرون الاخيرة دراسة النظم الاسلامية وقوانين الاسلام لمحاولة الحط من قدرها ، والتشكيك من قيمتها ، ولتضليل اتباعها ، حتى تسهل عليها غلبتهم ، فتخضع بلادهم ، وتبتز خيراتهم ، وتجردهم من قيمهم ومقوماتهم الروحية .

والغريب انهم يتظاهرون بالدقة في بحثهم العلمي، بينما نجدهم كثيرا ما تنزلق اقدامهم فيخرجون عن سواء السبيل ، ويقعون في مهاوي الجهل والتجاهل والتجني . فاي طريقة علمية هذه التي سلكها هذا الذي جعل القرآن موحى به من اللوح المحفوظ مرة ، ومن الفردوس مرة ، بينما جعله مستشرق (3) آخر يهودي الملة ينزل من السماء السابعة ، انزله جبريل بأمر الله الى سماء الدنيا سماء القمر ، ومن ثم أنزل منجما على محمد ؟ ؟ »

لا يغرنك هذا الكلام من ذاك الاخير ، فانه يعبر به ــ كسابقه ــ عن وجهة النظر الاسلامية ؛ أما وجهته هو فالعن ما يمكن ان يقرأ؛ ومن الخير للمسلم ان يضرب صفحا عن هذا الحاقد وكتابه الذي كتبه عن محمد والقرءان ، ونجني فيه عليهما تجنيا لا مزيد عليه ، انما غرضي أن أدل على فشل الطريقة العلمية التي يتبجحون بها ، بينما نراهم في عمايتهم يتخبطون كمن اصابهم مس من الشيطان .

يقول هذا الاخير عن القرآن الكريم : « ان سيرته Biografia غامضة ومتناقضة مثل سيرة محمد ؛ نفس المشكل بالنسبة للباحث ؛ نفس الغموض الذي يحيط بطفولة وشباب محمد ــ الذي يبدو تحت ضوء التاريخ الساطع فقط عندما يكون رجلا في سن الاربعين ــ يلف كذلك طفولة ونمو القرآن الذي لا يقدم لنا الا وهو رجل ، اعني (والضمير هنا يعود لصاحب الكتاب ، وان كنت اعتقد ان ضميره ذهب ولن يعود)ــ اعني كتابا يدعى مصحف عثمان ، اي بعد ستين عاما من مؤلفه (كذا ! « مؤلفه وستين عاما » دفعة واحدة ؛ كذب وافتراء مزدوج ! !)

---

2) رئيس قسم الشرقين : الادنى والاوسط في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية ؛ واستاذ العربية في جامعة لندن . الف كتابا عن الاسلام ، نشر سنة 1954 واعيد طبعه مرارا في السنوات : 56 ــ 61 ــ 1962 ، (210 صفحة) .

3) له كتاب عن محمد والقرآن . طبع في عاصمة الارجنتين بأمريكا الجنوبية سنة 1954 (من 447 صفحة) .

ويسترسل هذا المؤلف المتجني على الاسلام وقطبي رحاه : الرسول الكريم والقرآن العزيز ، فيقول: « ان شخص Figura محمد هو في جزء كبير منه ، نتيجة اعداد مترجمي حياته الاولين .. وكذلك القرآن هو في معظمه عمل لفيف من الناسخين والتراجمة والجامعين . »

كبرت كلمة تخرج من افواههم ! ان يقولون الا كذبا ! ان ترجمة حياة الرسول الاعظم سيدنا محمد (ص) معروفة ومدروسة منذ اطل بمحياه الكريم على هذا الوجود . فمولده (ص) معروف بدقة ويحتفل به العالم الاسلامي كل عام ؛ وهجرته من مكة الى المدينة محدودة كذلك ، وبها بدأ المسلمون ــ في خلافة عمر ابن الخطاب (4) رضي الله عنه ــ تقويمهم بعد أن لم يكن لهم تقويم . فاذا قارنا هذين الحادثين : مولد الرسول وهجرته ، بحادثي ميلاد المسيح وتقويم المسيحيين ، نجد ان هؤلاء مخطئون في كل الامرين ؛ ذلك انهم لم يضعوا تقويمهم الا بعد مرور خمسمائة عام على ميلاد المسيح ؛ وكان من المفروض أن يكون ميلاد المسيح في سنة الصفر (0) ، الا انه في الواقع كان قبل تلك السنة بأربعة أعوام ؛ اي ان الميلاد الحقيقي للمسيح ، حدث قبل الميلاد المتعارف لديهم بأربع سنوات ! خطأ اكتشفه المسيحيون فيما بعد ، ولكنهم لم يستطيعوا اصلاحه ... ففي اي جانب كان الغموض والالتباس اذن ؟

لقد الفت في ترجمة حياة الرسول الاعظم كتب عديدة ، وعرفه معاصروه معرفة معايشة ومعاشرة ؛ واعترف له الجميع ــ والعدو قبل الصديق ــ بالخصال الحميدة ، وبالصدق والامانة حتى لقبوه بالامين ؛ وعرف كذلك بالنزاهة والتحنث وطيب الخلق ؛ وقد اثنى عليه خالقه جل وعلا قائلا : « وانك لعلى خلق عظيم » .

واي نبي اعتنى اتباعه بالشاذة والفاذة من حياته خصوصا بعد البعثة ، كما فعل المسلمون بحياة نبيهم ؟ فهذه كتب السيرة (التي يقدح هذا المتعنت في نزاهة رجالها ، ويصفهم بالاختلاق واهما انهم مثله في هذه الخصلة الكريهة) ــ اقول : كتب السيرة تعج بالحديث عن حياة محمد قبل الرسالة وبعدها ؛ وهذه كتب الشمائل تتطفح بالكلام عن حياته (ص) فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصتها .

من المعلوم ان النبي (ص) توفي بالمدينة وبعد الهجرة في 13 ربيع الاول سنة 11 هـ (8 يونيه 632 م) وان الخليفة الراشد عثمان بن عفان تولى الخلافة في آخر يوم من عام 23 هـ (7نوفمبر 644 م) ، وقتل يوم 18 ذي الحجة سنة 35 هـ (20 مايو 656 م) ؛ فاذا عرفنا انه تولى جمع القرآن في المصحف ، بعد نصيحة القائد حذيفة بن اليمان الذي شاهد حرب ارمينية واذربيجان التي حدثت في عهد الوالي على الكوفة الوليد ابن عقبة ... واذا عرفنا ان سعيد بن العاص الذي خلف الوليد في تلك الولاية كان عضوا في اللجنة التي اختارها عثمان لجمع القرآن ... ادركنا أن جمع المصحف تم في أواسط عهد عثمان الذي دام اثنتى عشرة سنة اي انه تم في السنة 30 للهجرة (651 م) ؛ فبين موت النبي (ص) وبين جمع المصحف اذن 19 سنة لا ستون سنة كما زعم هذا الحاقد الذي يقول في موضع آخر من كتابه مؤكدا هذا الخطأ : « عند موت محمد ترك ما صار بعد القرآن في شكل ركام مضطرب من المسودات والمكتوبات على الجلد او اكتاف الخروف ؛ وحتى في قطع اللوسة Loza بدون مراجعة ولا ترتيب » .

اولا ــ اسارع بتصحيح كلمة Loza هذه التي تعني القش او الصيني الذي تصنع منه الان اطباق الاكل وفناجين القهوة وما اشبه ذلك . وبالطبع ان هذا ليس مقصودا البته ؛ اذ لم يرد علينا عن العرب شيء من هذا القبيل ؛ وانما المعروف المتواتر ان القرآن الكريم كان اثناء نزوله منجما يسجل اولا بأول في العسب (جمع عسيب وهو جريدة النخل) وفي قطع الاديم (الجلد) وفي الرقاع (من جلد او ورق او نحوهما) وفي عظام الاضلاع ، وعظام اكتاف الحيوان العريضة ، وفي اللخاف (جمع لخفة وهي الصفيحة او الحجارة الرقيقة الملساء) . وهذه الاخيرة هي التي يقصدها هذا المؤلف وخانه قلمه او علمه ، ولم تسعفه دقة الباحث الحصيف ، فبدل ان يكتب كلمة Losa كتب Loza وهذا ضلال مبين . « انك لا تهدي من احببت ، ولكن الله يهدي من يشاء » .

وثانيا ــ اتساءل : لم خص هذا المؤلف اكتاف الخروف بالذات مع ان كلمة Cordero في الاسبانية(5) تعني ابن النعجة قبل ان يتجاوز العام ؟ ! ان للمؤلف فيما يظهر ميلا خاصا نحو الخرفان ، او ان له مثل

4) قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي امر بالتأريخ من حين الهجرة ، فكان عمر أول من ارخ بها . (راجع حاشية البيجوري على الشمائل للترمذي ص 9) .

5) Diccionario manual e ilustrado de La Real Academia Espanola, 2ª edic., 1950

شجاعتها ؛ فهو ينطح يمينا وشمالا وامام وخلف ، مما اوهى قرنيه ، واضعف مخه وذاكرته ، لذا نراه يقول في القرآن الكريم : « انه ليس كتابا ، ولكنه عناصر لتشكيل كتاب ، وفي عملية التشكيل تلك تمر ستون سنة . » (كذا والله ! ؟)

ومما يؤكد ضلال الطريقة العلمية المزعومة التي طالما تبجح بها مثل هذا الكاتب ، تلك الجملة التي تاتي بعد قليل من الاسطر ، فهو يقول : « ذلك المصحف المجموع في تاريخ متأخر بعشرين سنة عن موت النبي ! »

اليس هذا تناقضا عجيبا ؛ ! لقد صدق المثل العربي القائل : « رمتني بدائها وانسلت » . صاحبنا مثال التناقض ، ومع ذلك يرمي به سيد الوجود . لو كانت المسالة مسالة ارقام لقلنا ان لمصففي الطباعة اغلاطهم ؛ ولكنها مسالة حروف : Sesenta años كتبت مرتين في ص 173 وص 174 . اية دقة هذه في البحث يتبجحون بها ! ؟ ومع ذلك لا يستحيي هذا المؤلف حين يقول : « ... لكن يصف القرآن نفسه بانه كتاب لا ريب فيه ، وانه لا يقبل تناقضا ولا تغييرا ولا تاويلا ، ومع ذلك كما سنرى بعد هو مليء بالمخالفات والتعبيرات والشكوك . اذن لا يجب ان نمنح ثقتنا تاكيدات القرآن تلك التي تجعلنا نفكر في انية (6) للكتاب موازية لانية مؤلفه ! ؟ »

تعالى الله وكتابه الحكيم علوا كبيرا ! ان مثل هذا الكلام لا يمكن ان يصدر عن الذين يتقنون العربية ويتعمقون اسرارها ، فما بالك بهذا الكاتب الذي لا يقدر بحال ان يفهم القرآن بل ان يتعمق اسراره ، ولغته الجميلة المعجزة ، وافكاره المدهشة وبلاغته الفائقة ، وبيانه الساحر ، ان الحكم على الشيء فرع تصوره كما يقول المناطقة ، فكيف يسوغ لجاهل شيء ان يصدر حكما صائبا نزيها على ذلك الشيء ؟

لعله يقصد بالتغييرات والتناقضات قضية الناسخ والمنسوخ التي تحدث عنها علماء القرآن وجعلوا النسخ ثلاثة انواع :

1 — ما نسخ خطه وحكمه معا .
2 — ما نسخ خطه وبقي حكمه .
3 — ما نسخ حكمه وبقي خطه .

اقسام منطقية ولا شك ؛ ولكن التحقيق على ان القسمين الاولين انما ذكرا تكملة للباب كما يقال ، فلا دليلا صحيحا على وجودهما ؛ اما القسم الثالث فهو الثابت ، وهو الذي اقتضته حكمة التشريع الالهية التي سايرت النمو الرشدي لدى جماعات بشرية اريد قيادتها وارشادها وتحويلها بالتدريج من ظلمات الجاهلية الجهلاء ، الى نور الهداية المتالق الساطع .

او لعله يقصد ما اعرب عنه زميله الانكليزي حين قال : « لا ريب انه عند موت محمد كانت كمية طيبة من القرآن قد تم تدوينها ؛ وان التدوين الكلي لم يحصل ؛ حيث انه في اثناء حياته كانت سور او فصول جديدة تضاف باستمرار . ان واحد من كتابه الذين استخدمهم كان يتباهى بانه قد اقنع النبي ليغير نصوص الوحي » .

كلام لا يمكن تصديقه . لقد كان النبي (ص) حريصا كل الحرص على نصوص الوحي خشية من الضياع او التبديل او التغيير ؛ كما كان المسلمون الاوائل وكتاب الوحي مثله في ذلك الحرص ، فكيف يمكنهم او احدهم ان يتصرف فيما يلقى اليه النبي (ص) وهو يعرف يقينا انه « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (7) » وهو يردد كذلك قوله تعالى : «وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (8) » .

من الثابت قطعيا وبالتواتر ان النبي (ص) كان يتلقى الوحي فيحفظه ، ويامر كتاب الوحي بكتابته ، ويلقنه المسلمين . وكان المكتوب يوضع في بيت الرسول (ص) بعد ان ينسخ الكتاب لانفسهم صورة منه . وكان الرسول يعارض بما انزل عليه ما حفظه عنه حفظة المسلمين ، كما كان يعارضه جبريل بالقرآن مرة او مرتين في شهر رمضان من كل عام . روى البخاري عن فاطمة رضي الله عنها انها قالت : « اسر النبي صلى الله عليه وسلم الي ان جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة ؛ وانه عارضني العام مرتين ، ولا اراه الا حضر اجلي » .

هذا وقد شهد العرضة الاخيرة على جبريل كاتب الوحي زيد بن ثابت ، ولذلك اختاره الخليفة ابو

6) من كلمة Egolatria يعني عبادة الـ « انا » عبر بها دون كلمة Egoísmo مثلا بمعنى حب الذات لان هذه لا تشفي غليله .
7) سورة غافر . الآية 2 .
8) سورة فصلت (حم السجدة) : الآيتان : 41 — 42

بكر لجمع القرآن ، كما اختاره الخليفة عثمان لنفس الغاية . وهذا دليل على منتهى الحيطة والصيانة ، ووسيلة من وسائل التأكد من حفظ القرآن .

ان التغيير والتناقض الحقيقي هو الذي نجده في كتاب هذا المتجني على محمد والقرآن ، فهو مرة يقول : ان محمدا هو مؤلف القرآن ، بينما في مكان آخر من كتابه الطافح بالمتناقضات يقول : ان هذا (يعني النبي «ص») الذي لم يكن يعرف الكتابة وكان يتظاهر بانه لا يعرفها ، كان يحفظ القرآن ثم يمليه على كتابه» وفي ص 178 ينقل عن الراهب Vicente de Santa Maria رأيه الذي يؤكد « ان الراهب Sergio او بحيرا هو الذي حرر القرآن لاول مرة ، ولكن بطريقة فجة لم تعجب العرب الذين خجلوا واستنكفوا فجمعوا له اربعة عشر من فقهائهم ليحرروه بكيفية اكثر ذوقا وقوة وصفاء » .

ويعقب هذا الكاتب على كلام الراهب فيقول : « وهذا (يعني محمد الذي يسميه دائما Mahoma او يكنى عنه بهذا) لم يكن له في تاليف القرءان لا فن ولا نصيب No tuvo arte ni parte

اجل ، خجل العرب واستنكفوا ؛ بينما هذا الكاتب الاعجمي اللسان ، لم يخجل ولم يستنكف ؛ وصدق النبي الكريم حين قال : « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

اما في ص 186 فيقول : « ان وجود القرآن يرجع للعام 23 الهجري (644 م) » . وقد غلط في كلامه من ناحيتين :

اولاهما : ان القرآن الكريم اقدم من ذلك التاريخ بكثير ، فأوله يرجع الى السنة الحادية والاربعين من عمره صلى الله عليه وسلم ، اي الى ما قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة . وبما ان القرءان نزل منجما فان آخره نزل قبيل وفاة النبي الذي لبى داعي ربه في الثالث عشر من ربيع الاول سنة 11 هـ (8 يونيه 632 م) .

وثانيهما : ان عثمان (رضي الله عنه) الذي جمع القرآن للمرة الثانية ، قد تولى الخلافة في آخر يوم من عام 23 الهجري ؛ فلا يمكن والحالة ان يكون قد جمع القرآن في العام ذاته ؛ بل لقد تم جمعه وتدوينه في المصحف — كما حققناه منذ قليل — في سنة 30 للهجرة (651 م) .

ثم يقول هذا الكاتب بكل صفاقة : « والذي نقرؤه اليوم ، والذي يدعوه المؤلفون كتاب محمد ، لم يكن سوى كتاب عثمان الذي اوضح فيه نياته السياسية وخاصيته المحلية والقبلية كمكي وقرشي ؛ ثم روحه الطبقية ، وطموح البرجوازية المكية ... »

هكذا يتصرف هذا المختلق في الحقائق العليا للتاريخ والوجود ؛ وهكذا يقلبها رأسا على عقب ؛ لا لشيء الا لارضاء شهوته (وشهوات ساداته الذين ينقل عنهم) في الحقد والبغضاء والدس والاختلاق ، ثم لتحقيق بغيتهم المشتركة في التشكيك والتحطيم والهدم ؛ وفوق هذا وذاك ليرينا مهارته في ايراد المتناقضات والآراء غير المعقولة ؛ مما يدل على ان الرجل اوشك ان يفقد وعيه ؛ وان الله قد غشى على بصره وبصيرته ؛ فلا يكاد يرى حتى اضخم الحقائق واثبتها واعزها في الوجود .

ومن اجل عماه ذاك ، نراه يدعي ان القرآن فيه تناقض ؛ وما درى المسكين ان التناقض هو الذي حشا به كتابه . الا تبا له من كتاب ! وتعسا له من تناقض !!

(يتبع)

تطوان : عبد الله العمراني



يا ليالي الصيام ما انت الا ... امل عاد .... يا ليالي الصيام

انت ذكرتنا باعظم يوم ... هو ذكرى بداية الاسلام

ونزول القرآن ، والوحي يوحى ... قيل : اقرا ... فانت هادي الانام

فرج (الغار) وانتشى .. وتجلى ... (جبل النور) راقص الاحلام

« رجع (1) الهادي فى ارتجاف فؤاد ... (زملوني) .. فالنور يخطو امامي..!

تلك (زوج الامين) تحنو عليه ... لا تخف .. انت واصل الارحام

كم رحمت الفقير .. والضيف ياوى ... لجناب من فرحة وابتسام »

* * *

قام يدعو لله .. والكفر حقد ... لم تهذبه سيرة الايام

ما يزال القوي فى الارض يطغى ... يتباهى بالاثم والاجرام

مكرت مكرها قريش .. وسارت ... مثل اعمى في حالكات الظلام

فجرت غيظها .. ولم يغن شيئا ... ما لديها من قدرة واحتكام

---

1) الابيات الثلاثة التالية اشارة لما جاء فى صحيح البخاري من حديث بدء الوحي : (... فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال : (زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، واخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : (كلا ، والله ما يخزيك الله ابدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ....) .

ان للحق ثورة تتحدى ... سطوة المعتدي ، وهول الصدام
انه النور شع في كل قلب ... اي ضرب يجدي ، واي انتقام .؟

* * *

اجمعوا امرهم .. وهموا بغدر ... كيف اعمى الجفون طيف منام .؟
ونجا الصاحبان .. لا عنكبوت ... كان يجدي ، ولا هديل حمام
غير أن الاله شاء حياة ... لوجود عن الهدى متعام
(طلع البدر) فى المدينة اشهى ... من اغاريد حلوة الانغام
كثر المسلمون .... وانتصر الحـ ... ـق ، وعاش الانسان عيش الوئام
عالم الزيف والخداع تلاشى ... كل ركن من الهوى لانهدام

* * *

يا نزول القرآن . يا ثورة الفكـ ... ـر على عالم من الاوهام
يا نزول القرآن .. يا ثورة الرو ... ح لتحطيم هالة الاصنام
ما تزال الاصنام فى عصرنا هـ ... ـذا ، وفي حلة من الاعظام
فلسفات من الغواية والشر ... ك ، طغى اليوم موجها المتطامي
يا رسول الاسلام .. انا انتصرنا ... يوم كان القرآن خير نظام
كلما جد موقف ... او تراءى ... اي خطب .. او صفنا فى انفصام
نستشير القرآن .... ان هداه ... فوق مر السنين والاعوام
اقتصاد ، وشرعة ، واجتماع ، ... ونظام فى حربنا والسلام
ثم تهنا مع المذاهب .. حتى ... ضل عنا سبيلنا المتسامي
ان وحي الاله اسمى واعلى ... بئس فرض الظنون والاوهام
ان ضللنا عن السبيل ، فانا ... سوف نحيا في وحدة الاسلام
امل قد يطول .. لكن قلوب ... تؤمن اليوم بالغد البسام

* * *

يا ليالي الصيام .. انت خشوع ... انت ذكرى للوحي والالهام
ليلة القدر تغمر الروح ـ حتى ... مطلع الفجر ـ بالمعاني العظام
قسما ... ما غفا بقيثارتي اللحـ ... ـن ، ولكن طلعت ، والجرح دام
فاحملني على جناحك (للقد ... س) ، وصوني عهود قوم كرام

الرباط ـ علال بن الهاشمي الفيلالي



كانت الغاية الشريفة الاولى التي قصدت اليها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية من توجيه الدعوة الى من وجهت اليهم من علماء المغرب للمشاركة في موسم المحاضرات الدينية التي تلقى عادة تحت اشرافها بواسطة الاذاعة والتلفزة بمناسبة حلول شهر رمضان من كل سنة ، : « ان تعم الفائدة مختلف الاوساط المغربية » .

وكانت الغاية الثانية من دعوتها تلك ، : « ان يكون علماء الدين قاموا بواجب الارشاد والتوجيه الاسلامي » .

وعند ما تلقيت الدعوة للمشاركة اخذ خاطري يجول فيما عسى ان يكون اوجب واجبات الارشاد والتوجيه في هذا الظرف بالخصوص : هذا الظرف الذي وجهت فيه « لامة القرآن » ضربة لم يسبق ان وجه اليها مثلها في جميع مختلف الظروف العصيبة التي مرت عليها خلال مراحل تاريخها المتعاقب . ولم يسبق الى ذهني ان يكون اوجب من اي واجب من واجبات التوجيه والارشاد غير تنبيه المستمعين من (امة القرآن) في هذا البلد او في غير هذا البلد الى مكمن الداء ، واصل البلاء فيما نزل من المحن والمصائب التي كانت آخرها في موطن الاسراء والمعراج اجدر بان يقال فيها ما قيل في اخرى سبقتها :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان

ولم يكن مكمن الداء واصل البلاء فيما حل بالمسلمين سوى انحرافهم عن نقطة البدء التي كانت مبدأ ظهورهم على وجه الارض كمسلمين ، هادين ومهتدين ، وغالبين لا مغلوبين ، ومعززين لا اذلاء ، وفاتحين لا مفتوحين ، وحاكمين لا محكومين .

وما كانت نقطة البدء تلك ، ولا تكون ، ولن تكون ابدا سوى « القرآن » ، القرآن الذي نزل به الروح الامين على قلب محمد بن عبد الله في شهر رمضان ، « شهر رمضان الذي انزل فيه القرءان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ، بينات من الهدى الى الخير العام ، خير الجسد وخير الروح ، خير الفرد وخير المجتمع ، خير الدنيا وخير الاخرة ، بينات من الفرقان بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال ، بين الطيب والخبيث ، بين المنجي والمهلك .

كان الانسان قبل نزول القرءان على الحالة التي وصفها القرءان حين قال الله تعالى : « تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم ، وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يومنون » . وقد وصف النبي (ص) غضب الرب على انسان ما قبل نزول القرءان حين قال في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه : « ان الله نظر الى الخلق فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من اهل الكتاب » . ولكن رحمة الله التي سبقت غضبه تجلت في ان بعث محمدا للعالمين بشيرا ونذيرا ، وصدق الله : (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا) ، وصدق رسول الله حين وصف هذه الرحمة التي حبا الله بها خلقه برسالته فقال : (انما انا رحمة مهداة) .

ولقد كانت نقطة البدء في التوجيه الالاهي للرسول المبعوث الى العالمين بالقرءان ، ان نبهه الى ثقل المسئولية الملقاة على عاتقه ، فقال جل وعلا يخاطبه : « انا سنلقي عليك قولا ثقيلا » ، ولم يكن ثقل القرءان الا العمل بما جاء به كما جاء ذلك عن الحسن البصري وقتادة ؛ واخبره سبحانه وتعالى بانه ليس بدعا من الرسل السابقين في ان جعل لكل منهم عدوا من المجرمين يحاول صده عما انزل اليه بكل وسائل الاغراء والايذاء ، وان عليه ان يتمسك بالذي اوحي اليه ، وحذره ان ينفلت او ينحرف ، او ينخدع وينصاع ، والا فان الله العلي الكبير الذي لا نصر لمن خالف امره ، ولا ناصر لمن خذله ، فقال تعالى : « وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » . وقال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولي ولا نصير » . وقال سبحانه : « ولئن اتيت الذين اوتوا الكتب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، انك اذن لمن الظالمين » . وقال تعالى : « وان احكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك » . وقال عز من قائل : « وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ، ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ، اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا سبيلا » .

وما كان لمحمد ، وهو الرسول الذي اختاره من يعلم حيث يجعل رسالاته لتحمل اعباء الرسالة الانسانية العامة ، الا ان يعد نفسه اعدادا لتحمل هذه المسئولية العظمى ؛ وما ذلك الا ان اسلم وجهه لله وهو محسن مستمسك بعروة (القرءان) الوثقى ، حتى اصبح القرءان نورا له يمشي به على الارض في جميع اعماله الخاصة والعامة ، مع نفسه ومع الناس ، مع الاقربين اليه والابعدين ، مع الاصدقاء والاعداء ، في السياسة وفي الحكم ، وفي السلم وفي الحرب ، ومن ثم صح قول عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان خلقه القرءان » . وقد جاء القرءان يشهد على هذا الوصف القرءاني حين قال : « وانك لعلى خلق عظيم » .

والمسلمون الاولون الذين عاشروا الوحي ، وكانت ءاذانهم اسبق الآذان الى سماع نداء القرءان فلبوا النداء ، هؤلاء المسلمون الذين سمعوا نبي القرءان وهو يتلو عليهم من امثال قول الله : « وهذا كتاب انزلنه اليك مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ان تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين » ، هؤلاء المسلمون الذين ءامنوا بمحمد وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه لم يفهموه اول ما فهموا اي معنى لنزول القرءان سوى العمل بما جاء به امرا ونهيا ، والا ان يصبح القرءان خلقا لهم كما كان خلقا لصاحبهم ، وفي ذلك جاء قول ابن مسعود (ض) : « كان الرجل منا اذا تعلم عشر ءايات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

ونحن اذا تأملنا الايات الكريمة التي يوجه فيها الرب الكريم الخطاب الى الامة الاسلامية على سبيل الامر او النهي ، على سبيل الامر كقوله تعالى : « يا ايها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » . وكقوله تعالى : « يا ايها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . وقوله : « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم » « واصلحوا ذات بينكم » « وتعاونوا على البر والتقوى » . او على سبيل النهي كقوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » . « ولا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » « يا ايها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » . الى غير ذلك من ءايات الخطاب القرءاني الموجه الى الامة الاسلامية . اقول اذا تأملنا هذه الايات نجد ان المجتمع الاسلامي لا يمكن ان يتصور لشخصيته المعنوية والواقعية اي وجود الا على معنى وجود متطلبات هذه الايات في تصرفات افراده ، وسلوك انسانه في جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة ، ومهما تقسو الظروف او تلين ، فان هذا التصور الصحيح للامة الاسلامية على انها العاملة العاملة بالقرءان هو التصور الذي ينبغي ان لا تغيب عن اذهاننا حين نتلو قول الله تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمومنين » . وقوله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المومنين سبيلا » .

وحين نقرا تاريخ الذين اعزهم فما اذلهم ، ونصرهم فما خذلهم ، ورمى لهم حين رموا ، في اكثر المعارك ، واغلب الحروب ، وارهب المواقف ، فاذا انعكست الاية ، ونكست الراية ، ورجع الجنود على

اعقابهم خاسرين ، فاعلموا ان القرءان لم ينل حــق تلاوته ، ولم تمتثل اوامره ونواهيه ، ولم تطبق تعاليمه في شئون الفرد وفي شئون المجتمع ، وصدق إلله « ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذيـن ءامنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » . « ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » .

فاذا كان لامة القرءان شرف خطاب القرءان لها بانها خير امة اخرجت للناس ، فان ذلك لم يكن لهـا لانها تسكن مشرق الارض دون مغربها ، او شمالهـا دون جنوبها ، او لان ربك زاد لها بسطة في الجسم على باقي سكان الارض ، وانها كان لها ذلك بشرط شرطه عليها القرءان ، وهو انها تامر بالمعروف وتنهـى عـن المنكر ، فالقرءان لم يقل « كنتم خير امة اخرجـت للناس » وسكت ، ولكنه علق ذلك على الصفة حيـن قال : « تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكـر » ، فاذا اخلت بذلك الشرط ، وخالفت ما اخذ الله عليها مـن العهد ، انعدمت فيها صفة الافضلية ، واستحقت ان ينزل بها ما نزل بغيرها من الامم التي خالفت امر الله، استمعوا معي ان شئتم الى هذا الحديث الـذي رواه اصحاب السنن عن نبي القرءان ، قال عليه الصـلاة والسـلام : « ان من كان قبلكم كان اذا عمل العامل فيهم جاءه الناهي تعذيرا فقال يا هذا ، اتق الله ، فاذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كان لم يره على خطيئة بالامس ، فلما راى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم لعنهم على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عـن منكر فعلوه ، والذي نفس محمد بيده لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتاخذن على يد الظالم ولتاطرنـه على الحق اطرا او ليضربن الله بقلوب بعضهم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم » . واستمعوا معي ايضا الى هذا الحديث الاخر الذي يرويه الامام احمد وابو داوود عن نبي القرءان ، قال صلوات الله وسلام عليه : « اذا رضى الناس بالدرهم والدينار وتبايعوا بالعينة ، وتبعـوا اذناب البقر ضرب الله عليهم ذلا فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » .

في القرءان يا امة القرءان آية تعدكم بالخلافة في الارض والتمكين في الدين ، والامن بـدل الخـوف ، فراجعوا اعمالكم واسالوا انفسكم ، هـل اخلفتـم ام اخلفت الاية ؟ ! الم يقل الله : « وعد الله الذين آمنـوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كمـا استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الـذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا » .

القرءان كله دعوة الى الاصلاح لا الى الافساد ، والقرءان كله دعـوة الى التقـوى لا الـى الفجـور ، والقرءان كله دعوة الى العدل لا الى الظلم ، والقرءان كله دعوة الى القوة لا الى الضعف .

قالوا لكم ، انكم غلبتم لانه ينقصكم العلم . قولوا لهم ، انما فقدنا العلم لاننا فقدنا انفسنا ، الم يقل الله ؟ « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهـم » .

انما آن لكم بعد ان تردوا القلوب الى ربـاط القرءان بعد ان انفلتت ، والى صراط الله السوي بعد ان حادت ، واعلموا ان الله الذي سبقت رحمته غضبه فبعث للعالمين نبي القرءان ، ضمن لامـة القـرءان ان يهديها سبل النجاة ، ومعالم النصر ، اذا هي رجعت الى تعاليم القرءان ، فكما انه سبحانه يحيـي الارض بالمطر بعد موتها ، كذلك يحيي القلوب بالقرءان بعـد غفلتها ، فاستمعوا الى نداء القرءان حين يقول : « الم يان للذين ءامنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهـم فاسقـون ، اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها » . وقال تعالى: « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب » .

وبعد فاذا كان من واجب الامة الاسلامية ان لا ينقطع فيها واجب التوجيـه والارشاد ، والتنبيـه والايقاظ ، على ممر الازمان ، ومختلف الاحوال ، فان الاكبر اثما ، والاخسر عاقبة ، والاجلب لغضب اللـه وسخطه ان يسمعه الناس في الليل او في النهار آيات الكتاب الذي لا يغسله الماء ، واحاديث الرسول الذي لا ينطق عن الهوى ثم يتفرقون في الليل او في النهـار مقبلين على الآثام يرتكبونهـا ولسـان حالهم يقـول : « سمعنا وعصينا » .

البيضاء : محمد الحمداوي



« الى متى سنظل غافلين وامم غيرنا تعطينا الدليل على عبقرية دستورنا ؟ »

ان خير ما يساهم به المرء المسلم فى أيام رمضان المباركة هو الرجوع الى الذكر الحكيم والتأمل فى احكامه والاستنارة بارشاده ، وان ذكرى مرور اربعة عشر قرنا بالضبط على نزول القرآن على رسول الرحمة والهدى لهو حادث يجب ان تهتز له البشرية جمعاء وتقام له الحفلات والندوات وتعقد من اجله المؤتمرات، وانه لحافز لكل من يدين بهذا الكتاب على الاستفاضة فى دراسة جوانبه الروحية والانسانية الكبرى ليهتدي بهديه فى ظلمات المادة المخيمة على عالم اليوم ...

وعلني فى هذا البحث المتواضع احاول الكشف عن بعض هذه الجوانب العظمى ، وحسبي فى ذلك ان استحضر مجموعة من ذكريات ايام الدراسة واخطط خلاصة لمعلومات وافكار تلقيتها حول الكتاب العزيز منذ نعومة اظفاري ...

تراني لا اكون مقصرا ان ساهمت فى احياء هذه الذكرى العظيمة ، ذكرى المعجزة الكبرى ، ولو باستعادة ما هو معلوم من محتويات وتوجيهات الذكر الحكيم ، فما دمنا نعتقد جميعا ان مهمة القرآن لم تنته بعد وان ميدان الدراسات والاكتشاف لم ينحصر فيما استنبطه النحاة والفقهاء من القرآن ، ما دمنا نعتقد هذا فما الذي يا ترى يبعدنا عن دراسته والاعتبار به ؟

علينا ان نوالي الدراسات تلو الدراسات لنفهم القرآن الكريم اكثر واعمق ولنستنبط منه كل جديد ورائع ، ولنعتبر به ونستضيء بنور معارفه لاننا مسلمون مومنون بانه هو الكتاب المنزل على سيدنا محمد (صلعم) وانه الدستور السماوي المبين الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

النزول والتلقية ...

فى ليلة القدر من شهر رمضان عام ثلاثة عشر قبل الهجرة دق جرس البعثة النبوية ونزل جبريل عليه السلام على النبي العربي وهو يتعبد فى المغارة المقدسة ليلقنه اول آية من القرآن العظيم ، فكانت كلمة الوحي الاولى لمحمد عليه الصلاة والسلام : اقرا باسم ربك الذي خلق .. وبقي القرآن ينزل آية آية منجما عند سنوح المناسبة وحسب ما تقتضيه الاحداث وتتطلبه الحاجات ، وقد بين الله الحكمة فى نزوله مفرقا بقوله (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) اي كما نزلت الكتب الاولى على موسى وعيسى وداوود، فرد عليهم بقوله (كذالك لنثبت به فؤادك) اي انزلناه مفرقا ليكون اقرب الى حفظك له وفهمك لمعانيه ، وذلك من اعظم اسباب التثبت .

واستغرق زمن نزوله ثلاثة وعشرين عاما تبتدىء باول بعثة الرسول وتنتهي قبل وفاته بثلاثة اشهر ،

ولم ينزل في مكان واحد بل نزل بمكة والمدينة وما حولهما ومنه الليلي والنهاري والسفري والحضري والنومي والبرزخي .

وكانت الآيات ينزل بها جبريل الاكرم على الرسول الاعظم فيتلقاها المومنون من فم الرسول ويكتبها من عرفوا بانهم كتاب الوحي كما يمليها عليهم محمد عليه السلام ، ولم يكن كتاب الوحي يعتمدون على الحفظ فحسب بل كانوا يكتبون نص ما ينطق به الرسول الكريم بين يديه في عسب او لخاف او اكتاف وهو يرشدهم الى موضع كل آية من السورة التي ينبغي ان تكون فيها .

المصحف الامـــام ...

توفي رسول الله والقرآن كله مكتوب وفي صدور الصحابة محفوظ ، وفي خلافة ابي بكر راى عمر ان القتل قد اشتد بالحفاظ في وقعة اليمامة حتى قتل منهم سبعمائة ، فاشفق من ضياع القرآن فاخبر سيدنا ابا بكر بالامر فاتفقا على جمع القرآن وكتابته ، وسلما ذلك الى يد زيد بن ثابت سنة 633 م ، وكان زيد بن ثابت يجلس امام المسجد وهو يحفظ كتاب الله ، وكان احسن الناس حفظا له وترتيلا ، فجمعه من العسب واللخاف والاكتاف والصدور وكتبه صحفا ، لكنه كان يتلقى من الصحابة ما كتبوه على ان يشهد شاهدان ان فلانا هذا سمع هذه الآية من فم الرسول وان هذا الذي هو مكتوب هو نفس الذي سمعه ، وانه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكانت هذه الصحف جمع بها ما شهد عليه لا غير ، وحفظت عند ابي بكر مدة حياته ، ثم عند عمر كذلك ، ثم عند ام المومنين حفصة بنت عمر .

ولما كثرت الفتوحات في عهد عثمان وانتشر القرآن بالامصار كثر اختلاف الناس في القراءات وادى ذلك الى تخطئة بعضهم بعضا تخشى عثمان تعاظم الامر ، ولكي يجمع الناس على مصحف واحد أمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمان بن الحارث المخزومي فنسخوا تلك الصحف في مصحف واحد مرتب السور ، واقتصر فيه من جميع اللهجات على لغة قريش لنزول الوحي بها ، ثم امر الخليفة عثمان ووافقه المسلمون حرصا على وحدة الامة وجمعا لكلمتها وخشية ان يدخل في القرآن ما ليس منه؛ فاحرقت جميع المصاحف الاخرى التي لا تتفق مع المصحف الامام الذي اصبح هو المعمول به فيما بعد (سنة 651 م) .

مشكل القراءات السبع ...

ويسوقنا هذا الى فتح قوس لنقول كلمة عن القراءات السبع (1) . فلهذا الموضوع علاقة وثيقة بحديث انزال القرآن على سبعة أحرف ، ومعلوم ان الاسلام كان في مكة محدود الاشخاص فلما هاجر النبي الى المدينة اتسعت رقعة الاسلام وكثر عدد الداخلين فيه من قبائل مختلفة لهم عادات صوتية تخضع لها السنتهم وتتحكم في الفاظها ، فكان من سماحة الاسلام ان يترك الالسن على سجيتها من امالة وتفخيم وترقيق وما شابه ذلك من طرق اداء اللفظ بنغمة تخضع لها عادة الانسان اللغوية ولا يمكن الانسلاخ عنها بسهولة.

والحديث الوارد في هذا الموضوع اصله ان النبي عليه السلام سعيا منه الى التخفيف عن امته لتكون طليقة في النطق بلهجاتها ، لجا مرة اخرى الى ربه سائلا رحمته حيث انه « بالمؤمنين رؤوف رحيم ولانه بعث الى امة امية ، منهم الغلام والخادم والشيخ الفاني والعجوز الكبيرة » فاتاه جبريل عليه السلام فقال ان الله يامرك أن تقرىء امتك القرءان على سبعة احرف . ولا نورد هنا الا مجمل الحديث اذ المقصود بالذات ربط العلاقة بين القراءات السبع والاحرف السبعة الوارد ذكرها في الحديث ، فالقراءات هي الاحرف والمراد بالسبع لم يكن على وجه الحصر وانما التعدد والكثرة .

ولم يكن المقصود من الاحرف هو اللهجات التي هي عادة لغوية تتحكم في عضلات النطق ، فقد اجمعت جميع الروايات الصحيحة لهذا الحديث أن الحكمة التي تصدها الاسلام من الحديث هي التسهيل على المسلمين في قراءة القرآن ، وقد كثروا بعد فتح مكة واصبح الحرص على تلاوة القرءان يتزايد مع الزمان فالعرب امة امية اغلبهم لم يقرا كتابا قط ، وقد تعجز الذاكرة عن الحفظ الوثيق وخاصة بتعدد آيات القرآن وتكاثر سوره والرغبة الدينية في النفوس قوية ، فلا تنزل آية الا بادر المومنون الى استماعها وتلقيها ، ولكن ما يكاد يمر زمن حتى يشتبه عليهم هل اللفظ او مرادفه هو المنزل ، واكثرهم لم يكتبوه لاميتهم فيرجعوا الى الرسول والى

---

1) المعروفة بقراءات : حمزة — الشامي — الكسائي — نافع — أبي كثير — عاصم — البصري .

من كتبوه يستعيدون ما تلقوه ويتكرر ذلك ، والرسول يشهد ما هم فيه من معاناة وما يبذلونه من جهد .

واخيرا جاءت رحمة الله وصدر الاذن بان يقرا القرآن بحروف مختلفة ، والسبعة لا مفهوم لها وانما هي دليل لكثرة الالفاظ وتنوعها لاداء الجملة، كان جبريل يعلم الرسول ذلك على نحو لا يتغير معه المعنى ولا يختلف السياق ، ولهذا بدا الرسول يلقن الصحابة ما انزل الله عليه : فهذا يلقنه الآية على نحو وذاك يلقنه الآية على نحو آخر مع اختلاف في بعضها وان كان المعنى واحد (ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف فايما واحد اصاب من ذلك حرفا فهو كما قرا) (1) فيكون في الواقع معنى السبعة الاحرف أو القراءات هو القراءة باختلاف الاحرف اي باختلاف الالفاظ وباتفاق المعاني من دون اي اختلاف بمعان يوجب اختلاف احكام (2) .

الاعجاز باللفظ ...

والقرآن مقسوم قطعا مستقلة او فصولا تعرف بالسور ، فيه مائة وأربع عشرة سورة رتبها جامعوا الكتاب باعتبار الطول والقصر ما عدا سورة الفاتحة فهي مع قصرها في صدر الكتاب ، وعليه فالسور الطولى في اوله والصغرى في آخره . وغالب السور الطولى مدنية والقصيرة مكية ، فاما الاولى فكثيرا ما تنبئنا عن الامم الغابرة وتقص لنا حالة الانبياء مع قومهم فتقصد بذلك موعظة قريش والطعن في آلهتهم واستنهاض المسلمين ، واما الثانية فتلك التي تبين لنا مقاصد الغزوات وتضع اسس الشريعة والاصول الاجتماعية .

وهناك فروق اخرى بين السور ، منها قصر الآي وتواطؤها على الفاصلة الواحدة في السور الصغرى ، وهو غير مطرد في السور الطولى . ولرسم القرآن نمط خاص مخالف للمصطلح العام اما بزيادة حرف في بعض الالفاظ واختزال حرف في غيرها واما برسم هاء التانيث في كثير من الاسماء بصورة تاء الافعال الى غير ذلك مما خولف في رسمه القياس المتداول عند الكتاب .

وتوجد في القرآن كلمات دون لغة العرب تربو على المائة . منها الفارسية والرومية والقبطية والحبشية والعبرانية والسريانية ، وقد قومتها العرب وصقلتها السنتها واستعملتها على أوزانها ومن هذه الكلمات : الجبت والقسطاس والاستبرق والسندس والزنجبيل الخ ...

ولئن كان القرآن مكتوبا بلغة قريش ، افصح وانصع لغات العرب ، وعلى منهاج بلاغتها فان له اسلوبا خاصا ولهجة تميزه عما سواه . فقد عجز فطاحل البلغاء وجهابذة الشعراء على أن يتصدوا لمعارضته ولو بسورة واحدة من مثله ، وامهلهم الله طول السنين فلم يستطيعوا فسجل عليهم العجز ونادى عليهم باظهار أضعف ، (وان كنتم في شك مما أنزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله !) (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

وظاهرة اعجاز اخرى ان ثمان وعشرى سورة من سور القرآن تبتدىء بكلمة مركبة من وضع حرف واحد او حروف معدودة من الحروف الهجائية : مثل يس ، ن ، والم ، وكهيعص ، والر ، وحم الخ ... وقد جمعت هذه الحروف كلها فوجد انها تضم فيما بينها جميع الحروف العربية . ولقد وجه العلماء عنايتهم الى البحث في السر في ذلك ، ولم نر من بحثهم هذا الا رايا واحدا يمكننا ان نعتد به في هذا الموضوع ونعني ناحية الاعجاز وذلك لما وصف الملحدون القرآن بالسحر وباساطير

---

1) يروى أن عمر بن الخطاب دخل المسجد فسمع هشام بن حكيم وهو قرشي مثله يقرأ سورة الفرقان بخلاف ما لقنه الرسول . فكاد يساوره في الصلاة فصبر حتى سلم فلما سلم لببه بردائه وقال له : من اقراك هذه السورة التي سمعتك تقراها ؟ قال اقرانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كذبت! فوالله ان رسول الله لهو الذي اقرانى هذه السورة ، وانطلق يقوده الى الرسول فقال يارسول الله اني سمعت هذا يقرا سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وانت اقرأتني سورة الفرقان . فقال الرسول : ارسله يا عمر « اقرا يا هشام » فقرا عليه القراءة التى سمعه عمر يقراها فقال الرسول: هكذا انزلت، ثم قال الرسول اقرا يا عمر : فقرا القراءة التي اقراه الرسول ، فقال الرسول : هكذا انزلت ، فوقع في صدر عمر شيء فعرف النبي (صلعم) ذلك في وجهه فضرب صدره وقال : ابعد شيطانا ، ابعد شيطانا ، ابعد شيطانا ، ثم قال « يا عمر ان القرآن انزل على سبعة احرف فاقرءوا ما تيسر منها، ان القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذابا او عذابا رحمة ! »

2) انظر تفصيل قول الطبري في ذلك .

الاولين ، وحاولوا صرف الناس عن سماعه وجنحوا الى مقابلته بالسخف من القول، نادى الله عليهم بالعجز عن ان ياتوا بسورة من مثله ، واخذ يرسل لهم حروف الهجاء قائلا لهم : اذا استصغرتم القرآن ، فها انا اعطيكم حروفا عربية لتركبوا منها كلمات ، ومن هذه الكلمات يمكنكم ان تصنعوا آيا وسورا تعارضونه بها، فانكم تدعون البلاغة وسحر البيان ، وما القرآن الاكلاما عربيا مبينا .

وكان العرب يفهمونه ويدركون معانيه في مفرداته وتراكيبه غير انهم لما اختلطوا بالامم الاجنبية فسدت لغتهم ولم تعد لغة قريش دائرة في مخاطباتهم ففاتهم شيء من معانيه فنشا عن ذلك التفسير .

لقد كان القرآن محصورا في بدايته في بضع نسخ خطية ، فلما انتشرت المطابع الحجرية والميكانيكية ، استخدمت لنشره وجعله في متناول ايدي الوف المسلمين وهو الان يذاع في الراديو والتلفزة ويسمعه الكل مسلمون وغيرهم ، فيخشع للحن آياته الاتقياء ويتعظ به الضالون ،ونعم الامر هذا . « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يومنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى » وفي آية اخرى : (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) .

الاعجاز بالمعاني ..

نزل هذا القرآن الكريم والعالم يتخبط في تيار من الجهل والضلالة فاضاء الكون وسقت العقول منه هدى ورشدا ، ومهد للانسان الطريق في وضع الاصول الاجتماعية والقوانين والشرائع ، وتجديد علاقة الناس بعضهم ببعض ، بل اصبح هذا القبس الالاهي قاعدة موطدة لثقافات علمية واسعة النطاق ، ومنهجيه فكرية لم يظهر لها نظير في كل احقاب التاريخ .

نعم ، لقد جاء هذا القرآن بحقائق صادقة ، وادلة ناطقة ، فارشد الناس الى عقائد سليمة واحكام عادلة وآداب ومواعيظ بالغة ، وظهر للناس معجزة باهرة لعلو احكامه وسمو مقاصده وفصاحة كلامه وجزالة اسلوبه . وكيف لا يكون ذلك وهو كلام الله الازلي القديم ، والكتاب الخالد الذكر الذي لا تبديل لكلماته واحكامه ولا ناسخ لشريعته (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) لذلك كان نزهة للنفوس وشفاء للصدور قال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين) ، لقد امتلك ببلاغته وسحر بيانه النفوس ، واستولى بحكمته على القلوب ، فما لبث ان خضع له كل عنيد وتيقن انه أمر ليس في طاقة البشر ان ياتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

فمن معجزاته الباهرة انه اخبر عن امور من قبيل الغيب ووقعت كما اخبر بها ومن المعروف في هذا القبيل قوله تعالى : (الم ، غلبت الروم في ادنى الارض ، وهمن بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله) وبيان هذا ان حربا كانت وقعت بين الفرس والروم وكان الفوز للفرس ، وقريش يتشيعون للفرس ، لانهم لا يدينون بكتاب ، والمسلمون يودون انتصار الروم لانهم اهل كتاب ، فنزلت الاية مخبرة ان الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين وقد وقع ما اخبر به القرآن ، فعاد الروم والفرس الى القتال بسبع سنين من الحرب الاولى ، ودارت الدائرة على الفرس . وكان انتصار الروم على الفرس في هذه الحرب سببا لاسلام كثير من الناس ، لوقوعه كما اخبر به كتاب الله .

وكذلك اخبر عن امور المستقبل ، كوعده تعالى للمسلمين بدخول مكة (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون) ولا يخفى ان المسلمين قد دخلوا منتصرين الى مكة . وقوله تعالى خطابا لنبيه الكريم : (والله يعصمك من الناس) ولا شك انه كان حول الرسول منافقون يحملون له اشد البغضاء ، ويتصلون به اتصال الاصحاب والاقرباء ، ومع كثرة اعدائه ، وحرصهم على قتله ، ومع ظهوره للناس في اي وقت شاءوا ، ومشيه في الطرق والاسواق وحده او مع من لا يستطيع ان يدافع ، لم تمتد اليه يد بسوء ، ولم يمت الا على فراشه .

القرآن سبق علماء العصر الحديث .

ان معاني القرآن كلها ، وردت على الوجوه المعقولة بحيث لم تخالف العلوم الصحيحة ، ولم يوجد في آياته ما يخالف العقول والاراء السليمة . بل ظهرت في كثير منها معان لم تنكشف لاهل العلم الا منذ عهد قريب ، فانظر الى قوله تعالى (سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون) فقد كشف العلم الحديث ان في كل نبات ذكر

وانثى ، ثم انظر الى قوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) فقد ثبت في علم النبات ان الريح تهب حاملة طلع الذكر وتمر به على الانثى ، فتتكون الفاكهة من التقاء الطلعين ، واعتبر قوله تعالى (أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوي بنانه) فتعريف الانسان ببنانه مطابق لما اثبته العلم الحديث من أن لبنان كل انسان هياة خاصة لا تماثلها هياة بنان اي انسان آخر .

وتسوية الاصابع بشكلها يعد من ادق تكوين الانسان وكمال صنعته حيث امتازت تجاعيد الجلد الكاسي للبنان بشكل لا يترك تشابها بين شخص وآخر الشيء الذي لم يكن يدركه العلم حتى نبه القرآن اليه واكتشفه علماء الغرب حديثا وابتنى عليه علم تعريف الاشخاص ببصمة الاصابع وجعلت له في كل دولة متقدمة ادارة لتحقيق الشخصية .

وقد سبق القرآن « داروين » وغيره من العلماء الى نظرية النشوء والارتقاء فقد قالوا عن اصل الانواع وتسلسل الانسان أن المخلوقات كلها نشأت عندما كانت الكرة الارضية مغطاة بالماء وان الحيوانات البحرية التي تطورت بعد ذلك زحفت على الارض فنشأت الزواحف ثم الحيوانات الاخرى بعد ذلك ، واعتبر العلماء هذا الكشف امرا ضخما جدا في القرن الماضي ، ومن ذلك الحين وهذه النظرية هي الغالبة على النظريات الاخرى في البحث عن نشأة المخلوقات على وجه الارض ، وقد سبقهم القرآن الى ذلك بأكثر من اثنى عشر قرنا حين قال « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

وسبق القرآن ايضا الذين قالوا ان القمر لا يضيء ولكنه يعكس ضوء الشمس ، فقال تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » فالضياء هو الشمس ولكن القمر هو الذي يعكس هذا النور كما تعكس المرآة نور المصباح .

دستور البشرية .. وتنزيل من حكيم حميد..

لقد اشتمل القرآن على المواعظ والادب والاخلاق والاحكام والترغيب في العمل ومدح الابرار وذم الفجار ، وتدبير السياسات وبيان حسن المعاشرات ، واقامة الدليل على وجود الله تعالى وتوحيده ، وحكى عن اخبار القرون الغابرة والشرائع السابقة ، ووصف الجنة واحوال اصحابها ووصف الجحيم ، وما في العالم العلوي من الآيات ، من كواكب وامطار وبرق ورعد ووصف الارض من جبالها وسهولها وانهارها وبحورها وما يستقر فيها من حيوان ونبات وجماد ، وما سكنها من الامم وما لحقها من الوقائع والحوادث .

ومن نظر الى ان محمدا نشأ في امية ، ثم أمعن النظر في قوة ادلة القرآن ، وقانون المنطق الصحيح الذي تقوم عليه حججه ، لم يرتب في انه تنزيل من حكيم حميد ، وكثيرا من الذين دخلوا في الاسلام باخلاص لم يشهدوا من آيات النبوة اكثر من انهم سمعوا سورة او آيات من القرآن ، فعرفوا انه كلام الله القديم الازلي ومعجزة ليس من السهل اختلاقها قال بعض فلاسفة الاسلام : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رايتها تشفي غليلا ولا تبرىء عليلا ، ورايت اقرب الطرق طريقة القرآن .

وشهد بذلك حتى من ليسو مسلمين :

قال المؤرخ الانجليزي « ويلز » ان القرآن كتاب ديني ، ادبي ، علمي ، اجتماعي تهذيبي ، تاريخي ، جغرافي ، وكثير من نظرياته العلمية وانظمته ، وقوانينه تستعمل حتى في وقتنا الحالي وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة .

وقال العالم « جيبون » : القرآن مسلم به من حدود المحيط الاطلنتكي الى نهر الكانج ، بانه الدستور الاساسي ليس لاصول الدين فقط بل للاحكام الجنائية والمدنية وللشرائع التي عليها مدار حياة نظام النوع الانساني وترتيب شؤونه .

وقال « شبلي شميل » : ان في القرآن احوالا اجتماعية عامة وفيها من المرونة ما يجعلها صالحة للاخذ بها في كل زمان ومكان وانه فتح امام البشرية ابواب العمل للدنيا والاخرة ، ولترقية الروح والجسد.

الانطلاقة الكبرى

نعم ، انه قد فتح أمام البشرية ابواب العمل ، وجاء حاثا للعقول على التأمل في مصادر الاحكام ، كما أمر بالتدبر والاستنباط والاعتبار . قال تعالى : فاعتبروا يا اولي الابصار . وفي آية اخرى : « وفي انفسكم افلا تبصرون ؟ وجاء موبخا ومنكرا عن الجاهلين حاثا على التعلم والبحث العلمي . قال تعالى . افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها ؟ وقال ايضا : ان في خلق السماوات والارض

واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحربما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون .

علق الشيخ طنطاوي جوهري على هذه الآية فقال :

اليس في الآية وصف العاقلين بانهم هم الذين ينظرون ويعقلون خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بالتجارة ويعرفون عجائب المطر واخراج النبات به ، وخلق الدواب وعجائبها ويعرفون اقسام الرياح وكيف تجري وكيف تجتمع السحب وكيف تمطر ؟ ففي الدليل على طلب علم الفلك ومعرفة النجوم والكواكب ثم المطر والهواء والسحب والانهار وعلم النبات وعلم المعادن وضروب الصناعات ولا ريب ان علم الفلك لن يحصل الا اذا تقدمه علم الحساب والجبر والهندسة والجغرافية ، والسفن تحتاج الى الحديد والفحم والكهرباء ، ولابد من لها من بضاعة تحملها وذلك علم التجارة » .

ان القرآن الكريم هو اساس التشريع الاسلامي وهو اول كتاب عهدته العرب منبعا لادابها كافلا لعادتها في دنياها واخراها ، بما جمع من الاحكام الدينية والدنيوية المناسبة لكل زمن ومكان وبما تزخر به الفاظه من جمال وحكمة وروعة بيان وقد كان الصحابة يدركون مراميه ويفقهون مغازيه ويعلقون اسراره بما استضاءوا به من نور النبوة وبما سمعوا من شرحه وبيان مجمله وبما عرفوا من سبب نزوله ، فلم يكونوا في حاجة الى تعرف شرحه وتاويله .

فلما انقضى عصرهم وضعف اهل العلم عن حمل ما حمله اولائك ، شمر العلماء عن ساعد الجد عهد الدولة الاموية في تفهم الفاظه والاسترشاد بأساليبه واستنباط أحكامه ، ودونوا علوما واستنبطوا فنونا ليس لهم بها سابقة عهد . ونظروا اليه من نواح شتى توصلا للغاية التي رسموها لانفسهم من الاهتداء بهديه والاستضاءة بنور معارفه .

وما زالت هذه حالهم حتى قامت الدولة العباسية واجزل خلفاؤها العطاء للعلماء والادباء وشاركوهم في النهل من هذا المنبع الصافي ، فازدحمت ربوع العلم ، واختصت كل طائفة بفن من فنونه ووجهت بحثها في فرع من فروعه .

فاعتنى قوم بضبط لغاته ومعرفة مخارج حروفه وطريقة تحسينها وكيفية النطق بها على الوجه الصحيح وسموا بعلماء التجويد او القراء .

واهتمت جماعة بتوسيع كلامه في الاسماء وتوابعها والافعال وضروبها والمعرب منها والمبنى وما الى ذلك وسموا بالنحاة .

ووجه قوم عنايتهم الى الفاظه فوجدوا منها لفظا يدل على معنى وآخر على معنى وآخر يدل على معنيين ، وثالثا يدل على اكثر ، فأوضحوا الخفي منه واستخرجوا منه الحقيقة والمجاز ونظروا في ذلك جهد ما يستطيعون وسموا بالمفسرين .

ونظرت فئة الى ما فيه من الادلة العقلية والشواهد النظرية كقوله تعالى : لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فاستنبطوا منها أدلة على توحيد الله وتنزيهه عما لا يليق به ، وسموا بعلماء اصول الدين .

واحكمت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص وما تقتضيه من اطلاق وتقييد ومجمل وتكلمت في معاني الامر والنهي ، ونظرت بصادق الفكر الصحيح النظر فيما فيه من حلال وحرام وتشريع واستنبطت الاحكام مما يحتوي عليه من اصول اولية وقوانين كلية وسموا بعلماء الفقه واصوله .

ولمحت طائفة ما فيه من قصص القرون الغابرة والامم الخالية فنقلت اخبارهم ودونت آثارهم وسمي هؤلاء بالمؤرخين والقصاص .

وعرفه البلغاء من بيانه وفصاحة تراكيبه ومواقع الاعجاز منه ونظر الكتاب والشعراء الى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق والايجاز ، واستنبطوا منه علوم المعاني والبيان والبديع .

وعرفه الخطباء والوعاظ بما فيه من الحكم والامثال والمواعيظ الى ما شاكل ذلك من وجوه النظر ومناحي البحث التي لا تقف عند حد .

ولم يدون تفسير القرآن في كتب جامعة الا في الدولة العباسية وكان من قبل روايات تنقل عن النبي عليه السلام . واقدم ما عرف منه التفسير المنسوب لعبد الله بن عباس ، ومن اشهر التفاسير تفسير بن جرير الطبري المتوفى سنة 310 وضعه على مذهب

السلف من التفسير بالرواية ثم تابعه الثعلبي المتوفى سنة 467 . والواحدي المتوفى سنة 468 ، ثم نشأت طائفة اخرى ادخلت فى التفسير مباحث العلوم الاخرى كالنحو والفقه والبلاغة ، واشهرها الكشاف للامام الزمخشري المتوفى سنة 538 .

ثم ظهرت تفاسير القرطبي وابن عطية والسيوطي وغيرها ، ولا زال والحمد لله هذا الاجتهاد متواصلا حتى فى عصرنا هذا . فان الامام الشيخ محمد عبده المتوفى سنة 1323 ترك للمسلمين تفسيرا لا نظير له من قبل ، وكذلك الشيخ طنطاوي جوهري قد شرح القرآن شرحا عجيبا راعى فيه بكثير الناحية العلمية والتطبيقية وقارنه مع العلوم العصرية واستنبط منه احكاما وغايات لم يستخرجها احد قبله .

ترجمة القرآن

لقد ترجم كتاب الله الكريم الى عدة لغات اجنبية وكانت اول ترجمة على ما اعرف هي الترجمة التي وضعها (كلوني) باللغة اللاتينية فى القرن الثاني عشر ، ثم اقبلت طائفة من القسيسين والرهبان على نقله الى بقية اللغات الحية حتى ان بعض الامم الصغيرة ساهمت فى هذا العمل ولا تزال تفتخر بوجود نسخ من هذه التراجم فى متاحفها . واسترسلت حركة الترجمة الى عصرنا هذا ويمكن الآن تناول الكتاب الكريم بعدة لغات اروبية وآسياوية تمكن سائر الامم الناطقة بغير العربية من دراسته وفهمه والاهتداء باحكامه القويمة

واحدث ترجمة القرآن الكريم وضعتها مستشرقة المانية من مواليد مدينة طنجة .

نعم ، اذا اعتقدنا بان القرآن صالح لكل زمان ومكان ، فيجب علينا ان نبذل الجهد لنجعله فى ايدي ملايين الناس وان ننشر به فى كل اصقاع المعمورة لانه لم ينزل للعرب فقط بل للقوم اجمعين .

ولقد راى رجل تركيا العظيم الغازي مصطفى كمال مصلحة امته فى ترجمة القرآن الكريم الى لغة بلاده . فسلك هذا الطريق تسهيلا على امته فى حفظ كتاب الله والاستنارة بنور معارفه .

وكان من نتائج هذا العمل ان ازدهر الاسلام بتركيا وتطور الفكر بذلك القطر الاسلامي العريق بصورة اصبحت معه تركيا من ارقى الدول الاسلامية واتقواها .

القرآن ينبوع الحضارة الاسلامية

لقد كان القرآن سببا فى تكوين حضارة اسلامية راقية مؤسسة على قواعد ونظم ثابتة ، فكان امتداد هذه الحضارة من قلب الجزيرة العربية الى اطراف العالم . فالصلاة تقام اليوم من شواطىء مغربنا الى نهر الكانج حول قارات ثلاث . مما ادى الى رابطة الوحدة بين اربعمائة مليون مسلم ، سلاحهم التقوى ومخافة الله ودينهم مستمد من القانون السماوي المقدس الذي رفعهم الى السمو الروحي ليصبحوا بنعمته اخوانا . فعسى ان يزول البغضاء وتمحي النقائص من نفوسهم وتنتفي عن قلوبهم عوامل الخلف والتنافر ليصيروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا . (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم !) (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)

ولقد احدث بظهوره تغيرا كبيرا وانقلابا عظيما فى نفوس جميع الامم الشرقية على العموم والعربية على الخصوص فلم يمض اقل من قرن على بعثة الرسول الكريم ونزول آيات الوحي الا وجميع ابناء الشرق فى آسيا وافريقيا وجزء غير يسير من جنوب اروبا وشرقها يأخذون بتعاليم القرآن ويدرسون آداب لغته ، تلك اللغة التي عرفت انتشارا لا مثيل له وعمت جزءا متسعا من اصقاع المعمورة وظلت بفضله حية قائمة ثابتة رغم ما خالط ابناءها من الاجانب ، فاصبحت فى عصرنا الحاضر تحتل صف الطليعة من بين اعظم لغات العالم تقدما وانتشارا .

الحاضر والمستقبل ...

ان كتاب الله الكريم ، ينبوع الحضارة الاسلامية الزاهرة اصبح غير مفهوم لكثير من الناس ، فالسواد الاعظم من الامة الاسلامية ممن يحفظونه عن ظهر قلب لا يفهمون منه شطرا يؤهلهم للرشد والتسلح باسلحة من العلم واستقامة الفهم ، والسواد الاعظم من الجيل الناشيء تنكروا له ولم يتجهوا لدراسته بالمرة. وهذه ظاهرة مؤلمة وغير منتظرة ، فالحقيقة التي يجب ان نصدع بها ان القرآن الكريم وان كان اكثر الكتب رواجا يكاد يكون مجهولا لدى الجمهور الاسلامي ، فالكتاب الكريم فى واد والجماهير الاسلامية فى واد .

ولعل من أسباب الابتعاد عن دراسته وفهمه والاعتبار به تهيب كثير من الناس لمقام الكتاب العزيز وخوفهم من ان يقعوا في خطأ في فهمه يحاسبون عليه مع ان الله عز وجل قد تكفل لنا برفع الخطأ عنا كما هو في مدلول الدعاء : « ربنا لا تواخذنا ان نسينا او اخطانا » ... فقد تظن هذه الطائفة من الناس ان القرآن لم يكن وقفا الا على فئة من العلماء يحتكرون معانيه في صدورهم وينفردون بدراسته وفهمه .

وهناك طائفة اخرى توهمت ان القرآن قد انتهت مهمته لاعتقادهم انه كتاب دين ولغة فحسب وان الفقهاء وعلماء النحو والبلاغة استنبطوا منه جميع التشريعات والقواعد اللغوية ودونوها في مجلدات ضخمة تغني عن دراسته فاصبحت مهمة القرآن منحصرة في التبرك بالفاظه وتلاوته على القبور لا غير .

فالذين يروجون ذلك ويدعون اليه انما يبالغون ويريدون ان يبقى المسلمون في جهل الى الابد . فلم ينزل الله القرآن لغاية النحو والصرف والبلاغة والتشريع فقط . او ليس من اسماء الله الحسنى « العليم » اي عظيم العلم ؟ الذي « علم الانسان ما لم يعلم » ولا زال يعلمنا ما لا نعلم ، « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم » .

وقد حث جل شانه على البحث العلمي والاعتبار بكتابه ، فقال : « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدا الخلق » وقال : « فلينظر الانسان مم خلق » وان اول آية القرآن نزل بها الوحي العظيم اعلنت : اقرا باسم ربك الذي خلق ، اي ان الله عز وجل اراد ان تبتدىء الرسالة النبوية بحث رسوله والمومنين من بعده على القراءة والعلم ، فالشيء الذي اراد الرب الاكرم ان يقرىء نبيه هو خلقه الانسان من علق وانه جل علاه علم بالقلم .. فعلم الانسان ما لم يعلم .

ففي هذا كله حث واضح فيما تتضمنه النصوص السماوية على السعي الى العلم والتعلم والنظر في خلق الله والبحث في مظاهر الكون والكشف عن أسرار الطبيعة ، وبهذا لم يأمرنا القرآن بالاقتصار عن شرح الالفاظ والاكتفاء بحفظ اركان العبادات والتبركات .

فالى متى سنظل غافلين وامم غيرنا تعطينا الدليل على عبقرية دستورنا ؟

فالواجب علينا ان نعيد النظر في معتقداتنا في القرآن الكريم اذ لا يكفينا ان نحفظه ونتلوه بقراءاته السبع بل الواجب ان نتفهم معانيه السامية وآياته الزاخرة بالجمال والحكمة لنهتدي بهديه ونستمد منه روح العلم والعمل .

فهل يكفي أن يكون حظنا من هذا الكتاب الحكيم ، والعالم الاسلامي يقف اليوم في مفترق الطرق الافتخار بانه جامع لخيري الدنيا والآخرة ؟

ان ذلك حجة علينا لا لنا . ومتى نصمم العزم على الرجوع اليه والتأمل في احكامه بالعقل الصحيح والراي الرجيح ، عسانا نستنير بما يحمل من حكمة وموعظة ورشاد فننجو من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ؟

مكناس : الحسن الحجوي



نظرات في اشعاع القرآن

للأستاذ : محمد العربي الخطابي

القرآن دعامة حضارة

امتازت الحضارة الاسلامية بكونها حضارة « كتاب » في جوهرها واصلها ، بمعنى ان القرآن الكريم كان منطلق هذه الحضارة ، وسرعان ما اصبح مدارا لها ومرتكزا .

ومن العوامل التي ساعدت على انبثاق الحضارة الاسلامية وانطلاقها من كتاب الله ، كون القرآن خاطب البشر جميعا « ان هو الا ذكر للعالمين » واقام الامر بينهم على اساس المساواة والتكافؤ والتعارف والتسابق الى التقوى التي هي وحدها مقياس التفاضل بينهم : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

وقد كانت هذه الدعوة اول حرب معلنة ومنظمة ضد العنصرية والميز بين البشر ، وعليها تدور فلسفة التاريخ الاسلامي ونظريته . وتنطوي تحت لواء هذه الدعوة ، بطبيعة الحال ، فكرة الوحدة والوحدانية ، ومحاربة الشرك الذي كان شعار التفرقة والقبلية ورمزها .

استهدف القرآن تنظيم حياة المجتمع البشري الذي دعا اليه فوضع اسس التشريع والمعاملات ، واقام قواعد السلوك والاخلاق ، واختط بالعبادات الطريق الذي يطهر النفوس ويوصل الى الله ، تكمله في كل ذلك السنة النبوية .

دعا القرآن الى خشية الله ومراقبته في السر والعلن ، كما حض على العلم والعمل ، والتعاون والصبر ، والعدل والاحسان ، والقوة والاستمساك بالحق دون خشية من مخلوق ، ودعا الى التمتع بطيبات الحياة الدنيا في نطاق الفضيلة والتوسط والاعتدال .

ولقد خاطب القرآن المشاعر ببيانه وأمثاله ومواعظه ، كما خاطب العقول بحجته ومنطقه واستدلالاته واهتمامه بحياة الفرد والمجتمع ، وبذلك اثار اهتمام الناس وتطلعهم ، وايقظ اذهانهم وأنار عقولهم .

نزل القرآن نجوما ، وتدرج مع اغراض الدعوة وحاجاتها وما احاط بسيرها من وقائع وأحداث ، هذه الدعوة التي استمرت نحو ربع قرن .

وقد اكتمل نزول القرآن فبقي مجموعا بالحفظ والاستظهار في قلوب النبي وصحبه يتلون آياته ويتدارسونه ويتفقهون فيه . وفي حياة الرسول بدأ تدوين الكتاب في الرقاع ، واضطلع بهذه المهمة كتبة الوحي المعروفون . وجمع القرآن ورتبت آياته ، بأمر من الصديق وفي خلافته ، كما رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وحينما تقلد عثمان خلافة المسلمين امر بنسخ المصحف من اصل الصحف التي جمعها ابو بكر ، وعلى المصحف الذي استنسخه الخليفة الثالث وبعث به الى الامصار وقع اجماع المسلمين ، واحرق ما سواه من الصحف .

وبعد ذلك عرف رسم القرآن ـ بالشكل والتنقيط وتجويد الخط ـ تحسينات بدات فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (النصف الثاني من القـــرن الاول للهجرة) وسارت شوطا بعيدا فى اواخر القرن الثالث للهجرة ، وما تلاه من عصور ، وجاء عصر الطباعـــة فعرف المصحف طبعات انيقة جيدة وفى متناول ملايين المسلمين .

شغل القرآن المسلمين : روحا وشكلا ، فظهرت علوم متصلة به (اسباب النزول ، القراءات ، الناسخ والمنسوخ ، رسم القرآن ، المحكم والمتشابـــــه ، التفسير ...) . ودفع كتاب الله العلوم الاخرى الى الامام فنشا الفقه ، والعقائد ، وعلم الكلام ، والتصوف ، والنحو ، والبلاغة ، ودرس النقاد الآثار الشعريـــة والنثرية على ضوء بيانه، واستمد منه الكتاب والشعراء واستلهم منه المؤرخون نظرية التاريخ وفلسفته ، واتخذ منه العباد واهل الزهد انيسا ودليلا ومرشدا .

ودار حول القرآن جدل طويل تاثر بالنظريات والافكار التي انفتحت عليها الحضارة الاسلامية . ومن ذلك القول بخلق القرآن الذي اثار فى عهد المأمون العباسي فتنة ومحنة ، ومن ذلك ايضا الجدل حول صفات الله والقول بالجبر أو الاختيار .

الا انه ، رغم تعدد النظريات ، وتشعب الجدل وما اصاب الحضارة الاسلامية من مد أو جزر ، فقد بقي القرآن هو هو مرجع المسلمين وامامهم ، منزها عن كل تحريف او زيادة او نقصان .

وجاء العصر الحديث بعلومه وصناعته وتعقيداته فظهر من بين المسلمين رجال مصلحون اضطلعـــــوا بالدعوة لتجديد أمر الدين والاستمساك بالقرآن الكريم والسنة الشريفة ، مع الاخذ باوفر نصيب من الحضارة العلمية الحديثة ، وبذلك عاد القرآن منطلقا لنظريات التجديد والنهوض الاسلامي ودعوة المسلمين الـى التحرر والتقدم والانبعاث . وظهر رجال فضلاء ، على صعيد العالم الاسلامي ، اضطلعوا بعبء الدعوة ، امثال جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، وجمال الدين القاسمي ، ومحمد اقبال وتلاميذهم فى جميع انحاء العالم الاسلامي .

كان القرآن دعامة الحضارة الاسلاميـــة ، فى ازهى عصورها ، يذكي جذواها ويحثها على الانطلاق والارتقاء ، وينير امامها سبل البقاء .

وعاد القرآن ، بعد ركود اصاب العالم الاسلامي منطلقا للدعوة الى حضارة جديدة فى عالم متقـــدم ومعقد ، مادي فى جوهره وشكله وادواته .

وانطلقت فى ارجاء العالم الاسلامي تســاؤلات كثيرة : هل يتضامن المسلمون ؟ هل يوحد القرآن من جديد كلمتهم ؟ هل يمكن التوفيق بين الدين ، متجددا ، وبين الحضارة المادية الجديدة ؟

وما يزال الجدل بين علماء العالم الاسلامـي ومفكريه قائما على ايقاع حضارة القرن العشريـــن الطاغية .

وما يزال القرآن الكريم هو هو ، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يثير اهتمام المؤمنين ويدعوهم الى التأمل ، ويبعث فى نفوسهم الخشوع والخشية ، يتدارسه العلماء بنظر جديد وفكر متطور وسط عالم حائر ، غريب الاطوار ، سريع التحول ، شديد القلق .

القـــرآن واهـــل المغـــرب .

شهد المغرب ، فى اول عهده بالاسلام ، حدثين جليلين كان لهما الاثر البعيد فى تاريخه الديني والسياسي والاجتماعي :

الاول ـ حركة استعراب المغاربة التي بـدات فى القرن الاول للهجرة ، (السابع الميلادي) ومـــا رافقها من ايفاد الفقهاء ، وخاصة فى عهد عبد الملك ابن مروان وعمر بن عبد العزيز ، لتعليم المغاربة كتاب الله وتثقيفهم فى امور الدين.

الثاني ـ تاسيس جامعة القرويين بفـــاس (245 هـ 859 م) وهي الجامعة التي حافظت طوال العصور على استمرار الثقافة القرآنية باصلـــها وفروعها ، ومكنت لتثبيت المذهب المالكي فى ديار المغرب

ان هذين الحادثين العظيمين قد طبعا تاريـــخ المغرب بطابع الوحدة الدينية والسياسية ، وابقـــاه بعيدا عن تاثير النزعات المذهبية المتطرفة منها والمنحرفة التي حاولت أن تتسلل الى المغرب فلم يكتب لها الانتشار والبقاء بالرغم من بعض الفتن التي احدثها ظهورها ، ومنها فتنة الخوارج .

ومنذ الصدر الاول من الفتح الاسلامي الى الآن ظل القرآن الكريم والسنة النبوية مثار عناية المغاربة وموردهم الرئيسي .

واذا كان اهل المغرب قد استبد بهم ، منذ العصر الاول الذي اعتنقوا فيه الاسلام ، الاشتغال الزائد بالفروع فلعل ذلك كان راجعا الى حرصهم على فهم احكام القرآن والحديث فهما صحيحا بالراي والحجة وصدق التاويل لبعد بلادهم عن مهبط الوحي ومراكز النقل والرواية والاسناد . فما كان لهم أن يرجموا بالقول فى كتاب الله وسنة رسوله ، وما كان لهم ان يخوضوا فى التفسير والشرح من غير نظر ولا تمحيص فى آراء الصحابة والتابعين والمجتهدين وائمة الدين .

ومع ذلك فقد قامت دعوة بعض أمراء المغرب — وخاصة فى عهد المرابطين والموحدين — على اساس الرجوع الى الاصل (القرآن والحديث) ونبذ الفروع التي تشعبت وشغلت الفقهاء واشتط بعضهم فى المغالاة بها .

وقد عني المغاربة ، فى جميع العصور ، بالقرآن حفظا وتفسيرا وقراءة ورسما ، وكانوا بعلم القراءات والرسم اكثر عناية . ولعل سبب ذلك راجع الى حرص علماء المغرب على حفظ كلام الله منزها عن اللحن والخطا والتحريف وسوء القراءة التي يترتب عليهاسوء الفهم واختلال المعنى .

وبلغت العناية بعلم القراءات ذروتها فى عهد الدولة السعدية . ويقول استاذنا الجليل السيد عبد الله كنون : وحسبك دليلا أن وقف القرآن الذي وقع الاجماع عليه وجرى العمل به فى المغرب منذ ذلك الوقت الى الان ، انما وضع فى هذا العصر — أي العصر السعدي — وكان واضعه هو أبو عبد الله الصماتي الهبطي المتوفى سنة 930 . *

وقد خلف علماء المغرب كتبا فى تفسير القرآن الكريم ولم تبلغ الشهرة التي بلغتها تفاسير علماء المشرق وبعض علماء الاندلس من أمثال الطبري والزمخشري والجلالين (المحلى ، والسيوطي) وابن العربي المعافري . وربما يرجع ذلك الى قلة عناية المغاربة بنشر مآثرهم والتعريف بها ، وخاصة منذ ظهور الطباعة فى العصور الحديثة .

ومن العلماء المغاربة الذين اشتغلوا بالتفسير : ابو بكر بن الجوزي المعافري السبتي ، (فى عصر المرابطين) ، ومحمد عبد الجليل الاوسي القصري ، ويوسف المزدغي الفاسي ، وابو الحسن الحراني المراكشي ، (فى عهد الموحدين) ، وابن العابد الفاسي وابن البناء العددي ، وابو القاسم السلوي ، وابن البقال ، (فى العصر المريني) والحاج الشطيبي ، والمنصور الذهبي ، وعبد الرحمن العارف ، وعلي بن عبد الواحد الانصاري السجلماسي ، (فى عهد الدولة السعدية) ، والتاودي ابن سودة ، وابن عجيبة ، والطيب ابن كيران ، (فى عهد الدولة العلوية الحاكمة)

الف معظم هؤلاء العلماء الافاضل تفاسير كاملة او لاجزاء من كتاب الله المنزل ، وقد ضاعت بعض هذه التفاسير وطوى بعضها الآخر عالم النسيان .

أما العلماء الذين اشتغلوا بعلم القراءات والرسم وبرزوا فى هذا الميدان فنذكر من اعلامهم : ابا عمران الفاسي (القرن الخامس الهجري) ، واحمد بن الحطيئة التميمي (عصر المرابطين) ، ومحمد ابن غازي المكناسي ، وعلي ابن بري ، ومحمد بن ابراهيم الخراز مؤلف « مورد الظمآن فى علم الرسم » ومصنفات أخرى ، وابن المرحل ، وابن آجروم صاحب كتاب « البارع فى قراءة نافع » ، وكلهم عاشوا فى عهد الدولة المرينية ، ونذكر من العصر السعدي : عبد الواحد ابن عاشر الذي شرح « مورد الظمآن » للخراز ، وابا عبد الله الصماتي الهبطي مؤلف « تقييد وقف القرآن » الذي جرى عليه العمل فى المغرب كما أسلفنا ، وابا العباس الغساني ، اما عصر الدولة العلوية ، الذي غلبت فيه العناية بالحديث والشرح والحواشي على الاشتغال بالتفسير والقراءات والرسم وغيرها من العلوم القرآنية ، فيمكننا ان نذكر من العلماء الذين عنوا بهذا الميدان ، ابا زيد الفاسي مؤلف « اللمعة فى قراءة السبعة » ، والبدراوي صاحب « التوضيح والبيان » ، والحسن الباعمراني مؤلف « اعراب القرآن » .

وفى جميع العصو ولع المغاربة ولعا شديدا ، فى الحواضر والبوادي ، بحفظ القرآن الكريم وتعليمه فى الكتاتيب القرآنية التي عمت المدن والقرى . الا ان عناية عامة أهل المغرب كانت أقل بالتجويد والترتيل وتدبر آيات القرآن وفهم معانيه ، وخاصة فى عصور الانحطاط المتاخرة ، التي عم فيها الجهل وفشت البدع والتقاليد الضالة ، حتى أصبح كتاب الله المنزل « يسرد» فى المقابر والمساجد « سردا» دون وعي او تدبر . وما زالت هذه الطريقة سائدة الى الان مع ما فيها من مخالفة لآداب التلاوة وواجب التدبر . قال الله تعالى :

« ورتل القرآن ترتيلا » ، وقال : « كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان من احسن الناس صوتا بالقرآن الذي اذا سمعتموه يقرا حسبتموه يخشى الله » ، وهذه الخشية تأتي ، ولا شك ، من الاستغراق والتدبر وحسن الترتيل وفهم معاني كلام الله .

ومن الامور المستهجنة في القراءة نطق غير سليم واهمال لقواعد التجويد ، وهذا امر شائع حتى بين بعض فقهائنا وعلمائنا .

ولن يكون علاج هذا الامر الا بايجاد مقرئين متفرغين لهذا الامر يحفظون كتاب الله ويفهمون معانيه ويلمون بعلوم التجويد والقراءات والرسم، ولا يتصدون للقراءة الا بعد ان تجيزهم هياة معتمدة يكون لها الحل والعقد في كل ما يتصل بالقرآن الكريم (طبع المصحف، وتعليم كتاب الله في المدارس ، والتلاوة في المساجد وغيرها ...) ولعل الامر يتطلب احداث مدرسة عليا لعلوم القرآن ، او على اقل تقدير احداث كرسي للعلوم القرآنية في كلية الآداب ، فضلا عن تعميم دروس تجويد الكتاب ، والتفسير المبسط في المدارس والمعاهد واحداث هياة معتمدة للمقرئين ، ونشر التراث المغربي في التفسير والقراءات والرسم .

ولا يخفى على احد ان سوء ترتيل القرآن وقلة العناية بتجويده وتفسيره تفسيرا مبسطا من الاسباب التي تقلل من اهتمام الشبيبة بالقرآن ولا تتيح لهم تذوقه وتدبر معانيه . وذلك في عصر كثرت فيه المغريات التي تجذب الشبان جذبا ، وتعددت وسائل تهذيب الذوق وتربية المشاعر . فكان اولى بنا ان نحبب القرآن الى ابنائنا بحسن التلاوة وحلاوة الترتيل والتجويد وبساطة التفسير ورفع مستوى المقرئين ، مما يؤدي الى حسن التدبر والخشية وتطهير النفس .

ان في القرآن عقائد تعرف المسلم بصفات الله ، وفيه عبادات تقربه من الله ، وفيه تشريع واحكام ، وفيه ثورة لغوية واعجاز وبيان ، وفيه مواعظ وحكم ، وعبر وأمثال ، وفيه دعوة الى الآخرة ودعوة الى الاخذ بنصيب من الدنيا . فهو كلام الله الحي المتجدد الجامع ، وما هو بالطقوس الغامضة الجامدة .

لذلك فان واجب المسلم أن يتدبره ويفهمه ويعمل بهديه « ان هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بيدكم .. » كما جاء في الحديث ، فلنمسك بالطرف الذي خصنا الله به وكرمنا بفضل المحافظة عليه .

القـرآن ومذاهـب التاريـخ .

كان في نيتي ان اعرض جملة من آراء بعض علماء الغرب ، من مستشرقين وغيرهم ، في القرآن الكريم وعلومه ، وان اعلق على هذه الآراء بما يتفق ووجهة النظر الاسلامية في الموضوع . غير أنني رأيت أن هذا العمل يتطلب من طول المعاناة واتساع الوقت ، وكثرة الدرس والتمحيص ما لا يجمل معه الاختصار والنظرة الخاطفة .

لقد عني علماء الغرب ، والمهتمون منهم بالعلوم الاسلامية على وجه اخص ، بالقرآن فدرسوه وترجموه الى لغاتهم ، ونظروا في علومه المختلفة ، فكانت لهم في ذلك آراء منصفة في بعض الاحيان ومختلفة مع الآراء الاسلامية الموثوقة والمتواترة في أحيان أخرى .

وقد علق الدكتور صبحي الصالح في كتابه القيم « مباحث في علوم القرآن » على بعض آراء هؤلاء المستشرقين ، وربما فعل غيره ذلك ، الا انني ما زلت ارى ان هذه المسالة تتطلب دراسة مستفيضة تحيط بجوانب الاراء الغربية في الوحي والعلوم القرآنية ، احاطة شاملة وتنقدها وتعلق عليها .

ونظرا لجسامة هذا العبء فانني آثرت ان اقتصر في هذا المقال على تلخيص محاولة لابراز نظرية الاسلام في التاريخ مستمدة من كتاب طريف بعنوان « مذاهب التاريخ الكبرى ، من كونفوشيوس الى توينبي » من تاليف البان ويدجرى * وهانذا اترجم باختصار ما قاله هذا المؤلف الانجليزي عن نظرة القرآن الى التاريخ :

« ترتكز النظرة الاسلامية الى التاريخ على الاعتقاد بوجود الله والاقرار بوحدانيته ، ومقاومة الشرك به .

والله متصف بالرحمة ، والقدرة ، والحكمة ، والقدم ، والكرم ، والعزة ، والجلال ، وهو قائم بذاته لا يحده زمان ولا مكان .

* الترجمة الفرنسية Alban Widgery : « Les grandes doctrines de l'Histoire » - Gallimart, 1965.

ومقاصد القرآن الجوهرية هي حمل البشر على ادراك صلتهم بالله الذي لا تخفى عليه من أمور التاريخ خافية . وهو يهدي البشر بواسطة الانبياء والكتب السماوية . وينفي القرآن عن الله صفة التجسد على صورة البشر .

ان موسى وعيسى نبيان من انبياء الله . ومحمد هو خاتم المرسلين واعظمهم شأنا .

حدد القرآن للناس قواعد السلوك ، فلهم أن يتقربوا الى الله بالعبادة دون واسطة . ويعتبر الوحي القرآني مدار التاريخ .

خلق الله العالم المادي والسنن الثابتة وجميع الخصائص الاخرى التي تجعل التاريخ أمرا ممكنا ذا مغزى . وعالم الطبيعة متغير « يزيد فى الخلق ما يشاء »

وقد ابدع الله الليل والنهار وتعاقبهما فعين ارواحا وجعلها داخل اجسام لتحيا .

ويذكر القرآن أن الله يختص بني آدم بعنايته بذلك لحياة البشر حيزا موقوتا . وخلق الله بني آدم وفضله . اصطفى آدم وجعله فى الارض خليفة .

ولطالما نوقشت مسألة ما اذا كان القرآن يعلم الناس حرية الارادة أم لا . انه يتضمن الاقرار بهيمنة الله وبحرية الانسان ، سواء بسواء ، من غير أن يخوض فى الكيفية التي يمكن أن يتوافق بها الامران فى الذهن .

يؤكد القرآن أن الله يسيطر على الاشياء كلها ، وهو الذي يلهم النفوس « فجورها وتقواها » ثم ان القرآن يصر على ممارسة الحرية . والله لا يظلم المذنبين بل انهم يظلمون أنفسهم .

يهتم الاسلام بالفرد كما يهتم بالجماعة . والله يحاسب الامم . وكثيرا ما يذكر القرآن ما اصاب أمما من رغد وما اصاب اخرى من هلاك ، فالاولى سارت على الصراط المستقيم ، والثانية ضلت عنه وزاغت . ذلك أن كل قوم ينالون جزاءهم ، لان الله يحكم الناس بالعدل والقسطاس .

يأمر القرآن بقتال الذين يخالفون عن أمر الاسلام والمؤمنون مدعوون الى الجهاد فى سبيل الله ، بما يتفق وتعاليم القرآن ، وعليهم أن يقاوموا الشر ، ومن الشر ما يصدر عن الناس ومنه ما يصدر عن الشيطان .

والاسلام عالمي « لله المشرق والمغرب ... أينما تولوا فثم وجه الله » .

لا عبرة بالمظهر الخارجي للحضارات ، انما العبرة بسلوك النفس الانسانية وتصرفاتها تجاه الخالق

والقرآن يوصي بالصبر ، لان تحقيق المثل الاسلامية عمل شاق . والله يغفر للتائبين ويعينهم على الخير .

الحياة الدنيا ليست غاية فى ذاتها ، وللاخرة خير وابقى » .

هذه خلاصة ما قاله ويدجيري عن القرآن ونظرية الاسلام فى التاريخ ، وقد تحدث فى نفس الفصل عن عبد الرحمن بن خلدون ومحمد اقبال ولخص نظريتهما فى التاريخ والتطور .

والواقع أن هذا الموضوع الطريف يتطلب دراسة أوسع يتولاها عالم ضليع فى الفكر الاسلامي ومذاهب التاريخ المختلفة يتتبع فيها تأثير القرآن فى آراء المؤرخين المسلمين واتجاههم ، بوجه خاص ، وفى سير التاريخ الاسلامي بصفة أعم .

ومن المسائل التي تستحق مزيدا من الدرس والتمحيص فى هذا الباب :

— حرية الانسان ومسؤوليته عن أعماله . وقد أثارت هذه القضية جدلا طويلا بين علماء المسلمين فى مختلف العصور .

— عالمية الدعوة الاسلامية وشمولها .

— قيام هذه الدعوة ونشرها على أساس الاقناع وعدم الاكراه أو بحد السلاح .

وقد كان لهذه المسائل وغيرها تأثير واضح على اتجاهات المؤرخين المسلمين وطريقتهم فى كتابة التاريخ ، كما كان لها تأثير على الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية فى العالم الاسلامي .

الرباط : محمد العربي الخطابي



المشاكل في عمقه العميق

للأستاذ: أحمد زياد

منذ ثلاثين سنة اصدر الامير شكيب ارسلان كتيبا صغيرا بعنوان : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم» وهو كتيب اسهم به ذلك الرجل العظيم من جملة ما اسهم به من مئاثر فكرية ، اتسمت بشمولية الاطلاع وبالقدرة الخارقة على مواصلة كفاح شاق ومرير ، كما أن هذا الكتيب قد صدر فى غمرة ما كان يصدر فى ذلك العهد من ابحاث وتحاليل عن الوضع الذي كان يكيف يومئذ احوال العالم العربي والعالم الاسلامي وانتشر هذا الكتاب مثل ما انتشر حاضر العالم الاسلامي (1) وعرف من خلال صفحاته القليلة ما هو سر تأخر المسلمين ومنذ اربعين سنة بيد انه منذ ذلك الحين والوضع فى العالم العربي والاسلامي يثار امره عن وتيرة واحدة من التشكي وغصة المرارة فى هذا التشكي .

ان الاسلام كرسالة وكفلسفة وكايديولوجية تقوم على مبادىء عامة قد تكفل القرآن بسطها وبالمحافظة عليها ، والقرآن اعجز أعداء الاسلام وخصومه اعجازا كاملا عن أن ينالوا من تلك المبادىء فبالاحرى أن يقضوا عليها ، فوظيفة القرآن ككتاب سماوي وكدستور يتضمن بنودا منظمة لم تفتر ولم تضعف ، وانما الذي اعتراه شيء وشيء غير قليل من الفتور والضعف هو همة المسلمين فى العمل على تكييف رسالة الاسلام بالكيفية التي املتها نواميس التطور والتقلب .

والدعوة الى التجديد فى امر الاسلام ليست دعوة الى تجديد مبادئه الاساسية فهذه قواعد عامة وثابتة وانما الذي يحتاج الى التجديد والى الكثير من التجديد هو أساليب التفكير الاسلامي بالنسبة لعلاقات المجتمعات الاسلامية مع بعضها وبالنسبة كذلك لعلاقاتها مع المجتمعات الاخرى ، وامتلاك الاسلحة اللازمة لخلق مجتمعات اسلامية لا تعيش على حساب ماضيها ، وانما تعيش بالقدرة على الخلق والابتكار والقدرة على التنافس فى حاضرها ، وهنا تقفز النقطة التي اعتبرها شخصيا هي نقطة الضعف فى كل ما عاناه الاسلام ماضيا وحاضرا وفى كل ما يمكن أن يعانيه مستقبلا وهذه النقطة يمكن تلخيصها فيما يلي :

اولا : ان الدعوة الاسلامية والقرآن بصفة خاصة قاما منذ اول ظهورهما على خلق تكامل اجتماعي ، وبعبارة ادق على محاربة النزعة الفردية التي كانت هي الظاهرة البارزة فى المجتمع الجاهلي العربي الذي نزل فيه الاسلام وفى المجتمعات التي حملت اليها الدعوة الاسلامية بنود رسالتها من غير العنصر العربي .

فالاسلام فى اول امره قد انطلق من شبه الجزيرة العربية بقوة من التكامل الجماعي الذي استطاعت تعاليم الاسلام أن تزرعه مثلما ينتزع قلب من جسم ليوضع مكانه قلب آخر فى عالم اليوم .

فالدعوة الاسلامية قد اقتلعت النزعة الفردية اقتلاعا من التفكير الجاهلي ووضعت مكانها تفكيرا

1) حاضر العالم الاسلامي ترجمة الاستاذ عجاج نويهض وبتعاليق ضافية لامير البيان شكيب ارسلان رحمه الله .

جماعيا اعتبره شخصيا هو سر نجاح الانطلاقة الاسلامية في اول امرها .

ومن ثم فاننا حينما نعكف على قراءة التاريخ الاسلامي وفي مختلف مصادره الكبرى وشيء من الامعان والتدبير ، تلمس ولا اقول فقط — كيف ان السلاح الذي استخدم كثيرا في تقويض نفوذ الاسلام هو سلاح اعادة النزعة الفردية والعمل على تنوعها او عند افراد القاعدة ، ويعتبر كتاب « الملل والنحل » وغيره من الكتب التي تحدثت عن مختلف الفرق التي ظهرت في مختلف المجتمعات الاسلامية كوثيقة من الوثائق التي تثبت وبكل تاكيد ان اعداء الاسلام وخصومه قد تنبهوا الى حقيقة العنصر الفعال في انتشار نفوذه واتجهوا اليه وبكل ما كانوا يملكونه من وسائل ، وفي الجزء الذي خصصه الاستاذ احمد امين من كتابه « فجر الاسلام » تفاصيل عن هذا الصراع الخفي الذي كان يجري من اجل تفكيك اجزاء التفكير الجماعي واحلال النزعة الفردية المحلية .

ومع الاسف الشديد فان الذين كانوا يسعون الى الوصول الى هذه الغاية وفي مختلف العصور الاسلامية ، قد تمكنوا من مبتغاهم بنسبة او باخرى، ولو ان الاسلام كان مجرد ايديولوجية تقوم على اساس مادي صرف ، لما تعذر على اعدائه وخصومه استئصال نفوذه او حصره على الاقل ، ولكن بما ان الاسلام كان متوفرا على سلطان روحي لا يقهر ، فان استئصاله او حصر نفوذه قد تعذر ، بل ان ما حدث في مختلف اطوار الصراع البسيكولوجي الذي كان يرمي الى تجريد المجتمع الاسلامي من تضامنه الجماعي ، لم يجد هو بدا من ان يستعين بالسلطان الروحي تزويرا وتدجيلا، وذلك قصد الوصول الى تحقيق اغراضه ومآربه ، وهكذا فان المسلمين تخاذلوا وضعفوا وتقلص على نفوذهم السياسي في كل الحالات التي كان فعل عنصر التفكير الجماعي يقل او ينمحي وجوده .

وهذا في راي المتواضع هو التعليل الصحيح لكل ما تزخر به كتب التاريخ من نكبات وكوارث ، حلت بالمسلمين سواء في المشرق او في المغرب، وكان بالامكان سرد الوقائع والاحداث بمواقعها التي تعزز هذا الراي بيد انني هنا انما اسجل الخواطر ، ولا ادرس التاريخ

ثانيا : انه على ضوء هذه الحقائق فان الضرورة تقضي بدراسة احوال العالم الاسلامي دراسة علمية تستعرض وتستنتج وعلى مقاييس صحيحة ، وبمنجى من كل انفعال عاطفي وابتعاد كامل من نوع من انواع مركب النقص .

فقوة الاسلام التي اندفع بها في اول مرة كانت قوة جماعية الا ان هذه القوة قد اعتراها ضعف ولم تمت ، لان فيها العنصر الروحي للاسلام ، بيد انها توقفت ، فيجب ان نبحث لماذا توقفت ، ونحن اذ نبحث في هذا الامر فسنعثر — وفي غير ما كثيرا من العناء — على سببين اثنين : احدهما ضعف الوازع الجماعي ، وثانيهما وهو مترتب عن الاول ، عدم تقوية الجانب المادي في المجتمعات الاسلامية حتى تصبح الحصانة المادية معززة للحصانة الروحية .

انه لم يعد يكفي ان نعقد الندوات لمعرفة اسباب الضعف الذي وصل الى قمته في مشهد الصهاينة وهم يحاولون اقامة برلمانهم في رحاب مسجد الصخرة ، فمن جملة ما يؤخذ به المسلمون انهم توالون وغير فعالين ، وكان الاولى ان يكونوا فعالين امتثالا لاوامر الاسلام ، واذا كان الاسلام ما يزال بخير ، وما تزال تتجاوب اصداء صندوقه كلما وقع الضرب على هذا الصندوق على حد تعبير المرشال ليوطي ، فان مرد ذلك الى قوته الروحية . بيد ان هذه القوة في حاجة الى تعزيز ومن نفس سلوك المسلمين ، وذلك بواسطة اخذ العبرة من احداث تاريخهم الطويل ، وبالعمل على بعث الروح الجماعية في الفرد المسلم وتحصين انفسهم ماديا ، وهذا شيء لا ينبغي ان يظل مجرد كلام ، بل يجب تحويله الى عمل فانما وقع بالامس البعيد من اجل كسر شوكة الروح الجماعية في نفوسهم ما يزال حاله مستمرا الى اليوم مع اختلاف في الاساليب التي اقتضاها الزمان والمكان .

وبالمناسبة فان السوق الاوربية المشتركة التي اصبح لها اليوم حول وطول وصول كانت من وحي شخصيات جمع فيما بين افرادها المذهب الكاثوليكي ، وفي رسالة الصهيوني بن غريون التي بعث بها اخيرا الى الجنرال دوكول ما يفيد بان الصهاينة قد ظلوا يعملون طوال مائة سنة في اطار من معتقداتهم الدينية وبالدفاع منها لانشاء دولة اسرائيل ، بل ان الدخلاء على الاسلام والمندسين في صفوفه فيما قبل ، ثم الاستعمار فيما بعد ، قد عملوا جاهدين وجادين من اجل تعزيز سلطانهم هم على المسلمين بواسطة الاسلام ، لاقتناعهم بقوة سلطانه ، فكيف لا يمكن يا عباد الله المسلمين تعزيز سلطان المسلمين بواسطة الاسلام ليكونوا في مستوى الظروف والاحداث ؟؟!!

فالمسلمون قوة سكنية في العالم ، وقوة اقتصادية وقوة جغرافية ، في بلادهم المطاط والفوسفاط والبترول وانواع الزيوت بل وحتى الذهب .

والمسلمون عندهم الى جانب ذلك قرآن يرتبط فيما بينهم برباط ليس هو من نوع رباط التعـــاريف الجمركية او وحدة مناطق العملة او غيرها من انواع الارتباطات المادية المحضة .

المسلمون عندهم قرآن ربط فيما بينهم جماعيا برباط وحدة المصير ، ذلك ان عزة المسلم فى ماليزيا هي عزته فى المغرب وعزته فى المغرب عزته فى ماليزيـــا واذلاله كذلك .

تلك اشياء معلومة ومفهومة وقع درسها وبسطها منذ عهد طويل وانما الذي يبقى ويجب هو العمل ، العمل على ازالة اسباب الزيغ الروحي والتخلــف المادي ليكتمل للقوة عنصراها الاساسيان .

وهذه ايضا اقوال ، فاين هو العمل ؟ ذاك هو المشكل الحقيقي وفى عمقه العميق .

الرباط : أحمد زيـــاد

فى الجاهلية الاولـــى

فى الجاهلية الاولى كانت القبائل المنهزمة تدع الملذات التي الفتها حتى تدرك النصر ، فاذا نالت ثارها ، ومحت عارها ، عادت الـــى ملذاتهـــا ، وشاعرها يقول :

« فساغ لي الشراب وكنت قبلا   أكاد اغص بالماء الفرات »

في موضوع العلاقة بين القرآن والانسان :

المعجزة المستمرة

للأستاذ المهدي البرجالي

علاقة القرآن بالانسان علاقة وثيقة حقيقة ، يتفق مدلولها مع مدلـول الروح التي تتمثل من خلال القرآن ، وهي روح عملية واقعيـة ، تستهـدف التفتيح والتطوير وتحقيق التقدم الانساني على كـل مستوياتـه .

العلاقة هذه بين القرآن والانسان ، هي علاقة ايجابية مثمرة ، بهذا المعنى ! وجانب الايجابية في هذه العلاقة ، آت من القرآن بطبيعة الحال ، لانـه هو الـذي خلق بالفعل الاحوال الايجابية المتأتية من علاقتـه بالانسان ، امـا الانسان ، فقـد كان في سلبيته احيانا يصل الى حد التنكر للمضامين الانسانية في القـرآن ، لكـن الكتاب الكريم هو من سعة الافق ، بحيثلا يزال بسلبية الانسان حتى يحياها الى ايجابية واعية مثمرة .

المعجزة التي احدثها القرآن الكريم ، بتحويلـه ، المجتمع العربي الى مجتمع مهتد وهاد ، عالم ومعلم ، خبير ورائد ، واع لابعاد مسؤوليـة اخلاقيـة ذاتيـة توخذ فيها النفس باشد ما توخذ به نفس مسؤوليـة وملتزمة ، وواع في نفس الوقتلابعاد مسؤولية موازية، مسؤولية على نفس المستوى الفكـري والاخلاقـي ، تتعلق بالاخرين ، ببقية العالم كله ، بكل من هو حـي عاقل على ظهر البسيطة ومن يجوز ان يحيا على ظهرها في كل زمان ومكـان ، الـى ان يؤول امر الدنيا هـذه الـى فنـاء .

المعجزة هذه ، وحيدة من نوعها ، وليس لاي ان يجد لها ، ما يقارنها به ، الا ان يذهب الى التمحل في المقارنة ، والتمنع في ربط الامور بعضها ببعض ، ومـن الواضح ان التكلف في المقارنـات ، ليس من شانـه ان يؤدي الى استخلاص شيء ايجابي وموضوعي وعقلاني من هذه المقارنات .

المعجزة القرآنية من جهة تاثيرهـا على مجتمـع الجاهلية ، وما صنعته في هـذا المجتمـع من ظواهـر خارقة ، لا يستطاع الاتيان لها بتعليل قائم على حساب المقدمات والاستنتاجات العادية ، هذه المعجزة ، ليس لها ما تعلل به الا انها معجزة وكفى . ولا نستعمـل التعبير هكذا بالمفهوم المالوف ، بل والمتذل ، الـذي اصبح له ، مثل ما يقال ــ مثلا ــ « معجزة علمية »او « معجزة مالية » او غير ذلك ! ان المعجزة هنا ، المعجزة التي احدثها القرآن في حظيرة المجتمع العربي الجاهلي، لها كل مدلولها اللغوي الصرف البـريء من التزيـد

والمغالاة وما في حكم ذلك ؛ ان المراد بالمعجزة القرآنية ، في تأثيرها على جهلة العرب ، وتكييفها لهم ، بالصورة التي تكيفوا بها ، واكمالها ذلك التكيف ، بالسرعة ، وبالتلقائية التي تم بها بالفعل كل هذا ، مما يعجز اي انسان لا عن الاتيان بمثله ، بل حتى عن مجرد تصور عوامل واسباب موضوعية له ؛ وحتى اذا امكن تصور اسباب وعوامل يعتقد انها مفسرة للظاهرة الموجودة ، فان مثل هذا التفسير لا ينطبق على مثل هذا الامر ، الا بصورة تقريبية ، وبحسب مقاييس التفسير التي نستعملها لادراك الوقائع والظواهر العادية ؛ والامر الماثل في تحول العرب السريع بتأثير القرآن ، ليس هو من الامور العادية ، التي يمكن ان تنطبق عليها مقاييس التفسير العادية ؛ ولكي ندرك بعض ملامح الصورة ، صورة الحالة التي وقعت ، دون ان نستطيع النفوذ الى ادراك « العلل » المعجزية الكامنة وراءها ، يجب ان نستعيد لاذهاننا احوال الادراك والتصور عند الانسان ؛ وهذه الاحوال ، بما تبدو به من تفاوت ، تقوم لا كأساس فقط لتقييم نسبة الذكاء والغباء عند الناس ، بل تقوم في ضمن ذلك ، كمقياس لتبين درجتهم من التقدم او التخلف ، بالمفهوم العام الذي عليه التقدم او التخلف ! ومن مظاهر التقدم او التخلف العقلي من هذا القبيل ، قدرة الافراد او المجتمع بالتالي ، او عدم القدرة لديهم على اتخاذ الموقف الفكري المستقل ، المتحرر من تبعية الخضوع الاعمى للعادات والمواضعات المتوارثة ، ان اتخاذ الموقف العقلي الصحيح رهين بنوع من التحرر من هذا المعنى ؛ وبقدر ما يكون الفكر متخلفا ، والتصورات المنبثقة عنه ساذجة قطيرة، بقدر ما يصعب تطوير فكر على هذا الغرار ، واكسابه — على الاخص — قدرة التنقل من منطق الاعتياد الاعمى الى المنطق المنبثق عن وعي وادراك وتصميم فكري اصيل ؛ واذا ما امكن احداث تطوير عقلي بهذا المستوى في حق مجتمع من المجتمعات ، فان ثمرة ذلك لا يمكن ان تنضج في جيل او في جيلين ، بل تتطلب مرور دهور واجيال ؛ ونحن نرى في عصرنا الحاضر ، اجماعا وتضافرا عالميا على احداث تطوير عقلي ما في المجتمعات المتخلفة ؛ ولكن النتيجة المتأتية عند ذلك ضئيلة ، او في حكم المنعدمة احيانا ؛ اما اذا نظرنا الى مثل هذا الامر من زاوية الحياة العربية الجاهلية ، فاننا نجد افراد المجتمع العربي الجاهلي قد عاشوا على جملة من العادات المتوارثة ، متأصلة عن عوامل مختلفة ، تفاعل بعضها مع بعض ، لتنتهي مع الامد الطويل الى صياغة شخصية الفرد العربي الجاهلي ، على ما نعرفها عليه شخصية « جاهلية » وكفى بهذا الوقف اداة تعبير عن الحالة العقلية التي كان عليها المجتمع العربي قبل نزول القرآن ! ان ابرز ما كان بارزا في نطاق ذلك المجتمع هو انه كان مجتمع اعراف وتقاليد ، قبل ان يكون مجتمع تعقل او تفكير ، على اي منحى ايجابي جدي يكون عليه التعقل والتفكير ؛ اعراف وتقاليد اجتماعية من كل نوع ، ناشئة في عمومها عن جملة من الاعراف والتقاليد الفكرية تنطوي بطبيعتها على التغاضي عن اي اعتبار عقلي آخر ، الا اعتبار المتابعة والاحتذاء الاعمى الذي توجبه هذه الاعراف والمواضعات العقليـــــة .

ولا ينصرف اهتمامنا في هذا النطاق الموجود الان ، الى النظر في اصول وعوامل هذه الحالة ، التي عاش عليها العقل العربي الجاهلي دهورا واجيالا متطاولة ؛ فقد تكون الاتباعية البسيطة ، التي خضع لها فكر العرب في جاهليتهم الطويلة ، ناشئة عن طبيعة البيئة التاريخية التي حاطت بحياة هذا الفكر ، واثرت عليه بصور مختلفة ؛ وقد تكون هناك عوامل مزاجية او غيرها ، مما كان له اثره في هذا المقام ، الا ان الذي يعني من كل ذلك، ان الاتباعية عند المجتمع العربي الجاهلي لم تكن تنطوي على اية ملابسة مهمة من ملابسات الاختيار ، وانما كانت اتباعية فكرية « جاهلية » بكل ما يشير اليه ذلك من عدم التبين ، والتثبت واتخاذ الموقف الواعي المستنير ؛ واذا شئنا استجلاء بعض المعطيات التفصيلية مما يتعلق بهذا الامر ، فامامنا كشف طويل جدا ، يمكن على اساسه استعراض الصفات العربية الجاهلية التي لن نستعرضها بالفعل ، لان عرض تفاصيل من هذا القبيل، يضطرنا الى الافاضة في القول ، ليس لها من داع في هذا النطاق الخاص ، الذي اخذنا به ؛ ولكن ذلك لا يصدنا عن الاشارة الى بعض الصفات القليلة البارزة ، لمجرد تصور الابعاد الهائلة التي تكونت فيها جوانب القضية التي نعرض اليها في هذا المجال .

اولا — ضيق الافق الفكري ، وقد كان صفة عقلية بارزة في نطاق المجتمع العربي الجاهلي ، قبل ان يتفتح وعي العرب على هدي القرآن ، وتنضج ملكاتهم في استيحائهم منه ، وتأثرهم به ؛ والواقع ان شيئا ما لم يصب وحدة العرب وتماسكهم السياسي والاجتماعي بقدر ما اصابهم بذلك ضيق الافق الفكري الذي كانوا متصفين به ؛ ان ذلك الضيق الفكري ، لم يكن يبيح للفرد العربي الجاهلي ، ان يتصور مفهوما موضوعيا لعلاقته بالمجتمع الخاص الذي يعيش فيه ، وعلاقته

بالمجتمع الانساني في عمومه ، ومن ثم كان فكر العربي الجاهلي في حد ذاته مشكلة مزمنة ، تستعصي — في الاحوال العادية — على كل بادرة تفتيح وتطوير يقصد منها ربط العقلية العربية ببقية العالم ، وجعلها على بصيرة من امرها ، بالنسبة لما هو قائم في العالم من اوضاع ، وما يسوده من قيم وافكار .

ثانيا — هناك صفة عقلية اخرى ، يمكن اعتبارها من مميزات الافراد ثم الجماعة في نطاق الوضعية الجاهلية التي كانت قائمة حينئذ ، وهي صفة سلبية ايضا ، مثل سابقتها ، مع ما ينجر عن السلبية هذه من نتائج سلبية كذلك ؛ والصفة التي أقصد ، هي صفة الحسية ، او المغالاة فيها ، الى القدر الذي لا يترك منافذ تفكير حول ما وراء الحس الا بقدر ضئيل جداء ومحدود الاثر بقدر كبير ؛ حسية العربي الجاهلي ، كانت انعكاسا لحسية مجتمعه القبائلي العرفي ، وهو مجتمع كان مطبوعا بنتائج هذه الحسية المغالية ، تظهر معالمها عليه في مختلف آفاق حياته ومسالكه في التفكير والتقييم والاستنتاج والسلوك ؛ والواقع ان الحسية في حد ذاتها ، ليست — بالضرورة — صفة نقص فيمن هو موصوف بها ، من ذوي التفكير المادي الحسي ؛ الا ان الحسية لا ينبغي أن تكون مرادفة لمعنى الانغلاق الذهني ، حتى لا يكاد المرء لا يتبين من الحياة، ومن آفاقها الا ما يحيط به ، أو بعض ما يحيط به من كيانه البدني او الوجود المباشر الذي يلامسه ، وذلك — اذا ما كان في صورته العادية ، فهو شأن الافراد في بداية — تكون مداركهم ، حتى اذا تكونت هذه المدارك استوى هؤلاء الافراد ، عقولا حساسية مستبطنة ، تلمس من الوجود المباشر حقيقته الماثلة ، ولكن تتحسس له وراء الحقيقة الماثلة منطوياته المعنوية العديدة ، وآفاقه المجردة ؛ ومن الملحوظ ، ان ارتقاء الافراد على هذا المستوى — يسير — في الاحوال الطبيعية على حسب مراحل العمر طفولة ورشدا ؛ لكن مجتمعا كالمجتمع العربي الجاهلي ، لم يستطع ان يتخلص من طور الطفولة ، كما ذكرنا ، فبقي فكره متلبسا بها ، لا يستطيع ان يتجاوز نطاق الحسية الضيقة ، على الرغم من انه كانت تبدو عليه بعض الميول المترفعة — نوعا ما — كغرامه بالبلاغة والفصاحة، وشغفه بالصور المعنوية من هذا القبيل ؛ لكن هذا الميل كان محدود الافق هو بدوره ، كمحدودية افق الفكر العربي بعمومه ، الامر الذي كان يجعل من الصور البلاغية في كثير من الاحيان مجرد وسيلة تعبير عن نوازع الحس ، وابسط انواع الميول والغرائز التي لا تخضع لانضباط عقلي مهذب وقد انبنى على « حسية» الفكر العربي الجاهلي ، وعجزه — في الكثير — عن التسامي الى آفاق اكثر رحابة من مجرد لمس ظواهر الوجود المباشر — انبنى على ذلك ان غرق العرب في نوع من الوثنية ، يعد من اكثر الوثنيات حسية ومادية، كما تدل على ذلك قصص العرب وصور حياتهم قبل ظهور الاسلام ؛ وتلك الوثنية ، قد جعلت من الفكر العربي ، فكرا غير قابل للتفتح على عالم المعنويات الا بالقدر الذي لا تؤدي فيه هذه المعنويات الى تربية جذرية للعقل ، وتعميق لمعطياته ؛ وقد عاش الاغريق قبل ذلك تجربة التفكير الميتافيزيقي ، متغلغلين به الى درجات بعيدة ، ولكن محدودية التفكير الانساني وضعفه الطبيعي ، لم يمكن الفكر الاغريقي نفسه ان يصل — في موضوع العلاقة بين الدين والانسان — الى اقرار صورة اخرى غير تلك النظرة الى الالهة الخرافية التي تعكس عند متخيليها سذاجة ملحوظة في التصور والادراك ، تتفق مع طفولة الفكر الانساني ونقص عوامل النضج — بالتالي — فيه ؛ اما المجتمع العربي الجاهلي ، فقد كان في تصوراته ومداركه لا يقل سذاجة في التصور والادراك ، وخرافية بالنتيجة لذلك ؛ الا انه يبدو أكثر ايغالا في الحسية ، وعدم القدرة على التجريد ، تبعا لما اتسم به ذلك المجتمع من ضيق افق عقلي ، وما كان عليه من تقوقع فكري عازل ؛ الامر الذي لم يكن يسمح له ان يتجاوز حدود البيئة الوثنية التي كان ملتصقا بها ، وهي وثنية مغالية في الحسية الى درجة السذاجة الصبيانية كما اسلفنا .

* * *

من هذا المنظور — ولو اننا لمحنا له مجرد تلميح عابر فقط — يمكن ان نتبين مظاهر المعجزة التي حدثت والتي تتمثل في ان مجتمعا على هذه الصورة المتخلفة جدا ، قد تحول في وقت وجيز — وبصورة لا يستطاع تعليلها بمقاييس التعليل العادي — قد تحول فعلا من الصورة التي رأينا الى صورة مناقضة لها تمام المناقضة؛ وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم اساس التحول لهذا ، بطبيعة الحال ، ولم يكن للرسول في كل ذلك ، وسيلة اكثر فاعلية واضمن نتيجة ، من هذا القرآن الذي هذب وهدى ، وعالج فشفى واحدث — على اضخم صورة موجودة — التحول المعجزي الذي سجلته المراحل الاولى للدعوة ، وقد كانت تلك المراحل باتة حاسمة في حد ذاتها ، لم تفتقر الى زمن طويل ، لكي تنضج عواملها ، وتتوافر لها فاعلية كاملة ، واستمر

الزمن بعد ذلك متلاحق بعضه ببعض ، واستمرت المعجزة معه ، معجزة القرآن بكل نصاعتها وقوتها وفعاليتها العظيمة ؛ وقد نزل القرآن بين قوم اميين فى الغالب ، فكان مصدر ايحاء عقلي لهم ، وسبب اشراق روحي فى نفوسهم ، اشع عليهم من ينابيعه التي لا تنضب ، فادى الاشعاع الى ما ادى اليه من تهذيب وتقويم وتسديد ؛ وكان ذلك هو المعجزة الكبرى التي ذكرنا من قبل ؛ اما استمرار المعجزة بعد هذا ، فيتمثل بعض منه فيما يلي :

1) جمع القرآن وتدوينه ؛ وقد يبدو هذا الامر من قبيل الاشياء العادية ، او بالاقل من الاشياء غير المعجزية ؛ وذلك نظر من لا يلم بشيء كاف عن طبيعة الامور الواقعة ، ولا يرى القضايا الا من وجه واحد ، بينما لها ، اي هذه القضايا ، اوجه عديدة ومتكاملة ؛ ان جمع القرءان قد مر بادوار مختلفة ، وابتدا تدوينه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فلما التحق النبي بربه ، وحدثت المواقع التي ادت الى استشهاد القراء ، واهمها موقعة اليمامة سنة 12 ه كان ذلك داعيا — كما نعلم — الى جمع كل ما كان متفرقا من القرآن فى الرقاع وغيرها ، حيث تم ذلك الجمع باسلوب فى التحدي والتثبت والضبط ؛ وهو معجزة علمية فى حد ذاتها بالنسبة لعقلية اقوام لم تكن لهم فى الاصل بيئة علمية اصيلة ، حتى جاء الاسلام فخلق فيهم هذه البيئة ، وكون عندهم العلقية العلمية التي هي ملازمة لها ؛ ثم كان المصحف العثماني بعدذلك، سبيلا لاقصاء كل اختلاف فى القراءات بزيادة او حذف وادى الى ضمان الصورة الحقة التي عليها القرآن لما انزله منزله سبحانه وتعالى .

وقد يعجب المرء من هذا التوفيق الذي حالف الاسلام والمسلمين حتى ادى بهم الى ما حفظ لهم الكتاب وصانه من الزيغ والتحريف !! واذا كان للمرء ان يعجب بهذا ويذكره فى ضمن النعم التي اوليها الاسلام والمسلمون فان له ان يعجب اكثر من ذلك اذا وضع فى الاعتبار طبيعة الظروف التي تم فيها جمع القرآن وتدوينه ، وهي ظروف تتميز بامية القوم في اغلبهم ، كما اسلفنا ، ثم تتميز ثانيا بالفتنة التي نجمت عن حرب الردة ، وما كان من الجائز ان تؤدي اليه من تشتيت الجهود ، وتشتيت المصادر الحية التي يوجد فى صدورها القرآن ، ثم تتميز ثالثا بانسياح العرب بعد ذلك فى اقطار الارض فاتحين ومختلطين بغيرهم من الامم ، وما كان من الجائز ان يؤدي اليه ذلك من اختلاف فى القراءات ، قد يبلغ مستوى الاختلاف حول الزيادة او النقص فى بعض الآي ، ثم تتميز تلك الحالة رابعا ، بوجود المناوئين والكائدين للاسلام ممن كان من المفروض ان تؤدي مكائدهم الى احداث البلبلة والاضطراب فى حفظ الناس للقرآن ، وهو لما يزل غير مدون فى مصحف نهائي ، كمصحف الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه ؛ تلك كلها حقائق لا بد ان يعيها المرء جيدا ، ليتصور اية معجزة حدثت، فضمنت للمسلمين كتابهم محفوظا ومصونا من العبث الذي اصيبت به كتب اخرى غير القرءان .

2) ان هناك الى هذه الحقائق كلها حقيقة بارزة بالبداهة ، وذات اهمية كبيرة فى الامر ، وهي ان القرآن — بعد ما دون وجمع بين دفتي المصحف العثماني — فان مستودعه مع ذلك ، لم يكن هو المصحف المكتوب فقط ، بل بقيت الصدور مستودعه الدائم الذي لا ينقضي ، وبقي المسلمون احفظ امة لكتابها ، تختلف بذلك عن غيرها من الامم ، التي لا يلم فيها بالنصوص الدينية الا خاصة الاحبار والرهبان ؛ وتلك ميزة للمسلمين ينعكس منها جانب من روح الاسلام الذي هو مشاع بين كل من هو ناطق بالشهادتين ، لا وصاية فيه لاحد على احد الا وصاية النصح والارشاد المتبادل .

3) المجال الواسع ، الذي انفتح امام القرآن لبلوغ رسالته الى مختلف امم الارض ، وذلك بصورته الكاملة المصونة من العبث كما اراد الله سبحانه وتعالى لها ذلك ؛ وهذا جانب آخر من المعجزة التي لها فى الواقع اكثر من وجه ، واكثر من جانب ؛ وقد كان القرآن ، اساس كل اتصال بين العرب وغيرهم من ذوي الحضارات العريقة او غيرهم من ذوي المستوى الحضاري الاقل ؛ وعند ما كان المتحضرون يدلون بما لديهم من معطيات الثقافة والمدنية ، كان العرب يدلون بالقرآن ، وبما يشمله القرآن من حقائق الاولين والاخرين ، وآداب ونواميس واحكام ، بهرت غير العرب ، كما بهرت العرب من قبل ، وقادت الجميع الى الاخذ بالكتاب الخالد ، والاخذ نتيجة لذلك ، بمضمون الدين الذي يعبر عنه هذا الكتاب الخالد ؛ وقد عجب الناس طويلا من سرعة الفتوح العربية وانتشارها بين اطراف الارض على نحو ما انتشرت به؛ ولابد ان نتذكر بصدد هذا ، انه كان للقرآن فى ذلك ، الاثر البليغ الذي لم يفقه اثر آخر غيره ؛ ولنتخذ من فتح العرب لاقطار المغرب مثالا فى هذا المقام ؛ فقد وجد العرب فى فتوحاتهم بالشمال الافريقي صعوبات فى بداية الامر ، لم يلاقوا مثلها فى عدد من الاقطار التي فتحوها؛

ونعلم ان البربر قد تأرجحوا بين الاستسلام للفتح العربي والتنكر له امدا طويلا ؛ والتعليل الذي يورد في العادة لتفسير هذه الظاهرة يتلخص في ان البربر لم يكونوا يعلمون في البداية من امد الدعوة ومحتواها الفكري والاخلاقي ما يجب ان يعلموه ، ولعل الكثير منهم لم يكونوا يرون في الانسياح العربي باقطار المغرب الا انه مجرد عملية غزو وافتتاح وكفى ؛ بيد ان طول احتكاك البربر بالعرب ، واستمرار الوجود العربي بامصار المغرب ، قد ساعد على تفتيح اعين البربر على ما يجب ان يفتحوا اعينهم عليه ، وتبين لهم اخيرا ان الامر ليس امر حرب او غزو ، بقدر ما هو امر حركة تحرير وتقويم وتطوير ، عليهم ان يندمجوا في تيارها ؛ لصالحهم هم ، قبل ان يكون لصالح غيرهم ، بل عليهم ان يحاولوا امتلاك زمام التيار هذا ، ويضبطوا حركته القوية القاهرة ، ويتبينوا جيدا مواقع اقدامهم منه وموقفهم فيه ، حتى يمكنهم ان يصبحوا من مالكي عنانه ، وموجهي دفته ، لا ان يكونوا مجرد مسوقين ، لا يدلهم في الامر ولا تدبير ، وكان عهد موسى بن نصير بالمغرب حاسما في هذا المعنى ؛ حتى اصبح البربر بعد ذلك — بفضل الاقتناع الذي لهم بالاسلام — بمثابة خط الدفاع الاول عنه ، وفي مقدمة الركب الذي يرود له الافاق الجديدة بالاندلس وغيرها ؛ وقد كان القرآن مادة الاساس في كل هذه التحولات التي وقعت ، وضامنا نتيجتها على النحو الذي حصلت به هذه النتيجة ، اذ ان القراء والفقهاء من العرب ، كانوا قد انتشروا على عهد موسى بن نصير بين القبائل البربرية يعرفون رجالها نصوص الكتاب الحكيم ، ويتدارسون معهم آياته واحكامه ، حتى تم على اساس ذلك التفهم البربري باكثر ما يكون متانة وعمقا لحقيقة الدعوة ، وحقيقة الكتاب الذي يعبر عنها ؛ وادى هذا التفهم كما ذكر — الى ما اصبح عليه الامر بعد ذلك من شديد الصلة بين البربر والاسلام ، والتحامهم بالقضية الاسلامية ، الالتحام الذي افضى الى ما هو معروف من اصالة المركز الاسلامي بهذه الديار ؛ وما سقناه عن المثال المغربي ، ينطبق على كثير من الحالات الاخرى من هذا القبيل في غير المغرب ؛ فالقرآن كان بين ايدي العرب ، وسيلة مهمة جدا في تعبيد السبيل امامهم نحو الامم الاخرى ، وتبليغ الدعوة اليها ، واقناعها بان امامها حالة جد ايجابية معروضة عليها ، وتتطلب منها حسن اختيار ، وحسن ممارسة لما تختار ؛ وتلك ظاهرة نفسانية ، من بين اكثر ما هو معروف من ظواهر النفس ، واعراض ردود الفعل النفساني ؛ فالشعور عند الجماعة كما عند الافراد ، بان هناك مجرد حالة مهاجمة لهم ، تستهدف اكتساحهم وابتلاعهم لمجرد الاكتساح والابتلاع فقط — مثل هذا الشعور داع بطبيعة الحال الى اثارة شعور ملازم هو شعور رد الفعل ، وتحريك عوامل رد الفعل هذا على نحو عملي ؛ وليس هناك ما يخفف من شدة رد الفعل الذي ذكرنا ، ويجرده من صبغته كبادرة مقاومة ، او محاربة ، الا الشعور الذي قد يجتاح الجماعة ، ان الامر الذي تواجهه ، ليس هو امر تهديد بالاكتساح لمجرد الاكتساح ، وانما هو حركة التقاء فكري وحضاري ، المراد منه التفاهم على الحسنى ، والتضافر على اقامة موازين الحق والعلم والخير ، موجهة لصالح الجميع ؛ وذلك ما بدا فعلا للمجتمع البربري الذي كان دائم الانتقاض على العرب ، فاذا بهذا المجتمع وسورة الانتقاض تخفت عنده الى النهاية ، فيما تلتهب في نفس الانسان بهذا المجتمع حمية من نوع معاكس ، حمية من اجل القرآن ، لاجل حاملي رسالة القرآن ؛ حمية جعلت من البربر عماد البعثات الفاتحة في شبه الجزيرة الايبرية والاقاليم الاوربية الواقعة منها الى الشمال ؛ واهلتهم — على اساس ذلك — لتحمل رسالة في التاريخ ، هي رسالة تحقيق الاسلام الاوربي الغربي ورعايته لمدى قرون .

* * *

واستمر الزمن بعد ذلك ، متلاحق بعضه ببعض ، واستمرت المعجزة معه ، معجزة القرآن ، بكل نصاعتها وقوتها وفاعليتها العظيمة ؛ وقد انقضى القرن الاول على المسلمين ، وبدا القرن الثاني ، والرسالة القرآنية قد بلغت من آفاق الارض حدودا بعيدة جدا ، سواء في الشرق او في الغرب واتخذ الموقف العربي صورته المتبلورة ، التي تتمثل في وجود مواطيء قدم للعرب حملة الرسالة القرآنية على ربى الشام والعراق وفي جبال افريقيا والاندلس ، او على هضاب فارس وما جاورها ، او غير ذلك من مواقع الارض الافريقية او الاسوية او الاوربية .

وهذه الصورة المتبلورة في النطاق المادي ، كان لابد ان توازيها صورة متبلورة اخرى على مستوى الفكر والعلم والحضارة وما يتصل بذلك ؛ ولم يكن القرآن غائبا في هذا المجال ، كما لم يكن غائبا في غيره من المجالات الايجابية الخيرة ؛ والكتاب الكريم — كما نعلم .. نزل اول ما نزل — على اساس الدعوة الى

سبيل القراءة والكتابة والعلم (سورة القلم) وما فتئت السور تتوالى بعد ذلك ، تتضمن فيما تتضمنه دعوة الى العقل والمعقولية ، وافادات عظيمة في شتى اغراض العلم والمعرفة ، الامر الذي كان له التأثير المعجزي على العرب في الصدر الاول كما اسلفنا ، واستمر هذا التأثير المعجزي بعد ذلك كما تتبين ملامح منه فيما يلي:

1) تكونت في غضون دولة الخلفاء الراشدين، واثناء الدولة الاموية الى نهايتها ، بذور حركة علمية ، هي التي نمت فيما بعد ، وترعرت الى ان تبلورت في شكل الحضارة العربية الاسلامية ، على ما نعهدها عليه من ناحيتها العلمية ؛ وقد كانت هذه البذور خلال القرن الاول واوائل الثاني كانت اساسية وحاسمة في الامر ، بحيث انه كان على اساسها اتجاه الحركة العلمية ، ومصيرها فيما بعد ؛ غير ان الذي يمكن ملاحظته بهذا الشأن ، هو ان هذه البذور بكل ما لها من اهمية في اتجاهات الاحوال ثقافة المسلمين وحضارتهم، فقد كان العامل الكبير فيها اي في هذه البذور ، هو القرآن الكريم ، وما فرضه من مقتضيات عقلية وعلمية، وجهت المسلمين بالضرورة وجهة البحث والاطلاع ، وانفتح لهم من ذلك المنفذ الذي قادهم على المدى الطويل ، الى بناء ما ابتنوه من جهاز علمي قوي وشامل ، فقد وجد المسلمون منذ البداية — ان هناك ضرورة ملحة لتقعيد قواعد التشريع في الدولة ، بعد ان صارت — اي الدولة — جامعة لامم واجناس ، لابد ان ينتظمها تشريع منظم وشامل ، يستوعب قضاياها الدينية والدنوية وهي قضايا يتخذ بعضها صبغة المشاكل في كثير من الاحيان ، نظرا لتشعب الاتصالات وتداخل الثقافات والحضارات في كيان الدولة الاسلامية التي كان عليها ان تهضم كل ذلك ، وتستوعبه وتضع الاساس الديني والدنيوي الاسلامي ، البديل عنه ؛ ولا شك ان تقعيد التشريع ، كان اساسه النظر في القرآن ، وهذا النظر قد جعلت منه دواعي الحاجة العلمية والعملية ، جعلت منه نظرا متشعب المناحي ، كثير المقتضيات ، ذا صلة بمختلف ضروب المعرفة الموجودة ، والتي كان من اللازم ان توجد ، وهكذا كان النظر في القرآن داعيا للنظر في لغة العرب ومنطوياتها اللفظية والمعنوية ، وداعيا للنظر في القصص والتواريخ والايام ، وداعيا للنظر ايضا في الحديث وفنونه ، ورجاله ، ثم كان حافزا بعد ذلك على النظر في الفلسفة والمنطق والجدل ، وغير ذلك من العلوم التي ارتبط النظر فيها بعضه مع بعض ، وكانت نقطة الانطلاق في كل ذلك هي القرآن ، وكان في ذلك تكريس لمعنى العلمية والعرفانية المرتبطة بكتاب ، نزل اول ما نزل بذكر القراءة والعلم والقلم .

2) التيار العلمي الذي خلقه القرآن في كيان المجتمع العربي الاسلامي ، لم ينحصر — كما قد يبدو عند النظر السطحي — في خصوص المواضيع الدينية واللغوية والفلسفية والتاريخية وما في حكمها ؛ لقد اتجهت اهتمامات المسلمين ايضا الى العناية بالعلوم المادية المختلفة من طب وطبيعة وكيمياء وغيرها ، ويجب اعتبار الصلة الرابطة في هذا المجال ايضا بين القرءان ، واتجاهات المسلمين من هذا القبيل ؛ وتبرز لنا من هذا المعنى نقطتان : (ا) وجود عدد من السور متضمنة مسائل من العلم المادي من طب وحيوان وفلك وغيره ، ولا بد ان تكون الرغبة في تفسير مثل هذه الآيات العلمية داعيا الى التوسع في بحث المضامين العلمية التي تشير اليها ، الامر الذي من شأنه ان يوجه الاهتمامات الى العلوم المادية المختلفة ؛ كما توجهت اليها هذه الاهتمامات بالفعل ، خصوصا وقد تهيأ للعرب اتصال مبكر ببعض المصادر الحية لهذه العلوم ، كالطب ، مثلا ، فقد توافرت الروايات القائلة انه وجد في البلاد عدد من الاطباء النصارى واليهود عملوا لفائدة الخلفاء ، وقد افاد العرب منهم في البداية عمليا ، ثم كانت الاستفادة النظرية التي ادت الى معرفة علمية مستقلة بالطب وغيره ، اكتسبها العرب ، وخصوصا بعد ان نضجت ملكاتهم العلمية بالقدر الذي نضجت به خلال القرون التالية للقرن الاول الهجري .
(ب) هناك بالاضافة الى السور والآيات العلمية التي تضمنها القرآن ، آيات اخرى — وهي كثيرة — تشتمل في مضمونها على توجيه الى العلم وحث على النظر في الحياة والطبيعة ، وكل ذلك له — بطبيعة الحال تأثيره الفاعل في اذهان قوم ، يوجد القرآن مصدر توجيههم الاول والاخير ، ومكمن استيحائهم ، ومورد تكييفهم العقلي ، على نحو ما تم عليه ذلك التكييف العقلــــي .

وهناك قضية اخرى جديرة بالالتفات اليها في موضوع التأثير القرآني خلال العصر التالي للصدر الاول ذلك هو ما تم منذ القرن الاول ، والذي يليه ، من انصهار الكثير من افراد الشعوب الداخلة حديثا الى الاسلام في مضمار الثقافة الاسلامية العربية ، وبالاخص بروز عدد من افراد الامم المختلفة (اي الموالي) في نطاق الثقافة الاسلامية العربية ، كعوامل فعالة منتجة ، بل وكرواد مبدعين ، ياتون بمثل ما اتى به العرب في حظيرة الثقافة المشتركة بين الجميع ،

ويذهب بعضهم مذهبا اكثر تفوقا ، فياتي باكثر مما اتى به مماثلوه من العرب الاقحاح ، وقد برز من بين الموالي في رواية الحديث اعلام من مثل مجاهد ومحمد ابن مسلم ، وعطاء وعكرمة ، وعرف من كبار النحويين، مثل سيبويه والفارسي والزجاج ، واشتهر من الفقهاء وغيرهم عدد مثل ذلك كثير ؛ وبطبيعة الحال ، فان النظر الديني ـ واساسه القرآن ـ كان داعيا مباشرا او غير مباشر لذلك ، فقد التقت ـ في هذا المجال ـ نفسية التشبع بروح الاسلام عند هؤلاء الموالي ، وعقلية علمية منتجة ، متوافرة عندهم في الاصل ، فكان تفاعل ذلك في عقولهم ، اساسا لما اتوا به من مبادرات منتجة ، اهلتهم لما تاهلوا له في نطاق العلوم الدينية ، وما يتصل بها ؛ ولو لم يكن الداعي الديني ـ القرآني اساسا في هذا الشان لكان نبوغ الموالي موجها الى حملة من العلوم الدنيوية التي ورثوا الاحتكاك باصولها في بيئاتهم الاولى ، غير الاسلامية ، ولما كان لهم بالتالي مثل هذا النبوغ الذي ابرزوه في حظيرة العلوم الدينية، التي انشاها الاسلام ونمى رصيدها بروحه ومقتضياته؛ والمهم في هذا الامر من اساسه ، ليس هو مجرد المشاركة العلمية من قبل هؤلاء الموالي ، في مضمار الثقافة العربية الاسلامية ، وانما المهم ـ اكثر من ذلك ـ هو ما تشير اليه هذه المشاركة من انصهار الفكر العجمي والعربي ضمن بوتقة واحدة ، واندماج العجم في حركة ثقافية عالمية ، تقوم على اساس من لغة العرب وادبهم ، وترتكز على القرآن الذي تعبر عنه هذه اللغة ، وما يرتبط بالقرآن من علوم وفنون تشعبت الى هنا وهناك ، مع ان نقطة انطلاقها واحدة كما ذكرنا ، وهي القرآن المجيد .

* * *

واستمر الزمن بعد ذلك متلاحق بعضه ببعض ، واستمرت المعجزة معه ، معجزة القرآن بكل نصاعتها وقوتها وفاعليتها العظيمة ؛ وفي عصرنا هذا ، عصر اصطراع المذاهب والنظريات الوضعية ، وتصادم الاتجاهات والنوازع الفكرية ، وتنكر الكثير من هذه المذاهب والنوازع لامد الروح وما تدعو اليه الاعتبارات الروحية من مثاليات حسنة ؛ في هذا العصر ، وما يصطرع فيه من اضداد ، يبرز القرآن الكريم ، كما كان منذ اربعة عشر قرنا ، وكما لابد ان يكون ـ الى قيام الساعة ـ كتاب هداية لمن اضلته المسارب المظلمة في الحياة ، ومصدر اشراق لمن غمت عليهم الآفاق ، ومنبع ايحاء لمن ايسوا من نجوع وحي العقل المجرد ، واقتنعوا انه غير موصل الانسانية ـ بمفرده ـ الى اقوم طريق ـ وان كان قد اوصلها الى مركب شديد التعقيد من الانجازات التقنية مشكلة الانسان الآن ، انه قد ابتدعها دون ان يستطيع السيطرة عليها ، وكونها من غير ان يكون له في المصير المؤدية اليه ، قدرة اشراف كاف ، او مراقبة فعالة ؛ في هذا النطاق، نطاق هذا العصر ، نستطيع ان نتبين بعضا من اوجه العلاقة بين الانسان الحاضر والقرآن ، وان كان نظرنا في هذه العلاقة ، غير مستوعب وانما هو من قبيل التمثيل لا غير ؛ ثم انه منبثق على معطيات موضوعية، واخرى محتملة فقط ، او في حكم الاحتمال .

ان من ابرز الخواص التي يتميز بها القرآن في يوم الناس هذا ، انه ـ من بين الكتب السماوية كلها ـ لا يزال الاكثر احتفاظا بالحظوة عند قومه من المسلمين، ينبع ذلك من عظيم الصلة بين القرآن والانسان ، وليس لاي عامل مضادان يرد موجبات هذه الحظوة ، او يقلص منها بالقدر الذي لا يعود لها فيه فاعلية حية وقائمة ؛ ولا يقصد بالحظوة هنا مجرد الشعور بالتقديس نحو الكتاب ، وانما المراد ـ اكثر من ذلك ـ ان الكتاب ما فتيء يتوافر له ـ وباستمرار ـ مجال يومي في اذهان الناس بالعالم الاسلامي ، وفي حياتهم العامة ، بالقدر الذي لا يتوافر للكتب السماوية الاخرى في حياة المنتمين اليها ؛ فالانجيل لم يعد في الاعم الغالب الا كتابخاصةالرهبان والقسيسين،وليسللعمومالمسيحي علم به ، بقدر ما للعموم عند المسلمين ، ولا تختلف التوراة عن ذلك كثيرا ، علاوة على ان الديانة التي تعبر عنها التوراة ، ديانة تعيش في نطاق محدود جدا ، وليس لها من مجالات التفتح على العالم ، ما للقرآن ، والديانة التي يعبر عنها القرآن .

الديانات تواجه من تحديات العصر ما لم يسبق له مثيل من قبل ؛ والتحديات ضد الديانات ، تدخل في اطار التحدي الذي يوجهه المنهج العلمي المادي ضد جميع القيم والمواضعات التي لا تدخل ـ بالضرورة في نطاق التجربة الحسية ؛ وهذه التحديات الموجهة للديانات ، توجه بطبيعة الحال الى الكتب السماوية في ضمن ذلك ؛ بيد ان الذي يلحظ بهذا الشأن ، ان القرآن الكريم ، قد سجل من التفوق قدرا باهرا في مضمار الوقوف ضد التحديات العقلية والتجريبية ، التي يواجهها منطق العصر وعقلانيته في مثل هذه الاحوال ؛ ولا اقصد بذلك ، ما يذكر احيانا من كون آيات معينة من الكتاب ، تنطبق على قضية كذا وكذا من قضايا العلم ، او ان قضايا العلم تتفق مع مضمون

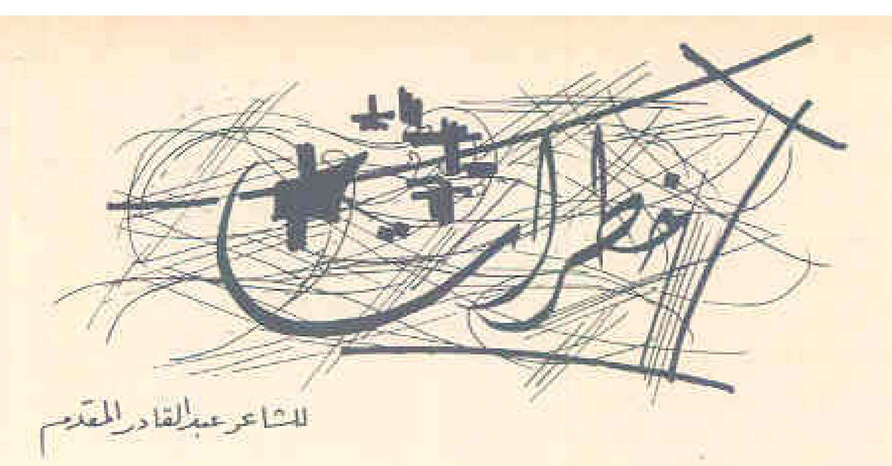
ما جاء في هذه الآية او الاخرى من القرءان ؛ فالواقع ان الجري وراء مواطن التطابق بين القرآن والعلم شيء غير ضروري دائما ، لتأييد مضامين القرآن ؛ لان الكتاب الكريم هو قيمة ابدية خالدة ، وليس العلم كذلك ؛ لانه وليد التجربة المنبثقة عن الحس ، او ناشيء عن جملة من المحاكمات العقلية ، وكل ذلك قابل لان ينقض بعضه بعضا او يعدل بعض منه الاخر ، كما يقع ذلك في الكثير من الاحيان ، ضمن تأرجحات العلم وتباوراته الدائبة ؛ انما الذي نقصد من موقف القرآن من تحديات العصر، ان هذه التحديات لم تستطع ان تجرد النفوس من الحاجة اليه ، كوسيلة استنارة واستعلام واهتداء ؛ اضف الى ذلك ، ان المقاصد الانسانية في القرآن ، ما زال الحال يكشف عنها انها اساس — وليس من اساس بديل عنه — لبناء علاقات صحيحة ودائمة ، فيما بين المرء ونفسه ، وفيما بين الافراد بعضهم مع بعض داخل اطار المجتمع الخاص ، او ضمن نطاق المجتمع الانساني العام ؛ ولا تطلق مثل هذه التأكيدات من قبيل التعصب للمذهب الديني ، او مسايرة للآراء حوله ، وانما هي خلاصة تجربة فكرية خالصة ، ونتيجة مشاهدات ومحاكمات عقلية يتوصل اليها — بالضرورة — كل من يعمل النظر في مضامين القرآن من جهة ، وفي مشكلات العصر الانسانية من جهة اخرى .

3) وليس من الضروري ان يقف القرآن موقف الرد على التحديات وكفى ، وانما هناك اساس — وهو معقول جدا ، وضروري جدا — لكي يؤدي المسلمون برسالة القرآن اليوم ، مثل ما اداه القرآن من رسالات نحو المجتمعات الانسانية في العصور السابقة؛ ان ازمة العالم اليوم ، هي ازمة الحيرة والشك والخوف من المصير ، وليس للتقنية ما تستطيعه لضمان اطمئنان انساني ، في هذا المجال ؛ وقد تنكر العلم المادي للفلسفة طويلا ، وهو الآن بصدد الرجوع اليها، الملاءمة بين الحقائق المادية المتطورة في محيطه ، والمقتضيات الانسانية التي لم تستطع التكيف مع الواقع التقني في كل احواله وصوره ؛ ولا يستطيع المرء ان يتصور وجود انسانية ، تقوم حياتها على اعتبارات الآلة والتحريك الآلي والانجاز التقني دون ان يبدو من ذلك للانسان افق معنوي واضح ، يبرر له وجوده الانساني من اساسه ويعطي للوجود والمصير مسوغا مقبولا في العقل ، متلائما مع الوجدان ؛ ان للانسان في القرآن ، كثيرا مما يستقيه في هذا المجال؛ وليس امام المسلمين ، لكي يضعوا مفاتيح الافادة من القرآن بين يدي انسانية محتاجة الى هذه الافادة ؛ ليس المسلمين ، من اجل ذلك الا ان يعرفوا كيف يعرفون غيرهم بالمضامين الانسانية في القرآن ، وكيف يفتحون على ذلك اعين انسانية حائرة في امرها ، لا تكاد تعرف لها مصيرا واضحا .

سلا : المهدي البرجالي

« وكلما تفرق المسلمون شيعا ، وذهبوا طرائق قددا ، وخذل بعضهم بعضا ، وتنكروا للمبادىء القويمة التي قام على دعائمها صرح نهضتهم المنيف ، وشامخ مجدهم التليد وجد العدو — المتربص بهم الدوائر — الى صفوفهم مدخلا ، والى قلوبهم سبيلا » .

جلالة الحسن الثاني



للشاعر عبد القادر المقدم

اشرق الكون بعد عهد غائم	وتراءت آي الهدى في علائم
السماوات اولمت في ابتهاج	تنفح الارض من كريم الولائم
ذاك جبريل جاء يحمل بشرى	للنبي الامي حر العزائم

* * *

اقـ ا المصطفى نزيل حراء	بعد جهد ، والوحي سر العظائم
وتوالت على النبي شئون	هي ادهى من كل هول حائم
هب في قومه نذيرا ، وياما	كان للرسل قبله من لوائم
فانبرى منهم ، يناويء مسعاه	خصوم غلف القلوب سوائم
كم سفيه من اهله يعلن البغضاء	تفريه في اذاه سخائم
وتباروا في النيل من دعوة القرآن	يحدوهم ، جحود دائم
واذا الوحي في تصد الى ما	بيتوا ، من مكايد وجرائم
يكشف السر عن نواياهم ، السود	ويعلي للمكرمات الدعائم
يتحدى اولي الفصاحة ان ياتوا	بشبه من آيه بالملائم
يتحدى العقل السليم باسمى	من عجيب البرهان من كل رائم

* * *

واستوت للقرآن دولة عز	تتحدى قياصرا بالعزائم
واتاحت للعقل فجر حياة	تتلاقى فيها صنوف الغنائم
هبة الشرق للمغارب من قبل	ومن بعد ، ماتوالت غمائم
لغة العرب خصها الله بالفرقان	اكرم به كتابا دائم

* * *

ليلة القدر هذه اكمل الله	بها نعمة على كل صائم
نحتفي بانتهاء قرن سلام	رابع بعد عاشر كالتوائم
في ابتهال لله ان يحفظ العرش	ويعلي امامنا في الكرائم
ولتدم للولي اغلى حياة	في امتداد الاعمار ، والدهر نائم

* * *

خطرات اتاحها عظم الذكرى	قرنت ، كما ترن حمائم

طنجة — عبد القادر المقدم



تستمد كل ذكرى قيمتها ، من قيمة الحدث الذي ترمز اليه ، وتستمدها من مدى احساس الناس باهمية ذلك الحدث ، وما قد يكون له من خطر في تاريخ حياتهم . فعظمة الحدث ، في حد ذاته ، لا تغني عن الوعي به وتمثل معانيه ، والنفوذ الى اعماقه البعيدة . بدليل أن كثيرا من الاحداث القوية الاثر في تاريخ الناس ، قد تمر مناسباتها دون أن تحاط بما هي اهل له من احتفاء واهتمام ، ذلك لان الوعي بها ضعيف او هو مضمحل على الاطلاق .

ومما لا شك فيه ، ان شعور الامة بامجادها وبطولاتها ومدى مساهمتها في حضارة الانسان ، يعتبر دليلا على تنبهها لشخصيتها وحرصها على استمرارها على مدى العصور والاجيال . ومن ثم فهي تعمل بمختلف الوسائل ، لتجعل من ذكرى احداثها التاريخية البارزة ، حقيقة تعيش في وجدان الفرد والجماعة ، فتسخر لذلك وسائل الاعلام ، واجهزة الثقافة ، وتجعلها ضمن كتب الدراسة ، وتقيم لها من المهرجانات الدورية ، ما يزيدها في نفوس الناس رسوخا وتمكنا ، حتى تضمن استمرار تمجيدها والشعور بأهميتها لدى الناشئة والجيل الصاعد ، الذي يهيأ عن طريق التربية المنزلية والمدرسية والاجتماعية والسياسية ، لنقلها بكل معانيها ومغازيها الى الجيل الذي يليه .

وليس الاحتفال بهذه الذكريات القومية متعارضا مع مقتضيات التطور والتقدم والتطلع الى المستقبل ، كما قد يتبادر الى اذهان البعض ، وانما هو عمل من شأنه المحافظة على شخصية الامة ، لاستمرارها وتجددها وتطورها ، وشخصية الامة لا تتكون من الحاضر فقط ، وانما هي مكونة من الماضي والحاضر والمستقبل ، واستطيع القول ، بان الامة كلما كان وعيها لشخصيتها اكثر عمقا واقرب الى الصحة ، كلما الزمت نفسها الا تتخذ من الاحتفال بالذكريات ذريعة للمكوث في الماضي والاستغراق فيه ، وانما هي تعود اليه لتاخذ ما هي في امس الحاجة اليه من قوة دافعة ، تدفع بها في طريق التطور، وتهبها الثقة بالنفس لاقتحام المجهول ، والسير الحثيث في مضمار الحضارة ، خصوصا اذا نحن اقتنعنا بان من الاحداث الماضية ما لا تكون قيمته محدودة بحدود الزمن الذي وقع فيه ، وانما هو حدث خالد ، ما تفتأ آثاره تتجدد جيلا بعد جيل ، ولا يكون مضي الزمن بالنسبة اليه ، الا فرصة لابراز ما له من قيمة خالدة ، تترى آياتها على مر السنين والاحقاب .

وكل امة مهما كانت مساهمتها في بناء الحضارة، الا ولها عدد من الذكريات العزيزة عليها ، الاثيرة عندها، والتي تعود بها القهقرى ، الى فترات من تاريخها البعيد او القريب ، لتعيش حدثا عسكريا ، او اقتصاديا ، او او سياسيا او دينيا ، ذلك ان البناء السياسي للامة لا يمكن ان ينهض وان يستمر ، دون مجابهة عدد من المصاعب والازمات ، التي تقف في معارضة شخصية الامة ، وتخضعها لامتحان قد يكون عسيرا او بالغ العسر . اذ ان عملية البناء ، بناء الامة ، لا يمكن ان يكون موكولا الى مجرد الظروف والمصادفات ، بل لابد من وجود الزعامة الحية ، والقيادة الواعية ، للخروج بالجماعة من حالة الفوضى والانحلال ، الى حالة التجمع والتكامل والتعاضد ، قصد بناء شخصية لها طابعها ومميزاتها . ومن المعلوم ان ظهور الزعامة الوطنية لابد ان يواجه قوة اخرى معارضة ، قد تكون هذه القوة عدوا في الداخل او الخارج ، وقد تكون هي التخلف نفسه ، وقد تكون قسوة الطبيعة ، او خرافات تعيش في ادمغة الناس، او غير ذلك . ومقاومة

كل هذه العراقيل او البعض منها ، يشكل فصلا من اهم أمجاد الامة وبطولاتها الماضية ، ويمكن القياس على هذا ، وحتى اذا وجدت جماعة من البشر الذين لم ياخذوا بنصيب من الحضارة ، وليس لهم ماض مشرف ، حافل بالامجاد ، يمدهم بما يرضي غرورهم القومي ، ويدعم ثقتهم بانفسهم ، فهم يخلقون مناسبات ولو من اتفه احداثهم شانا ، ذلك ان كل جماعة كيفما كانت درجتها في سلم الحياة الانسانية ، تشعر بحاجتها الملحة الى شيء يشد عضدها ويشعرها بكيانها ، وبان لها محورا تجتمع حوله ، وتجد في اجتماعها اسباب قوتها ومناعتها وحقها في الحياة .

ومن هنا يمكننا تصور الحظوظ الغالية التي كانت من نصيب امة تجد في تاريخها من العظائم والمواقف الخالدة ، ما يجعل دماء الفخر تتدفق حارة في عروقها، لتملأ خيالها بصور المجد ، وتعمر نفسها بعواطف الاعتزاز . وما الامة الاسلامية الا واحدة من تلك الامم التي قدمت للحضارة الانسانية خدمات جلى ، ولعلها ان تكون اعظم حظا من ذلك واسبق اليه ، كما اعترف بذلك خصومها انفسهم . وما ذكرى بدء نزول القرآن الكريم الا أهم امجادها على الاطلاق ، ذلك ان الحدث الذي تعود بنا هذه الذكرى اليه ، مخالف لجميع الاحداث التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل ، مخالف لها في وجهته ، واسلوبه ، وطبيعته ، وقيمه ، وآثاره ، على حياة الانسان وحضارته ، وهو حدث ديني ، وسياسي واقتصادي ، واجتماعي ، وحضاري ، قلب حياة العرب راسا على عقب ، وصنع بها ما هو مفصل في كتب التاريخ الإسلامي وتاريخ السيرة النبوية . لا نضع الى جانبه اي حدث مهما عظم ، من احداث التاريخ الانساني لا تعصبا ولا تحيزا ، ولكن انصافا للحقيقة التي لا يكابر فيها الا جحود معاند .

فاين منه قيام الامبراطوريات على الظلم والاغتصاب والجبروت ، وغلبة الاقوياء واستبدادهم على الضعفاء؟ واين منه ظهور الثورات والانقلابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي دعت الى سفك الدماء، والوصول الى الاغراض والمقاصد على جثث القتلى ؟ واين منه ظهور الاديان التي تعرضت كتبها للضياع والتحريف والتزيد ؟ واين منه الفتوحات العسكرية التي اقامت للدكتاتورية دولة تبطش وتحرم حق الحياة ؟ واين منه الهجرات الجماعية التي حملت معها الدمار والموت ، واكتسحت اقواما آمنين ، وداست اناسا وادعين ، بل ابادتهم شر ابادة ، وصالت بشريعة الغاب ؟ هو حدث لا كالاحداث ، كان ظهوره خيرا وبركة على العالمين ، دفع الحضارة الانسانية الى الامام، واعطاها من المعاني الرفيعة ما سما بها الى المرتبة العليا، ونشر مبادىء الاخاء والعدل والمساواة ، ومنع العدوان والاغتصاب والاستبداد ، وكان حياة للضمائر ، وقوة للجماعة ، وحصنا للشعوب ، ونبراسا للحائرين ، وهداية للضالين ، وهيهات أن نتمكن من الاحاطة ولو بجزء يسير من افضاله على الحياة الانسانية ، الامر الذي استغرق آلاف المجلدات ، وما زالت جوانبه تتطلب المزيد ، دون ان ينفد ما يستطيع ان يهبه من اقتباس .

هذا الحدث هو الذي نحتفل ويحتفل العالم الاسلامي بذكرى ظهوره ، بعد مرور اربعة عشر قرنا . ولهذا الاحتفال دوافع عديدة نحاول اجمالها فيما يلي:

1) ان المسلمين اليوم في وضع ربما كان من اضعف اوضاعهم منذ اصبحوا امة ودولة الى اليوم ، فهم في امس الحاجة الى قوة تعيد اليهم سابق عزهم ، وتجمعهم على كلمة سواء ، وما عساها ان تكون غير القرآن العظيم ؟ فغير خاف ان العالم العربي اليوم ، يعاني من مشكلة الاستعمار الصهيوني ، الذي ضرب ضربته القوية ، واصبح يملي شروطه وارادته ، متحدثا من مركز القوة ، ضاربا بكل القوانين الدولية عرض الحائط ، منتشيا بلذة النصر ، متماديا في طغيانه ، محميا من قوى العدوان والبغي . وغير خاف ان المسلمين تخلوا منذ زمن بعيد عن مركز القيادة الذي احتلوه حقبا مديدة من تاريخهم الحافل ، متقهقرين في ميدان العلم ، متخلفين عن ركب الحضارة ، حائرين بين تولية وجوههم نحو الغرب، او توليتها نحو الشرق، مستوردين النظم والمذاهب والعادات وانماط السلوك المختلفة من الخارج ، ممزقين ، منقسمين على انفسهم، مطموعا فيهم ، وفي ثروات بلادهم الطبيعية ، مترددين بين الاحتفاظ بشخصيتهم القومية ، وكيانهم الديني ، وبين الارتماء في احضان الغرب او الشرق ، مفتقرين الى الزعامات الدينية ، والقيادات العسكرية ، التي هيأها القدر لاجدادهم الاوائل ، غير واثقين بلغتهم ، متعشقين للغة غيرهم ، منقسمين ما بين متعصب للحضارة اللاتينية، ومتعصب للحضارة الانجلوساكسونية، محتكمين في تشريعاتهم الى قوانين الغرب الوضعية ، حاصرين القوانين الاسلامية الخالصة في جانب ضيق من حياتهم ، هذا هو الوضع الذي يعيش فيه العرب اليوم ، وهو وضع بالغ السوء ، يجعل من هذه المناسبة حدثا لعله ان يكون بعيد الاثر في حياة العرب والمسلمين في هذا العصر ، لا لان القرآن في حد ذاته اهل لان

يحتفل بذكرى نزوله فقط ، ولكن لان هذا الاحتفال جاء ونحن في امس الحاجة اليه ، لعله يرمم ما تداعى من كياننا ، يجمع ما تشتت من صفوفنا ، ويذكرنا بعزنا القديم ، ومجدنا التليد .

2) ان الشباب العربي اليوم ، قد فتن فتنة كبرى عن دينه ومقدساته وضعف وازعه الديني ، واصبح بفعل عوامل كثيرة خاضعة للتيارات والمذاهب الفكرية والفلسفية الهدامة ، غير مفرق بين المعرفة التي يجب الا تعرف الحدود ، وبين المحافظة على الكيان الديني الاصيل ، وما ذلك الا لان المذاهب صادفت فيه فراغا روحيا وعقائديا ، بسبب عدم تجدد الدراسات الدينية ، وعدم مسايرتها لروح العصر ، في اغلب البلاد العربية ، واكتفاء جل علماء الاسلام بالوعظ والارشاد ، وهو اسلوب اذا كان فيه من نفع ، بالنسبة الى العوام من الناس ، فهو عديم الجدوى بالنسبة للشباب الذي التقى بأحدث النظريات العلمية الحديثة، بمناهجها وطرقها الدقيقة ، الامر الذي جعله غير مستعد لتصديق كل ما يلقى اليه . هذا الفراغ الروحي الخطير ، اسرع بشبابنا العربي الى الارتماء في احضان مادية الغرب ، متشككا في دينه وعقيدته ، فلعل الاحتفال بهذه الذكرى المجيدة ان ينبهه الى واجبه كشباب مسلم ، ينتمي الى امة مسلمة ، فيذود عن دينه ، مستخدما ما توصل اليه من علوم حديثة ، وما كونه من تفكير علمي ، في دراسة هذا الدين ، والبحث عن اسرار عظمته ، ومن يدري ؟ فلربما كان من نتائج ذلك وجود تلك الحلقة المفقودة حتى اليوم . فنحن اذا نظرنا نجد ان المثقفين المسلمين قسمان : قسم له اطلاع واسع على الدين ، بتشريعاته واحكامه ومقاصده ، ولكنه غير مزود بقدر كاف من الثقافة العلمية الحديثة، الامر الذي يجعله غير قادر على الملاءمة بين المواضيع الدينية التي يتعرض لها ، وبين مناهج العلم الحديثة ، فتجيء كتاباته غير مقنعة للجيل العربي الجديد المتعلم ، ولا مفحمة لخصوم الاسلام الاجانب . وقسم نهل من ينابيع المعرفة الحديثة ، في الطب ، والاقتصاد، والعلوم الطبيعية ، والرياضيات وغيرها ، ولكنه لم يحاول حتى الان استخدام عقله العلمي في معرفة دينه ودراسته على اسس علمية صحيحة ، ولا اقصد بهذا طبعا تطبيق مناهج هذه العلوم حرفيا على الدراسات الدينية ، فمما لا شك فيه ، ان المناهج تختلف باختلاف العلوم والفنون ، وانما المراد هو ان تكون الدراسات الدينية قريبة من المناهج العلمية الحديثة ، مسترشدة بروحها لا بحرفيتها .

3) التنويه بهذا الكتاب المعجزة ، الذي قوي على البقاء ، كل هذا العديد من السنين ، بالرغم مما تعرض له المسلمون من نكبات ، وما اصابهم من نكسات ، في ادوار من تاريخهم الوسيط والحديث . وبقاء كتاب هذه العقود الطويلة من السنين يقرا ويتلى، ويدرس ويعلم للناس ، ليس بالامر السهل ولا بالهين ، وهنا يجب ان نذكر بكل اكبار واجلال ، جهود علمائنا المسلمين المتقدمين ، لما قدموه من خدمات لهذا الكتاب ، وما تناولوه من دراسات ، وما احاطوه به من عناية وتكريم ، حتى اوصلوه الينا بكل اخلاص وامانة، ولعل صنيعهم ان يكون قدوة لنا نحن مسلمي هذا العصر حتى نسلمه الى الاجيال القادمة ، كما استلمناه نحن من الاجيال الماضية ، ليكون في ذلك الضمانة الكبرى لاستمرار الشخصية الاسلامية ، على مر العصور والاجيال . فنحن بقاؤنا مرهون ببقاء كتابنا الذي هو القرآن ، لا كدول الغرب المسيحي ، والفرق بين الطائفتين ، هو اننا لا تفرقة عندنا بين شؤون الدين وشؤون الدنيا ، فالاسلام دين ونظام ودولة ، اما الغربيون المسيحيون ، فعندهم ان الدين ان هو الا علاقة العبد بربه ، اما علاقة الفرد بالدولة ، فهي القانون ، كما هو مبسط حتى في كتب الفصول الثانوية، لذلك فهم يحصرون الدين داخل الكنائس ، اما نحن فالدين دائما معنا ، اذا اخذناه على اساسه الصحيح ، وبمنهجه العام ، كان بيننا وبين انفسنا وضمائرنا ، في المصنع ، والمكتب ، في البيت ، في المدرسة ، في كل مرافق الحياة ومجالاتها . فاذا خلت حياتنا الخاصة والعامة من عنصر الدين ، لم تكن مسلمين . وهذا معنى قولنا ان بقاءنا واستمرار وجودنا كامة ، رهن ببقاء القرآن ، اذ بفضله خرجنا من طور القبيلة المتعصبة ، الى طور الامة المتحدة .

واذن فالاحتفال بمرور اربعة عشر قرنا على بدء نزول القرءان، هو في الحقيقة احتفال بمرور اربعة عشر قرنا على وجود امة القرءان، الامة الاسلامية الخالدة . وتامل معي هذا الالتحام والامتزاج بين مجموعة من البشر ، وبين كتاب سماوي ، بحيث اذا ضاع احدهما ضاع الآخر (1) واذا بقي احدهما بقي الآخر ، فهما متلازمان لا سبيل الى الفصل بينهما باية طريقة من الطرق . ولا اعلم ان هناك امة على وجه الارض ، منذ

1) هذا مع العلم بأن القرآن باق ابدا ، لان الله تكفل بحفظه ، واذن فامة القرآن باقية ابدا .

ان خلق الله البشرية الى اليوم ، كالامة المسلمة في ارتباطها بكتابها العظيم . ولا اعلم ان هناك كتابا منذ ان بدا الانسان يكتب ، ومنذ ان اخذ الرسول والانبياء يتلقون الوحي من السماء ، كالقرآن الكريم في ارتباطه بالامة الاسلامية ، واقترن مصيره بمصيرها ، شيء جديد في تاريخ الاديان ، وتاريخ الامم ، وتاريخ الكتب. لذلك فان هذه الامة هامت بكتابها وشغفها حبا ، فعلماؤها لم يتركوا منه كلمة الا وقفوا عندها متأملين مستفيدين الدروس والعبر ، وشعراؤها وادباؤها اقتبسوا منه ما يحلي بيانهم ، ويقوي بلاغتهم ، وفنانوها ابدعوا في نقش آياته على جدران المساجد والقصور ، وفي تمويهها بالذهب ، والتفنن في خطوطها واعطائها اشكالا هندسية عجيبة الاوضاع ، حتى عدت من روائع الفن الاسلامي الجميل ، وخطباؤها اتخذوا من منطقه حجة ، ومن بيانه فصاحة ، ومن احكامه حكمة ، وحكماؤها استقوا حكمتهم من مغازيه ، وتاملاتهم من اسرار فلسفته ، وفلاسفتها وفقوا بين لطائفه واشاراته ، وبين ما انتهى اليهم من فلسفة العالم القديم ، وقادتها العسكريون خاطبوا جنودهم بلسانه وقووا عزائمهم بكلمه ، وشدوا من ازرهم بأوامره ونواهيه ، ترنم به مغنيها ، وتفنن في تلاوته قراؤها ، وكان سؤددا لاحيائها ، ورحمة لامواتها ، وشفاء لمريضها ، واملا ليائسها ، وهداية لحائرها ، وقوة لضعيفها ، وردعا لقويها ، وعلما لجاهلها ، وغصة لعدوها . واين ما قلناه مما استقبلت به امة القرآن كتابها من مظاهر الحفاوة والتكريم ؟ وما احتفال هذه الامة بمرور اربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن ، الا اسلوب من اساليب الاهتمام به ، والتعبير عن مشاعرها نحوه ومن اجل الاعتراف له بالجميل ، لانه اساس وجودها ، ومصدر حضارتها ، وصلتها بالسماء على مدى السنين .

وليست دواعي الاحتفال منحصرة فيما قدمناه، فهناك دواعي اخرى لها ايضا قيمتها ووجاهتها ، مثل تجديد الشعور الديني الذي ربما يكون قد اصابه شيء من فتور ، بسبب مغريات الحضارة الحديثة ، ومثل تنبيه الاباء والامهات الى ما يجب عليهم ان ياخذوا به ابناءهم من تربية دينية ، من شانها ان تكون منهم مسلمين متمسكين بعقيدتهم ، ومثل اشعار الاجانب من اعداء العرب والمسلمين ، بانه ما زلنا اقوياء بعقيدتنا وشخصيتنا وكياننا الديني ، وزيادة احترام الاجانب الاصدقاء لنا ، اذ يروننا مستقلين بمذهبنا في الحياة ، بارزين بفلسفتنا في الحياة والمجتمع ، ومثل توجيه العناية الى الزيادة في الاهتمام بالقرآن ، بتدارسه وشرحه ، والرد على خصومه ، والعمل على انتشار تعاليمه في الاوساط الامية التي تتكون منها الاغلبية من سكان العالم العربي ، ومثل الالحاح على العودة دائما الى تاريخ الاسلام ، لاخذ القدوة من رجاله وقادته العظماء ، في السياسة والعسكرية والعلم والادارة والتضحية والفداء ، مع تامل الواقع الاسلامي عند المسلمين الاوائل ، الذين كانوا من خلق القرآن ، لنرى كيف كانوا يترجمون تعاليم الكتاب الكريم الى اعمال وتصرفات ، تجعل الايمان به لا يصدر عن الحياة العقلية الاسلامية وحدها ، ولكن يصدر ايضا عن الواقع العلمي الذي يحياه الناس ، الى غير ذلك من الاسباب والعوامل التي يستحق كل واحد منها ان يفرد له بحث خاص .

هذا وان الاحتفال بذكرى بدء نزول القرءان ، لنرجو ان يكون من نتائجه ازدياد قوة الرابطة الدينية التي تربط العرب المسلمين ، بالمسلمين من غير العرب، حتى ليعيدوا تلك الايام المجيدة ، التي كانوا فيها على عهد الرشيد والمامون ، مواطنين في دولة اسلامية واحدة ، ترفرف عليها راية واحدة ، ويجمعها هدف واحد ، متوزعين على مختلف الميادين ، فهم يتعاونون على العلم ، وعلى الفن ، وعلى الجهاد ، وعلى الفلسفة ، وعلى كل نواحي نشاطهم ، اذا حدث عالم تركي او فارسي ، اجتمع حوله العرب وغير العرب ، ياخذون من علمه ومعرفته ، واذا مات عالم عربي مشى وراء نعشه العرب وغير العرب ، واذا الف عالم كتابا تلقفه الجميع من العرب وغير العرب ، بالرغم من وجود العصبية للجنس ، في بعض الاوساط التي عرفت بضيق الافق . نرجو ان تكون هذه المناسبة بعثا لذلك الاخاء القديم ، خصوصا والمسلمون اليوم قد اصيبوا في اعز مقدساتهم ، ومسوا في عاطفتهم الدينية التي لا تعترف بالحدود الجغرافية ، ولا بالانظمة السياسية ، ولا بالمصالح الاقتصادية ، ولا بالاختلافات الجنسية . فالكل لا يذكر الا انه مسلم ومسلم فقط ، عند ما يصاب في شرفه الديني .

ولو تاملنا لوجدنا ان الشعوب الاسلامية الموسومة بانها غير عربية ، بيننا وبينها اواصر قرابة ، وروابط نسب ، لاننا واياهم منحدرون من تلك المجتمعات الاسلامية التي تكونت بعد الفتوح ، حيث كان العربي والفارسي والتركي والهندي واليوناني والبربري ، تعقد بينهم روابط الصهر والولاء ، وتبادل العادات وادوات الحضارة ، وتمرج بينهم روابط الجوار

والثقافة المشتركة ، والنظم المتبادلة ، ويهيمن على الكل ظل الاسلام الممدودة ، الامر الذي استحال فيه على الدماء ، أن تبقى عربية خالصة ، او فارسية خالصة، او تركية خالصة ، اذا انها امتزجت وتكون من امتزاجها اجيال جديدة لا هي بالعربية الصرفة ، ولا بالفارسية الصرفة ، ولا بالتركية الصرفة ، وانما هي مزيج من دماء وعروق وسلالات شديدة الاختلاف ، ولكنها في الوقت نفسه قوية الالتحام والالتئام ، وعلى هـذا فالمصري او العراقي له نسب فى ايران او الهند او تركيا ، والايراني او الهندي او التركي له نسب فى مصر والعراق ، وكذا قل بالنسبة لكل مواطن فى اية دولة اسلامية او عربية ، بل اني لاذهب الى ابعد من ذلك ، فاقول ان للصدفة اثرا بعيدا فى انتساب التركي الى تركيا ، والفارسي الى ايران ، والهندي الى باكستان او الهند ، وكذا قل بالنسبة الى (العربي) الذي يقطن بلدا عربيا حيثما كان بحيث لو قدر لمن ندعوه (فارسيا) ان ينحدر من اجداد سكنوا المغرب او العراق ، ابان الامبراطورية الاسلامية الكبرى ، لكان الان (مغربيا) او (عراقيا) يعد نفسه غير فارسي ، ولكن عربيا مغربيا او عربيا عراقيا ، ولو قدر للسوري او اللبناني ان كان اجداده قد سكنوا بلاد (ايران) على عهد تلك الامبراطورية ، لكان الان فارسيا ايرانيا ، لا عربيا سوريا او لبنانيا ، وهكذا دواليك . واذا شئت التأكد من هذه الحقيقة ، فما عليك الا ان تنظر الى مقدار التشابه الموجود بين المجتمعات الاسلامية عربية كانت او غير عربية ، مما يدل على التقائها فى أصل واحد ، هو ذلك المجتمع الاسلامي الكبير الذي امتدت حدوده فى اراضي واسعة جدا وتشمل عددا كبيرا من العروق والاجناس . وكانت هذه الروابط التاريخية الاصيلة ، كفيلة بان توحد بين المسلمين على اختلاف اوطانهم ، لولا غلبة القوميات على تلك الروابط ، ولكن ها هو الرباط الديني موجود ، لم تستطع القوميات ابطاله والقضاء عليه ، وهذه مناسبة الاحتفال بمرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن ، تاتي فى وقتها المناسب، فلنجعلها فرصة لتقوية ذلك الرباط ، واتخاذه عمدتنا فى التآلف من اجل تحرير الاماكن المقدسة ، واشعار العالم اجمع ، بان هناك رابطة اسلامية ، جامعة اسلامية تضم نصف مليار من البشر ، له وزنه الثقيل فى ميزان السياسة الدولية ، لاعتبارات مختلفة ، زيادة على الكثرة العددية ، منها كون المسلمين يمثلون اغلب قارات الدنيا ، ويسيطرون على بقاع جغرافية كانت اهم مناطق العالم القديم والوسيط ، وهي الان مناطق استراتيجية ، هامة بالنسبة للعالم الحديث . وجدير بنا ان نعرف ان تقوية ذلك الرباط الديني ، يعتمد فيها لا على جهود العرب المسلمين وحدهم ، ولكن حتى على جهود العلماء المسلمين الموجودين بالدول الاسلامية بحيث يقومون بدورهم فى الدعوة الى الوحدة الاسلامية بين مواطنيهم ، والعمل على نشر تعاليم الاسلام بينهم، ويقتضينا الحق ان نعترف بما يبذله بعض علماء المسلمين فى تلك الديار من جهود فى هـذا السبيل ، واخص بالذكر العلامة ابا الاعلى المودودي ، امير الجماعة الاسلامية بباكستان . ولكن ما اروع ان يقتدى به علماء الاسلام الاخرون ، الموجودون بمختلف الدول الاسلامية. كما ان تقوية ذلك الرباط لا يمكن ان تتحقق بالاعتماد على الصدفة والاتكال على الضمائر وحدها ، بل لابد من تعزيز ذلك بخطط منظمة قصد الاكثار من عقد المؤتمرات الاسلامية ، وتبادل البعثات العلمية ، وتبادل الكتب والصحف والمجلات ، وتنسيق السياسة الخارجية على المستوى الحكومي ، والتعاون فى ميادين الاقتصاد والادارة والتكوين المهني والتقني ، وغير ذلك من الوان النشاط لان ديننا ليس عقيدة فقط ، ولكنه ايضا سياسة واقتصاد وعلم وعمران ودين ودنيا ونظام وتشريع . هـذا علاوة على كون الروابط الاقتصادية والعلمية من شأنها ان تعزز الرابطة الدينية وتزيدها متانة .

وعسى ان يكون من نتائج الاحتفال بذكرى مرور اربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن ، ان يعاد تفسير القرآن وفق المناهج الحديثة ، اذ ان التفاسير الموجودة لحد الان مكتوبة بطرق تخدم اغراض النحو والبلاغة واللغة والفقه ، واذا كنا معترفين بما لهذه الالوان من التفسير من اهمية لا تنكر ، فاننا تواقون فى الوقت نفسه الى تفسير جديد ، يناسب مسلم هـذا العصر الذي قد يكون مشتغلا بفرع آخر من فروع المعرفة ، قد يكون طبيبا او مهندسا او عالما رياضيا ، ويريد الاطلاع على دينه ، فيجد فى تلك التفاسير عسرا وصعوبة بما يصدانه عما هو بصدده ، الامر الذي يتطلب وضع تفاسير خالية مما هو من شؤون العلماء المختصين ، ومقصورة على ما يجب ان يعرفه كل مسلم، مهما كانت ناحية اختصاصه ، وبطريقة اقرب الى مناهج الدرس الحديثة . ونامل من وراء هذا التبسيط فى تفسير القرآن الا يبقى (الدين) من اختصاص قوم دون آخرين ، فان هذا لا يخدم قضية القرآن فى شيء، اذا لم نقل انه يضر بها ، وانما يصبح الاشتغال به من حق الجميع ، بحيث لا يكون هناك احتكار للدين ولا

استشار به ؛ الامر الذي يهيء للطبيب والمهندس والعامل والتاجر والفلاح وصاحب الحرفة اليدوية ، ان يعتبروا انفسهم اعضاء فى اسرة الدين ، يدرسوله ، ويتفهمونه ، ويلمون بتعاليمه . وقد كان اجدادنا فى عهد الحضارة الاسلامية الزاهرة ، كلهم يعتبرون انفسهم رجال دين ، ولم يكن الدين عندهم وقفا على فريق دون فريق ، مما يدل على ذلك ان كل مسلم كيفما كان مستواه الاجتماعي والعلمي كان يتتبع المناقشات التي تجري بين العلماء ، وقد يدلي برايه فيها ، حتى ان الجاحظ شكا من كون العوام فى عصره ، يتحدثون كثيرا عن مسائل علم الكلام . ومما يدل على ذلك ايضا ، ان كل مسلم تقريبا كان يتخذ موقفه من المذاهب الفقهية المعروفة ، فاما ان يكون مالكيا او حنفيا او شافعيا او حنبليا حسب المذهب الذي ارتضاه لنفسه ، وقد يكون فى البلد الاسلامي الواحد قضاة يمثلون مختلف هذه المذاهب ، ليختصم كل مسلم الى القاضي الممثل لمذهبه . وكم نود اليوم ان يعود الدين الى انطلاقته وتفتحه ، وهيمنته على حياة الافراد والاستئثار باهتمامهم ، كما كان الشان فى القديم ، واعتقد ان اعادة تفسير القرآن الكريم على النحو المشار اليه ، من شانه ان يساعد على خدمة هذا الغرض .

وعسى ان يكون من نتائج الاحتفال بهذه الذكرى، الا يبقى الاسلام موضوعا للدراسة ، ومادة للوعظ والارشاد ، ومجالا للتامل العقلي فقط ، وانما يتحول كل ذلك الى واقع عملي ، يتشخص فى الافعال والتصرفات وقواعد السلوك ، ويؤثر فى التربية بمعناها العام ، فى التربية المنزلية ، والمدرسية ، والعلمية ، والفنية والسياسية ، والاجتماعية ، لتخريج جيل مسلم ، يتجسم اسلامه فى شخصيته ، لا فى مقدار ما يعرفه عن الاسلام فقط ، اذ النموذج الانساني للمسلم، هو الوسيلة الى اعطاء الواقع الاسلامي مفهومه الصحيح ، وهو التشخيص العملي لمعجزة القرآن ، هكذا كان المسلمون الاولون ، تشخيصا عمليا لمبادىء الاسلام ، وتعاليم القرآن ، فهناك المسلم العسكري ، والمسلم السياسي ، والمسلم الفنان والمسلم الطبيب ، والمسلم الفيلسوف ، كلهم مسلمون ، وكلهم نماذج لما يستطيع الاسلام والقرآن ان يصنعاه بالانسان ، عند ما يدخل الى مصنعهما الذي يخرج عظماء الرجال .

واعتقد ان من جملة الاسباب التي اثرت على عقيدة الجيل العربي الجديد ، وشككته فى قيمة دينية، كون النماذج المسلمة المثلى التي تنتصب قدوة حسنى، قد اصبحت نادرة ، فليس يكفي فى المسلم ان يعرف دينه ويتقنه فقها وعلما ودراسة ، بل لابد ان يكون في خلقه وسلوكه ، وسيرته فى اهله ، وسيرته فى الناس ، ونظرته الى الحياة وتقييمه للاشياء ، شخصية اسلامية مستكملة لعناصرها الاساسية .

ولا شيء يساعد على ايجاد الشخصية الاسلامية غير التربية الدينية التي تبدأ منذ النشأة الاولى ، وتستمر فى جميع ادوار العمر ، اما ترك الجيل ينشأ على عادات غير اسلامية ، وفى جو غير اسلامي ، حتى اذا شب عن الطوق ، نحاول رده الى المحجة البيضاء ، عن طريق الوعظ والتقريع ، فاعتقد ان الرد سيكون على عكس ما كان منتظرا ، لان من شب على شيء شاب عليه .

ما ذا اقول ؟ لقد مرت علينا ــ نحن المسلمين ــ سنون وسنون ، ونحن نرجو ونرجو ، ولكن ماذا بعد الرجاء ؟ ان باب الرجاء واسع ، فلك ان ترجو ما تشاء، ولكن الاكتفاء بالرجاء سوف لا يكون من شانه ان يحقق لنا ما نرجوه ونتمناه ، فما احوجنا الى شيء من الجدية فى امورنا دينية كانت او غير دينية ، فكم رجونا قيام جامعة اسلامية ولكن الجامعة لم تزل حلما يداعب بعض الناس ، وكم رجونا وحدة عربية عامة ، او وحدة عربية اقليمية على الاقل ، ولكن الوحدة لم تتحقق ، سواء بمعناها الواسع او معناها الضيق ، وكم رجونا ورجونا ، فمتى يتحقق البعض مما نرجوه ويصبح ماثلا للعيان ؟

ونعود الى الذكرى المجيدة الخالدة ، لننظر اليها من زاوية اخرى ، وهي اننا نودها ان تكون مناسبة نحاسب فيها نفوسنا عما قدمناه لهذا الكتاب من خدمات ، غير مكتفين بالافتخار بما فعله القدماء من اجدادنا ، فاولئك ادوا ما عليهم من واجب ومضوا ، ولن يعفينا ذلك من قيامنا بواجبنا فى هذا المضمار ، لان الحياة العقلية للامة فى تطور مستمر ، وكل جيل يمثل منها مرحلة من مراحل تطورها . فما ذا يسجل علينا التاريخ فى هذه المرحلة التي نجتازها الان ؟ ليحاسب كل واحد منا نفسه هكذا : هل اكتفينا بترديد ما كتبه السابقون عن القرآن حتى الان ؟ او تقدمنا باضافتنا الخاصة التي تزيد الكتاب انتشارا وتمكينا له فى الارض ، وتزيده شرحا لبعض جوانبه التي اغفلها الدارسون وهل لاضافتنا طابع الابتكار والاصالة ، او هي مجرد تلخيص لكلام الاقدمين ، وتعليق عليه وشرحه فقط ؟ وماذا صنعنا من اجل ايصال هذا الكتاب الى الانسان خارج نطاق العالم العربي

الاسلامي ؟ هل بلغناه دعوة القرآن ، ام تركناه جاهلا بها ، او عارفا بها عن طريق خصومها التقليديين والجدد ؟ وهل نحن امة القرآن سائرون على هديه ، محققون لمقاصده ، مترسمون خطاه ، او نحن بعداء عنه عملا وسلوكا ومعاملة ، قريبون منه قولا وحديثا ؟ الى غير ذلك من الاسئلة التي يجب ان تكون مدار حسابنا لانفسنا في هذه المناسبة . فبغير هذا الحساب تفقد الذكرى كثيرا من فعاليتها وتكون مجرد مظاهر وشكليات .

وقوفنا على راس المائة الرابعة بعد الالف لبدء نزول القرآن يعني فيما يعنيه تامل امة القرآن فيما صنعته لتكون جديرة بهذا الكتاب الذي شرفها الله به، هل كانت في مستواه ، في مستوى شرائعه وقوانينه واحكامه ، وهل حافظت على ما يريده لاتباعه من عزة جانب ، وظفر بالخصوم ، وسيطرة على الطبيعة ، وسيادة في الارض ؟ ان الله تعالى يراقبنا من فوق سبع سموات ، ويرى ما صنعته بالقرآن امة القرآن ، فواجبنا ان نحاسب انفسنا في هذا الصدد ، وان نحاسبها بصفتنا افرادا وجماعات ، مجتمعا ودولة ، شعوبا وامما ، حسابا مؤديا الى احصاء الحسنات والسيئات ، حتى نفهم اخطاءنا ونقوم اعوجاجنا ، ونكون امة القرآن كما ارادها القرآن ان تكون ، وحساب النفس هو ارقى صور الشجاعة الادبية ، ودليل استعداد الامة دولة وافرادا وجماعات للنهوض ، بل اني لاذهب الى ابعد من ذلك ، فارى ان مقياس المسلم الصحيح الايمان ، يمكن في حسابه لنفسه ، على ضوء تعاليم دينه ، ويجب ان يكون هذا الحساب يوميا ، لا ينتهي بانتهاء الاحتفال بهذه الذكرى ، بحيث نتخذ من هذه المناسبة مدرسة نتعلم فيها محاسبة النفس واخذها بالشدة المعقولة ، لنقد تصرفاتها واهوائها ، وقياس مدى بعدها عن الكتاب او قربها منه ، فيما صنعت وما اشتهت ، وما املت

ونودها ان تكون مناسبة لاظهار قوتنا العسكرية، وكفاءتنا العلمية ، وسيادتنا في اوطاننا ، وعلى ترابنا ، يهابنا العدو ، ويحترمنا الصديق ، ويطمع من ليس منا ان ينتسب الينا ، ويعتز من هو منا ان شرف بالانتساب الينا ، نخورا بوطنيته ، فالناس جميعا يحبون دين الاقوياء ، ويكرهون دين الضعفاء ، بل ان الاقوياء ولو لم يكن لهم دين ، تهيىء لهم قوتهم مكانا محترما بين الناس ، في حين ان الضعفاء ولو كان لهم دين قويم ، ينفر منهم الناس ، فلنكن اقوياء بديننا ، وبقوتنا العسكرية ، وباقتصادنا وصناعتنا وفلاحتنا ، وليكن اهتمامنا بتكوين المسلم ، من نفس اهتمامنا بتكوين الطبيب والاستاذ والجندي والعامل . فاننا ان فعلنا ذلك ، كنا كما قال الله تعالى عنا خير امة اخرجت للناس ، وكنا جديرين بان نكون امة القرءان ، فالقرءان لا يحب الهوان لاتباعه ، وانما يحب لهم العزة والكرامة والقوة والسيادة .

ونودها ان تكون مناسبة للزيادة في نشر العلم ، وتعميمه بين الناس ، امتثالا لاوامر القرآن الذي يدعو الى العلم ويقدس العقل ، ويرفع مقام العلماء . والتعليم اذا انتشر بلغة القرآن ، كان ذلك خير معوان على انتشاره وقراءته ومدارسته ، فالامية ما زالت واسعة الانتشار في جميع البلاد العربية ، بالرغم من الجهود التي بذلت . ويكفي القاء نظرة على الارقام التالية ، لتتضح لنا النسبة المئوية لعدد الاميين في البلاد العربية .

أسماء الدول		الذكور وحدهم	الاناث وحدهن	الذكور والاناث معا
الاردن	(1961)	49,9	84,8	67,6
تونس	(1956)	63,6	73,9	68,7
الجزائر	(1964)	73,0	85,0	80,0
السودان	(1956)	77,1	96,0	86,5
العراق	(1957)	72,2	91,3	81,2
العربية السعودية	(1962)	—	—	99,0
سورية	(1962)	41,3	80,7	60,8
العربية المتحدة	(1960)	56,5	83,5	70,0
الكويت	(1961)	40,9	60,3	47,1
لبنان	(1962)	—	—	13,9
ليبيا	(1954)	72,1	90,1	81,0
المغرب	(1960)	80,1	97,6	89,0

هذه هي النسبة المئوية لعدد الاميين في البلاد العربية ، نقلا عن كتاب (مستقبل التربية في العالم العربي) للدكتور جميل صليبا ، وربما تكون قد نقصت في السنوات الاخيرة ، نظرا لوجود العزم الاكيد على محاربة الامية في العالم العربي ، ولكن ما اظن انها نقصت كثيرا ، لضعف الوسائل من جهة ، ولازدياد المواليد بكيفية تصاعدية من جهة اخرى ، فاذا كانت الامية منتشرة في العالم العربي بهذا الشكل الفظيع ، فكيف يتأتى للتعاليم القرآنية المبنية على اساس العلم، ان تجد سبيلها الى الجماهير العربية ، فتقف على حقائق دينها من ينابيعها الاصيلة ؟ واذن لابد من ان نتخذ من الاحتفال بهذه الذكرى دافعا يحملنا على تعميم العلم وتيسيره ، لان ذلك احسن وسيلة لضمان استعداد تلك الجماهير لتفهم مغازي القرآن وتدارسه، ولابد ان يكون تعميم العلم باللغة العربية التي هي لغة القرآن ، ومفتاح اسراره واحكامه وبيانه ، فاذا تقهقرت العربية عجزت الاجيال العربية التي لم تاخذ بنصيب وافر من لغتها القومية عن فهم القرآن وقراءته وتدبره، وتلك كارثة نسأل الله أن يجنبنا اياها .

ولو كان الاحتفال بهذه المناسبة في عصر آخر غير هذا العصر ، لكان لها مغزى غير المغزى الذي لها اليوم ، فحدث عظيم أن يحتفل بذكرى نزول القران في عالم اليوم ، العالم المادي الملحد ، الذي اختل فيه ميزان الانسانية ، فطغت المادة على الروح ، وارتفع ضجيج الآلة على اصوات المؤذنين ونواقيس الكنائس ، واصبح المروق من الدين موضة العصر ، في الفكر والاجتماع والفلسفة ، فليس مفكرا ولا فيلسوفا من لم يجاهر بعدائه للدين ، وليس حرا اجتماعيا من لم يعلنها حربا على الدين ، وكان من نتائج ذلك ان زحزح الدين عن مكانه الرفيع ، لتحل محله اوزاع من الفكر الضال ، واخلاط من الشكوك الهدامة ، فانعدمت الراحة النفسية ، والصفاء الروحي ، والاستقرار العقائدي ، وكثرت من جراء ذلك الامراض العقلية ، والاضطرابات العصبية ، وعمت حوادث الانتحار ، في هذا العالم المادي الملحد المرتد ، ترتفع اصوات ثلة من المسلمين ، وهنا في المغرب بالذات ، منادية بضرورة الاحتفال بهذه المناسبة ، مناسبة مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم ، فكانت هذه الاصوات كرد فعل ضد المادية الملحدة ، المهيمنة على اوضاع العصر ، ولهذا مغزاه الكبير ، ذلك ان البلاد العربية يرتفع منها الان صوت ، هو قبس من ذلك الصوت الذي ارتفع في الجزيرة العربية منذ اربعة عشر قرنا ، داعيا الى الله ، مهاجما الجاهلية المتعصبة البغيضة ، وما جاهلية القرن العشرين الا امتداد لتلك الجاهلية القديمة ، التي جاء القران لهدمها والقضاء عليها ، فما اشبه الليلة بالبارحة ! !

وكم اتمنى ان يسفر الاحتفال بهذه المناسبة ، عن وضع خطة للتوجه الى الاجانب ؛ قصد تعريفهم بكتابنا، وباحكامه وتعاليمه ، باللغات التي يقراون بها ويكتبون طبعا ، حتى يبلغهم ذلك الصوت ، الذي يؤكد مرة اخرى روحانية الشرق ، وسبقه الى نشر نور الهداية.

فهل انتهى عصر تبليغ الدعوة ؟ انه لم ينته ولن ينتهي أبدا ، ما دام على الارض انسان واحد ضال ، وعلى من يقع واجب تبليغ هذه الدعوة ؟ يقع على اتباع القرآن طبعا ، ولكن ماذا نرى في هذا المضمار ؟ تستطيع ان تقول وانت مطمئن ، وبملء فيك : لا شيء تقريبا . فالعالم خارج البلاد العربية والاسلامية يجهل حقيقة الاسلام ، وحقيقة القرآن ، لان المسلمين مفرطون في واجبهم كمبشرين بالاسلام ، ومبلغين لدعوة القرآن ، التي يجب استمرار تبليغها دائما وابدا وبدون انقطاع، على حين ان الغرب جاء في نشر دينه ، رغم انه اصبح لا يومن بشيء اسمه الدين ، وانما يريد استغلاله لمقاومة الاسلام ، ولاغراض سياسية واقتصادية ، فهو كافر به في بلده ، مومن به في البلاد التي يطمع في ثرواتها واراضيها . (1)

المسلمون معتمدون على ان الاسلام هو دين الحق ودين الفطرة ، وهذا لا شك فيه ، ولكن الحق يحتاج دائما الى شرحه والتعريف به ، والا احاط به الباطل ، وطاوله وصاوله ، لابسا قناع الحق ، ومتسترا تحته . فاذا لم يكن من مقاصد هذه الذكرى العمل على تبليغ دعوة القرآن الى العالم المادي الملحد ، على يد العلماء المسلمين ، المتضلعين في اللغات الاجنبية ، كانت الذكرى مفتقرة الى عنصر هام من عناصرها الايجابية. وغير خاف ان الدعوة الى الاسلام والقرآن ، يجب ان تلبس لكل عصر لباسه ، وان تتخذ من الوسائل ما يتناسب واوضاعه واحواله العامة ، ووسائل العصر الذي نعيش فيه ، هي الكتب والصحف والمجلات والمحاضرات والاذاعة والتلفزة والبعثات الثقافية المتجولة ، والمعارض الفنية والثقافية ، وتبادل الاساتذة بين الجامعات ، مع ما يحتاج اليه ذلك من

1) راجع (عيون البصائر) للمرحوم البشير الابراهيمي .

رصد الميزانيات الضخمة ، المتناسبة مع ما تتطلبه هذه الوسائل من نفقات .

وهذا يعني ان ذكرى نزول القرآن ، يجب ان تكون نقطة تحول في حياة المسلمين ، داخل اوطانهم ، حيث يعطون لحياتهم معناها الاسلامي الصحيح ، وفي شعورهم بواجبهم نحو تبليغ كتابهم الى الاجانب الذين لم تصلهم الدعوة .

وانه لمن المخجل حقا ، ان ياتي اجنبي ويطلب منا أن نقدم اليه كتابا يشرح حقيقة الاسلام بطريقة تناسبه كانسان اجنبي ، من المفروض فيه انه لا يدين بدين القرآن ، ويحاول معرفته على حقيقته ، فلا نستطيع اجابته الى طلبه ، لان المكتبة العربية خالية تماما من هذا النوع من الكتب .

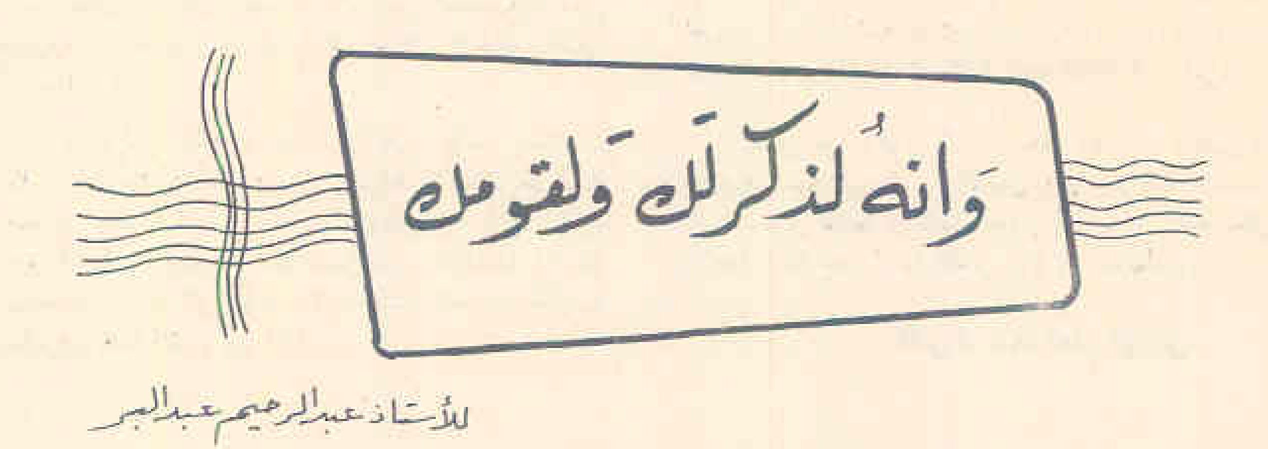
فأين هم علماؤنا المختصون بهذه الناحية ، كما اختص مجموعة من الاجانب بحضارة الاسلام ، وهم الذين يدعون بعلماء الاستشراق ؟ واين هو المعهد العربي المخصص لتكوين الدعاة المسلمين ؟ واين توجد المكتبة التي تجمع المصادر والمؤلفات الموضوعة لهذا الغرض ؟ وكم بذلت الحكومة العربية من جهود ، وكم خصصت من اعتمادات مالية لهذه الغاية ؟ لا شيء .

اتمنى مرة اخرى الا تمر هذه الذكرى ، دون ان نستفيد منها على الوجه الاكمل ، وبارك الله للامة الاسلامية في دينها وكتابها العظيم الذي قال الله تعالى في حقه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

فاس : عبد العلي الوزاني

« لنحمد الله تعالى بادىء ذي بدء حيث هدانا الى التقوى ، وحيث أتاح لابصارنا الزائلة أن تعبده في هذا اليوم الذي اقتدينا فيه باجدادنا وبصحابة رسول الله (ص) فبنينا المساجد وشيدنا بيوت الله ، واعلينا كلمة الله وتعاليمه » .

جلالة الحسن الثاني



للأستاذ عبد الرحيم عبد البر

ذكرى طيبة لنزول القرآن بعد مرور اربعة عشر قرنا .

أعياد متجددة دائمة ، وحياة سعيدة حافلة بالخيرات .

وشباب دائم لا شيخوخة له ولا هرم « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

— والحق يحتاج الى رجال وقوة :

« رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة »

وقوة لحمل الامانة والقيام بأعبائها ليحققوا وعد الله .

يتلون كتاب الله ويعملون به ويقومون بأمر الدين خير قيام .

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله » .

مع التلاوة عمل :

« ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور - ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور » .

ترى مظاهر هذه العناية بالقرآن في كل البلاد الاسلامية :

حفظ ودراسة ، وتعبد وتلاوة ، وعمل بما فيه رجاء سعادة الدنيا والآخرة ، ومعاهد اسلامية ... ورجال تخصصوا في التربية الاسلامية وبيان مناهج الفضيلة .. ومعلمون يغرسون هذه التعاليم في الشباب الناهض ويشرحون كيفية السير على الصراط المستقيم الذي شرعه الله .

— فالعاملون لنهضة البلاد يفسرون القرآن اعمالا نافعة ايجابية ناهضة .

— والدارسون في المعاهد والمدارس يفسرونه حججا واضحة وبراهين ساطعة .

— والجنود يحفظون الامن تحقيقا لرسالة القرآن الذي جاء بالامن والايمان.

— والرؤساء يبذلون الجهد لحسن السير ورفع المستوى الى كل خير .

— وهكذا تتحقق البشرى بحفظ القرآن تلاوة وعملا ودستورا للحياة

ويتحقق وعد الرسول صلى الله عليه وسلم كما رواه الشيخان عن ثوبان قال : قال صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون .

— وفى رواية : لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس .

القـــرآن نـــــور :

1 — قال تعالى : (سورة النساء) « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا »

2 — قال تعالى : (سورة المائدة) « قد جاءكم نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » .

3 — قال تعالى (سورة الشورى) « وكذلك اوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا »

4 — قال تعالى (سورة التغابن) « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا ، والله بما تعملون خبير »

❋

فالذين آمنوا بالله ورسوله واتبعوا النور الذي انزل معه . واتبعوا البصائر الواضحة واخذوه علما وعملا اولئك هم المفلحون .

هو نور البصيرة ، نور الهداية ، نور العلم والعمل ، نور يهدي من اتبعه

الا يا ليت قومي يعلمون ! يستورد بعض المسلمين نور التشريع من الخارج ونورهم بين ايديهم : نور جربه السلف الصالح ففتحوا به البلاد واسعدوا به الانسانية . وملكوا الارض شرقا وغربا للعلم والهداية والعدالة .

— اخذ غيرنا هذا النور عملا وغيروا العنوان وقالوا هذا علمنا ..

ونحن اخذنا العنوان وعطلنا ما فى الكتاب .. وعجزنا عن تحويل القرآن الى اعمال .

— استعد غيرنا بالقوة : والقوة آية من آياتنا .. نتلوها ولا نعمل بها .

— سلوكهم غير دينهم .. وسلوكنا غير ديننا .. فكيف نتخبط والنور أمامنا ؟

— ما فائدة الطاقة لمن لا يستغلها ؟ وما فائدة النور لمن لا يتبع هداه ؟

— نعوذ بالله من وقت يكون فيه المصحف غريبا ، احكام معطلة وجلد مذهب ، وتحفة للاقتناء ودعوى بلا دليل ، ونسبة بلا برهان .

❋

رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

ان اعداء القرآن منذ نزل الى اليوم يخشون بأسه وصولته . ويخافون تاثيره وعمله أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحروب الجائحة . لان سلطان الجيوش والحروب لا يعدو الاجسام والاشباح أما سلطان القرآن فقد امتد الى النفوس الحرة وكرائم الارواح ، ولذلك سماه الله روحا .

فكل قوى الاعداء موجهة لتحول بيننا وبين العمل بالقرآن . فشغلوا برامج التعليم بالمادة ولا ينسبونها لخالقها ، وحاولوا اقناعنا بأن يكون القرآن تلاوةوتمتمة وتهويما وانقطاعا عن واقع الحياة .. وجذبا واستغراقا، اخذوا اللب لانفسهم عملاوانتاجا والهونا بالقشور جدالا وسفسطة واحتجاجا ، ان الحق يحتاج الى رجال ينصرون الحق فيرفع الحق شأنهم ، وينصرون الله فينصرهم ويثبت اقدامهم ، وبعد النصر لا خلاف على اسلاب ولا تطاحن على حكم ولا خروج على الجماعة فان مسؤولية الحكم تكليف قبل أن تكون تشريفا . قال تعالى فى سورة الحج « الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

وقال تعالى فى سورة النور «وعد الله الذينآمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذيارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا .. »

انـــواع الاصـــلاح :

جاء القرآن وفى العرب صفات حميدة فقواها ونماها وعدلها وهذبها وازاح عنهم علل الباطل وحمية الجاهلية ، وحول العصبية المذمومة الى عصبية فى الحق وحمية لنصرة الدين وتحقيق رسالة القرآن فصار كما قال الرسول : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا ان الامانة نزلت فى جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة « فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » .

1 ــ جاء القرآن **باصلاح العقائد** ، الوجدانيــــة والمسؤولية وجزاء يوم الدين « مالك يوم الدين » « ان الدين لواقع » .

2 ــ **اصلاح العبادات** عن طريق تزكية النفــوس وتقوية الارادة « قد افلح من زكاها » ــ « قد أفلح من تزكى » .

3 ــ **اصلاح الاخلاق** عن طريق القصد والاعتدال لا افراط ولا تفريط « وكان بين ذلك قواما » « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » .

4 ــ **الاصلاح المالي** عن طريق الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع .. بلوجوب الاستثمار والسعي وكفالة العاجزين .. وتشجيع الكسب المشروع .

5 ــ **الاصلاح النسائي** عن طريق حماية المــراة واحترامها بقانون الحق والواجب « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة »

6 ــ **الاصلاح الحربي** عن طريق تهذيب الحــرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الانسانية فى مبدئها وغايتها وايثار السلم عليها حتى تكون الحرب آخــر العلاج فى نطاق لابد مما ليس منه بد .. وآخر الدواء الكي .

7 ــ **الاصلاح الاجتماعي** عن طريق توحيد الصفوف « ان هذه امتكم أمة واحدة » فلا عصبية الا فى الحق ، فقد محا الاسلام العصبيات الضالة وجعل الاخــاء فى الدين اقوى من اخاء النسب والدم . وكون امة يؤلف بينها المبدا ولا تفرقها الحدود الاقليمية ولا الفواصل الجغرافية ، ولا الاختيارات السياسية فى الحكم : ملكية او جمهورية ، ما دام الهدف هو العدالة والتكافل ونصرة الحق ــ الفرد للمجموع من غير أن يفنى فيه . والمجموع للفرد بتعاون .. فى حدود لا ضرر ولا ضرار وللشعب عدل ورحمة ومواساة ومحبة ، واولو الامر من الشعب لخدمة الشعب ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وبعد ذلك السمع والطاعة حق على كل امرىء مسلم .. « وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة اولئك اصحاب الميمنة »

علـــوم القــــرآن ومعارفـــــه

القرآن يخاطب العقل والقلب معا . ويجمــع الحق والجمال معا . يرضي العقل والعاطفة ، فهــو مزيج حلو سائغ يخفف على النفوس تجرع الادلــــة العقلية ، ويرفه عن العقل باللفتات العاطفية ، ويوجه العقول والعواطف معا جنبا الى جنب لهداية الانسانية فهو اسلوب علمي وادبي معا .

هذا هو التنزيل الحكيم تقرؤه فاذا بحر من العلوم

هذا التنزيل الحكيم تقرؤه فاذا بحر من العلوم والمعارف متلاطم زاخر واذا روح من الاصلاح فيه قوي قاهر يجمع الكمال من اطرافه :

فبينما تراه يصلح ما افسده الفلاسفة بفلسفتهم اذ تراه يهدم الشرك والوثنية ، وبينما تراه يصلح ما حرفه اهل الاديان السابقة اذ تراه يقدم للانسانيـــة مزيجا صالحا من عقيدة وعمل وسلوك نافع للدنيا اولا وللاخرة ثانيا .

عقيدة رشيدة ترفع همة العبد وتثبت كرامتــه وسيادته .

وعبادة قويمة تطهر النفس روحا وجسدا وتشعر الانسان انه المقصود والمختار (خلق الانسان علمــه البيان) وعلمه تسخير الطبيعة مع اخلاق عالية تؤهل المرء لان يكون خليفة الله فى الارض .

وشرع له احكاما شخصية ومدنية واجتماعيــة تكفل حماية المجتمع من الفوضى وتضمن له حيـــاة الطمأنينة والنظام والسعادة والسلام .

فهو دين يساير الفطرة ويوائم الطبيعة ويشبع حاجات العقل والقلب معا ويوفق بين مطالب الروح ومطالب الجسد ويؤلف بين مصالح الدين والدنيا ويجمع بين عز الآخرة والاولى : كل ذلك فى القرآن .

كل ذلك فى قصد واعتدال وبراهين واضحة مقنعة تبهر العقل وتملك اللب ترفع رأس المسلم فى عزة يقول الله اكبر ..

العلـــم والعمـــل :

تلقى الصحابة القرآن بنشاط وقوة للعمل بمافيه وتحقيق رسالته فتنافسوا فى حفظه وتسابقوا لتنفيذ مهمته حتى كانت اعمالهم اكثر من اقوالهم « فالقرآن حجة لك او عليك » ــ فكان الواحد منهم اذا حفــظ سورة من القرآن اكتفى بها حتى يحقق معناها عملا ويتقنها تنفيذا ويحولها امرا واقعا وانتاجا ايجابيا .

1 ــ روى ابو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : اتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

أرقئني سورة جامعة فأقرأه سورة اذا زلزلت الارض زلزالها .. الخ فقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها ابدا ــ فلما ادبر قال افلح الرويجل .

2 ــ اخرج الامام احمد ج 5 ص 410 في المسند وابن ابي شيبة عن أبي عبد الرحمن السلمي قـــال حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم انهم كانوا يقترئون من رسول الله عشر آيات فلا ياخذون في الاخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل . فعلمنا العلم والعمل ، فكنا نتعلم القـــرآن والعمل به .

3 ــ واخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال : كنا اذا تعلمنا من النبي عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم ما فيه من العلم والعمل

4 ــ واخرج ابن عساكر عن محمد بن أبي قبلة قال كتب رجل الى ابن عمر يساله عن العلم فكتب اليه ابن عمر : العلم أكبر من أن أكتب اليك به ، ولكن :

ان استطعت ان تلقى الله كاف اللسان عن اعراض المسلمين خفيف الظهر من دمائهم . خميص البطن من اموالهم لازما لجماعتهم فافعل .

5 ــ روى الطبراني عن ابن عمر قال : لقد عشت برهة من دهري وان احدنا يؤتى الايمان قبل القرآن . وتنزل السورة على محمد فنتعلم حلالها وحرامها ومـــا ينبغي ان نقف عنده منها كما تعلمون انتم القرآن . ثم لقد رايت رجالا يؤتى احدهم القرآن قبل الايمان فيقرؤه ما يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي ان يقف عنده منه وينثره نثر الدقل (رديء التمر)

❋

ياقوم : هذا القرآن فيه شرفكم في الدنيا بالعزة والسيادة والنصر والتمكين (لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم) (وانه لذكر لك ولقومك) .

فيه شفاء الصدور بالنصر على الاعداء ونشر الدين الصحيح .

روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يرفع بهذا الكتاب اقواما ويضع به آخرين .

ولك من الدرجات في الجنة على عدد ما قرات من آيات القرآن .

روى البخاري وابو داود عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها .

الرباط : احمد عبد الرحيم عبد البر

« حسبك ان تبلغ حيث بلغ بـــك »

دخل يحيى بن الحسين الطالبي على المامون فقال : يا أمير المومنين حيرتني عارفتك حتى ما ادري كيف اشكرك ، قال : لا عليك فان الزيادة في الشكر على الصنيعة ملق ، والنقصان عي ، وحسبك ان تبلغ حيث بلغ بك .



قبل ان اشرع فى تحليل فكرة الارتباط بالقرآن الكريم التي يجب ان تكون دائما اساسا لتمييز شخصية المسلم وتحقيق ذاتيته على الصعيد العالمي .

احيي هاته الفكرة السامية التي أوحت بتنظيم مهرجانات وتجمعات خطابية وتخليد مقالات وابحاث فى امهات الصحف والمجلات المغربية المرموقة مراحل الاحتفال بذكرى مرور اربعة عشر قرنا على انبثاق نور الوحي الالاهي وبداية نزول القرآن الكريم كلام رب العالمين لربط الصلة بين الناس وربهم على اسس من الايمان الصادق والحب المتبادل والاخلاص العميق .

والحقيقة ان احتفالا كهذا وكتابة ابحاث ومقالات فى موضوع القرآن ، الكتاب المقدس ، لمن شان كل ذلك ان يحيي فى نفوسنا أملا جديدا بان الاسلام سيعيد دولته وصولته ، وستعود له كرامته بين العالمين ، وسيجد المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ان اعتناقهم للاسلام لم يكن بالصدفة ولا بدافع تقليدي بحيث يتجسم مثلا تجسم الخرافات والاساطير فى الاديان الاخرى لما عبرت عن ذلك الاية الكريمة : « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون »

لقد مر على نزول القرآن منجما وبحسب الاحداث والوقائع أربعة عشر قرنا وهو هو كما انزل لم يقع فيه تغيير ولم يلحقه تحريف ولا تزوير ولو في لفظ من الفاظه بل وفى حرف من الحروف ، وانما التحريف والتغيير ــ ويا للاسف ــ وقعا فى اعمال معتنقي دين القرءان الذي نزل لاسعادهم وضمان رفاهيتهم وازدهارهم دنيا ودينا « وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » .

وتشكل هذه الظاهرة الهامة فى حياة القرآن الكريم المنيرة الخالدة عنصرا اساسيا فى عبقرية الاسلام وبقائه وتأهيله لان يكون دين البشرية بلا استثناء ، ويكون محمد صلى الله عليه وسلم الذي انزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان نبي الرحمة ورسولا لجميع امم الارض قاطبة ؛ « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ، وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السماوات والارض ، لا الاه الا هو يحيي ويميت » .

لقد قاوم القرآن اعاصير الزمان ، ولم تنطل عليه الحيل مهما اتقن حبكها واحكم نسجها ولو على ايد الذين استطاعوا ان ينالوا من غيره من الكتب السماوية الاخرى وفى ضمنها التوراة والانجيل الذي اصبحا محرفين يتنافيان كلية واجزاء مع رسالتي موسى وعيسى ابن مريم ومن جاء قبلهم وبعدهم من الانبياء والمرسلين لان الاسلام وحدة متكاملة وحلقات متماسكة منذ خلق الله الكون وبعث اليه آدم الى يومنا هذا «واذ اخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه،

قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصري ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

ان ارتباط المسلمين بالقرآن الكريم يجب ان يكون عن طريق دينه وعن طريق لغته معا ، لانه لا يتحقق الكمال البشري الا بهما مما جرب هاته الحقيقة سلفنا الصالح والمسلمون الاولون الذين قاموا بدور كبير في نشر الاسلام واعلاء كلمة القرآن ولم يكونوا يتخلفون عن الركب المتقدم للقتال في سبيل نشر الاسلام واعلاء كلمته بين العالمين « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين ، وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . » صدق الله العظيم .

ان الفلسفة التي نشأت بعد الفتنة الاولى من المسلمين والتي اصبحت تدعو الى فصل لغة القرآن عن دينه قد اساءت فهم التشريع الاسلامي واخطأت حين غاب عن اذهانها ان اعجاز القرآن كامن في الفاظه المتسقة وله ترجمته مهما اتقنت ، وقام بها متضلعون في الثقافة العربية وللغات الاجنبية الاخرى التي يراد ترجمة القرآن اليها ، كما يمكن ان تفي بالمراد من اعجازه ، كما انها لا تعطي النظرة الكاملة للقرآن الكريم ، كتاب رب العالمين . وان كانت تقرب القرآن الى افهام غير العرب ان الامم الاسلامية غير العربية يدرك معظمها هاته الحقيقة ويتحسرون لضعف تلك الروح التي كانت تواكب جيوش الاسلام الفاتحة والمتجسمة في نشر تعاليم القرآن ولغة القرآن معا . ونعلم انه حتى في الوقت الحاضر هناك امم اسلامية عظمى لو وجدت مندوحة وامكانيات لجعلت لغة القرآن هي لغتها الرسمية ؛ وفي طليعتها الباكستان ، ونحن لا نعزو قصورها عن تحقيق ذلك لتقاعس العلماء ورجال الدين واللغة فحسب بل نعده ايضا ناشئا عن الاستعمار الشرقي والغربي الذين اجهزا على الامة الاسلامية قاطبة ولم ينج من دسائسه وويلاته اي قطر مسلم . وقد كان من اكبرهم الاستعمار الاجنبي البغيض ان يقضي على لغة القرآن كمرحلة هامة في القضاء على تعاليم القرآن حتى يتهود المسلمون او يتنصروا وبذلك يقضي عن كل معارضة له لانها تاتي طبعا من الاسلام ومن دستوره الحكيم « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ، انك اذا لمن الظالمين الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، اولئك يومنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » .

ان من يجوب الاقطار الاسلامية ويطلع على تقاليدها وعوائدها يدرك من جهة مدى تمسكها بالاسلام ، ومن جهة اخرى يرى ان اشياء كثيرة من لغتها ما زالت تطبع حياتها وتؤثر في مدى فهمها للاسلام وبذلك ينشأ البون بين من اعتنقوا الاسلام عن طريق القرآن وعرفوا لغته ودينه وبين من عرفوا دينه فقط ، وربما يكون ذلك اعظم عائق لقيام وحدة اسلامية ينشدها جميع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها .

ومن هنا نتحقق خطورة ما يرتكبه الذين دعوا ويدعون الى التفرقة بين لغة القرآن وبين دينه ، هؤلاء الذين لم ينتبهوا بعد الى الخطر المحدق بالامة الاسلامية والذي لا يعرفه حق معرفته الا الذين تعلموا الدين واعتنقوه عن طريق اللغة العربية لانها اللغة الوحيدة التي تستطيع ان تبلغ القرآن كما انزل دون ان تلحق به بعض التغيير المعنوي الذي قد ينشأ من تبديل لفظ عربي بمقابله في لغة اخرى لا يفي بالمراد به او يزيد على المقصود . كذلك تنتفي بعض الاشراقات والاشعاعات الروحية التي تلازم القرآن الكريم حين تلاوته بلفظه ، ولعل الذين منعوا الترجمة من علماء الامة الاسلامية كانوا يقصدون من ذلك عدم تحريف القرآن عن معناه الاصلي وعدم اخضاعه للتراكيب والمفردات الوضعية وهو كتاب سماوي نزل بلغة عربية قدر الله لها ان تستوعبه وتفي بالمراد من نزوله وتبليغه للناس كما اراده الله تعالى ، وتلك خاصية خص بها اللغة العربية كما خصها بان تكون لغة اهل الجنة ، وان يكون نبي العالم كله من العرب .

كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (احب العرب عن ثلاث : لاني عربي ، والقرءان عربي ، ولسان اهل الجنة في الجنة عربي) ولا استطيع التعليق عن هذا الحديث واورده كما حفظته دون ان اتعرض اليه باسناد ، لاني لا استحضر روايته الان . فمعذرة من القراء الكرام .

ان اهمال تحفيظ القرآن وتلقينه للنشء المسلم يعتبر حدثا خطيرا في الاسلام وطامة كبرى وجناية على الصبيان ونبذا للامر النبوي الكريم الذي يقول : « ادبوا اولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب آل بيته ، وقراءة القرآن » .

ونحن نعلم مدى البون الشاسع من ناحية العقيدة والدين بين من ينشأون في احضان مجتمع يعتني

بالقرآن واهله ، ويتلوه ويتبرك به ، وبين من ينشأون وهم يجهلون القرآن ، لانهم لم يتعلموه قط ولم ينشأوا في مجتمع أيضا تعلم القرآن الكريم . فكيف يمكن الملاءمة بين هؤلاء واولئك في حظيرة واحدة وفي مجتمع واحد ، اللهم أن يكون هناك تنازل من احد الطرفين عما تنشأ عنه لصالح الطرف الاخر .

ومن هنا يجب ان تفكر الامم الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها في وضع سياسة تعليمية موحدة وتخطيط ثقافي موحد يراعي واقع الامة الاسلامية ويوافق بين ماضيها وحاضرها ويستجيب لمتطلبات العصر الحديث عصر الذرة والصاروخ دون ان يقع اهمال للجانب الديني او اخلال بما يتطلبه الاخذ بأسباب الحضارة الحديثة .

واننا لنأمل ان تكون دعوة الاحتفال بذكرى القرآن الكريم وقد عاش بين ظهران المسلمين اربعة عشر قرنا كاملة كما انزل ، دون ان تستطيع اية يد مهما بلغت من القوة والصلابة والصراحة ان تنال منه او تحدث فيه اي تحريف او تزوير ــ نامل ــ ان يكون الاحتفال بالقرآن الكريم نقطة انطلاق ايجابية في اخراج الامة الاسلامية من الحالة التي توجد عليها ، وقد حدث بينها وبين تعاليم القرآن بون شاسع الى حالة جديدة تتجدد فيها مفاهيم الاسلام وعقلية المسلمين على ضوء ما صارعهم من احداث وما لحقتهم من نكبات ، وعلى ضوء واقعهم وما تتطلبه حياة هذا القرن وما بعده ، لانهم خير امة أخرجت للناس تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله وحده .

وان تعميم المصحف الكريم بين المساجد والمدارس والمتاجر والمصانع وجميع البيوت ، والمداومة على تلاوته وقراءته وتدبره لمن شأن ذلك ، ان يخلق عهدا جديدا في فهم القرآن وتدبيره واعتباره كتابا مقدسا لا محيد للمسلمين عنه ، بل ولا مخرج لهذا العالم من الحيرة التي يوجد فيها ومن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الخطيرة التي يتخبط فيها الا باتباع القرآن الكريم والاسترشاد بهديه واعتباره اساسا في كل شيء .

الرباط : محمد بن ادريس العلمي



فهـــرس العـــدد الثـــالـث